

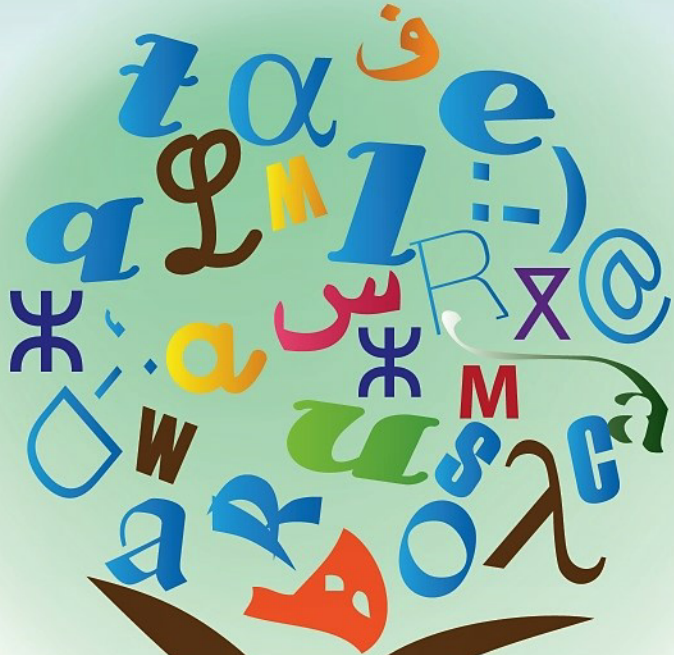
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
UNIVERSITE MOULOUD MAMMERY DE TIZI-OUZOU
FACULTE DES LETTRES ET DES LANGUES
Département de Langue et Littérature Arabes



جامعة مولود معمري - تيزي-وزو
كلية الآداب واللغات
قسم اللغة العربية وآدابها

الممارسات اللغوية

مجلة أكاديمية محكمة



المجلد: 10 العدد: 01
مارس 2019

ISSN: 2170-0583

الممارسات اللغوية



المجلد

المجلد: 10 العدد: 01 / مارس 2019

ممارسات

مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر

Revue académique indexée



تصنيف وإخراج دار الأمل

ISSN: 2170-0583



جامعة مولود معمري تيزي-وزو
مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر

شهادة رقم (287-2019)



معامل التأثير العربي

مجلة الممارسات اللغوية

ISSN: 2170-0583

قد حصلت على معامل التأثير العربي لعام 2018 وقدرة 1.8

الاستاذ الدكتور محمود عبد العاطى



مدير مشروع معامل التصنيف العربي

15 اكتوبر 2018 م

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

MINISTRE DE L'ENSEIGNEMENT SUPERIEUR ET DE LA RECHERCHE SCIENTIFIQUE

ⵎⴰⵎⵓⵔ ⵉⵏ ⵔⵉⵣⴰⵓⵣ
ⵔⵉⵣⴰⵓⵣ ⵏ ⵙⵉⵎⵓⵔ ⵏ ⵔⵉⵣⴰⵓⵣ
ⵔⵉⵣⴰⵓⵣ ⵏ ⵙⵉⵎⵓⵔ ⵏ ⵔⵉⵣⴰⵓⵣ

UNIVERSITE MOULOD MAMMERI DE TIZI-OUZOU
FACULTE DES LETTRES ET DES LANGUES
Département de Langue et Littérature Arabes



جامعة مولود معمري، تيزي-وزو
كلية الآداب واللغات
قسم اللغة العربية وآدابها



مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر

٠١٤٧٤ | ٠٥:٤٠:٥ | ٧٤ | ٠١٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠

مجلة

الممارسات اللغوية

المجلد العاشر (10) العدد الأول (01)

مارس 2019

منشورات مخبر الممارسات
المجلة تهدي ولا تباع

ISSN : 2170-0583

EISSN : 2602-5353

مخبر الممارسات اللغوية

جامعة مولود معمري – تيزي-وزو الجزائر

رابط المجلة على البوابة الجزائرية للمجلات العلمية:

<https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/352>

الهيكـل الإداري للمـجـلة

.المدير الشرفي: أ. د أحمد تسه .

.مدير المختبر: أ. د صالح بلعيد .

.رئيسة التحرير: د. الجوهر مودر .

. هيئة التحرير د. عمر بورنان، د. بن الدين بخولة، أ.د. صلاح الدين ملفوف، د. مصطفى

أحمد قنبر، د. سليمان بوراس، د. اسحاق رحماني، أ. سعيد عامر، د. علجية أيت بوجمعة،

د. عيني بطوش، د. علجية أوطالب، أ.د. محمد الأمين خلادي، د. نادية قادة، د. جميلة

راجاح، د. محمود رزايقية، د. هشام بن مختاري، د. رشيد شيبان، د. قاسي موالك، د. شريفة

بلحوتس، د. عودة ميس خليل، د. عيسى شاغا، د. عبد العزيز كاتي، د. رابح العربي، د.

زهر الدين رحماني، د. زينة قرفة، د. محمد مدور، أ. محمد حراث.

.الهيئة الاستشارية:

أ. د الصديق آدم بركات، الجامعة الإفريقية العالمية السدان؛

أ. د عبد العليم بوفاتح جامعة الأغواط الجزائر

أ. د محمود أحمد السيد: نائب رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق؛

أ. د سالم شاكـر: باحث في المازيغيات في inalco بفرنسا؛

أ. د محمد بسناسي، جامعة ليون 2 فرنسا؛

أ. د وفاء كامل فايد: أستاذة اللغويات في جامعة القاهرة؛

أ. د علي القاسمي: خبير في الأسيسكو وباحث في المصطلحات والمعاجم؛

أ. د عبد الرحمن طعمة، جامعة القاهرة؛

أ. د محمد محمد حسين البطاينة (الأردن)؛

أ. د محمد شندول (تونس)؛

د. صلاح غيلوس (الجزائر)؛

د. عبد الرزاق رحماني (إيران)؛

ا.د. بوعلام طهراوي (الجزائر)؛

أ. د علي خلف حسين العبيدي (العراق)،

- Valérie Orlando, Professor, University of Maryland, U.S.A.

- Kathryn Lafever, Professor, University of Miami, U.S.A.

. المدير الفتي: أ د صلاح يوسف عبد القادر .

- السكرتيرة: السيدة يمينة كرنوف، ود. جميلة راجاح.

مجلة الممارسات اللغوية مجلة علمية عالمية محكمة

قواعد النشر في المجلة

- مجلة الممارسات اللغوية هي مجلة محكمة يصدرها مخبر الممارسات اللغوية، وتهتم بالقضايا المتعلقة بالواقع اللغوي في الجزائر، كما تهتم بالدراسات اللغوية.
- تنشر مجلة الممارسات اللغوية الأبحاث المتعلقة بقضايا الواقع اللغوي في الجزائر، كما تهتم بالدراسات اللغوية عموماً؛
- تُنشر المجلة الأبحاث المعدة أصلاً باللغة العربية، كما تُنشر البحوث المحررة باللغات: المازيغية والإنجليزية والفرنسية؛
- يشترط في البحث الالتزام بالمعايير العلمية: الأصالة، المنهجية الموضوعية، الدقة، والسلامة اللغوية، والجدية، لا تُقبل الأبحاث المستلّة كلياً أو جزئياً من أعمال سبق نشرها؛
- يُشترط في كلّ بحث ملخص باللغة العربية، وقائمة لكلمات المفاتيح، مع ترجمة بالإنجليزية للعنوان والملخص وللكلمات المفاتيح؛
- يشترط في استلام المقال إخضاعه للنموذج المقترح (Template)؛
- يشترط على طلبة دكتوراه نظام (ل م د LMD) إرفاق المقال بموافقة من المشرف؛
- تعرض المقالات المقبولة للتّحكيم على مراجعين أو ثلاثة مع مراعاة الاختصاص؛
- يحدّد حجم المقال بين (10 و20) صفحة، مقياس الورقة (15/22)، عدد الكلمات بين (3000 و5000 كلمة).
- تلزم المجلة أصحاب المقالات الاستجابة للتّعديلات التي تقترحها هيئة تحكيم المجلة؛
- تنتقل ملكية المقالات إلى مخبر الممارسات اللغوية بعد نشرها، فلا يحقّ لأصحابها إعادة نشرها؛
- الأبحاث المنشورة في مجلة (الممارسات اللغوية) تعبّر عن أصحابها، ولا تعكس توجهات المختبر أو جامعة مولود معمري، أو وزارة التعليم العالي والبحث العلمي في الدولة الجزائرية.
- يشترط على من ينشر مقاله لأول مرة في مجلة الممارسات اللغوية إرفاقه بسيرته العلمية يبرز فيها: اللقب والاسم؛ مؤسّسة الانتماء؛ البريد الإلكتروني؛ الدرجة العلمية؛ التّخصّص الدقيق.
- ترسل المقالات عبر البوابة الجزائرية للمجلات العلمية (ASJP) على الرابط :
- <https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/352>
- يؤدّي الإخلال بشرط من الشّروط المذكورة إلى رفض المقال.

فهرس المجلد 10 العدد 01.

الصفحة	المقال واسم صاحبه
07	مواطن الإعلال الصرفي في سورة المائدة. أ. محمد بولخطوط، جامعة محمد الصديق بن يحيى. جيجل (الجزائر).
19	التعددية الدالية للمؤشر الفعلي "خرج" في القرآن الكريم، رؤية إدراكية. أ. ناديا دادپور، أ. د. سيد محمد رضا ابن الرسول، أ. د. حدائق رضائي، جامعة أصفهان (إيران).
43	ظاهرة الوقف في القرآن الكريم وأثرها في المعنى. د. آمنة شنتوف، مركز البحث العلمي والتقني لتطوير اللغة العربية-وحدة البحث تلمسان(الجزائر).
59	حجاجية المقاطع الصوتية في الخطب السياسية للإمام علي، د. كمال الزماني، جامعة القاضي عياض كلية اللغة العربية مراكش (المغرب).
79	منهج سيبويه في التلقي عن شيخه : الخليل بن أحمد ويونس بن حبيب. د. محمد عطية محمد علي، كلية التربية والآداب - جامعة تبوك، (العربية السعودية).
109	سياق الموضوعات و أهميته في تصنيف صحيح ابن حبان. د. لخضر لغزال، جامعة أدرار. (الجزائر).
143	تحليل الخطاب والأسلوبية؛ المشكلة أو الاختلاف؟ (محاولة لتحديد المصطلحين). أ. غلام رضا حقيقي، ود. محمد خاقاني أصفهاني، جامعة أصفهان (إيران).
163	أسلوبية الانحراف وانفساح أفق الحرية الباطنية للنص. د. بن الدين بخولة، جامعة الشلف (الجزائر).
175	اللسانيات البنيوية وأثرها في الدرس اللساني بالمغرب. د. مصطفى العادل، جامعة محمد الأول-وجدة (المغرب).
199	من مظاهر الارتباطات النحوية العربية - البناء التصوريّ المعرفيّ على الخلفية البنيوية - أ. سمير لعويسات، جامعة مولود معمري، تيزي-وزو. (الجزائر).
215	هندسة ماندلبروت الكسيرية نموذجاً للتطبيق اللساني. د. عبد الرحمن محمد طعمة، كلية الآداب، جامعة القاهرة (مصر).
229	الإبداع في عمليّة التعلّم والتّعليم، طرقه وأهميّته، د.سلى عطالله جامعة سيّدة

	اللويزة (لبنان).
251	ديداكتيك النظرية الخليلية الحديثة - كتاب السنة الأولى من التعليم الثانوي - جذع مشترك آداب أنموذجاً- د.سمير معزوزن، المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف ميله. (الجزائر).
41	The American Dream in James Truslow Adams' The Epic of America (1931), Rabea Aziz, Pr. Amar GUENDOUDI, UMMTO .
23	Othello (1604) revisited: Shakespeare's characters and Elizabethan Foreign Policy, Mohammed HADDADOU, Pr. Amar GUENDOUDI , UMMTO.
1	la langue française et les romanciers algériens: les choix littéraires. M. Abdellaziz KHATI, , UMMTO.

مواطن الإعلال الصرفي في سورة المائدة

أ. محمد بولخطوط

جامعة محمد الصديق بن يحيى. جيجل (الجزائر)

البريد الإلكتروني: mohammed.boulekhout@gmail.com

تاريخ النشر: 2019/03/31

تاريخ القبول: 2019/03/09

تاريخ إرسال المقال: 2018/09/17

المخلص:

تعالج هذه الورقة البحثية ظاهرة لغوية صرفية تتمثل في الإعلال، نحاول من خلالها التعرّض إلى أنواع الظاهرة ومواقعها في نصّ سورة المائدة، وما ينشأ عن ذلك من تغيّرات وقواعد وأبنية صرفية.

الكلمات المفتاحية: الإعلال؛ الإبدال؛ أنواع الإعلال؛ سورة المائدة.

Title : Cases of Vowelization in sourat el-maïda

Abstract:

The linguistic and conjugational phenomenon covered in this research paper is vowelization. the research aims at listing the different types of the phenomenon and locating them in the verses of sourat al-maïda as an attempt to derive the grammatical and conjugational rules that result from it.

Key words: Vowelization; substitution; types of vowelization; sourat al-maïda.

توطئة: الإعلال والإبدال من الظواهر اللغوية الصوتية والصرفية المتداخلة والمتواشجة، إذ أنّ الحديث عن الإعلال وهو محور هذه الدراسة، يستدعي ويقتضي بالضرورة الحديث عن القسم الآخر الذي يلازمه وهو الإبدال، هذا الأخير الذي يعني: تغيير حرف بحرف آخر غير

الحرف المبدل، وذلك بعد حذف الأول وإحلال الحرف الثاني محله، سواء أكان الحرفان المبدلان حرفين صحيحين، أم أحدهما حرف علة والآخر صحيح، مع الحفاظ على بقية الحروف الأخرى المكوّنة للكلمة المبدّل منها حرف واحد، يقول "عبد القادر الفاخري" وهو الذي يسيّ الإبدال بالاشتقاق الأكبر مؤكداً ما قلناه بكونه: «ظاهرة صوتية تُعْرَضُ لبعض أصوات العربية، تقوم على: إقامة حرف مكان حرف مع الإبقاء على سائر أحرف الكلمة»⁽¹⁾، هذا في ما يخصّ ظاهرة الإبدال، فماذا عن الإعلال إذا؟ وما حروفه؟ وفي ما تكمن صلته بالإبدال؟ ثم ما هي أنواعه ومواطن وروده في سورة المائدة؟

أولاً: نبذة مختصرة عن سورة المائدة:

سورة المائدة إحدى السور القرآنية، وهي مدنية بناء على المشهور من أنّ المدني «ما نزل بعد الهجرة ولو في مكّة (...)»، وآياتها مائة وعشرون في العدّ الكوفي، ومائة واثنان وعشرون في العدّ الحجازي، ومائة وثلاثة وعشرون في العدّ البصري»⁽²⁾.

سمّيت هذه السورة بهذا الاسم لورود ذكر المائدة فيها، حين طلب الحواريون من عيسى عليه السلام آية تدلّ على صدق نبوّته⁽³⁾.

فضلا عن تسمية هذه السورة العظيمة بالمائدة فإنّ لها تسميات أخرى، ذكرها صاحب "التحرير والتنوير" فقال: «تسمّى أيضا سورة العقود؛ إذ وقع هذا اللفظ في أولها، وتسمى أيضا سورة المنقذة؛ لأنّها تنقذ صاحبها من أيدي ملائكة العذاب (...)»، وتسمى أيضا سورة الأختيار نسبة إلى تلك الفئة من الناس التي لا تفي بعهود الله تعالى»⁽⁴⁾.

وأضاف الإمام "القرطبي" (ت: 671هـ) اسما خامسا يطلق على هذه السورة وهو «المبعثرة»⁽⁵⁾.

هذا وقد اشتملت السورة الكريمة على جميع مقاصد الشريعة الإسلامية، أو ما يعرف بالكليات الخمس. حيث توزعت هذه الأخيرة على مستوى السورة كالاتي: حفظ العرض [الآية 5]، حفظ النفس [الآية 32]، حفظ المال [الآية 40]، حفظ الدين [الآية 54]، وحفظ العقل [الآية 90].

إلى جانب ذلك تضمّنت السورة الكريمة العديد من الموضوعات أبرزها: أحكام الذبائح والصيد والإحرام، أحكام الحلال والحرام في النكاح، أحكام الصلاة والطهارة، وجوب إقامة

العدل، موثيق وعقود الله تعالى، الفساد في الأرض (الحسد والقتل)، آيات في حدود الله [الجرأة، السرقة، القصاص، الخمر والميسر، ... الخ]، تحريف التوراة والإنجيل، كفارة اليمين، الافتراء على الخالق عز وجل، الوصية عند الموت، معجزات سيدنا "عيسى بن مريم" عليهما السلام، ... وغيرها من المواضيع.

ثانيا: الإعلال: مفهومه وحروفه

1 - تعريف الإعلال:

أ/ لغة:

ورد في "لسان العرب" في تفسير مادة "عَلَّلَ": «عَلَّلَ: العَلُّ والعَلُّ: الشَّرْبَةُ الثَّانِيَةُ، وقيل الشَّرْبُ بعد الشرب تباعا، يقال: عَلَّلَ بعد نَهَلٍ (...)، والتعليل: سقي بعد سقي، وجني الثمرة مرة بعد أخرى (...). والعليلة: المرأة المطيَّبة طيبًا بعد طيب (...). وحروف العلة والاعتلال: الألف والياء والواو، سميت بذلك لئنيها وموتها».⁽⁶⁾

ب/ اصطلاحا: اتفق جميع اللغويين في تحديد معنى الإعلال وفي ما يلي بعض هذه التعريفات:

﴿تعريف "علي محمود النابي": «هو تغيير معيّن يطرأ على حرف العلة في الكلمة إيثارا للتخفيف ويشمل: القلب، الحذف والتسكين».⁽⁷⁾

يحدّد "النابي" في هذا التعريف الآليات المعتمدة في الإعلال، والمتمثلة في القلب والحذف والتسكين، كما يوضّح الغرض المقصود من الظاهرة، والمتمثّل في التخفيف والتيسير النطقي.

﴿تعريف "ديزيره سقال": الإعلال هو «تغيير يطرأ على أحرف العلة في الكلمات، وما يلحق بها (الهمزة) فيتسبّب هذا التغيير بحذف الحرف أو إسكانه أو قلبه إلى حرف آخر من الأربع المذكورة (ألف، واو، ياء، همزة)، وفقا لأصول وقواعد محدّدة».⁽⁸⁾

لا تبتعد "ديزيره سقال" في تعريفها للظاهرة عمّا جاء به "النابي"، فهي في تعريفها للإعلال تبيّن لنا مختلف الطرق التي يتمّ من خلالها إحلال حرف علة محلّ حرف علة آخر،

بيد أنّها جاءت بإضافة جديدة لم يتحدّث عنها التعريف السابق، والمتمثلة في إدراج صوت الهمزة مع أصوات العلة الثلاثة، باعتبارها صوت رابع من حروف الإعلال في اللغة العربية.

تعريف "أيمن عبد الغني": يختصر هذا الأخير التعريفين السابقين قائلاً: «الإعلال هو تغيير حرف العلة بقلبه أو نقله، أو حذفه».⁽⁹⁾

كشفت التعريفات السابقة إذن على عناصر مشتركة منها: أحرف الإعلال، أنواعه، والغاية

منه... الخ. وسيتمّ التفصيل في هذه العناصر وغيرها تبعاً في ما سيأتي من هذا البحث.

2- أحرف الإعلال:

أشرنا في السابق بأنّ حروف الإعلال ثلاثة وهي الألف والواو والياء، غير أنّ اللغويين أضافوا إليها حرفاً رابعاً غير هذه الثلاثة وهو "الهمزة"، فالهمزة «ليست من أحرف العلة، وإنّما هي حرف صحيح، غير أنّها تشبه تلك الأحرف في ضعفها، ولذلك قبلت الإعلال، وللإعلال في الهمزة وجهان: الأول: قلب الواو والياء همزة، وهو إبدال الهمزة منهما، والثاني: قلب الهمزة واوا أو ياء، وهو إبدالهما من الهمزة وهو عكس الأول»⁽¹⁰⁾، ولعلّهم يُلحقون الهمزة بحروف العلة الثلاثة لأنّها تشبهها، كونها من «مخرجها، أو لقربها من الألف، فضلاً على كون الهمزة تُعامل في التصريف معاملة حروف العلة، فنجدها تُقلب إليها، كما أنّ حروف العلة تُقلب همزة».⁽¹¹⁾

والألف والواو والياء ثلاثتها تقع في «الأضرب الثلاثة كقولك: مأل ونابّ وسوطٌ وبيضٌ، وقالٌ وباعٌ وحاولٌ وبأيعٌ، ولا ولو وكى، إلا أنّ الألف في الأسماء والأفعال زائدة، أو منقلبة عن الواو والياء لأصلاً، وهي في الحروف أصل ليس إلاّ لكونها جوامد غير متصرّف فيها».⁽¹²⁾

ثالثاً: علاقة الإعلال بالإبدال:

بالعودة إلى تعريف الإبدال والإعلال يتبيّن بأنّ «الإعلال جزء من الإبدال، ويختصّ بإبدال أحرف العلة والهمزة عند جلّ العلماء القدامى، أمّا الإبدال فهو مصطلح أعمّ من الإعلال لأنّه يشتمل على إبدال ما هو معتل وما هو صحيح، فكلّ إعلال إبدال وليس العكس»⁽¹³⁾، وهذا ما يؤكده "محمد بافضل" إذ يقول: «الإبدال جعل مُطلقُ حرفٍ مكان حرفٍ آخر، ومن هنا كان الإبدال أعمّ من الإعلال، إذ كلّ إعلال يسوّى إبدالاً، ولا يسوّى كلّ إبدال إعلالاً»⁽¹⁴⁾. ويضيف "مصطفى الغلاييني" متحدّثاً عن الإبدال وعلاقته بالإعلال بكونه:

«إزالة حرف ووضع آخر مكانه، فهو يشبه الإعلال من حيث إنّ كلاهما تغيّر في الموضع، إلا أنّ الإعلال خاصّ بأحرف العلة، فيقلب أحدهما إلى الآخر، أما الإبدال فيكون في الحروف الصحيحة بجعل أحدهما مكان الآخر، وفي الأحرف العلية بجعل مكان حرف العلة حرفاً صحيحاً»⁽¹⁵⁾.

إذن فالعلاقة بينهما هي علاقة جزء من كلّ، فكلّ إعلال نستطيع أن نسمّيه إبدالاً، والعكس غير صحيح؛ فإذا كانت حروف الإعلال ثلاثة أو أربعة كما رأينا (الألف، الواو، الياء، والهمزة)، فإنّ ذاتها حروف للإبدال، فضلاً عن بقية الحروف الهجائية الأخرى، والإبدال يكون بين أحرف تسعة يمكن استبدال أحدها بالآخر، وهذه الأحرف هي: «الهمزة، الواو، الياء، الألف، الهاء، الدال، التاء، الميم، والطاء، ولكلّ حرف شروطه لإبداله من سواه»⁽¹⁶⁾.

ثالثاً: أنواع الإعلال ومواطنه في سورة المائدة:

أشارت التعريفات السابقة للإعلال إلى أنّ التغيير الذي يعتري حروف العلة يتمحور في ثلاثة أسباب هي: القلب، الإسكان والحذف، وعلى هذا الأساس يمكن أن نميّز للإعلال بين ثلاثة أضرب هي:

1 - الإعلال بالقلب: القلب هو: «تغيير حرف العلة بحرف آخر مثل "قال" أصلها: قَ وَ لَ وزن فَعَلَ، تحرّكت (الواو) وانفتح ما قبلها، فقلبت إلى حرف يجانس حركة الفتح وهو الألف، فأصبحت الكلمة قَ ال بزنة فَ عَ لَ»⁽¹⁷⁾، وقد حدث القلب في سورة المائدة في موضعين اثنين هما:

✘ كلمة: [أدنى] في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا...﴾ [المائدة، 108].

✘ وكلمة: [عبدًا] في قوله تعالى: ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا...﴾ [المائدة، 114].

ففي كلمة: [أدنى] تمّ قلب "الواو" فيها "ألفاً" لتحرّكها وفتح ما قبلها؛ لأنّ الفعل منها:

"دَنَا" و "الألف" فيه منقلبة عن "واو" ("دَنَوْتُ، يَدْنُو، ...). أما كلمة: [عَيْدًا] فهي مشتقة من العود بفتح العين وسكون الواو لكون العيد مناسبة تعود كل سنة، وفي الكلمة إعلال بالقلب: عِوَد بكسر العين وسكون الواو؛ صَعْرُوهُ على وزن "فَعِيلٌ (عَيْيدٌ) وجمعه على وزن أَفْعَالٌ (أَعْيَادٌ).

2- الإعلال بالإسكان: أو ما يسمى بالنقل وهو «نوع من التأثير يصيب حرف العلة، ومعناه نقل الحركة من حرف علة متحرك إلى حرف صحيح ساكن قبله ولذا يسمى الإعلال بالتسكين»⁽¹⁸⁾، ويمكن أن نمثل على هذا النوع بالفعل المعتل الوسط (الفعل الأجوف): "صَامٌ": فَإِنَّ مضارعه "يَصُومُ" على وزن "يَفْعُلُ" نقلت حركة الواو (عين الكلمة) إلى الساكن قبلها، وسكّن حرف العلة (الواو) والذي هو (عين الكلمة)، فأصبح الفعل: يَ صُ وُ مٌ على وزن يَ فُ غُ لٌ.

والإعلال بالإسكان أو النقل لم ينفرد لوحده في كلمة واحدة في سورة المائدة، بل اجتمع مع غيره من أنواع الإعلال الأخرى، وستتم الإشارة إلى هذه الحالات في ما سيأتي من هذا البحث إن شاء الله تعالى.

3- الإعلال بالحذف: وهو: «حذف حرف العلة مثل المضارع من الفعل (وَزَنَ) = يَزِنُ، فَإِنَّ أصل الفعل المضارع: يَ (وُ) زِنٌ على وزن: يَ (فُ) ع لٌ، وقعت "الواو" (فاء الكلمة) بعد "ياء المضارعة" المفتوحة، وكانت عينه مكسورة، فحذفت فأصبحت: يَ زِنٌ على وزن يَ ع لٌ»⁽¹⁹⁾.

هذا ويمكن أن نميز لهذا الضرب من الإعلال في سورة المائدة بين قسمين هما:

✍ الحذف لمناسبة الجزم أو البناء: وورد من هذه الحالة النماذج التالية:

✪ الكلمات التالية: [فَاعِفٌ + أَثُلٌ + أُجِبْتُمْ] في الآيات التالية:

قال تعالى: ﴿...فَاعِفْ عَلَيْهِمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة، 13].

وقوله أيضا: ﴿وَأَثُلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ...﴾ [المائدة، 27].

وأیضا: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ...﴾ [المائدة، 109].

في الكلمات الثلاث السابقة "إعلال بالحذف" لمناسبة البناء؛ ففي "فَاعِفٌ" و"أَثُلٌ" حَذَفَ لـ "الواو" لأنهما فعلان أمر، فأصلهما: "عَفَوٌ" و"تَلَوٌ" على وزن: "فَعَلٌ"، فلمّا دخل

عليهما الإعلال في الأمر أصحبا على وزن "أفْعُ" بحذف "الواو" التي هي لام الفعل.

أما في "أَجِبْتُمْ" فالإعلال بالحذف هنا قد مسَّ "الياء" التي هي عين الفعل: أَجَابَ، يُجِيبُ، فأصل الكلمة: "أَجِيبْتُمْ"، حذفت فيها "الياء المدية" للالتقاء الساكنين (الياء الساكنة والباء الساكنة) فأصبحت على وزن "أَفَلْتُمْ".

❖ الكلمات التالية: [تَأَسَّ + يَتَوَلَّى + تُبَدِّدُ + تَسْوُكُم] في الآيات التالية:

قال تعالى: ﴿... فَلَا تَأَسَّ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة، 26]، ﴿... فَلَا تَأَسَّ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة، 68].

وقال أيضا: ﴿... وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ...﴾ [المائدة، 51] وقوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْعَالِيُونَ﴾ [المائدة، 56].

وقال عزَّ وجلَّ في موضع آخر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبَدِّدَ لَكُمْ تَسْوُكُمُ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنزَّلَ الْفُرْقَانُ تَبَدَّدَ لَكُمْ عَمَّا عَشَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [المائدة، 101].

في الكلمات الأربع السابقة "إعلال بالحذف" لمناسبة الجزم:

✘ [تَأَسَّ] من الفعل: أَسَى يَأْسَى على وزن فَعَلَ، حذفت فيه "الألف" في "تَأَسَّ" فأصبح على وزن: "تَفَعَّ" بفتح "التاء" و"العين".

✘ [يَتَوَلَّى] من الفعل: وَلَى يَتَوَلَّى على وزن: يَتَفَعَّلُ، حذفت فيه "الألف" في "يَتَوَلَّى" فأصبح على وزن "يَتَفَعَّ".

✘ [تُبَدِّدُ] من الفعل: بَدَا يَبْدُو، والأصل: بَدَوَ على وزن "فَعَلَ" وفي "تُبَدِّدُ" حذفت "للألف" المنقلبة عن "واو" فأصبح على وزن: "تَفَعَّ" بضم "التاء" وفتح "العين".

✘ [تَسْوُكُم] من الفعل: سَاءَ يَسُوءُ، والأصل "سَوَاءَ" على وزن "فَعَلَ" ومنها: سُوءٌ وَسُوءَةٌ، وفي: "تَسْوُكُم" حذف "للألف" المنقلبة عن "الواو" فأصبحت على وزن: "تَقْلُكُم".

❧ الحذف للالتقاء الساكنين: وورد من هذا النوع النماذج الآتية: [يَسْعَوْنَ + يُنْفَوْنَ + يَتَوَلَّوْنَ + عَصَوْا + يَتَنَاهَوْنَ] الواردة في الآيات التالية:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ

يُصَلِّبُوا أَوْ تُقَطِّعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ... ﴿ [المائدة، 33].

وقال أيضا: ﴿... ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة، 43]، وقوله: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ...﴾ [المائدة، 80].

وقال تعالى: ﴿... ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [المائدة، 78].

وقوله عز وجل: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة، 79].

فعلّة الحذف في جميع هذه الأمثلة هو: التقاء الساكنين؛ إذ أنّ أصل الكلمات السابقة على الترتيب كما يلي: [يَسْعَاوُنَ / يُنْفَاوُنَ / يَتَوَلَّوُنَ / عَصَاوُنَ / يَتَنَاهَاوُنَ]، ففي جميع هذه الكلمات جاءت "الألف الساكنة" قبل "واو الجماعة الساكنة"، فحذفت "الألف" للالتقاء الساكنين، وحرك الحرف السابق "لواو الجماعة" بحركة مجانسة للحرف المحذوف وهي: "الفتح"، دلالة على "الألف المحذوفة"، علما أنّ "الألف المحذوفة" في كلّ من: "يَسْعَوُنَ"، "يُنْفَوُنَ"، "يَتَوَلَّوُنَ"، "عَصَوُنَ"، "يَتَنَاهَوُنَ" أصلها ياء؛ لأنّ المصدر في كلّ الأفعال التالية هو على الترتيب: السَّعْيُ النَّفْيُ، التَّوَلَّى، العَصِيَانُ، والنَّهْيُ.

ملاحظة هامة:

اجتمعت الأنواع الثلاثة السابقة للإعلال في الكثير من الكلمات نورد بعضها في ما يلي:

❖ الإعلال بالقلب والحذف:

✘ كلمة [فَاسِيَةً] في قوله تعالى: ﴿... وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ...﴾ [المائدة، 13].

"قَاسٌ": اسم فاعل من: قَسَا يُقْسُو قَسْوَةً، على وزن "فَاعِلٌ"، وفيه إعلال بالقلب، لأنّ أصله "قَاسُوٌ" بكسر "السين"، حيث قلبت فيه "لواو" "ياءً" لهجيتها بعد كسر، فأصبح "قَاسِي" ، ثمّ إعلال بالحذف، حيث حذفت "الياء" للالتقاء الساكنين بالتونين فأصبح "قَاسِي" .

❖ الإعلال بالتسكين والحذف:

فأمّا التسكين فسيبه: "الاستثقال"، وأمّا الحذف فعلته "التقاء الساكنين"، ومن نماذج هذا النوع في سورة المائدة ما يلي:

- ✘ لفظة: [أَوْفُوا] في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ...﴾ [المائدة، 1].
- ✘ لفظة: [نُسُوا] في قوله تعالى: ﴿... وَنُسُوا حَظًّا مِمَّا دُكِّرُوا بِهِ ...﴾ [المائدة، 13].
- ✘ لفظة: [ابْتِغُوا] في قوله تعالى: ﴿... وَابْتِغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ...﴾ [المائدة، 35].
- ✘ لفظة: [لِيُقْتَدُوا] في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ...﴾ [المائدة، 36].
- ✘ لفظة: [يَبْتَغُونَ] في قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْتَغُونَ...﴾ [المائدة، 50].
- ✘ لفظة: [عَمُوا] في قوله تعالى: ﴿... ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا...﴾ [المائدة، 71].
- ✘ لفظة: [يَعْتَدُونَ] في قوله تعالى: ﴿... ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [المائدة، 78].
- ✘ لفظة: [مُنْتَهُونَ] في قوله تعالى: ﴿... فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة، 91].
- ✘ لفظة: [وَرَضُوا] في قوله تعالى: ﴿... رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [المائدة، 119].

فجميع هذه الكلمات في أصلها: "ياء" مضمومة قبل "واو الجماعة"، ونظرا لثقل الضمة على "الياء" تمّ نقل حركتها إلى الحرف الذي يسبقها مباشرة، ثمّ تسكينها (الإعلال بالإسكان)، وبسبب التقاء الساكنين (الياء الساكنة وواو الجماعة الساكنة)، يتمّ حذف الياء الساكنة (الإعلال بالحذف)، فمثلا كلمة: [أَوْفُوا] الواردة في الآية الأولى من سورة المائدة أصلها: "أَوْفِيُوا" بـ "ياء مضمومة بعد "الفاء"؛ استثقلت "الضمة" على "الياء" فنقلت الحركة إلى "الفاء"، وسكّنت الياء (إعلال بالتسكين أو النقل)، ثمّ حذف "الياء" الساكنة لالتقاءها بـ "واو الجماعة الساكنة" (إعلال بالحذف)، فأصبحت الكلمة: "أَوْفُوا"، وما يقال عن هذه الكلمة يقال كذلك على كلمة: [مُنْتَهُونَ] مثلا، فالأصل في الكلمة "ياء" مضمومة بعد "الياء" أي "مُنْتَهُونَ"، ونظرا لثقل "الياء" المضمومة على النطق نُقلت حركتها إلى "الياء" قبلها، ثمّ سكّنت (إعلال بالإسكان أو النقل)، وبسبب التقاء الساكنين (الياء الساكنة وواو الجماعة الساكنة)، تمّ حذفها مطلقا فأصبحت: "مُنْتَهُونَ"، وقس على ذلك مع بقية الأمثلة الأخرى.

✘ الإعلال بالتسكين والقلب:

ونجد من هذا النوع في سورة المائدة:

✘ لفظة: [مُقيمٌ] في قوله تعالى: ﴿...وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقيمٌ﴾ [المائدة، 37].

✘ لفظة: [يَخَافُوا] في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَذَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهَيْهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ...﴾ [المائدة، 108].

ففي الكلمة الأولى: [مُقيمٌ] اسم فاعل من الفعل غير الثلاثي: "أَقَامَ"، وفيه إعلال بالقلب، فأصل الكلمة: "مَقُومٌ" بضم "القاف" وكسر "الواو"، من الفعل "قَامَ" و"الألف" فيه منقلبة عن "الواو"، استثقلت الكسرة على "الواو"، فتَمَّ نقلها إلى "القاف"، ثم سَكَنَت (إعلال بالتسكين أو النقل)، ثم قلبت "الواو" ياءً ساكنة لمجانسة حركة الحرف الذي قبلها وهو "القاف" المكسورة (إعلال بالقلب) فأصبحت الكلمة: "مُقيمٌ".

أما الكلمة الثانية: [يَخَافُوا] فأصلها: "يَخَوْفُوا" بسكون "الخاء" وفتح "الواو"، جرى في الكلمة إعلال بالتسكين؛ حيث تمَّ نقل حركة "الواو" إلى الحرف الساكن قبلها (الخاء)، ثم تسكين "الواو": "يَخَوْفُوا"، ثم تمَّ قلب "الواو" بحرف علة آخر يجانس الحركة التي قبله (حركة الخاء) (إعلال بالقلب)، فأصبحت الكلمة: "يَخَافُوا".

خاتمة:

نخلص في نهاية هذه الورقة البحثية إلى استخلاص جملة من النتائج، نورد أبرزها في النقاط التالية:

✍ الإعلال من التغيرات الصرفية التي تسمَّ حروف العلة، وذلك اجتناباً إمّا للثقل، وإمّا للتعذر، وهو كما رأينا على ثلاثة أقسام: الإعلال بالقلب، الإعلال بالحذف، والإعلال بالإسكان أو كما يدعى أيضا الإعلال بالنقل.

✍ وقف هذا البحث على بعض التغيرات التي تتعرض إليها أصوات العلة، وذلك إمّا بإقامة إحداها مقام الأخرى، أو بسقوط أصوات العلة بكاملها أو بسقوط بعضها، كما أشارت الدراسة أيضا إلى تلك المواطن التي تقع فيها التغيرات على المستوى الصوتي والصرفي، ومن ثمَّ صلة علم الأصوات بعلم الصرف، وأثر كلٍّ منها على الآخر.

حَوَتْ سورة المائدة جميع أنواع الإعلال، حيث ظهر ذلك في مواضع مختلفة منها، شهد الإعلال بالحذف دورانا واسعا أكثر من سواه على مستوى نصّ السورة الكريمة، تجسد هذا الأخير في مظهرين هما: الحذف إما لمناسبة الجزم أو البناء، وإما بسبب التقاء الساكنين. وهناك حالات أخرى اجتمع فيها نوعين من الإعلال: الإعلال بالقلب والحذف، الإعلال بالإسكان والحذف، والإعلال بالإسكان والقلب، وكلها مواطن الغاية منها تجنّب الاستئثار والجنوح نحو التخفيف.

الهوامش والإحالات:

◀ القرآن الكريم برواية حفص.

1. صالح سليم عبد القادر الفاخرى، الدلالة الصوتية في اللغة العربية، مؤسسة الثقافة الجامعية، دط، الإسكندرية، مصر، 1428هـ/2007م، ص 158.
2. أحمد مصطفى المراهي، تفسير المراهي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، بيروت، لبنان، 1421هـ/2001م، مج2، ج6، ص ص 256-257.
3. محمد حسين سلامة، الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم، دار الآفاق العربية، ط1، القاهرة، مصر، 1423هـ/2002م، ص 83.
4. محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، دط، تونس، 1404هـ/1984م، ج6، ص 69.
5. محمد بن أحمد أبو عبد الله بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنّة وآي الفرقان، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي ومحمد رضوان عرقسوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، بيروت، لبنان، 1427هـ/2006م، ج7، ص 243.
6. جمال الدّين محمّد أبو الفضل بن منظور الأنصاري الإفريقي المصري، لسان العرب، تح: عامر أحمد حيدر، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 1426هـ/2005م، ج6، مادة عَمَلَّ.
7. علي محمود النايي، الكامل في النحو والصرف، دار الفكر العربي، ط1، القاهرة، مصر، 1425هـ/2004م، ج2، ص 166.
8. ديزيره سقال، الصرف وعلم الأصوات، دار الصّداقة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، بيروت، لبنان، 1416هـ/1996م، ص141.
9. أيمن أمين عبد الغني، الصرف الكافي، تح: عبده الراجحي وآخرون، دار ابن خلدون، دط، القاهرة، مصر، دس، ص 417.
10. محمد أسعد النادري، نحو اللغة العربية، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، ط3، بيروت، لبنان، 1422هـ/2002م، ص 283.
11. علي محمود النايي، الكامل في النحو والصرف، ج2، ص 166.
12. محمود أبو القاسم بن عمر الزمخشري، المفصل في علم العربية، تح: سعيد محمود عقيل، دار الجيل للنشر والطباعة والتوزيع، ط1، بيروت، لبنان، 1424هـ/2003م، ص 484.

13. سعيد محمد شواهنة، القواعد الصرف صوتية بين القدماء والمحدثين، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، ط1، عمان، الأردن، 1428هـ / 2007م، ص 75.
14. صباح عبد الله محمد بافضل، الإعلال والإبدال بين النظرية والتطبيق، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط1، السعودية، 1418هـ / 1997م، ص 4.
15. مصطفى الغلاييني، جامع الدروس العربية، نج: مجدي فتحي السيد، دار التوفيقية للتراث للطبع والنشر والتوزيع، دط، القاهرة، مصر، 1431هـ / 2010م، ج 2، ص 227.
16. ديزيره سقال، الصرف وعلم الأصوات، ص 140.
17. صباح عبد الله محمد بافضل، الإعلال والإبدال بين النظرية والتطبيق، ص 2.
18. زين كامل الخويسكي، قواعد النحو والصرف، دار الوفاء لنديا الطباعة، دط، الإسكندرية، مصر، 1421هـ / 2001م، ص 248.
19. صباح عبد الله محمد بافضل، الإعلال والإبدال بين النظرية والتطبيق، ص 4.

التعددية الدلالية للمؤشر الفعلي «خرج» في القرآن الكريم (رؤية إدراكية)

ناديا دادپور¹، أ.د.سيد محمد رضا ابن الرسول²، أ.د. حدائق رضائي³

¹ طالبة دكتوراه بجامعة أصفهان - كلية اللغات الأجنبية - قسم اللغة العربية وآدابها (إيران).

n.dadpour@fgn.ui.ac.ir

² أستاذ بجامعة أصفهان - كلية اللغات الأجنبية - قسم اللغة العربية وآدابها، الكاتب

المسؤول (إيران). ibnorrasool@yahoo.com

³ أستاذ مساعد جامعة أصفهان - كلية اللغات الأجنبية - قسم الألسنيات (إيران).

hadaeghrezaei@fgn.ui.ac.ir

تاريخ النشر: 2019/03/31

تاريخ القبول: 2018/11/20

تاريخ الاستلام: 2018/10/09

الملخص: إن التعددية الدلالية القواعدية تفتح نافذة مستجدة أمام الدارسين والناشطين في الحقول الإدراكية؛ وقد وضع المنظران تايلور (Tyler) وإيوانس (Evans) الحجر الأساس لهذا المخيم البديع الذي نامت نواطيره في ظلال وارفة ومرايا سحرية واسعة، تذهب بالمتلقي إلى أغوار الكلمات التي تصرخ بصمت غريب وتبدي بوجه دلالات تبخترت في شبكة لامرئية من العلاقات التي وجدت مأمنها في زاوية من ذاكرة الناطقين، أونة اشتغالهم بالحديث. فأقدم هذا البحث المتواضع على فحص شبكة المؤشر الفعلي "خرج" في القرآن الكريم، انطلاقاً من التعددية الدلالية القواعدية التي أقامها تايلور وإيوانس وذلك على أساس المنهج الوصفي التحليلي. ما توصل إليه البحث من نتائج يشير إلى أن شبكة المؤشر الفعلي "خرج" في القرآن الكريم شبكة وسطى والمعنى المركزي النووي هو الذي يحطم الرقم القياسي في قائمة التواترات الدلالية لخرج. وتتلخص أهم آليات التوليد الدلالي للشبكة المدروسة في

استدعاء تقنية التضخيم والتركيز على الجزئية الأولى للفعل والعلاقات المجازية في نحو السببية والملزومية ثمة التركيز على الظهور البحث والسيرورة.
الكلمات المفتاحية : اللسانيات الإدراكية، التعددية الدلالية القواعدية، القرآن الكريم، خرج

Abstract: principled polysemy opens up new ways for cognitive researchers. Tyler and Evans are two theorists who built the foundations of this theory, they show the other meanings of the words, clarify their different meanings, reveal their hidden relations and create meaningful semantic network for studied data. The aim of this paper is studying the verb “Kharaja” in Qur’an and drawing its semantic network in the principled polysemy framework. The used method is analytical descriptive. Results show that “Kharaja” makes a middle network which central meaning is the most frequent meaning. The most important tool to build meaning in this network is: foregrounding, focusing on first part of verb, virtual relationships including causal relationships, Necessary relationship and finally Emphasis on the pure emergence and the transformation of the present.

Keywords: cognitive linguistics, principled polysemy, Qur’an, Kharaja

مقدمة: إن القرآن الكريم يضخّ بالإيحاءات البديعة ويعج بالمعاني العميقة التي طالما عجزت الأذهان عن تفهّمها حق الفهم وكلّت العقول وفلّت عن الأخذ بمجاميعها فحاول البشر وسعى سعيه ليقطف باقة من حديقة معاني هذا الكتاب الكريم وقد سلك مسالك عديدة تحقيقاً لهذا الهدف الهام وقد كتبت للسانيات الإدراكية لأن تكون إحدى البوابات التي يعبر منها الطالبون ليسكنوا في كهف آمن للدلالات الصائبة التي توارت بالحجاب وهناك التعددية الدلالية القواعدية التي وضع تايلور وإوانس أسسها تعتبر مفتاحاً ذهبياً تساعد الدارس على الانتقاء الدلالي الصحيح للمؤشرات المدروسة إذ تتخرج على يديها شبكة دلالية موجهة يتربع كل عضو من أعضائها على منصة لبقه وبعلاقة بيّنة بالمعنى المركزي.

ما تحزمت له هذه المقالة وعزم عليه هذا البحث المتواضع هي دراسة التعددية الدلالية للمؤشر الفعلي «خرج» في القرآن الكريم انطلاقاً من مقترح تايلور وإيوانس. الأسئلة التي ذهب اليها وحاول الإجابة عنها في هذه الجولة النقدية تلتخص فيما يلي:

ما هي المواصفات التي تتميز بها شبكة المؤشر الفعلي «خرج» في القرآن



الكريم؟

ما هي الآليات الإدراكية التي لعبت دوراً ريادياً في الإبداع الدلالي في



شبكة المؤشر الفعلي «خرج» في القرآن الكريم؟

المنهج الذي سارت في مساره هذه الدراسة وانتهجت بمنهاجه هذه المقالة هو المنهج الوصفي التحليلي؛ فوضعت خطوطها النظرية وأوضحت معالمها النظرية بادي الرأي ثم انزاحت عما كانت عليه لتمعن النظر في الكيفيات الدلالية لشبكة المؤشر الفعلي «خرج» في القرآن الكريم.

الدراسات التي سبقت هذه الدراسة تتوزع على قسمين؛ ما يخص حقل التنظير ويرتبط بنظرية التعددية الدلالية القواعدية في جهة من جهاتها والقسم الثاني: ما يتعلق بكيفيات التحليل الدلالي وصولاً إلى الشبكات الدلالية.

ففي القسم الأول يقتدي بالبحث بالكتاب "دلالة الحروف الإنجليزية" لتايلور وإيوانس¹ ويقتبس أسس تحليله مما ورد فيه. وقد شرح المؤلفان في الشق الأول من الكتاب الأصول الأساسية للسانيات الإدراكية وقد استقصيا في طرح مرايا التعددية الدلالية القواعدية ودها ليزها الخفية وما يميزها عن النظريات الأخرى التعددية الدلالية. أما الشق الثاني من الكتاب فيقدم تحليلاً راقياً للمؤشر الحرفي "over" ويعالجه معالجة دقيقة تنتهي إلى رسم شبكته الدلالية.

والكتاب «علم الدلالة والعرفانية» لراي جاكندوف (Ray Jackendoff)²، شرح فيه المؤلف الأصول العامة للعرفانيات وما يتعلق بالدراسات الإدراكية، نشأة وتاريخاً وتأصيلاً، شارحاً فيه الأنماط التصورية والحقول الدلالية والمقولات، ما يكون خير عون على الدارس في مجال اللغويات الإدراكية.

أما القسم الثاني من الدراسات السابقة التي تخص التحليل فيتجلى في أعمال متكافئة متراكمة من نماذجها:

المقالة المسماة بـ «التعدد الدلالي بين النظر والتطبيق؛ سورة يوسف نموذجاً» للباحثة نادية رمضان النجار³؛ وقد درست مظاهر التعددية الدلالية في سورة يوسف في القرآن الكريم بعدما تحدّثت عن رطب هذه القضية ويابسها إلا أنها لم تجنح نحو التعددية الدلالية القواعدية بالضبط ولم تختار لبحثها مؤشراً من المؤشرات بل انطلقت من مبدأ عام في التحليل.

ورسالة جامعية تحت عنوان «تعدد المعنى في كلمة "الدين" في القرآن الكريم» لفضلك زبيدة⁴ وقد درس فيه الباحث دلالات المؤشر الاسمي "الدين" في القرآن الكريم من دون أن يتتبع في خطواته منهجاً لسانياً بارزاً.

وباللغة الإنجليزية:

عبدالله جلادري⁵، قامت هذه الدراسة بمعالجة كفيات التعددية الدلالية الداخل نصية، بناء على رؤى تفسيرية، فتهدف هذه الدراسة من وراء ذلك تمحيض نُظْم قواعدية للظاهرة المدروسة في القرآن الكريم.

و« transferring polysemic words from arabic into english: a comparative study of some samples from the holy Quran »، للباحث أبي بكر علي، وآخرين⁶. قامت هذه الدراسة بالفحص عن كفيات الألفاظ المشتركة مترجمة من العربية إلى الإنجليزية بانتقاء عينات من القرآن الكريم. وقد خلصت هذه الدراسة إلى نتائج أهمها تبرز في أن عملية الترجمة تؤثر ظاهرة المشترك اللفظي الموجودة في العينات المدروسة أونة حدوث النقل وقد تمنح هذه المقالة للمتلقى شبكة دلالية ضمنية للمفردات المعنوية ما يساعد على وضع خطة لاثقة لأطر هذا البحث.

الدراسات التي سبقت هذه الدراسة أوفت كيلها وأنضجت ثماراً يانعة حان الحين لجنيها إلا أنها لم تولي اهتماماً إلى المؤشر الفعلي «خرج» وشبكته الدلالية في القرآن الكريم ولم تُدر عدستها نحو النمط العلائقي بين الدلالات الهامشية والدلالة النووية لهذا المؤشر، الواجبة التي ميّزت الدراسة الحاضرة عن غيرها من الدراسات.

مفهوم الشبكة التعددية الدلالية لدى تايلور وإيوانس: يعتقد تايلور وإيوانس أن الشبكات الدلالية تولد عبر العلاقات الوظيفية التي توجد بين استعمال بدائي وبين مفهوم أولي بدائي؛ فالمحدثون في محادثاتهم يزحفون بالألفاظ نحو الاستعمال المجازي. وهذه الاستعمالات المجازية في هذه الرؤية لا تأتي عن صدفة ولا تخلقها العشوائية ولا تتيح العبثية للمتحدثين خيار ألفاظ من دون غيرها للولوج في الفضاءات الانتزاعية الخاصة بل هنالك طاقات كامنة تجعل لاستعمال اللفظة مثلاً "over" في الطقوس اللامادية مبرراً. فعليه يعتقد تايلور وإيوانس أنه توجد علاقات تلقائية لإرادية، غير واعية فيما بين المفاهيم الأولية البدائية وبين المفاهيم المجزأة في أحشاء حلقة من الدلالات لمؤشر لغوي ما، والحق أنّ هذا ما يشكّل الحجر الأساس لما ادّعه تايلور وإيوانس في مقترحهما التنظيري.

فالقضايا الأساسية التي تصطدم بها نظرية التعددية الدلالية القواعدية تتلخص في أمرين؛ أولاً: كيفية نمذجة إعادة المفاهيم البدائية إعادة لا ثقة، وثانياً: كيفية تنسيق علاقات العناصر في شبكة واحدة. فلا بد لتنظير كهذا أن يتمكن من الإجابة عن أسئلة ترتبط بالقضايا التالية؛ إعادة اللائقة للمفاهيم البدائية أولاً، وتبيين الكيفيات العلائقية الموجودة بين عناصر شبكة ما ثانياً. وينبغي الإشارة إلى أن النمذجة المناسبة للتعددية الدلالية تتمكن من أن تقدم معايير مستشفة للتمييز بين التعابير الآن قولية والمفاهيم المدخرة في الذاكرة⁷.

تحديد المعنى المركزي: الركيزة الأساسية التي تؤكد عليها التعددية الدلالية القواعدية هو اقتراح معايير لتحديد المعنى المركزي الذي تتمحور حوله الدلالات الأخرى ولا تقتأ تكون في علاقة مستمرة معه، فلا يوجد معنى من المعاني في الشبكة إلا أن يكون في علاقة وطيدة مع هذا المعنى المركزي أما المعايير التي اقترحتها هذه النظرية، فهي هي:

♣ المعيار الأول يشير إلى أنّ المعاني التاريخية هي التي تعد البؤرة المركزية لمعان أخرى، كما أن المعاني التي أكل الدهر عليها وشرب سواء اندرست واندرت تحت ركام الألفاظ الجديدة أو بقيت حية مستعملة؛ ما زالت ولاتزال تشكل نواة المعاني الجديدة الموجودة في العناصر الفضائية بشكل ما، وبالتحديد يمكن القول أن المعاني التي توغلت في التاريخ هي التي تفرعت وتشعبت منها المعاني المستحدثة، وبالتالي هي أولى بأن تكون النموذج البدائي لهذه المعاني المستجدة أياً كانت.

♣ أما المعيار الثاني فهو يؤكد على أنّ أكثر المعاني تواتراً في الشبكة الدلالية تستأهل بأن تحلّ المكانة الأولى من بين المعاني الموجودة في الشبكة. ولا يقصد بالتواتر، التواتر اللفظي، بل يعني به على أنه تواتر الكيفيات المشتركة في إلقاء المعاني في حقل دلالي

ما؛ ففي المؤشر الفضائي "over" استحضار "المُتَقَلِّبِ" فوق "المَعْلَمِ" هو ما يتجلى في جلّ الدلالات الساطعة عن هذا المؤشر الفضائي، فعليه يمكن اعتبار "over" بهذه الهندسة التراكييبية نموذجاً بدائياً سائداً على الشبكة.

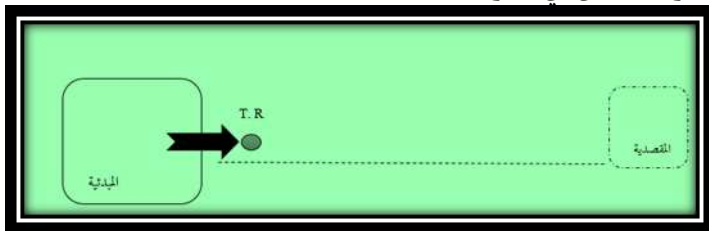
♣ أما المعيار الثالث فهو الكيفيات العلائقية بين مؤشر فضائي ما والمؤشرات التركيبية الأخرى، فهناك صورتان على الحد الأدنى -تدمج فيها العناصر الفضائية أي الحروف في اللغة الإنجليزية؛ الصور المركبة؛ نحو: "overcoat" والتوظيف في الصور الفعلية؛ نحو: "look over"، حيث المؤشر الحرفي "over" في كليهما يبوح بحالة إدراكية مماثلة هي السيطرة والإحاطة التي تجتم عن الاعتلاء. وهناك مؤشر آخر في هذا المعيار الثالث يساعد على تمحيض المعنى المركزي مساعدة لاثقة هو الانتباه إلى المجموعات المتباينة التي ترتبط بالمؤشر الفضائي المدروس فمن الواضح أن الضد يعرف بالضد فعند الكشف عن أفضة المعنى المركزي في الشبكة، لابد من معرفة المعاني المضادة المغايرة، وهذه المعرفة تبني حجراً أساسياً يرشد المتلقي إلى المعنى الصائب المميز ويكشف له الوجوه الخافية.

♣ والمعيار الأخير لتحديد المعنى النموذجي عند تايلور واوانس يكشف عن إمكانية توقع القواعد النحوية وتخمينها تخميناً صائباً. فإذا أدركنا أن بعض المعاني المجزئة حالياً قد اشتقت عن معنى موحد وأنها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمعنى بدائي مسبق وأنها انشعبت وافترقت عبر التوظيف اليومي للغة وعبر مضي الزمن يمكن تخمين عدد من هذه المعاني التي اقتبست دلالاتها مباشرة من المعنى الأولي؛ فعليه يجب تتبع خطوات المعاني التي لم تشتق من المعنى الأولي البدائي في سائر المعاني التي اشتقت منه. فهذه الرؤية في دراسة التعددية الدلالية تؤكد على أن اللغة تقوم على أنظمة استنتاجية ويرأسها مدار وظيفي يحوم حوله هذا النظام اللغوي. ومن منظور قواعدي يستأهل كل معنى مجزأ أن يستعاد مباشراً إلى المعنى البدائي وأن يستحضر في سياقات جمالية؛ السياقات التي تتضمن المعنى البدائي المركزي وتضيف إليه معنى أو معان⁸.

هذه هي أهم الأطر التنظيمية للتعددية الدلالية القواعدية والتي ترتبط بحساسية فائقة برصد المستويات الدلالية والكشف عن الخيوط العلائقية بينها في تناول مؤشر لفظي ما، ورسم شبكته الدلالية. فيأخذ البحث في التالي بهذه الأصول ليضع المؤشر الفعلي "أخذ" في القرآن الكريم تحت مجهره تحليلياً ودرساً وفحصاً عميقاً.

المشهد الأساسي للمؤشر الفعلي "خرج": تحديداً لمشهد "خرج" الأساسي تستعرض الدراسة ما ورد في معجم تاج العروس عرضاً بسيطاً مستشفاً فهو يعرف هذا المؤشر الفعلي على أنه ضد الدخول⁹. وقيل: لـ «خرج: أصلان؛ فالأول- النفاذ عن الشيء. و الثاني- اختلاف لونين. فأما الأول فقولنا خَرَجَ يَخْرُجُ خُرُوجاً. و الخراج بالجدد. و الخراج و الخرج: الإناوة لأنه مال يخرج المعطي. و الخارجي: الرجل المسود بنفسه من غير أن يكون له قديم، كأنه خرج بنفسه. و الخروج: خروج السحابة، يقال ما أحسن خروجها، و فلان خَرَجَ فلان، إذا كان يتعلم منه كأنه هو الذي أخرجه من حدّ الجهل. و يقال ناقة مُخَرَّجَةٌ إذا خرجت على خلقة الجمل. و أمّا الأصل الآخر: فالخرج لوان بين سواد و بياض، يقال: نعامه خرجاء و ظليم أخرج. و من الباب أرضٌ مُخَرَّجَةٌ إذا كان نبتها في مكان دون مكان. و ذلك ما ذكرناه من اختلاف اللونين»¹⁰. والمتأمل إذا نظر في الأصلين ملياً لأزال القناع عن حقيقة هو انشقاق الدلالة الثانية من الأولى؛ إذ هي تمثل الخروج من لون موحد إلى آخر مزيج لا يتمايل لا إلى هذا ولا إلى تلك فهو لون يكسر نطاق الألوان المعهودة ويخرج عما عهد في صورة خارقة.

فالإيحاء البدائي للمؤشر الفعلي "خرج" الذي يقترب من الحس ويبعث الظنون على الاعتقاد بمركزيته وما تستجلي غطاءه المعاجم والقواميس هو الخروج الذي يقابل الدخول ويعاكسه. وهذا الإيحاء يرسم مشهداً يتشكل من مبدئية مفتوحة ومنتقل يسري ويجري ليجتاز حدود المبدأ وليلج في مقصدية متضحة المعالم في حين ومضبية في أونة أخرى؛ فعليه يختار المؤشر الفعلي "خرج# دخل" كأول مرشح لانتقاء المعنى المركزي. ولا يكون هذا الانتقاء عشوائياً من دون مبرر كما تبين. أما تمفصلات هذه الدلالة أي "خرج" الذي ينافي الدخول فتتجلي في الخريطة التالية:



الشكل 1: المشهد الأساسي للمؤشر الفعلي "خرج"

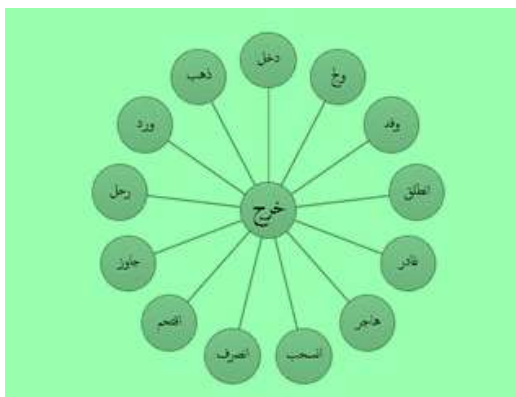
ما يبرز جلياً عبر التحديق والتدقيق في الخطاطة السابقة يتلخص في مواضع منها؛ أن المبدئية التي تنطلق منها عملية الخروج تُجسد فضاء مغلقاً ومحدداً خلافاً للمقصدية المفتوحة المبسطة التي يغشيها الخروج بحجاب من اللاأدرية والغموض ففي نحو الشريحة:

"خرج على من البيت" فالمؤشر الاسمي "البيت" يمثل المبدئية المجزرة بالجدران، الممنطقة بالحدود ثمة المؤشر الاسمي "علي" هو المنتقل الناشط الذي يتجه نحو مقصدية غير محددة، وحركة المنتقل هذا، حركة ذاتية يعيها حافز داخلي أما درجة الخروج وكيفياتها فتتضاءل تضاضاً مؤبياً في هذه الوحدة وما يماثلها، وهذه الكيفيات الخامة تسيقظ عبر الآليات القرائنية وتصبح محطة العناية في كثير من الشرائح في نحو: "خرجت من البيت إلى المسجد"، فالمؤشر الحرفي "إلى" في هذه الوحدة يوجّه الحركة توجيهاً مستشفاً.

وتظل الكيفيات الأخرى الهندسية للخروج مستورة غير معنية مادامت المؤشرات القرائنية المجاورة لا تعطيهما العناية الوافية ولم تشر إليها إشارة كافية، ففي نحو: "خرجت الأم مسرعة إلى ابنتها" المؤشر الاسمي "مسرعة" يوحي إلى خروج في حالة الإسراع وهذه كيفية لم يوقّع على حضورها المؤشر الفعلي "خرج" بل هذه الإضاءة في هذه الشريحة وما شابهها، تهزّ برابتها على يد القيود التي ترقد في تأخم للمؤشر الفعلي "خرج" بعيون يقظة مستبصرة وهذا الدور الذي تتولاه العلاقات القرائنية يشغل حيزاً عريضاً في كثير من الشرائح المماثلة. فالمقصدية في "خرج" لا تتجاوز الحالتين؛ الأولى: الانعدام التام والثانية؛ الظهور والاستجلاء بتوسيط العلاقات التجاورية التوزيعية.

ومن هذه الآونة يبدأ المرشح الأول لانتقاء المعنى المركزي في شبكة "خرج" بالظهور وهو "خرج" الذي ينافي "الدخول" إذ هو المرشح اللائق الذي يقترّب من الحس ويتجزر في التاريخ ويتواتر على صعيد الاستعمالات اليومية، فهذه المواصفات تجعل الدارس في مسيرة من اليقين على أن "خرج# دخل" يشكل المعنى النووي لهذه الشبكة الدلالية لكن الظن لا يغني من الحق شيئاً وهذا الفحص البدائي يشجع البحث على أن يخطو بهذا المرشح إلى المراحل المتقدمة من التحليل انطلاقاً من الأسس المقترحة من قبل تايلور وإيوانس.

فمن مقترحاتهما في تحديد المعنى المركزي وضع المرشح في خضم تصنيف مقولي مهندس بطابوقة المرادفات والمضادات فينتهي هذا التوقع إلى تقيّم المواصفات البارزة التي يميز بها المرشح المدروس كما يؤدي إلى إبصار القواسم المشتركة التي يتّصف بها الحقل الدلالي المعني؛ وهذا الأمر يوح بكيفيات المعنى البدائي بإقامة مقارنة دقيقة بين أعضاء الحقل المتناول فإذا برزت مواصفات الدلالة المرشحة في حلقة التصنيف المقترح فتتقدم التكهّنات خطوات ملحوظة إلى الأمام ويتحول الظن يقيناً موثقاً على أن "خرج# دخل" يفوز بأخذ وسام الدلالة المركزية في أسرته الدلالية فالحقل الدلالي الذي يلجه المؤشر الفعلي "خرج" يبرز جلياً في الخطاطة التالية:



الشكل 2: الحقل الدلالي للمؤشر الفعلي "خرج"

هذا التصنيف المقولي يستوعب المؤشرات الفعلية التي تتماثل في حركتها، فكلها ذات حركة أفقية وإن حق عليها إطلاق التباين يأتيه هذا الاطلاق من اتخاذ اتجاه معاكس؛ فتتراوح الأفعال فيها بين الحركة الأمامية والحركة الخلفية. أما لـ "دخل" في هذه الحلقة دلالاته التي تكهنها البحث من أنه يعاكس الدخول وينافيه نفيًا بحثاً؛ وذلك يتجلى في وضع العدسة المكبرة على الشرائح التالية وما يماثلها:

● خرج من الصف وانصرف عنه.

● هاجر فخرج من مدينته.

● ورد الحرب عزيزاً وخرج منه متكسر الأجنحة ذليلاً.

● انسحب عن الدراسة وخرج من الجامعة.

هذه الشرائح الدلالية وما يماثلها التي تجاوزت فيها المؤشرات الفعلية ذات أسرة واحدة جنباً إلى جنب، انتهت إلى ازدهار دلالة "خرج" البدائية الدلالة التي تنافي الدخول فـ "خرج وانصرف" و"هاجر وخرج" و"ورد وخرج" و"انسحب وخرج" كل هذه العلاقات التجاورية القرائنية توقع على دلالة المرشح الأول أي "خرج # دخل" بخاتم القبول.

ولا يصل هذا الاختبار إلى نهايته في هذه الآونة بل لابد أن يجري البحث على المؤشر المدروس اختباراً انتقائياً آخر هو دراسة التواتر الاشتقاقي لمادة "خرج" في القرآن الكريم، فالدلالة التي تتواتر بين هذه الاشتقاقات وتخيم على فضائها الدلالي، هي الدلالة التي تجدر بأن تسمى بالدلالة المركزية النووية.

فتواترت الصيغ الاشتقاقية لـ "خرج" في القرآن الكريم ثلاث وعشرين مرة، وهي لم ترد على نسق واحد ولم تردف في وتيرة واحدة بل هي تتباين في جانبيين: البنية والدلالة؛ أما من ناحية البنية فتتوزع اشتقاقات "خرج" إلى اسم الفاعل من المزيد والمجرد؛ نحو: ﴿أَ وَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زَيْنٌ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: 122] و﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: 72] واسم المفعول من المزيد، نحو: ﴿أَ يَعِدُّكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْكُمْ مُخْرَجُونَ﴾ [المؤمنون: 35] ومصدر ميمي، نحو: ﴿وَقُلْ رَبِّ ادْخُلْنِي مَدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: 80] ومصدر باب إفعال، نحو: ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تُوَلُّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المتحنة: 9] واسم بحت؛ نحو: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَّاجَ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [المؤمنون: 72]. ومصدر مجرد؛ نحو: ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الزخرف: 11].

فالجانب الدلالي لاشتقاقات "خرج" في القرآن الكريم يتراوح بين الخروج الحقيقي والانطلاق من النقطة المبدئية خروجاً ذاتياً أو خروجاً يتم بدافع خارجي؛ فالأول نحو: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنْ لَنَا كَرَّةٌ فَنَتَّبَرًا مِنْهُمُ كَمَا تَبَرَّوْنَا مِنْهَا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: 167]. فهذه الآية تتضمن تعبيراً يتحدث عن عدم الخروج من النار، بشكل مطلق¹¹ وهذا الخروج خروج ذاتي مرغوب فيه يطلبه أهل النار حينئذٍ ولكن طلبهم هذا يبوء بالفشل المريع. أما الخروج الذي يتحقق بدافع خارجي فيظهر فيما استعمل في باب الإفعال أي الإخراج وذلك يتجلى في الآية: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَن دِينِهِ فَمَا لَهُ مِن شَيْءٍ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: 217]. وما شابهها من الآيات. فيروح الكلام فيها عن حرمة القتال في الأشهر الحرم وأنه هتك لحرمة المسجد الحرام وليست جريمة عند الله سبحانه وتعالى أكبر من الصد عن سبيله وإخراج القاطنين من المسجد الحرام¹². ومن إحياءات "خرج" الاشتقاقية ما يدل على الظهور والبروز في نحو: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: 72]. فـ "مخرج" في هذه يدل على

"مظهر" لقد «كان هناك قتيل وكتموا القاتل وأخفوه فأراد الله تعالى إظهاره بإحياء القتيل عند ضربه ببعض البقر ليذكر ذلك المقتول قاتله فيقام عليه حد الله تعالى»¹³. وهذا الظهور يستبطن خروجاً لامادياً هو الخروج من الخفاء والحجب، إلى العيان والحضور.

ثم "الخلق" هو الإيحاء الآخر الذي يتميز به "خرج" في الاستعمالات الاشتقاقية القرآنية لـ "خرج" ويضرب المثل بالآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَمُخْرِجُ الْمَمِيتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [الأنعام: 95] على هذه الدلالة فهي ترد في عداد النماذج الحية خلافة من أسرار الكون ونظام الخلق وعجائبه¹⁴. وهناك الانبعاث في يوم الحشر وهو نوع من الخروج التام يتجلى في الآية: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ [ق: 42] وفي تفسير الخروج وجهان «أحدهما الخروج من القبور؛ والثاني: أن الخروج من أسماء القيامة»¹⁵. فالخروج في كلا التعبيرين لا ينافي المعنى المركزي الذي ينافي الدخول والظروف الخارج دينوية هي التي تبعث المتلقين على إطلاق البعث على هذا الخروج إلا أن الخروج هو هو وإن دل على يوم البعث والانبعاث لأجل الطقوس الخاصة. وهناك الضريبة والأجر دلالة نادرة للاشتقاق الاسمي لـ "خرج" في القرآن الكريم وسمي الخراج خراجاً لأنه أجر أو مال أو شيء ذي بال يخرج من عند المعطي وذلك ما يتجلى في الآية: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَرَجَ رَبُّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [المؤمنون: 72]. أي «ما وعد الله لك من الأجر والثواب في الآخرة»¹⁶ خير لك وهو خير الرازقين.

فجولة معمقة على معاني "خرج" الاشتقاقية في القرآن الكريم تعطي رصيماً محترماً وعلامة قبول للإيحاء المرشح المدروس أي "خرج# دخل" على أنه هو الإيحاء المسيطر على الكم الاشتقاقي لـ "خرج" في القرآن الكريم.

فما يتبقى هو التيقن من فاعلية هذه الدلالة المقترحة أي "خرج# دخل" في أنفاق جميع الدلالات الموجودة في الشبكة التي يشيد برايتها المؤشر الفعلي "خرج" في القرآن الكريم. فإذا بدأ الناظر بمعاينة الإيحاءات الانفرادية الموحدة والدلالات العنقودية والدلالات الهامشية ووجد هناك كبير أثر للدلالة البدائية التي رشحها البحث لانتقاء المعنى المركزي آنذاك فيتكلم المرشح بالنجاح الباهر ويسمو إلى المنصة ويتراقص بتبختر طرباً لخيابه كالمعنى المركزي النووي وهذا ما يحدث فعلاً في معالجة المؤشر الفعلي "خرج# دخل" حيث إن إيحاءه يترسخ في شتى البنات الدلالية بطريقة ما إلى أن ينتهي الأمر إلى القول بأن الشبكة التي يصنعها المؤشر الفعلي "خرج" تغص وتعتج بالتواشج المعنوي بدلالة الخروج المادية التي تعاكس الدخول في حركته. فيحتل المرشح "خرج# دخل" المحطة الأولى في

حلقة سائر الدلالات فكل معنى في هذه الشبكة يرتبط به في علاقة مستمرة وبحساسية فائقة.

الكيفيات الدلالية للمؤشر الفعلي "خرج" في القرآن الكريم التركيز على نتيجة الخروج خرج: تخلّص

دلالة الخروج على التخلّص وإطلاق السراح والتحرير من القيود دلالة شاحبة اللون في القرآن الكريم وهي لم ترد إلا في الوجدتين التاليتين: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنكُمْ إِنَّحَدَثُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا وَعَرَّتْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لِأُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الجاثية: 35]. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أُخْرِجُوا أَنفُسَهُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: 93]. فالطقوس التي ترسمها الآيتان طقوس الهول والإرعاب، فالآية الأولى تخصّ الذين استهزؤوا بآيات الله سبحانه تعالى في هذه الدنيا الدنية فسخرها منها فيدخلون ناراً لا خلاص منها ولا نجاة من حرارتها. أما الآية الثانية فتصوّر أمام متلقّيها صورة الموت عندما يعانق الشخص معانقة بمخالب لا مفرّ من سطوتها. وكأنه يقال لهنكري العذاب والموت «أخرجوا أنفسكم من سكرات الموت إن استطعتم، أو أخرجوا أنفسكم من عذاب النار إن استطعتم لها خلاصاً»¹⁷. فيوظف المؤشر الفعلي "خرج: تخلّص" في جوّ مهيب مهيب هائل فهذا الفضاء فضاء سلمي يفوح بغضب الله وعقابه. وقد تنوعت هذه الدلالة تنوعاً بنوياً إذ وردت الأولى مجردة من دون الولوج في إطار صيغة صرفية مميزة "لا يخرجون" وهذه البنية أي "يفعلون" بنية اعتيادية لا تبعث على اندهاش المتلقي إلا أنه من وراء هذا الاستعمال يستدعي بلاغة طافية هو طلب الخروج الذاتي فالذين ظلموا أنفسهم يطلبون الخروج من النار والتخلص منها ويتمنون النجاة من حريقها في أية لحظة مئات المرات أو أكثر. ثم الشريحة الثانية: "أخرجوا أنفسكم" قد تقولبت في بنية مزيدة أي "باب إفعال" وفي حالة الأمر توعيداً وتهديداً لما يذوقه في مستقبل قريب وهو استهزاء بمن أصابته سكرة الموت وقد سخر منها من قبل أن تأتبه فيقال له أخرج نفسك أي خلّص نفسك من هذه الورطة فيبهت ويعجز عن قليل فعل لينجي بنفسه إلا ما رحم ربي.

أما علاقة "الخروج" بـ "الخلاص" فتتجم من أن الثاني أي الخلاص يولد كنتيجة تابعة للأول أي للخروج. فالخروج من النار أو الخروج من سكرة الموت يرسمان نتيجة هي النجاة

من الحالة السيئة التي وقعت بمن وقعت وتدهور بها من تدهور. وهنالك من يستشعر باجتياز حدود المادة إلى اللامادة في خلق هذه الدلالة المستجدة لأن الفضاء المكاني الذي يُرغب في الخروج منه فضاء فوق مادي لا يمكن أن يخرج منه المنتقل خروجاً معهوداً لأن المبدئية تتسم فيها باللامكانية فالعذاب وسكرة الموت يفوقان المادة بأسرها.

وهذه الدلالة دلالة أفراد من دون تخصيص أية تراكيب محددة تحدد بالمخاطب إلى أسلوب يعم الوحدات المماثلة ويشملها والعلاقات التوزيعية القرآنية لا تلعب دوراً قاتماً في إنشاء دلالة "خرج: تخلص" إلا أن القرائن المعنوية التي تتطّلع في السياق فينة بعد فينة تؤدي إلى التقاط معنى "خرج" على أنه تخلص.

ويحتفظ هذا المعنى باستقلالته لتباينه عن المشهد الأساسي والمعنى البدائي في نقطتين؛ الأولى هي أن التخلص لا يكون إلا نتيجة للخروج من تموقع خاص [حالة-مكان] لا الخروج نفسه. ثم المنتقل والمعلم يجربان في هذه الدلالة فضاء غير مادي لا يتراءى للبالصرة ولا تكشف عن حقائقه الناظرة.

وهذه الدلالة دلالة مترسخة في ذاكرة الناطقين باللغة العربية وفي الاستعمالات اليومية بجانب توظيفها في السياق القرآني ما يؤكد على استقلال هذه الدلالة استقلالاً ذاتياً.

التركيز على ظهور المنتقل ظهوراً بحتاً

خرج: برز

دلالة "خرج" على البروز دلالة غير قائمة اللون في الاستعمال القرآني وقد تواترت خمس مرات وفي الشرائح الدلالية التالية: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَأَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتْ أُخْرِجْنِي عَنْهُنَّ فَلَمَّا رَأَتْهُ أَكْبَرْتَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: 31]، ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: 11]، ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القصص: 79]، ﴿إِلَيْهِ يُرْدُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْثَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا أَدْنَاكَ مَا مِثْنَا مِنْ شَهِيدٍ﴾ [فصلت: 47]، ﴿وَأَعْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ [التازعات: 29]. والتدقيق في كيفية مشاهد هذه الدلالة ترشدنا إلى أجواء قصصية حيث يوسف عليه السلام عندما برز على النسوة بأمر من زليخا امرأة العزيز، وذكرها عليه السلام حيث خرج من المحراب وبرز على قومه لا يقدر على التفوه بنت شفة آية له وللآخرين، ثمة قارون عندما خرج على الناس يمشي بينهم بتفاخر وأنانية ما بعدها أنانية

معجباً بما عنده من الكنوز والخارف ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة، وتزاح الأجواء أخيراً عن التمنطق القصصي لتنبّه المتلقي إلى عظمة خالق الأكوان إذ يخرج الثمرات من أكمامها ويبرزها ويغشي الليل بغطاء حالك مسود ويأتي بالنهار مشرقاً آية للمتدبرين.

والمؤشر الفعلي "يخرج" في المشاهد القصصية الأولى يتميز بإنشاء علاقة تجاورية بالمؤشر الحرفي "على" وهذه العلاقة توجه الخروج توجيهاً خاصاً هو الحضور والسيطرة وكأن المنتقل في هذه الشرائح يعلو المنصة ويخيم على من كان هناك كما الحال في يوسف عندما برز على النسوة فأخذ بقلوبهن وشغل عقولهن إلى أن قطعن أيديهن بغير وعي وملك النبي زكريا فخرج من المحراب واقفاً على خشبة يخطب بالإشارة ويبشر قومه بما وهبه الله من رحمة وقارون هذه الشخصية المتكبرة لا تشكل استثناء في هذه القضية فهو يخرج جالساً في هودجه بتلك الزينة التي تسلب العقول وتشدّ العيون حتى قال من قال "يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون".

أما علاقة البروز بالمشهد الأساسي علاقة تبرّر عبر آلية التضخيم ووضع العدسة على المنتقل من دون العناصر الأخرى ويمكن تصور علاقة سببية بين الخروج والبروز فكل خروج يؤدي إلى البروز والوقوع في تموقع مبرز تنهال إليه النظرات.

ولا غرو أن التوكيد على الرؤية المنطقية تعطي استقلالاً معنياً لهذا الإيحاء لكن السياق يتضاءل دوره إلى حد كبير في حقن الإيحاء المستجد للمؤشر الفعلي "يخرج" في هذه الوحدات.

والتحديق في دلالات "خرج" التي يتم التركيز فيها على تضخيم المنتقل تضخيماً بحثاً من البروز والعرض والإرسال كلها، يهدي المخاطب إلى نقطة هامة هي انتماء هذه الدلالات إلى إيحاء موحد هو الظهور، فدلالة "خرج" على "ظهر" دلالة عنقودية تحتوي في طياتها على ثلاث هو "برز" و"عرض" و"أرسل".

التركيز على صيرورة المنتقل وانتقاله من حالة إلى أخرى

خرج: أوجد

قد وردت هذه الدلالة في القرآن الكريم سبع مرات وفي سياقات متشابهة هي: ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: 27]، ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَمُ اللَّهُ فَأَتَى ثَوَفَكُونَ﴾ [الأنعام: 95]، ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾

الْحَيِّ وَمَنْ يَدْبِرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿ [يونس: 31]، ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿ [الروم: 19]. و«معنى الإخراج التكوين هنا، والإخراج حقيقة هو إخراج الشيء من الطرف»¹⁸، هذه الوحدات تبين كيفية حدوث الإعجاز في عملية الخلق «فالنطفة ميتة تكون تخرج من إنسان حي ويخرج إنسان حي من نطفة ميتة»¹⁹. والحق أن الإنسان الحي لم يكن مستتراً في نطفة ميتة بل يوجد منها ويخلق وكأن النطفة وعاء يمهّد الأرضية المناسبة لإنشاء الإنسان وكذلك النطفة الميتة تخلق وتولد في الإنسان الحي؛ فعليه المؤشر الفعلي "يخرج" في هذه الوحدات يتلبس بإيحاء مستجد هو الإيجاد والإنشاء.

أما علاقة الإنشاء بالإخراج فتتجلى في التركيز على الصيرورة والتنقلات من هندسة إلى هندسة أخرى أو التقلبات من حال إلى حال أي من العدم إلى الحياة.

ولم تكن هذه الدلالة دلالة أسلوية ويتفرد الفعل بإيحايتها على الانفراد إلا أن العلاقات التجاورية والمفردات التي تأتي في تأخم مع المؤشر الفعلي "يخرج" في هذا الإيحاء تؤدّي دوراً كبيراً في التقاط المعنى التقاطاً صائباً. فالمؤشرين الاسميين "الحي" و"الميت" يتعانقان مع المؤشر الفعلي "يخرج" ليدل على ما دل عليه في هذه الشريحة.

ولن يتغافل البحث عن دور البنية الصرفية أي "الإفعال" في التوجيه الدلالي في هذا المقطع إذ إنشاء الإنسان الحي من النطفة الميتة والنطفة الميتة من الإنسان الحي لا يكون عن صدفة ولن تتسرب فيها العشوائية بل الولوج من النشأة الأولى إلى النشأة الأخرى تتطلب قدرة ماورائية وتستدعي طاقة إعجازية هي قدرة الله تعالى.

التركيز على هدف خروج المنتقل

خرج: شارك

دلالة الخروج على المشاركة دلالة شاحبة اللون في القرآن الكريم ولم ترد إلا في شرحتين؛ هما: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَ لَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿ [التوبة: 47]، ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لِنُ تُخْرِجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُفَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴿ [التوبة: 83]. وكلاهما يزيجان الستار عن طقس دلالي موحد هو عدم مشاركة المنافقين في القتال مع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. ففي الشريحة الأولى يقول سبحانه تعالى: «لو خرج أيها المؤمنون فيكم هؤلاء المنافقون، لم يزيدوكم إلا فساداً وضراً، ولذلك تُبْطِئهم عن الخروج معكم»²⁰. والمؤشر الحرفي "في" في هذه الآية يدل على

"مع"²¹. فدلالة الخروج على المشاركة تبين الهدف والغاية التي وقع الخروج من أجله. فتارة أخرى تحضر تقنية التضخيم في الواجهة كآلية فاعلة في الخلق الدلالي فعلاقة هذه الدلالة بالمعنى المركزي تبرز في وضع عدسة مكبرة على الغاية المنشودة التي يتبع خطاها المنتقل. هذه الدلالة دلالة أسلوبية تتولد إثر اقتران المؤشر الفعلي بالمؤشر الحرفي: [تخرجون + معي: تشاركوني في الخروج].

وهناك من يشك في استقلالية هذا الإيحاء إذ يرى الخروج فيه هوهو والمشاركة ليست إلا صورة أخرى للمعنى التي يؤمى إليه المؤشر الحرفي "في" أو "مع" فهناك تكثيف لعملية الخروج حيث يتزايد فيها عدد الخارجين إلى الحرب ولم يكن هذا الخروج خروجاً متذبذباً منفصلاً بعضه عن بعض بل الخروج يتحقق في حركة متسايرة متزاوجة متلاحقة متزامنة يحث المتلقي على التعبير عما يراه بأعينه بالمشاركة، والحق أن المشاركة تنبع عن تعدد الخروج المتزامن لكمية كبرى من الناس إلا أن الخروج لا ينثني عن المعهود ولا يتعد عما يتراءى في المشهد الأساسي والمعنى النووي. فلذلك يصح إطلاق الفشل على دلالة "خر ج: شارك" في اختبار المعنى المجزأ فعندما يتم حذف الأيقونات الحرفية المتجاورة من أمثال "في" أو "مع" تُحذف معها هذه الإيحائية التي تخطر بالبال إثر تفاعلات السياق مع المؤشر الفعلي "خر ج".

التركيز على إرادة وقصد إخراج المنتقل

خر ج: استخرج

دلالة "خر ج" على إرادة إخراج الكينون من موقعه المكاني يظهر في مظهر جهي، ويجانس الإيحاء المركزي إلا في بنيته الصرفية فهذه الدلالة أي إرادة الخروج وقصده تتجلى في باب "استفعال" وهذه القولية البنيوية أنتجت إيحاء مغايراً إلا أن هذه المغايرة ليست مؤبة بل تضيفي إلى الخروج البحث جانباً دلالياً آخر هو قصد الإخراج فالمشهد الأساسي في المؤشر الفعلي "خر ج" و"استخرج" هو هو إلا أن الثاني يتسع ليستوعب زاوية خفية مما يتوارى في نفسية الفاعل بأدق طريقة ممكنة.

وقد ورد هذا الإيحاء في القرآن الكريم في شرائح أربعة، هي: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِغَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِغَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: 76]، ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شْرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمَنْ كُلَّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَازِرَ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

[الفاطر: 12]، ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: 82]، ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلًا حَلِيَّةً تُلْبَسُونَهَا وَ تَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَ لَتَبْتَعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: 14].

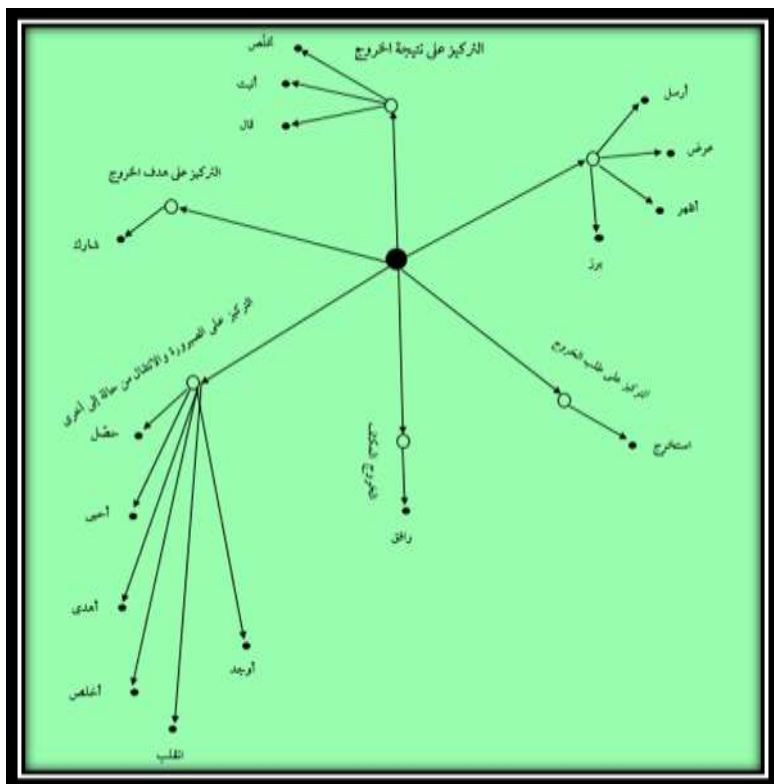
فالأفضية التي استقر فيها الخروج على أنه الاستخراج في القرآن الكريم تنشق إلى قسمين؛ فمنه ما ورد في الطقوس القصصية وصور ما صور من قصة النبي يوسف عليه السلام وإخوته وكيدة الذي كاده لإبقاء أخيه بنيامين عنده وهو في دين الملك وسرد ما سرد من حكاية النبي موسى والنبي خضر عليهما السلام وقد شرح فيها ما شرح عن كنوز علم كامنة وعن تصرفات غريبة غامضة تصدر عن خضر النبي إلى أن يفترق النبيان بعد أن تنجلي الأسرار وتتكشف الحجب.

أما الشق الثاني فيتعلق بالحلي التي يستخرجها الإنسان من الطبيعة لينسجها لباساً ويزيد على نفسه جمالاً نعمة وهبها الله سبحانه وتعالى لعباده.

لم تكن هذه الدلالة دلالة أسلوبية وينعدم فيها دور العلاقات التوزيعية الجوارية إلى حد كبير وتمتاز هذه الدلالة بجهيتها وانبعائها عن قولبة صرفية ويتمتع هذا الإيحاء بالاستقلالية على الرغم من التماثلات العديدة التي يلتقي بها والمعنى المركزي وتأتي هذه الاستقلالية من جهات: أولاً: إضفاء إيحاء مستجد على المعنى المركزي، ثانياً: الالتفات إلى غاية الفاعل في إخراج المنتقل، وثالثاً وأخيراً: خروج المنتقل من المبدئية لم يكن خروجاً ذاتياً بل يتم بتوسيط عامل خارجي.

طاف طائر البحث إلى هنا حول معاني المؤشر الفعلي "خرج" المستجدة وكيفياتها الهندسية وبيّن في طياته التقنيات التي وظّفت في إطار التوسيع الدلالي لهذا المؤشر من التضخيم والتركيز والعلاقات المجازية والتزاوجات التجريبية والتعاقبات الإدراكية وحالاً حان للبحث حينه كي يرسى بقوائم عند التواترات الدلالية لشبكة المؤشر الفعلي "خرج" في القرآن الكريم ليكشف عن مدى فاعليته في التوليد الدلالي وإنشاء أفضية رائعة.

الرسم البياني للتواترات الدلالية للمؤشر الفعلي "خرج" في القرآن الكريم



الشكل 3: الشبكة الدلالية للمؤشر الفعلي "خرج" في القرآن الكريم

تمتاز الشبكة الدلالية للمؤشر الفعلي "خرج" بمواصفات تتلخص في التالي:

■ تمتاز هذه الشبكة بست عكرات دلالية منها ما يظهر فيه المعنى المستجد لأجل التركيز على نتيجة خروج المنتقل من المبدئية تركيزاً بحثاً؛ ومن هذه الدلالات الناجمة عن هذا التحديق يمكن الإشارة دلالة الخروج على التخلّص والإنبات والقول؛ ومنه ما تتسمر الرؤية فيه على الصيرورة والتقلبات النفسية، هي: التحصيل، والإحياء والاهتداء، والانقلاب، والإيجاد ومنه ما يحدد على ظهور المنتقل ظهوراً بحثاً فيستوعب المعاني التالية: الإرسال والعرض والإظهار والبروز؛ وهذا الثالوث الدلالي يشكل عناقيد دلالية في هذه الشبكة. أما ما يتبقى من العكرات الدلالية فهي دلالات أفراد لا يظهر على شاشتها إلا معنى موحداً هي إرادة الإخراج الذي يظهر في المؤشر الفعلي "استخرج" والخروج المكثف الذي يتجلى في دلالة

الخروج على المرافقة وأخيراً دلالة الخروج على المشاركة وهي تلد إثر التركيز على هدف خروج المنتقل من المبدئية.

■ وقد أثبتت الدراسة أن دلالة "خ ر ج" على المشاركة والمرافقة لم تكن دلالة مستقلة وهما يتبادران إلى الأذهان بتأثير من السياق والعلاقات الجوارية ليس غير.

■ رصد المستويات الإيحائية في الدلالة العنقودية التي نشأت إثر التركيز على ظهور المنتقل ظهوراً بحثاً تزيل فكرة انفصال هذه المعاني بل تشدها شداً وتضمها ضمناً وتدسها دساً تحت راية واحدة هي "ظهر" فالإرسال والعرض والبروز لا تقتأ تدخل ضمن دلالة موحدة هي الظهور ولا بد أن تعد نمذجة دلالية متحدة لا انفصام لعراها.

■ وأخيراً شبكة "خ ر ج" في القرآن الكريم شبكة وسطى لا تتسع إلى أبعد مدى ولا يقتصر باعها فهي تهندس شبكة راقية معتدلة لاتنوء بكلكلها ولا تقصر رقبته.

نتائج البحث

أهم النتائج التي اطمأن اليها البحث في هذه الجولة على شاطئها تتلخص فيما يلي:

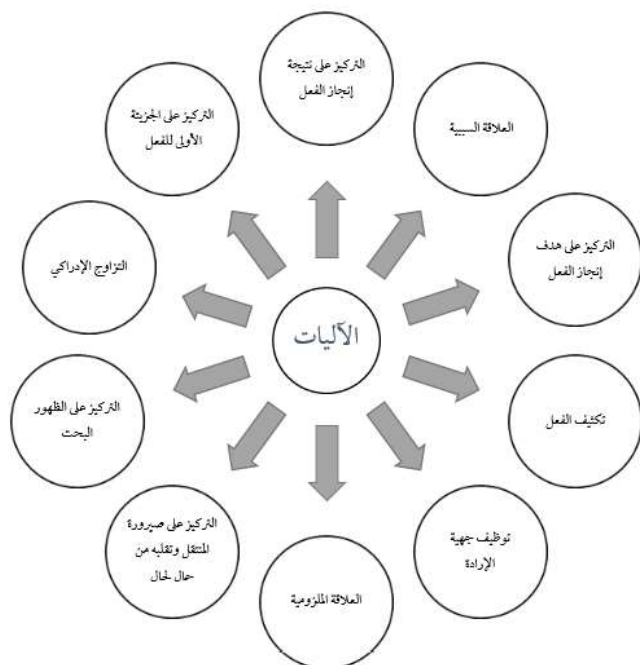
■ الشبكة الدلالية للمؤشر الفعلي "خ ر ج" في القرآن الكريم شبكة وسطى إذ تستوعب دلالات غير قليلة تصطدم بالدلالات المعجمية والتداولية وتفاوق هذين المستويين أي المعجمي والتداولي في شق منها.

■ الطقوس الإيحائية التي تجربها شبكة "خرج" في القرآن الكريم طقوس فسيفسائية تارة ينساق المخاطب بها إلى جو مرهب مريب هائل يتحمس به الإنسان خوفاً من غضب الله سبحانه وتعالى وعقابه. وتارة يقوم بتنبية المخاطب على النعم التي أنعمها رب العالمين على الناس أجمعين، ثمة قضية البعث والميعاد التي تتجلى في إنبات النباتات وهنالك طقوس رمادية تحذر المشركين على شركهم بالله العظيم وقولهم المريب الذي سجل نقطة سوداء سرمدية على جبينهم إذ قالوا: اتخذ الله ولداً، وهنالك تبشير وتحنان على أمة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على أنها خير أمة أخرجت للناس. وهنالك الفضاء الإعجازي يسجل على يد المؤشر الفعلي "خرج: أحى" باستدعاء قصة النبي عيسى عليه السلام إذ يخرج الموتى بإذن ربه أحياء ويبرئ الأكمة والأبرص وتقع دلالة الخروج على الانقلاب في تأطير قصصي خلاب فتجعل المتلقي يتلمس قصة موسى عليه السلام بمجاميعه وكأنه واقف أمام يده البيضاء التي خرجت من جيبه وتلألأت للناظرين والحضار.

■ واستوت الدلالات الأسلوبية على ضفة هذه الشبكة بامتياز وعلت على السطح لتحضن الإيحاءات التالية: [أخرج + النبات: أنبت]، [تخرج + الكلمة: تقال]، [أخرجت + من + البطون: ولدت]، [أخرج + من + الثمرات + رزقاً: حصل]، [يخرج + الموتى: يحيي]، [يخرجه + من + الظلمات: يهديه].

■ تفتح کیفیات التواترية في شبكة المؤشر الفعلي "خرج" في القرآن الكريم النافذة أمام إدراك الحقيقة وإبصارها وتدفع بالمتلقي نحو اليقين بالمعاد وقيام القيامة والملحوظ في هذا المجال هو المعنى النووي المركزي الذي يحطم الرقم القياسي قياساً لسائر الدلالات.

■ الآليات التي ظهرت في الواجهة لتنشئ دلالات مستجدة في شبكة المؤشر الفعلي "خرج" في القرآن الكريم؛ متكاثفة متراخمة وقد عملت فيها يد التضخيم إلى إنجاب إيحاءات مستجدة أكثر من الآليات الأخرى التي عملت على الخلق الدلالي بشكل فاعل. فتتجلى هذه الآليات في خطاطة التالية:



فالعلاقة السببية والتركيز على هدف إنجاز الفعل، وتكثيف الفعل، والتركيز على الجزئية الأولى للفعل، التزاوج الإدراكي التركيز على ظهور المنتقل ظهوراً بحتاً، والتركيز على

صيرورة المنتقل وتقلبه من حال لحال، العلاقة الملزومية، وأخيراً توظيف الجهة تلوح بأيديها أمام الدارس في إنشاء شبكة الدلالية للمؤشر الفعلي "خرج" في القرآن الكريم كتقنيات فاعلة.

الهوامش:

1. راجع: تايلور وإيوانز، The Semantics of English preposition، إنجلترا: 2003م، ص: 23-173.
2. راجع: جاكندوف، علم الدلالة العرفانية، تونس: 2010م، ص: 101-369.
3. راجع: رمضان نجار، التعدد الدلالي بين النظر والتطبيق، كتاب المؤتمر بكلية دار العلوم: 2008م: ص 1-33.
4. راجع: يزيدة، تعدد المعنى في كلمة دين، جاكارتا: 2014م، ص 1-72.
5. راجع: جلادري، the role of intertextual polysemy in qur`anic exegesis، ماليزيا: 2013م، ص 36-5.
6. راجع: أبي بكر علي، Transferring POLYSEMIC Words from Arabic into English، أستراليا: 2014م، ص 38-43.
7. راجع: تايلور وإيوانس، The Semantics of English preposition، إنجلترا: 2003م: ص 63-79.
8. راجع: تايلور وإيوانس، المصدر نفسه، ص 46-79.
9. راجع: الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس: بيروت: 1414 هـ.ق: ص 339.
10. المصطفي، 1430 هـ.ق: ص 40.
11. نهاوندي، التحقيق في كلمات القرآن الكريم، القاهرة: 1386 هـ.ش: ص 353.
12. راجع: مكارم شيرازي، مختصر الأمل، قم: 1428 هـ.ق: ص 176.
13. القاضي، تنزيه القرآن عن المطاعن، بيروت: 1426 هـ.ق: ص 25.
14. راجع: مكارم شيرازي، المصدر نفسه: ص 53.
15. الهاوردي، النكت والعيون تفسير الهاوردي، بيروت: د.ت: ص 358.
16. الطبراني، التفسير الكبير: تفسير القرآن العظيم، الإربد: 2008م: ص 382.
17. الطبرسي، مختصر مجمع البيان، قم: 1413 هـ.ق: ص 478.
18. أبوحيان، تفسير النهر الهاد من البحر المحيط، بيروت: 1407 هـ.ق: ص 89.
19. الإيجي، جامع البيان في تفسير القرآن، بيروت: 1424 هـ.ق، ص 149.
20. النيشابوري، إيجاز البيان عن معاني القرآن، بيروت: 1415 هـ.ق: ص 340.
21. راجع: ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب، بيروت: 1419 هـ.ق: ص 107.

مصادر البحث

أ. العربية

🕌 القرآن الكريم

ابن عادل، عمر بن علي (1419 هـ.ق). اللباب في علوم الكتاب، ط. 1، بيضون - لبنان - بيروت: دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي.

أبوحيان، محمد بن يوسف (1407 هـ.ق). تفسير النهر الهاد من البحر المحيط، ط. 1، لبنان - بيروت: دارالجنان.

الإيجي، محمد عبدالرحمن (1424 هـ.ق). جامع البيان في تفسير القرآن، ط. 1، بيروت: دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون. أبوحيان، محمد بن يوسف (1420 هـ.ق). البحر المحيط في التفسير، ط. 1، بيروت: دار الفكر.

الزبيدي، محمد بن محمد (1414 هـ.ق). تاج العروس من جواهر القاموس، محقق: علي شيري، ط. 1، بيروت: دار الفكر.

الطبراني، سليمان بن أحمد (2008 م). التفسير الكبير: تفسير القرآن العظيم، ط. 1، الإربد: دار الكتاب الثقافي.

الطبرسي، فضل بن حسن (1413 هـ.ق). مختصر مجمع البيان، ط. 2، قم: جماعة المدرسين في الحوزة العلمية بقم، مؤسسة النشر الإسلامي.

القاضي، عبد الجبار بن أحمد (1426 هـ.ق). تنزيه القرآن عن المطاعن، ط. 2، بيروت: دار النهضة الحديثة.

الماوردي، علي بن محمد (د. ت). النكت والعيون تفسير الماوردي، ط. 1، بيروت: دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون.

المصطوفي، حسن (1430 هـ.ق). التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ط. 3، القاهرة: دار الكتب العلمية.

مكارم شيرازي، ناصر (1428 هـ.ق). مختصر الأمثل، ط. 1، قم: مدرسة الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) - إيران - قم.

نهاوندي، محمد (1386 هـ.ش). نفحات الرحمن في تفسير القرآن، ط. 1، قم: مؤسسة البعثة، مركز الطباعة والنشر.

النيشابوري، محمود بن أبوالحسن (1415 هـ.ق). إيجاز البيان عن معاني القرآن، ط. 1، بيروت: دار الغرب الإسلامي.

يزيدة، فضلك (2014م). تعدد المعنى في كلمة "الدين"، بحث مقدم إلى كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة شريف هداية الله الإسلامية الحكومية جاكارتا، استكمالاً لمتطلبات الحصول على الدرجة الجامعية الأولى (S.Hum)، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب والعلوم الإنسانية.

النجار، نادية رمضان (2008م). التعدد الدلالي بين النظر والتطبيق؛ سورة "يوسف" نموذجاً، تمّ نشره بكتاب المؤتمر العاشر لكلية دار العلوم بعنوان: التفكير المنهجي في العلوم العربية والإسلامية.

جاكندوف، راي (2010م). علم الدلالة والعرفانية، ترجمة وتقديم: بنور عبد الرزاق، تونس: منشورات دار سيناترا - المركز الوطني للترجمة.

ب. الإنجليزية

Abobaker Ali, M. Alsaleh Brakhw, Dr. Munif Zarirruddin Fikri bin Nordin (2014). Transferring POLYSEMIC Words from Arabic into English: A comparative Study of Some Samples from the Holy Quran, Australian Journal of Basic and Applied Sciences, Pages: 38-43.

Galadari, Abdulla (2013). the role of intertextual polysemy in qur`anic exegesis, International Journal on Quranic Research (IJQR), Vol.3, No. 4, June 2013, Pp. 35-56.

Tyler. Andera and Vyvyan Evans (2003). The Semantics of English preposition spatial scenc, embodied meaning and cognition. Cambrige university. More imformation: www.cambrage.orgl .

ظاهرة الوقف في القرآن الكريم وأثرها في المعنى

د.أمنة شنتوف

مركزالبحث العلمي والتقني لتطوير اللغة العربية

-وحدة تلمسان-

aminachentouf84@gmail.com

تاريخ النشر: 2019/03/31

تاريخ القبول: 2019/01/07

تاريخ الإرسال: 2018/08/ 20

الملخص: تهدف هذه الدراسة إلى معالجة ظاهرة من أهم الظواهر الصوتية وهي ظاهرة الوقف وذلك من خلال التعريف بالوقف وأهميته وموقف العلماء منه والأسباب التي تدعو إليه ويركز على الوقف في القرآن الكريم بذكر أنواعه ومراتبه والأوجه التي يمكن الوقف عليها وما ينتج من اختلاف في المعنى في حالة الوقف على مواضع لا يجوز الوقف فيها.

الكلمات المفاتيح: الوقف؛ القرآن؛ مرسوم الخط؛ المعنى؛ الأثر.

The phenomenon of Waqf in the Holy Quran and its impact on meaning.

Abstract: The aim of this study is to address the phenomenon of the most important phenomena of sound, the phenomenon of Waqf, through the definition of Waqf and its importance and the position of scientists and the reasons it calls for and focuses on Waqf in the Holy Quran by mentioning its types and classes, and the aspects that can be stopped and the resulting difference in meaning in the case of the waqf on places where it is not permissible to stay there.

Key words: Waqf ; Quran; Line Decree; meaning ; Impact .

مقدّمة: للوقف وجه ومحلّ يراعيه القارئ أو المُتحدِّث وترتضيه اللغة، ومحلّ يحسّن معه انفصال الكلام، ويتبيّن به المعنى، وللكلمة الموقوف عليها حالة قبل الوقف تكون في الغالب مُعَايرة لحالتها بعده، ولذلك فإنّه يجب على المُتحدِّث أو القارئ أن يكون على دراية بأمرين :

أولهما: المواضع التي يحسّن الوقف عندها والتي تُعرّف بمحل الوقف.

وثانيهما: الكيفية التي يُوقّف بها، والتي تسمّى أوجه الوقف وبدائله.

وظاهرة الوقف تكون في النثر والشعر كما تكون في القرآن الكريم الذي هو موضوع هذه الدراسة والإشكالية المطروحة هي محاولة كشف الستار عن هذا العلم الذي يرسم طريقا واضحا لقارئ القرآن بحيث تؤدي الآيات معانيها فما المُشكل الحاصل من الوقف على الآيات القرآنية في غير موضعها ؟

وستكونا لإجابة عن هذا التساؤل من خلال عرض أهم النقاط المتعلقة بهذه الظاهرة الصوتية مع تخصيصها في القرآن الكريم وكيفية تغيير المعنى بالوقوف على ما لا يجوز الوقف عليه.

1/ تعريف الوقف:

أ/لغة: الواو والقاف والفاء أصل واحد يدل على تمكن في شيء والوقوف خلال الجلوس وقف بالمكان وقفا ووقوفاً فهو واقف والجمع وُقُفٌ ووقوف، يقال وقفت الدابة تقف وقوفاً ووقفتها أنا وقفاً، ووقّف الدابة جعلها تقف .

والوقف مصدر قولك (وقف)، فإن كان متعدياً تقول وقفت الدابة ووقفت الكلمة وقفا وهذا مجاز، فإذا كان لازماً فمصدره وقوف وإذا أوقفت الرجل على كلمة قلت: وقفته توقيفا¹.

ب/ اصطلاحاً: الوقف في اصطلاح النحويين البناء على السكون، قال سيبويه في باب مجاري أواخر الكلم من العربية :

" وهي تجري على ثمانية مجارٍ : على النصب والجرّ والرفع والجزم والفتح والضم والكسر والوقف² ومثّل له : بمن وكم وقط وإذا اضرب ومن وهل وبل وقد³

وقد يطلقون الوقف على الجزم تجوزاً، قال ابن جني: "...وكما يعبرون بالفتح عن النصب وبالنصب عن الفتح وبالجزم عن الوقف (و بالوقف عن الجزم)، كلّ ذلك لأنه أمر عُرف غرضه والمعنى والمعنيُّ به "⁴.

ولم تتعد هذه التعريفات عن تعريفات علماء الأصوات والقراءات الذين اهتموا بظاهرة الوقف كثيراً يقول السيوطي: " أفردته بالتصنيف خلائق منهم أبو جعفر النحاس وابن الأنباري والزجاج والدّاني والعماني، والسّجاوندي وغيرهم وهو فن جليل به يُعرف كيفية أداء القراءة "⁵.

واختلفت فيه عبارات القراء وأتمها تعريف ابن الجزري القائل، بأنه " قطع الصوت على آخر الكلمة زمناً يتنفس فيه عادة، بنية استئناف القراءة، إما بما يلي الحرف المؤؤوف عليه أو بما قبله، ولا يأتي في وسط الكلمة ولا فيما اتّصل رسماً ولا بد من التنفس معه "⁶.

وفي تعريف آخر هو قطع الصوت على الكلمة القرآنية زمناً يتنفس فيه عادة، مع قصد الرجوع إلى القراءة إمّا بما يلي الحرف المؤؤوف عليه أو بما قبله مما يصلح الابتداء به، ولا بدّ في الوقف من التنفس معه،⁷

ويكون الوقف في رؤوس الآي، وفي أوساطها، ولا يكون في وسط الكلمة ولا فيما اتّصل رسماً⁸.

2/دواعي الوقف وأسبابه: أمّا دواعي الوقف فأردنا بها حاجة كل من المرسل والمتلقي إليه

1. المرسل: وإما أن يكون قارئاً أو متكلِّماً، فإن كان قارئاً كانت حاجته إلى الوقف

لأمرين

الأول: ليتنفس، إذ لا يستطيع ذلك في أثناء القراءة

والآخر: لينشأ بهذا التنفس زفيراً يُثَقِّفه في متابعة القراءة⁹

وقد ألمح القسطلاني إلى الأمر الأوّل بقوله: "...لما كانت من عوارض الإنسان التنفس اضطرّ القارئ إلى الوقف"¹⁰

وأشار الزركشي إلى الآخر بقوله: "واعلم أن الوقف في الكلام قد يمكن أن يكون من غير انقطاع نفس، وإن كان لا شيء من انقطاع النفس إلا ومعه الوقف. والوقوف أمرها على سبيل الجواز إلا الذي بُني عليه الكلام وما سواه، فعليك منه أن تختار الأفضل فالأفضل، بشرط أن تطابق به انقطاع نفسك لينجز عند السكت إلى باطنك من الهواء ما تستعين به ثانياً على الكلام الذي تنشئه بإخراجه على الوجه المذكور وقد يكون المرسل مُتَكَلِّمًا وهذا لا يهمنا لأننا نتكلم عن الوقف في علم القراءات وبالتالي يهمنا القارئ فقط فلا داعي للتفصيل فيما يتعلق بالمتكلم

2. المتلقي: والوقف ليس حاجة عند المرسل وحسب، بل هو أيضا لأخرى عند المتلقي، فهو يحتاج إلى زمن يُدير فيه الكلمات التي تلقى عليه في ذهنه، ويُؤلّف بين شتى معاني المقال والمقام حتى يصل إلى طلبة المتكلم. فإن انهال عليه الكلام انهيا لا غير مفصل بوقفات يلتقط فيها أنفاسه، اختلط عليه الأمر، ولم يحلّ من ذلك الكلام بطأئيل.¹¹

أما أسباب الوقف فهي ما يقتضيه في موطن بعينه، وهي على نوعين:

❖ أسباب اختيارية: كتمام المعنى كلياً أو جزئياً، أو منح السامع مهلة للتأثر أو التشويق، أو دفع اللبس

❖ أسباب اضطرارية: كانقطاع النفس، أو العطاس، أو السعال، أو النسيان.

قال ابن الجزري: "أكثر ما ذكر الناس في أقسام الوقف غير مُنصِبٍ ولا مُنحَصِرٍ، وأقرب ما قلته في ضبطه أنّ الوقف ينقسم إلى اختياري واطراري، وهو المُسمّى بالقبيح، ولا يجوز تعمد الوقف عليه إلا لضرورة من انقطاع نفس ونحوه لعدم الفائدة أو لفساد المعنى."

3/ أقسام الوقف:

ينقسم الوقف إلى أربعة أقسام، وهي:

1. الوقف الاختباري: وهو طلب الوقوف من القارئ على كلمات معينة ليست محللاً للوقوف، بقصد الامتحان.

2. الوقف الانتظاري: هو الوقف على الكلمة القرآنية التي بها أكثر من قراءة ليستوعب ما فيها من أحكام القراءات

3. الوقف الاضطراري: وهو ما يعرض للقارئ بسبب ضرورة أجاته إلى الوقف كالعطاس وضيق التنفس أو غلبة البكاء

4. الوقف الاختياري: هو أن يقف القارئ على كلمة باختياره المحض من غير عروض بسبب من الأسباب المتقدمة

وهذا القسم هو المقصود بيانه وينقسم إلى:

أ/ الوقف الجائز

ب/ الوقف غير الجائز.

1. ينقسم الوقف الجائز بدوره إلى ثلاثة أنواع: تام وكافي وحسن

الوقف التام: وله صورتان: ✓

*الوقف اللازم: هو الوقف على كلمة تبين المعنى ولا يفهم هذا المعنى من دون هذا الوقف.

*الوقف التام المطلق: هو الذي يحسن الوقف عليه، ويحسن الابتداء لها بعده طالما أن وصله لا يغير المعنى الذي أراد الله تعالى.¹²

مثاله : كالوقف على رؤوس الآي : نحو الوقف على قوله تعالى: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [

الفتحة / 04]

حكمه: يحسن الوقف عليه وأيضا يحسن الابتداء بما بعده والوقف عليه أولى من الوصل.

والوقف التام أكثر ما يكون في رؤوس الآي وانقضاء القصص نحو الوقف على بسم الله الرحمن الرحيم والابتداء ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ونحو الوقف على ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ والابتداء ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ونحو ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ والابتداء ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة/ 20] والابتداء ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة/ 21]

وقد تكون قبل انقضاء الفاصلة نحو: ﴿وَجَعَلُوا أَعْرَظَ أَهْلِهَا أَدْلَةً﴾ هذا انقضاء حكاية كلام بلقيس ثم قال تعالى ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل الآية34] رأس آية. وقد تكون وسط الآية نحو ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ هو تمام حكاية قول الظالم وهو أبي بن خلف ثم قال تعالى ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَدُولًا﴾ [الفرقان/29]

وقد يكون بعد انقضاء الآية بكلمة نحو ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا﴾ آخر الآية وتمام الكلام ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا 90كَذَلِكَ﴾ [الكهف الآية 90 و91]¹³

ضوابط الوقف التام: من العلامات الدالة على الوقف التام ما يلي:

1.الابتداء بعده بالاستفهام ملفوظا أو مقدرا نحو قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ 69 أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج الآية 69 و70]

2.الابتداء بعده ب"ياء" النداء، نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ 20 يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة 20 و21]

3.الابتداء بعده بفعل الأمر، نحو قوله تعالى: ﴿وَرَزَقْنَاكَ حَيْثُ وَأَبْقَى 131 وَأَمُرْ أَهْلِكَ بِالصَّلَاةِ وَأَصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [سورة طه الآية 131و132]

4.الابتداء بعده بالشرط: نحو قوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء /123].

5.الفصل بين آية عذاب بآية رحمة، نحو قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ 24 وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رَزَفُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رَزَقُوا قَالُوا هَذَا الَّذِي رَزَقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنُوبُوا بِمِثْلَيْهَا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا حَالِدُونَ﴾ [البقرة 24و25]

6.العدول عن الإخبار إلى الحكاية، نحو قوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ 159 وَقَطَعْنَا لَهُمْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ اصْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْعَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّانَ وَالسَّلْوَى كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف الآية 159و160]

7.انتهاء الاستثناء، نح قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ 160 إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ 160 إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [البقرة الآيات 159و160و161]

8.انتهاء القول، نحو قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ 70 قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾ [الشعراء70و71]

9.الابتداء بعده بالنفي أو النهي، نحو قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ، لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ

بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالصَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا
وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿ [البقرة/176 و177]

10. الفصل بين الصفتين المتضادتين، نحو قوله تعالى: ﴿ هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا
بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٍ ﴾ [سورة الجاثية الآية 11].

11. انقطاع الكلام على موضوع معين للانتقال إلى غيره، كالوقف على قوله تعالى: ﴿
وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة/216]، لأنها نهاية الكلام على أحكام الطلاق وما بعده
بدء في ذكر أحكام أخرى¹⁴.

✓ الوقف الكافي : هو الوقف على كلام تام في ذاته مُتَعَلِّقٌ بما بعده في المعنى
وَدُونَ اللَّفْظِ، وَسُمِّيَ بِالكَافِي لِلاِكْتِفَاءِ بِهِ عَمَّا بَعْدَهُ وَاسْتِغْنَاءِ مَا بَعْدَهُ عَنْهُ نَحْوَ قَوْلِهِ
تَعَالَى: ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ ﴾ [البقرة / 10 كافي]. وقوله: ﴿ فَرَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة/10]
أكفى منه، وقوله ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ [البقرة/10]
[أكفى منها].

حكمه : يحسن الوقف عليه والابتداء بما بعده كالوقف التام¹⁵.

✓ الوقف الحسن : هو الوقف على ما يُؤدِّي معنًى صحيحاً، لكن الكلام متعلِّقٌ
بما بعده لفظاً ومعنىً مثل قوله تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ من قوله تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ

رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الفاتحة /02]، إلا أن يكون رأس آية فإنه يجوز في اختيار أكثر

أهل الأداء لمجيئه عن النبي صل الله عليه وسلم كان إذا قرأ قطع قراءته آية آية
يقول بسم الله الرحمن الرحيم ثم يقف ثم يقول الحمد لله رب العالمين ثم يقف ثم
يقول الرحمن الرحيم ملك يوم الدين رواه أبو داود ساكتا عليه، والترمذي وأحمد
وأبو عبيدة وغيرهم وهو حديث حسن وسنده صحيح، وكذلك عند بعضهم الوقف
على رؤوس الآي سنه¹⁶

حكمه : يحسن الوقف عليه : أما الابتداء بما بعده ففيه تفصيل وهو لا يأتي إلا في وسط الآي.

2.الوقف غير الجائز : وله نوع واحد فقط وهو الوقف القبيح

✓ الوقف القبيح: هو الوقف على كلام لم يتم معناه لتعلُّقه بما بعده لفظاً ومعنى، نحو الوقف على بسم، وعلى: الحمد، وعلى: رب، ومملك يوم، وإياك، وصراط الذين، وغير المغضوب، فكل هذا لا يتم عليه كلام ولا يفهم منه معنى.

وقد يكون بعضه أقبح من بعض كالوقف على ما يُغَيِّر المعنى نحو: ﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ﴾ [النساء/11]، فإنَّ المعنى يفسد بهذا الوقف لأنَّ المعنى أنَّ البنَّت مشتركة في النصف مع أبيه، وإثما المعنى أنَّ النصف للبنَّت دون الأبوين، ثمَّ استأنف الأبوين بما يجب لهما مع الولد، وكذلك الوقف على قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى﴾ [الأنعام/36] إذ الوقف عليها يقتضي أن يكون الموتى يستجيبون مع الذين يسمعون وليس كذلك بل المعنى أن الموتى لا يستجيبون، وإثما أخبر الله تعالى عنهم أنهم يبعثون مستأنفاً بهم . وأقبح من هذا ما يحيل المعنى ويؤدي إلى ما لا يليق والعباد بالله تعالى نحو الوقف على ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَجِيبُ﴾ [البقرة/26] وفي قوله تعالى ﴿قُبِّهَتْ الَّذِي كَفَّرَ وَاللَّهُ﴾ [البقرة/258] و﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي﴾ [الأنعام/144] و﴿لَا يَبْعَثُ اللَّهُ﴾ [النحل/38]

و﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَبِاللَّهِ﴾ [النحل/60] و﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ [الماعون/4]

فالوقف على ذلك كله لا يجوز إلا اضطراراً لانقطاع النَّفس أو نحو ذلك من عارض لا يمكنه الوصل معه فهذا حكم الوقف اختياراً واضطرارياً¹⁷.

حكمه : بحرم تعمد الوقف عليه إلا لضرورة ملحة¹⁸.

4/أهمية الوقف: تتمثل في جانبين مهمين:

الأول : وهو تبين معاني القرآن العظيم وتعريف مقاصده أما الجانب الثاني : تبين أوجه التأويل تبعاً لاختلاف أماكن الوقف والابتداء¹⁹.

6/ الفرق بين الوقف والسكت والقطع والتذكّر: نبّه ابن الجزري على الفرق بين الوقف والقطع والسكت، فذكر أنّ هذه العبارات جرت عند كثير من المتقدمين مراداً بها الوقف غالباً، ولا يريدون بها غير الوقف إلاّ مقيدة .

وأما المتأخرون وغيرهم من المحققين، فإنّ القطع عندهم: عبارة عن قطع القراءة رأساً، فهو كالانتهاء، فالقارئ به كالمعروض عن القراءة والمنتقل منها إلى حال أخرى سوى القراءة .

والسكت: هو عبارة عن قطع الصوت زمناً هو دون زمن الوقف عادة من غير تنفّس .

فالقطع إذا هو آخر وقف في القراءة، والسكت يباين الوقف في ثلاثة أشياء:

أولها: أنّه لا تنفّس فيه، في حين أنّ التنفّس ركن في الوقف²⁰.

والثاني: أنّه أقلّ من الوقف مدّة .

والثالث: أنّه يرِدُ في جزء الكلمة كما يرد في آخرها، كسكت حمزة على الساكن قبل الهمز، نحو قوله تعالى: ﴿ بِهَا نُزِّلَ ﴾ [البقرة/ 90]، في حين لا يأتي الوقف إلاّ في آخر الكلمة²¹.

أما التذكّر: ويقول الرّجل إذا تذكّر ولم يرِدْ أن يقطع كلامه قالاً فيمَدّ قال، ويقول، فيمَدّ يقول، ومن العامي، فيمَدّ العام، سمعناهم يتكلّمون به في الكلام ويجعلونه علامة ما يتذكّر به ولم يقطع كلامه. فإذا اضطرّ إلى مثل هذا في الساكن كسروا، سمعناهم يقولون: إنّه قَدِي في قد، ويقولون: ألي في الألف واللام يتذكّر الحارث ونحوه.

وسمعنا من يوثق به ذلك يقول: هذا سيُفني، يريد: سيف، ولكّنه تذكّر بعد كلاماً ولم

يرد أن يقطع اللفظ، لأنّ التّنين حرف ساكن، فيكسر كما تكسر دال قد.²²

7/ أثر الوقف في المعنى: لا بد للقارئ من الوقف بصورة تُمكّنه من التمييز بين أنواع الوقف المختلفة وبخاصة الوقف القبيح حتّى يتحاشى الوقف عليه وما يترتب عليه من الوقوع في بعض المحاذير هذا بالإضافة إلى اتّضح المعنى وبيانه لمن فهم الوقف والابتداء. ومن لم

يعرف الوقف يخلط بين المعاني المختلفة والأحكام المتغايرة كالوقف على قوله تعالى: ﴿وَاللَّائِي يَأْسُنُ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ رُزِبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتِ الْأَحْمَالِ﴾ [الطلاق / 4]

فالوقف على مثل هذا الموضع فيه تغيير للمعنى وتبديل للأحكام الشرعية إذ يجعل الوقف يجعل عدّة أولات الأحمال ثلاثة أشهر مع عدة اللائي يأسن من المحيض واللائي لم يحضن .

فالوقف له أهمية كبرى في إيضاح معاني الآيات ومقاصدها، وتحقيق ما يرجوه القارئ من تلاوة كتاب الله سبحانه وتعالى ومعرفة معاني القرآن وتفسيره وإعرابه وقراءته، فقد تقتضي بعض القراءات وقفا لا تقتضيه القراءة الأخرى²³.

ومن العلماء من يرى أن القارئ لا يستطيع بدون الوقف أداء القراءة التي تعينه على فهم معاني الآيات وتعصمه عن الوقوع في المشكلات إذ يقولون " به يعرف كيفية أداء القرآن وبه تتعين معاني الآيات، ويؤمن من الاحتراز عن الوقوع في المشكلات"²⁴

ويؤكد هذا المعنى الإمام السخاوي قائلاً: " ففي معرفة الوقف والابتداء الذي دونه العلماء تبيين معاني القرآن العظيم وتعريف مقاصده، وفوائده وله يتهدى الغوص على دوره وفوائده فالقارئ لكتاب الله عليه أن يهتم بالوقف والابتداء وأن يقف عند المعاني غير المرتبطة، فيفهم ويعني ما يقرأ حتى إذا سمعه مستمع عرف ما ترمي إليه الآيات لأن قارئ القرآن عليه "أن يتفهم ما يقرأه ويشعل قلبه ويتفقد القطع والاستئناف ويحرص على أن يفهم المستمعين في الصلاة وغيرها وأن يكون وقفه عند كلام مستغني أو شبيهه وأن يكون ابتداءه حسناً"

ومما يدلّ على أثره في المعنى اهتمام الصحابة به وتعلمهم له كما يتعلمون القرآن فقد قال عبد الله بن عمر " لقد عشنا برهة من دهرنا وإن أجدنا ليؤمن الإيمان قبل القرآن وتنزل السورة على محمد صلى الله عليه وسلم فتتعلم حلالها وحرامها وما ينبغي أن يوقف عنده منها كما تتعلمون أنتم اليوم القرآن، ولقد رأيت اليوم رجالا، يؤتى أحدهم القرآن الإيمان فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته ما يبدي ما أمره ولا زاجره، وما ينبغي أن يوقف عنده منه ينثره نثر الدقل"²⁵

فالوقف والابتداء لهما أثرهما الكبير في المعنى ومن لم يعرفهما وما يترتب عليهما، يقع في خلط للمعاني كلما مرّ بنا في أقسام الوقف عامّة وفي القبيح بخاصة وإلى إحالة للمعنى إلى معنى آخر، فالذي يقرأ قوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْئَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ وَمَالِي﴾ ويقف هنا ثم يبتدئ (لا أعد) فهذا وما مثله قبيح في الابتداء لما فيه من سوء الأدب مع الله تبارك وتعالى وإحالة المعنى إلى معنى آخر لا يمكن التفوه به مطلقاً²⁶.

وكذلك لو وصل في قوله تعالى: ﴿وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا﴾

[التوبة/40] فيه دلالة على أن كلمة الله كانت السفلى فصارت عليا ولكن المعن ليس كذلك.

لذلك يتعين على القارئ أن يقف عند كلمة السفلى ليستأنف من قوله تعالى: ﴿وَكَلِمَةٌ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ حتى لا تختلط المعاني.

وشبيه بهذا قوله تعالى: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمْ سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا﴾ [القصص/35]

وهذا الوقف يجعل الخبر قوله تعالى: ﴿أَنْتُمْ وَمَنْ اتَّبَعَكُمُ الْعَالِيُونَ﴾ [القصص الآية35]

ولكن إضافة الغلبة إلى الآيات أولى من إضافة عدم الوصول إليها لأن المراد بالآيات العصا وصفاتها وقد غلبوا بها السحرة فيكون الوقف على إليكما من قوله تعالى ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ [القصص الآية 35]، فيكون قسما معناه وحق آياتنا لتغلبن²⁷.

وهناك أمثلة لتغير المعنى يستحيل حصرها، لأنها تحدث نتيجة الخطأ في الوقف، لذلك نكتفي بذكر نماذج منها، كالوقف على قوله تعالى ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ﴾ [يوسف/17] فكأن يوسف عليه السلام أكل المتاع وهو الفاعل مع أن الفاعل في الآية هو

الذئب ﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ لكن الوقف غير المعنى وحوله إلى شيء آخر.

أو الوقف على قوله تعالى: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي ﴾ [المسد الآية 1] ألم يكن هذا دعاء على القارئ نفسه والعياذ بالله وما ذاك إلا نتيجة للوقف الخاطيء الذي قد لا يقصده القارئ ولكن الجهل يوقعه في هذا. وكذلك من تجاوز الوقف على قوله تعالى ﴿ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ [الإنسان الآية 31] ووقف عند قوله تعالى ﴿ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ

وَالظَّالِمِينَ ﴾ لأنه يجوز أن يكون والظالمين معطوفا على " من " غير أنها منصوبة بفعل تقديره.

أو الوقف على قوله تعالى ﴿ قُلْ إِنَّهَا أَعْظَمُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَى خِزْفٍ ﴾ [سبا الآية 46] فالوقف تام عند أبي حاتم عند قوله تعالى ﴿ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾ ثم يستأنف القارئ ﴿ مَا بِصَاحِبِكُمْ ﴾، جعل "ما" موصولة بمعنى الذي وهذا ما يؤدي إلى معنى فاسد غير مرادف من الآية التي جاءت لتنفي عن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْجِنَّةَ، لأنَّ إثبات ذلك لا يصح أن يتَّصِفَ به من كان أرجح عقلا وأثبتهم ذهنا وأصدقهم قولا وأنزههم نفسا، ومن ظهر على يده هذا القرآن المعجز، فيعلمون بالفكرة أن نسبه للجنون لا يمكن، ولا يذهب إلى ذلك عاقل، وأن من نسبه إلى ذلك مغتر كاذب²⁸.

خاتمة: بعد عرض أهم ما يتعلق بالوقف في القرآن الكريم توصلت إلى ما يلي:

- الوقف والابتداء لهما أثرهما العظيم في بيان المعنى وظهوره، وإهمالهما يؤدي إلى فساد المعنى.

- الوقف يتسامح فيه أكثر من الابتداء لأن الوقف يكون اضطراريا لقطع النفس أو غيره أما الابتداء فهو خيار لذلك لا بد أن يكون موضع إفادة واستئناف.

- إذا كان الوقف صحيحا فهو يؤدي إلى فهم المعنى الصحيح المراد أما إذا كان الوقف في غير موضعه قد يفسد المعنى ويؤدي إلى إيجاد معنى غير مراد في ذهن القارئ.

- القارئ مأمور عند العلماء بإحسان الوقف والابتداء حفاظا على النظم الذي أعجز البلغاء تصويره وتفصيله، فباحسان الوقف تبدى للسامع فوائده الوافرة ومعانيه الفائقة.

وختاماً أقول أن الوقف ظاهرة صوتية مهمة جداً في قراءة القرآن الكريم وهذا ما يُعقِّله الكثير من الناس فالواجب الاهتمام بمثل هذه المواضيع وتعريفها للعامة والتطبيق المستمر من خلال حصص تلفزيونية أو إذاعية حتى لا يقع القارئ للقرآن في الخطأ.

الهوامش:

- ¹ ينظر: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار لسان العرب، د.ط، بيروت، لبنان، د.ت، ج358/9.
- وأحمد بن فارس، مقاييس اللغة: تح: عبد السلام هارون - دار إحياء الكتب العربية، ط1، القاهرة -1371 ج 135/6
- ² أبو البشر عثمان بن قنبر سيويه، الكتاب، تحقيق: محمد عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، ط 3، القاهرة، 1408 هـ، 1988م، ج13/1
- ³ المرجع نفسه ج17-15/1
- ⁴ أبو الفتح عثمان بن جني، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، المكتبة العلمية، د.ط، د.ت، ج469/2
- ⁵ جلال الدين السيوطي، الإتيان في علوم القرآن، مؤسسة الرسالة، ط1، دمشق، سوريا، 1429هـ، 2008م، ج177/1
- ⁶ الحافظ أبي الخير محمد بن محمد الدمشقي، النشر في القراءات العشر، دار الكتب العلمية، ط3، بيروت، لبنان، 1427هـ، 2006م، ج240/1
- ⁷ محمود خليل الحصري، أحكام قراءة القرآن الكريم، المكتبة دار البشائر الإسلامية، ط1999، ص4، ص251
- ⁸ المرجع نفسه
- ⁹ عبد البديع النيرباني، الوقف في العربية على ضوء اللسانيات، دار الفوناني للدراسات القرآنية، ط1، دمشق - 1428 هـ - 2008 م، ص45
- ¹⁰ شهاب الدين القسطلاني، لطائف الإشارات لفنون القراءات، تح: عامر السيد عثمان و عبد الصبور شاهين، لجنة إحياء التراث الإسلامي، د.ط القاهرة، 1972 م، ج247/1
- ¹¹ الوقف في العربية على ضوء اللسانيات، ص47
- ¹² ينظر: محمود بن رأفت بن زلط: أحكام التلاوة والتجويد، مؤسسة قرطبة، ط1، مدينة الأندلس، 1427خ، 2006م، ص85 و86 وينظر: أحكام قراءة القرآن الكريم، ص257
- ينظر: النشر في القراءات العشر، ج178/1 و179¹³
- ¹⁴ عبد الكريم إبراهيم عوض صالح، الوقف والابتداء وصلتهما بالمعنى في القرآن الكريم، دار السلام، ط1، القاهرة، جمهورية مصر، 1427 هـ، 2006م، ص145 و146
- ¹⁵ ينظر: أحكام التلاوة والتجويد، ص86. وأحكام قراءة القرآن الكريم، ص257.
- ¹⁶ ينظر: النشر في القراءات العشر، ج178/1
- ¹⁷ ينظر: المصدر نفسه، ج181/1

- ¹⁸ ينظر: أحكام التلاوة والتجويد، ص 86 و87، وأحكام قراءة القرآن الكريم، ص 257 و258 و259
- ¹⁹ ينظر: خالد قاسم بني دومي، دلالات الظاهرة الصوتية في القرآن الكريم، جدار للكتاب العالمي، عالم الكتب الحديث، ط1، الأردن، 2006، ص 91
- ينظر: النشر في القراءات العشر، ج1/188 و190.²⁰
- ينظر: المرجع نفسه، ج1/325.²¹
- ²² ينظر: أبو البشر عثمان بن قنبر سيبويه، الكتاب، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط1402، ه2، 1982م ج4/216.
- ²³ سر الختم الحسن عمر، الوقف وأثره في المعنى، مجلة جامعة العلوم الإسلامية، مج9، العلوم التربوية والدراسات الإسلامية، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1417هـ/1997م، ص133 و134
- ²⁴ بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تح، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابلي الحلبي، ط1، القاهرة، 1376هـ/1957م، ج2/42
- ²⁵ أبو جعفر النحاس، كتاب القطع والائتناف تح، أحمد خطاب العمر، مطبعة العاني، ط1، بغداد، 1398هـ/1978م، ج1/98
- ²⁶ عبد الفتاح السيد عجمي، هداية القارئ إلى تجويد كلام البارئ، طبع على نفقة الشيخ علي بن عوض، ط1402، ه1، 1973م، ص397
- سر الختم الحسن عمر، الوقف وأثره في المعنى، ص138²⁷
- ²⁸ أبو حيان محمد بن يوسف، تفسير البحر المحيط، دار الفكر، ط2، بيروت، 1403هـ/1983م، ج2/291

قائمة المصادر والمراجع:

1. أحمد بن فارس، مقاييس اللغة: تح: عبد السلام هارون - دار إحياء الكتب العربية، ط1، القاهرة -1371
2. بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تح، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابلي الحلبي، ط1، القاهرة، 1376هـ/1957م، ج2
3. أبو البشر عثمان بن قنبر سيبويه، الكتاب، تحقيق: محمد عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، ط3، القاهرة، ، 1408 هـ، 1988م ج1
4. أبو البشر عثمان بن قنبر سيبويه، الكتاب، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط1402، ه2، 1982م ج4.
5. أبو جعفر النحاس، كتاب القطع والائتناف تح، أحمد خطاب العمر، مطبعة العاني، ط1، بغداد، 1398هـ/1978م، ج1
6. جلال الدين السيوطي، الإتيان في علوم القرآن، مؤسسة الرسالة، ط1، دمشق، سوريا، 1429هـ، 2008م.
7. الحافظ أبي الخير محمد بن محمد الدمشقي، النشر في القراءات العشر، دار الكتب العلمية، ط3، بيروت، لبنان، 1427هـ، 2006م .

8. أبو حيان محمد بن يوسف، تفسير البحر المحيط، دار الفكر، ط2، بيروت، 1403هـ/1983م، ج2
9. خالد قاسم بني دومي، دلالات الظاهرة الصوتية في القرآن الكريم، جدار للكتاب العالمي، عالم الكتب الحديث، ط1، الأردن، 2006.
10. سر الختم الحسن عمر، الوقف وأثره في المعنى، مجلة جامعة العلوم الإسلامية، مج9، العلوم التربوية والدراسات الإسلامية، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1417هـ/1997م.
11. شهاب الدين القسطلاني، لطائف الإشارات لفنون القراءات، تح: عامر السيد عثمان وعبد الصبور شاهين، لجنة إحياء التراث الإسلامي، د.ط القاهرة، 1972 م.
12. عبد البديع النبراني، الوقف في العربية على ضوء اللسانيات، دار الفوثاني للدراسات القرآنية، ط1، دمشق-1428 هـ-2008 م.
13. عبد الفتاح السيد عجمي، هداية القارئ إلى تجويد كلام البارئ، طبع على نفقة الشيخ علي بن عوض، ط1402، 1403هـ/1973م.
14. عبد الكريم إبراهيم عوض صالح، الوقف والابتداء وصلتهما بالمعنى في القرآن الكريم، دار السلام، ط1، القاهرة، جمهورية مصر، 1427هـ، 2006م.
15. أبو الفتح عثمان بن جني، الخصائص، تحقيق محمد علي النجّار، دار الكتب المصرية، المكتبة العلمية، د.ط، د.ت.
16. أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار لسان العرب، د.ط، بيروت، لبنان، د.ت
17. محمود بن رأفت بن زلط: أحكام التلاوة والتجويد، مؤسسة قرطبة، ط1، مدينة الأندلس، 1427خ، 2006م.
18. محمود خليل الحصري، أحكام قراءة القرآن الكريم، المكتبة دار البشائر الإسلامية، ط4، 1999.

حجاجة المقاطع الصوتية في الخطب السياسية

للإمام علي

د. كمال الزماني

جامعة القاضي عياض كلية اللغة العربية مراكش المغرب

kamalezzamani@hotmail.com

تاريخ النشر: 2019/03/31

تاريخ النشر: 2019/02/24

تاريخ إرسال المقال: 2018/11/05

الملخص: تسهم المقاطع الصوتية، بما تتضمنه من خصائص صوتية متعددة، في الإيحاء إلى المعاني المراد التعبير عنها. ولذلك، فإن تتبع كمية المقاطع الموظفة في الكلام، وتحديد نوعيتها من حيث الانفتاح والانغلاق يعد منفذا للولوج إلى مضامينه، والوقوف على المقاصد الحجاجية من توظيفه.

ويحاول هذا المقال بيان أن المقاطع الصوتية الموظفة في الخطب السياسية للإمام علي رضي الله عنه تؤدي دورا حجاجيا مهما، حيث تجعل الكلام قادرا أكثر من غيره على جذب المخاطب إلى عالم الخطاب، وتنبيهه إلى طبيعة القضايا المعروضة عليه، وحمله على العمل بمحتواها.

الكلمات المفتاحية: المقاطع الصوتية؛ الحجاج؛ الخطب السياسية؛ السياق؛

المخاطب

The argumentative role of phonetic syllables

in the political speeches of Imam Ali

Abstract: The phonetic syllables Contribute, by its phonetic characteristics, to connote to the intended meanings. That's why, counting

the number of syllables used in the speech, and determine its nature in terms of opening and closing is an outlet to access its content, and know the argumentative objectives of its function.

This article tries to show that the phonetic syllables used in the political speeches of Imam Ali can play an important argumentative role because they make speech more capable of attracting the interlocutor in the world of discourse, to stimulate him to discover the nature of the proposals presented, and push him to work with his content.

Key words: The phonetic syllables; argumentation; Political speeches; the context; the recipient

تقديم: يعد المقطع الصوتي مظهرا من مظاهر الانفعال النفسي، وذلك لوجود لعلاقة توافق بين طبيعة المقاطع الموظفة وطبيعة الحدث أو المقام الذي وردت فيه، فتوزيع المقاطع وطريقة تأليفها لهما دور هام في تحديد هذه العلاقة، إذ لما كانت المقاطع تنقسم، بحسب زمن نطقها وقوة تسميعها، إلى مقاطع مقلدة وأخرى مفتوحة، فإن تتبع كمية المقاطع المهمة، وتحديد نوعها، من شأنه الكشف عن دورها في توجيه المخاطب إلى تحديد موقف معين من الكلام، فهو إذ يتكرر على مسامعه نوع معين من المقاطع، فإن ذلك يشكل بالنسبة له دعوة إلى أن الأمر المعروض عليه يتطلب موقفا معينا في التعامل، ودرجة معينة من السرعة في التنفيذ، قد لا يتطلبها نوع آخر.

ولذلك، فإن توظيف المقاطع الصوتية في الخطاب يؤدي أدوارا حجاجية مهمة، هي ما سنحاول الكشف عنها، متخذين الخطاب السياسية للإمام علي رضي الله عنه متنا للدراسة. فما هو المقطع الصوتي؟ وما هي حجاجيته في هذه الخطب؟

1- مفهوم المقطع الصوتي عند اللغويين المحدثين: يعد مفهوم المقطع الصوتي من المفاهيم الحديثة في الدراسات اللغوية العربية، التي استفادت "من الدراسات اللغوية الأجنبية، أما القدماء فلم يكونوا يعرفونه، وكانوا ينظرون في نظام الحركات والسكنات، وجرى الخليل بن أحمد (170هـ) على تسمية العناصر الإيقاعية للشعر بالأسباب والأوتاد والفواصل"¹. وقد وجد اللغويون صعوبة في تحديد هذا المفهوم، إذ "لم ينجحوا حتى الآن في

إعطاء وصف شامل دقيق له². وتعود صعوبة هذا التحديد إلى اختلاف زوايا النظر إلى الأصوات والهدف من دراستها. فالذين عُنوا بدراسة علم الأصوات (Phonétique) قدموا تعاريف للمقطع تتناسب مع هذه النظرة. نذكر منها:

- "تتابع من الأصوات الكلامية له حد أعلى أو قمة إسماع طبيعية (بغض النظر عن العوامل الأخرى مثل النبر والنغم الصوتي) تقع بين حدين أدنيين من الإسماع.

-قطاع من تيار الكلام يحوي صوتا مقطوعيا ذا حجم أعظم...

-أصغر وحدة في تركيب الكلمة.

-وحدة من عنصر أو أكثر يوجد خلالها نبضة صدرية واحدة³.

أما الذين عُنوا بدراسة علم وظائف الأصوات (Phonologie)، فقد قدموا بدورهم عددا من التعاريف لهذا المفهوم نذكر منها:

- "الوحدة التي يمكن أن تحمل درجة واحدة من النبر كما في الإنجليزية، أو نغمة واحدة كما في كثير من اللغات النغمية.

-الوحدة الأساسية التي يؤدي الفونيم وظيفة داخلها.

-وحدة تحتوي على صوت علة واحد إما وحده، أو مع سواكن بأعداد معينة وبنظام معين⁴.

وتختلف المقاطع الصوتية من لغة إلى أخرى، وقد حصر إبراهيم أنيس مقاطع اللغة العربية في خمسة مقاطع وهي:

1- صوت ساكن+صوت لين قصير. ومثاله: بَ

2- صوت ساكن+صوت لين طويل. ومثاله: بَا

3- صوت ساكن+صوت لين قصير+صوت ساكن. ومثاله: قَدْ

4- صوت ساكن+صوت لين طويل+صوت ساكن. ومثاله: بَابْ

5- صوت ساكن+صوت لين قصير+صوتان ساكنان⁵. ومثاله: عَبْدُ

إلا أنه رأى أن "الأنواع الثلاثة الأولى من المقاطع العربية هي الشائعة، وهي التي تكوّن الكثرة الغالبة من الكلام العربي. أما النوعان الأخيران أي الرابع والخامس فقليلا الشيع، ولا يكونان إلا في أواخر الكلمات وحين الوقف"⁶.

وقد اصطلح العلماء على تسمية المقطع المنتهي بصوت لين قصير أو طويل باسم المقطع المفتوح أو المتحرك، والمقطع المنتهي بساكن بالمقطع المقفل أو المغلق⁷. وهو ما يعني أن المقطعين الأولين هما مقطعان مفتوحان، أما المقاطع الثلاثة المتبقية فهي مقاطع مقفلة.

2- حجاجية المقاطع الصوتية الموظفة في الخطب السياسية للإمام علي رضي الله

عنه:

تنبع حجاجية المقاطع الصوتية من مناسبتها للمعاني التي وظفت من أجل الدلالة عليها. إذ "لما كانت الكلمات تتكون من مقاطع متتابعة، وكان لكل مقطع سماته الصوتية المميزة، كان ترتيب هذه المقاطع في الكلمات وتواليها على نسق معين ذا أثر كبير في إحداث أنواع من الإيقاع الداخلي"⁸، وفي تناسب "الأفكار التي تعبر عنها وتصورها، فالمقاطع المقفلة تستغرق في نطقها زمنا أقل من الزمن الذي تستغرقه المقاطع المفتوحة. ومن هنا كان استخدام المقاطع المقفلة يناسب لونا من التعبير لا تؤديه المقاطع المفتوحة والعكس صحيح"⁹.

ولذلك فإن منبع الحجاج في هذا الإيقاع يعود إلى طبيعة المقاطع الموظفة بشكل مهمين، إذ تسهم هذه الطبيعة في التعبير عن المعاني، وإيضاح ما يكتنفها من الدقائق الدلالية¹⁰، والتعبير عن الأفكار والأحاسيس، فيكون "تتبع كمية المقاطع ورصدها في التشكيلة المقطعية، وتحديد نوعيتها من حيث الانفتاح والانغلاق منفذا للولوج إلى البنية العميقة، والتعرف على المضامين والموافق الكلامية الحاضنة لها"¹¹. فالمقاطع المقفلة توظف في "مقامات الجد والصرامة والحسم، وفي تصوير الانفعالات الحادة والحركات العنيفة وسرعة الأحداث"¹²... وغيرها. أما المقاطع المفتوحة فتوظف للتعبير عن معان كثيرة، وفي "تصوير مشاهد مختلفة كالتذكير، والتفريع، والتهديد، وكمواقف الندم والحسرة، ومواقف الدعوة إلى الخير، وكوصف النعمة السابغة، وكالابتهالات"¹³... وغيرها. وهي كلها وظائف حجاجية تتوجه بالأساس إلى المتلقي بغية تعديل سلوكه أو إنشائه أو تثبيتته.

وهكذا، فالمخاطب حين يتكرر على مسامعه بشكل لافت عدد من المقاطع المقفلة، فإن ذلك يشكل بالنسبة إليه دعوة إلى أن الأمر المعروف عليه يتطلب الجد والصرامة في التعامل معه وعدم التهاون أو التردد فيه. أما تكرار المقاطع المفتوحة، فإنه وإن كان بدوره يشكل بالنسبة للمتلقي دعوة إلى الفعل، فإنها دعوة فيها زيادة حظ من "اللطافة والرقّة"¹⁴ لا نكاد نجد لها أثرا في المقاطع المقفلة.

وكما كان الإمام علي رضي الله عنه حريصا على ربط المقاطع المكررة بالمعاني المعبر عنها، حيث كان لا يكرر أي نوع من المقاطع بشكل مهيم إلا عندما يكون هذا النوع قادرا أكثر من غيره على التعبير عن أغراضه ومقاصده، ومتناسبا مع المقام الذي قيل فيه ودالا عليه. ولتوضيح ذلك، سنقوم بتحديد المقاطع المهيمنة في بعض الأمثلة، ثم سنبرز بعد ذلك الأبعاد الحجاجية لهذه الهيمنة.

2-1 البعد الحجاجي للمقاطع المقفلة:

ومن أمثلة هذا التوظيف نذكر:

1-قوله في ذم أصحابه على تخاذلهم عن الجهاد: "إِنَّ أُمَّهَلْتُمْ خُصْمَكُمْ، وَإِنْ حُورِبْتُمْ خُرْتُمْ، وَإِنْ اجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَى إِمَامٍ طَعَنْتُمْ، وَإِنْ أُجْتُتُمْ إِلَى مُشَاقَّةٍ نَكَّصْتُمْ"¹⁵.

*تقطيع هذا المثال:

إِنْ / أُمَّ / هَلْ / تُمْ / أَحْضْ / تُمْ / وَ / إِنْ / حُورِبْ / تُمْ / خُرْ / تُمْ / وَ / إِنْ / جُتْ / تُمْ / إِلَى / مُشَاقَّةٍ / نَكَّصْ / تُمْ / إِ

مَا /

إِمِنْ / طَ / عَنَّ / تُمْ / وَ / إِنْ / أُمَّ / جِيْ / تُمْ / إِلَى / مُشَاقَّةٍ / قَ / تَيْنَ / نَ / كَصْ / تُمْ /

*عدد مقاطعه:

-عدد المقاطع القصيرة: 15.

- عدد المقاطع المتوسطة المفتوحة: 05.

- عدد المقاطع المتوسطة المغلقة: 22.

- عدد المقاطع الطويلة المغلقة: 01.

نلاحظ من خلال هذا المثال هيمنة مطلقة للمقاطع المغلقة. وميزة هذه المقاطع أنها عبارة عن ضغوطات وخفقات صدرية يستغرق نطقها زمناً أقل من زمن نطق المقاطع المفتوحة¹⁶. وهي بذلك تتناسب تماماً مع التعبير عن حالة الغضب الشديد الذي يعتري الإمام علي رضي الله عنه تجاه هؤلاء المخاطبين الذين تغلب عليهم صفات العصيان والتمرد والجبين. فهم، حسب المثال، قوم لا يقادون ولا يقودون، لا يطيعون أوامر من يقودهم، ولا يستطيعون حتى قيادة أنفسهم.

إن المقاطع المغلقة، إذ تعبر عن معاني الغضب السابقة، وتصور الانفعالات الحادة¹⁷ التي تنتاب الإمام علي في تلك اللحظة، فإنها تشكل كذلك من خلال خاصية السرعة التي تميزها¹⁸ دعوة إلى هؤلاء المخاطبين لأخذ الأمور مأخذ الجد والتميز بالصرامة والحسم، ودعوة لهم كذلك إلى الإسراع إلى طاعة الإمام علي رضي الله عنه فيما يأمر به، والاجتماع حول كلمته. فتريد هذه المقاطع يدل على "معنى الجد الفاصل الذي لا مجال فيه للتهاون أو التردد"¹⁹.

2- قوله للخوارج الذين رفضوا التحكيم وعابوا عليه تحكيم الرجال: "إِنَّا لَمْ نُحَكِّمِ الرَّجَالَ، وَإِنَّمَا حَكَمْنَا الْقُرْآنَ. هَذَا الْقُرْآنُ إِنَّمَا هُوَ حَطٌّ مَسْطُورٌ بَيْنَ الدَّقَّتَيْنِ"²⁰.
*تقطيع هذا المثال:

إِن / نَا / لَمْ / انْ / حَكْ / كِ / امْر / ار / اجَا / لْ / اوْ / إِنْ / انْ / مَا / حَكْ / كَمْ / نَلْ / قُرْ / اَنْ / هَ / ذَلْ / قُرْ / اَنْ / انْ /
إِنْ / انْ / مَا / هَ / وَا / حَطْ / طَنْ / مَسْ / اَطُوْ / رُنْ / اَيَّ / اَنْدْ / اَفْ / اَبَيْنْ /
*عدد مقاطعه:

- عدد المقاطع القصيرة: 11.

- عدد المقاطع المتوسطة المفتوحة: 05.

- عدد المقاطع المتوسطة المغلقة: 20.

- عدد المقاطع الطويلة المغلقة: 02.

يكشف هذا المثال عن حدث مهم من الأحداث التي كانت لها تداعيات خطيرة على الأمة الإسلامية آنذاك ألا وهو حدث التحكيم. هذا الحدث الذي كان سبباً في تقسيم ما تبقى من أتباع الإمام علي رضي الله عنه إلى طائفتين. فإذا كانت فتنة مقتل سيدنا عثمان رضي الله

عنه قد قسمت المسلمين إلى فريقين: أهل الشام بزعامة سيدنا معاوية رضي الله عنه ، وأهل العراق بزعامة الإمام علي رضي الله عنه ، وجعلت جزءاً من أهل العراق أنفسهم ينقسمون عن الإمام علي ، ألا وهم أهل البصرة الذين حاربوه في موقعة الجمل ، فإن قضية التحكيم قد زادت هذا التقسيم تقسيماً والتجزئة تجزئاً ، حيث خرج طرف مهم من الناس ممن رفضوا التحكيم في معركة صفين عن طاعة الإمام علي ، وكونوا فريقاً خاصاً بهم عرف فيما بعد باسم الخوارج.

وقد عكست المقاطع المغلقة طبيعة وخطورة هذا الموقف ، فهي ، إذ تهيمن في هذا المثال ، وترقد بنيتها الصوتية بإيقاع قوي²¹ شديد الوقع²² ، فإنها تكشف عما يتعرض له الإمام علي رضي الله عنه من ضغوطات نفسية ، وتصور انفعالاته الحادة وغضبه الشديد من هؤلاء الذين رفضوا التحكيم وعابوه عليه من جهة ، وتشكل دعوة لهم إلى الإسراع للتخلي الفوري عن هذا الرفض نظراً لما سيجلبه للأمة الإسلامية من تمزق وتشتت ودمار من جهة ثانية. فهذه المقاطع ، إذ تفرع أسمع هؤلاء المخاطبين الحائرين في أمر التحكيم ، فإنها تجذب انتباههم بإيقاعها القوي إلى إدراك قوة المعاني والمضامين التي ييوح بها الإمام علي في هذا المثال ، والتي تتجسد في أن التحكيم ، وإن قام به الرجال ، فإنه قد تم وفق ما أمر به الله تعالى في كتابه العزيز ، وأن هؤلاء الرجال ما كانوا سوى تراجم لهذا الأمر.

3- قوله في ذم أصحابه: " أَمَا بَعْدُ ، يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ! فَإِنَّمَا أَنْتُمْ كَالْمَرْأَةِ الْحَامِلِ حَمَلَتْ فَلَمَّا أَنْتَمْتِ أَمْلَصْتِ"²³.

*تقطيع هذا المثال:

أَمْ / مَا / بَعْدُ / يَا / أَهْلُ / لَلْ / عِ / رَاقٍ / فِ / إِنْ / نَ / مَا / أَنْ / تُمْ / كَلْ / مَرُ / أْ / تِلْ / حَا / مِلْ / حِ / مِ / لَتْ /
فَ / لَمْ / مَا / أْ / تَمْ / مَتْ / أَمْ / لَ / اصَتْ /

*عدد مقاطعه:

- عدد المقاطع القصيرة: 09.

- عدد المقاطع المتوسطة المفتوحة: 05.

- عدد المقاطع المتوسطة المغلقة: 16.

- عدد المقاطع الطويلة المغلقة: 02.

وجه الإمام علي رضي الله عنه هذا الخطاب إلى كافة أهل العراق الذين لمّا شارفوا على استئصال أهل الشام، وظهرت لهم أمارات الظفر ودلائل الفتح، نكصوا وجنحوا إلى السلم والإجابة إلى التحكيم عند رفع المصاحف، فكان مشهدهم كمشهد المرأة الحامل التي لها أتمت أشهر حملها ألقت ولدها إلقاء غير طبيعي²⁴. وقد صورت المقاطع المغلقة المهيمنة في هذا المثال، بإيقاعها القوي، هذا المشهد خير تصوير، حيث عبرت هذه المقاطع، من خلال صفة السرعة²⁵ التي تميزها، عن سرعة هؤلاء المخاطبين إلى الجنوح إلى السلم وقبول التحكيم. فهم بسرعتهم هذه أو لنقل تسرعهم إلى وضع السلاح والنصر يكاد يتم لهم، يكونوا قد قضاوا بأنفسهم على كل ما بنوه لهذه الحرب من أهداف، ودمروا ما حدوده لها من غايات، لعل أبرزها هي القضاء على فتنة أهل الشام، وتوحيد الأمة الإسلامية والعودة بها إلى ما كانت عليه من قبل.

ولكن التوحيد لا يمكن أن يتحقق إلا بالقضاء على الفتن التي تمزق هذه الأمة وتضعفها على صعيد كل المستويات. ولعل أبرز هذه الفتن هما الفتنتان اللتان تلتا مقتل سيدنا عثمان، ألا وهما فتنة بني أمية التي قال عنها الإمام علي رضي الله عنه:

4- "إِنَّ أَوْفَ الْفِتَنِ عِنْدِي عَلَيْكُمْ فِتْنَةُ بَنِي أُمَيَّةَ، فَإِنَّهَا فِتْنَةٌ عَمِيَاءٌ مُظْلِمَةٌ"²⁶.

*تقطيع هذا المثال:

إِنْ / أَنْ / أَحْ / أَوْ / قُلْ / أَفْ / اتْ / انْ / عِنْ / دِي / عَ / أَيْ / كُمْ / فِتْ / انْ / اةَ / بَ / نِي / أَمْيَاءَ / فِتْنَةٌ / مُظْلِمَةٌ / هَا / فِتْ / انْ / تَنْ / عَمَّ / يَا / ءَ / مُظْ / الِ / مَهُ .

*عدد مقاطعه:

- عدد المقاطع القصيرة: 15.

- عدد المقاطع المتوسطة المفتوحة: 04.

- عدد المقاطع المتوسطة المغلقة: 15.

- عدد المقاطع الطويلة المغلقة: 00.

وفتنة أهل البصرة الذين قال فيهم:

5- "كُنْتُمْ جُنْدَ الْمَرْأَةِ، وَأَتْبَاعَ الْبَيْهَمَةِ"²⁷.

*تقطيع هذا المثال:

كُنْ / تُمْ / جُنْ / دَلْ / مَرٌّ / أَدُ / وَ / أَتْ / بَا / عَلُّ / ابْ / هِي / اَمَهُ /

*عدد مقاطعه:

-عدد المقاطع القصيرة: 02.

- عدد المقاطع المتوسطة المفتوحة: 02.

- عدد المقاطع المتوسطة المغلقة: 09.

- عدد المقاطع الطويلة المغلقة: 00.

وكعادته دائماً، فقد كان الإمام علي رضي الله عنه حريصاً في هذين المثالين على التوظيف المهيمن للمقاطع المغلقة التي تعبر عن "الجد والصرامة والحسم"²⁸. فهذه المقاطع، إذ تتكرر في هذين المثالين بهذه الدلالات، فهي تؤدي دوراً حجاجياً مهماً يتجلى في جذب انتباه المخاطبين إلى إدراك جدية وخطورة الفتن، وتدفعهم إلى العمل على القضاء عليها بسلوك سبيل الجهاد ومحاربة أصحابها والمتسببين في وقوعها. ولهذا فإننا نجد أنه رضي الله عنه كان لا يتردد في توظيفها حتى في المقامات التي يشكل فيها الكلام دعوة مباشرة لمخاطبيه للحرب كما في قوله:

6- " قُلْتُ لَكُمْ اعْزَوْهُمْ قَبْلَ أَنْ يَعْزَوْكُمْ"²⁹.

*تقطيع هذا المثال:

قُلْ / تْ / اَلْ / كُمْ / اُعْ / زُوْ / هُمْ / قَبْ / اَلْ / اَنْ / اِيْعْ / زُوْ / كُمْ /

*عدد مقاطعه:

-عدد المقاطع القصيرة: 03.

- عدد المقاطع المتوسطة المفتوحة: 02.

- عدد المقاطع المتوسطة المغلقة: 08.

- عدد المقاطع الطويلة المغلقة: 00.

أو قوله:

7- "دَعَوْتُكُمْ إِلَى نَصْرِ إِخْوَانِكُمْ فَجَرَّجْتُكُمْ جَرَجَةَ الْجَمَلِ الْأَسْرِّ"³⁰.

*تقطيع هذا المثال:

دَ / عَوَاتُ / كُمْ /

إِلَى / نَصْرٍ / إِرْ / إِخْوَانٍ / كُمْ / فِ / جَرِّ / جَرَّ / نُمْ / جَرِّ / جَرِّ / أَمْ / لَلِ / الْأَسْرِ /

* عدد مقاطعه:

- عدد المقاطع القصيرة: 11.

- عدد المقاطع المتوسطة المفتوحة: 02.

- عدد المقاطع المتوسطة المغلقة: 12.

- عدد المقاطع الطويلة المغلقة: 00.

إن هذه المقاطع المغلقة، إذ تهيمن في هذين المثالين، فإنها تكسبهما إيقاعاً قوياً يتجاوز التأثير الجمالي الذي يبعثه في النفس ويوقعه في الأذان، إلى التأثير الحجاجي الذي يتمثل في دفعهم إلى الجهاد. فهي، بتكررها باستمرار على مسامع المخاطبين بما تحمله من دلالة على الجد الحسم، تدفع هؤلاء المخاطبين إلى الاقتناع بأن اللحظة لا تحتل أي تراخ أو تماطل في تلبية دعوة الجهاد، وإنما هي لحظة الإسراع إلى ساحات الحرب التي ستحقق عزتهم وكرامتهم، وستجمع كلمتهم تحت راية واحدة ألا وهي راية الإسلام، وبزعامة راعٍ واحد ألا وهو الإمام علي الذي يحرص على ما فيه خيرهم وصلاح أمرهم. يقول رضي الله عنه مشيراً إلى ذلك:

8- "قَدْ دَارَسْتُكُمْ الْكِتَابَ وَقَاتَحْتُكُمْ الْحِجَاجَ وَعَرَفْتُكُمْ مَا أَنْكَرْتُمْ وَسَوَّعْتُكُمْ مَا مَجَّجْتُمْ

لَوْ كَانَ الْأَعْمَى يَلْحَظُ"³¹.

*تقطيع هذا المثال:

قَدْ / دَا / رَسْنُ / اتُ / كُ / الْمَلِكِ / تَابُ / ابُ / وَ / فَا / نَحْ / اتُ / كُ / الْمَلِكِ / حِ / جَا / جُ / وَ / عَرَفْتُ / اتُ / كُمْ / مَا /

أَنْ / كَرَّ / نْتُمْ / وَ / اسْوَأْتُ / اتُ / كُمْ / مَا / مَجَّ / اتُمْ / لَوْ / كَانُ / الْعَمَى / يَلْحَظُ /

* عدد مقاطعه:

- عدد المقاطع القصيرة: 14.

- عدد المقاطع المتوسطة المفتوحة: 08

- عدد المقاطع المتوسطة المغلقة: 21.

- عدد المقاطع الطويلة المغلقة: 00.

وهو كلام تهيمن فيه بدوره المقاطع المغلقة لتنبية هؤلاء المخاطبين إلى قيمة ما يفعله الإمام علي رضي الله عنه من أجلهم، وإلى إدراك مدى إسراره إلى تعليمهم القرآن وإفهامهم إياه، وإلى إقناعهم بالدليل والبرهان على ما فيه خيرهم، وتعريفهم ما عمي عنهم، وتقريبه منهم حتى يعرفوه ويعتقدوا به، وتنطوي قلوبهم عليه³².

2-2 البعد الحجاجي للمقاطع المفتوحة:

إذا كان توظيف المقاطع المغلقة قد أدى في الخطب السياسية لدى الإمام علي رضي الله عنه وظيفة حجاجية تتمثل في جذب اهتمام المخاطبين إلى الكلام ودفعهم إلى إدراك مضامينه والعمل بمحتواها، فإن توظيف المقاطع المفتوحة لم يخرج في هذه الخطب عن هذه الوظيفة. فهذه المقاطع، وإن اختلفت أدوارها في الكلام عن سابقتها، نتيجة لاختلاف صفاتها السمعية والنطقية، فهي تؤدي بدورها وظائف حجاجية لا تقل شأنًا عن الوظائف السابقة. ومن أمثلة توظيف هذه المقاطع نذكر:

1- قوله يتحسر على من حاربوه في موقعة الجمل: " يَا حَيِّبَةَ الدَّاعِي مَنْ دَعَا وَإِلَامَ أُجِيبَ " ³³.

*تقطع هذا المثال:

يَا / حَيِّ / ابْ / نَدُّ / دَا / عِي / اَمْنُ / دَا / عَا / وَا / لَ / اَلَامَ / اُ / جِي / ابْ /

*عدد مقاطعه:

- عدد المقاطع القصيرة: 06.

- عدد المقاطع المتوسطة المفتوحة: 06

- عدد المقاطع المتوسطة المغلقة: 03

- عدد المقاطع الطويلة المغلقة: 00.

نلاحظ من خلال هذا المثال هيمنة لافتة للمقاطع المفتوحة. وميزة هذه المقاطع أنها "تتسم بالوضوح السمعي العالي وعدم وجود إعاقة في النطق"³⁴، ويستغرق نطقها زمناً أطول من الزمن الذي يستغرقه نطق المقاطع المغلقة³⁵. وهي بصفاتها هذه تتناسب مع المواقف التي تتطلب الوضوح السمعي العالي كموقف النداء الدال على التحسر في هذا المثال. فلكي يكشف الإمام علي رضي الله عنه ويعبر بصوت عال لأهل البصرة الذين أجابوا دعوة من دعاهم إلى محاربتهم، عن تحسره وأسفه العميق لقبح وفحش وردالة هذه الإجابة³⁶، فإنه لم يوظف المقاطع المغلقة التي يستغرق نطقها زمناً أقل، وإنما لجأ إلى التوظيف المهيمن للمقاطع المفتوحة وخاصة تلك المنتهية بأصوات المد التي "تملك قوة إسماع عالية جداً"³⁷، لكونها الأقدر على تصوير معاني التحسر والأسف، والأقدر على إسماع هذه المعاني وتوصيلها إلى قلوب المخاطبين وعقولهم، والأقدر كذلك على دفعهم إلى العدول عن موقفهم وإخماد نار الحرب التي بدؤوا يقرعون طبولها.

غير أن توظيف المقاطع المفتوحة المتسمة بقوة الإسماع لا يرتبط بإظهار معنى التحسر فقط، وإنما يتعلق كذلك بمعان أخرى تتطلب بدورها هذه القوة لتكشفها للمخاطب، وترسخها في قلبه وعقله. ومن ذلك مثلاً التقريع والتوبيخ اللذان يبرزان في الأمثلة التالية:

2- قوله يذم أصحابه على ترك الجهاد: " يَا أَشْبَاهَ الرَّجَالِ وَلَا رَجَالَ حُلُومِ الْأَطْفَالِ وَعُقُولِ رِبَاتِ الْحِجَالِ"³⁸.

*تقطيع هذا المثال:

يَا / أَشْ / إِبَا / هَرْ / إِرْ / جَا / لْ / أَوْ / لَا / إِرْ / جَا / لْ / حْ / لُوْ / مَلْ / أَطْ / قَا / لْ / أَوْ / عْ / قُوْ / لْ / رِبْ / بَا / تِلْ / حْ / جَا / لْ

*عدد مقاطعه:

- عدد المقاطع القصيرة: 12.

- عدد المقاطع المتوسطة المفتوحة: 10.

- عدد المقاطع المتوسطة المغلقة: 06.

- عدد المقاطع الطويلة المغلقة: 00.

3- قوله أيضاً في خطبة أخرى يذم مخاطبيه: " يَا أَشْبَاهَ الْإِئِيلِ غَابَ عَنْهَا رِعَائُهَا"³⁹.

*تقطيع هذا المثال:

يَا أَتَشُّ أَبَا هَلْ إِبْرَاهِيمَ أَلِغَابِ عَنْهَا زُغَابَاتُهَا /

*عدد مقاطعه:

-عدد المقاطع القصيرة:06.

- عدد المقاطع المتوسطة المفتوحة: 06.

- عدد المقاطع المتوسطة المغلقة: 03

- عدد المقاطع الطويلة المغلقة: 00.

4-قوله يذم أصحابه ويستنهضهم لما حدث في الأطراف: " أَعَالِيلُ بِأَصَالِيلَ وَسَأَلْتُمُونِي التَّطْوِيلَ "40.

*تقطيع هذا المثال:

أَعَالِي لِي أَلِ بَ / أَعَالِي لِي أَلِ / أَوْ سَ / أَلُ / تُمُونُ / تَطْوِيلُ لِي /

*عدد مقاطعه:

-عدد المقاطع القصيرة:09.

- عدد المقاطع المتوسطة المفتوحة: 06

- عدد المقاطع المتوسطة المغلقة: 03.

- عدد المقاطع الطويلة المغلقة: 00.

5-قوله عن أصحابهم الفتنة نتيجة تخليهم عنه: " فَمَهْمٌ فِيهَا تَأْيَهُونَ حَائِرُونَ جَاهِلُونَ مَفْتُونُونَ فِي خَيْرِ دَارٍ وَشَرِّ جِيرَانٍ "41.

*تقطيع هذا المثال:

فَ / هُمُ / فِي / هَا / تَا / يَ / هُوَ / ا / حَا / يَ / رُو / ا / جَا / هِ / لُو / ا / نَ / مَفُ / ا / تُو / ا / نُو / ا / نَ / فِي / ا / حَيِّ / ا / رِ / دَا / ا / رِ

نَ / وَ / شَرِّ / ا / رِ / ا / جِي / ا / رَا / ا / نِي / ا /

*عدد مقاطعه:

-عدد المقاطع القصيرة: 11.

- عدد المقاطع المتوسطة المفتوحة: 14.

- عدد المقاطع المتوسطة المغلقة: 06.

- عدد المقاطع الطويلة المغلقة: 00.

وإذا كان التقريع والتويخ قد تم في هذه الأمثلة من خلال النداء في المثالين الثاني والثالث، وبأسلوب تقريبي في المثالين الرابع والخامس، فإنه قد تحقق كذلك بأساليب أخرى لعل أبرزها هو أسلوب الاستفهام. ومن أمثله:

6- " مَا لِي أَرَاكُمْ أَشْبَاحًا بِلَا أَرْوَاحٍ وَأَرْوَاحًا بِلَا أَشْبَاحٍ وَنَسَاكَأً بِلَا صَلَاحٍ؟"⁴².

*تقطيع هذا المثال:

مَا/لِي/أَرَا/كُمْ/أَشْبَاحًا/بِلَا/أَرْوَاحٍ/وَأَرْوَاحًا/بِلَا/أَشْبَاحٍ/وَنَسَاكَأً/بِلَا/صَلَاحٍ/وَأُنْسُ/سَا/كُنْ/بِلَا/صَلَاحٍ/

*عدد مقاطعه:

-عدد المقاطع القصيرة: 07

- عدد المقاطع المتوسطة المفتوحة: 12.

- عدد المقاطع المتوسطة المغلقة: 12.

- عدد المقاطع الطويلة المغلقة: 00.

يهيمن في هذه الأمثلة جميعها توظيف الإمام علي رضي الله عنه للمقاطع المفتوحة على حساب المقاطع المغلقة، إذ تصل نسبة توظيفها إلى أكثر من 78% في المثال الثاني، و 80% في المثال الثالث، وأكثر من 80% في المثالين الرابع والخامس، وحوالي 70% في المثال الأخير. وهي يهيمنتها هذه، تتناسب بخصائصها السمعية العالية مع الأجواء العاطفية المشحونة التي قيلت فيها. فهذه الأمثلة جاءت جميعها ضمن خطب ارتبطت بالحرب والجهاد، وخاصة بعد الغارات التي كان يقوم بها الأعداء على أطراف البلاد التابعة لحكم الإمام علي كمنطقة الأنبار وغيرها. فكانوا يقتلون ويأسرون ويغنمون ثم ينصرفون، كما يقول الإمام علي رضي الله عنه، " وَافْرِينَ مَا نَالَ رَجُلًا مِنْهُمْ كَلِمٌ وَلَا أَرِيقَ لَهُمْ دَمٌ"⁴³. ولعل هذا

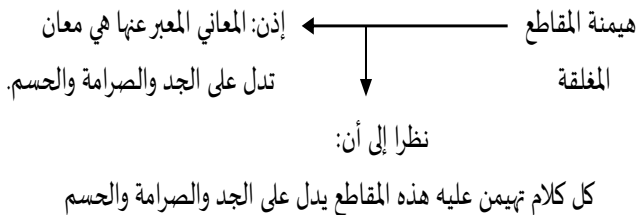
الأمر هو ما كان يحدث في نفسه مرارة، ويجعله يشعر بغيظ وغضب شديدين يدفعانه إلى تأنيب أصحابه وتقريعهم.

إلا أن التقريع هنا ليس هدفا للإمام علي في حد ذاته، فحاشاه أن يكون ذلك وهو ابن بيت النبوة الذي تعلم الحكمة والأخلاق الفاضلة مباشرة عن النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، وإنما هدفه من ذلك هو ما سيحدثه هذا التقريع من أثر في نفسية هؤلاء المخاطبين، فيدفعهم إلى فعل ما طلب منهم أو الكف عن فعل ما نهوا عنه. إن الأمر هنا أشبه بمخاطبة عواطف المخاطب أكثر من مخاطبة عقله. فإذا كانت المقاطع المغلقة تناسب التعبير عن معان ترتبط بالعقل أكثر من العاطفة كالجد والصرامة والحسم والحركات العنيفة وسرعة الأحداث، نظرا لما يتسم به نطقها من خفقات صدرية⁴⁴ تستوجب السرعة في النطق، فإن المقاطع المفتوحة "ذوات الوضوح السمعي العالي والتي يستغرق نطقها زمنا أطول من غيرها"⁴⁵ تكون مناسبة أكثر للحالات التي ترتبط بالعاطفة، والتي تتطلب إسماعا عاليا، وبوثيرة بطيئة، كالتعبير عن الندم والحسرة والتقريع... وغيرها. فاجتماع البطء في النطق والإسماع العالي مع المعاني الموجهة أساسا لمخاطبة العاطفة كالندم أو التحسر أو التقريع أو غيرها، هو ما يعطي الكلام إيقاعا قويا، ويجعله يحقق التأثير المطلوب في المخاطبين.

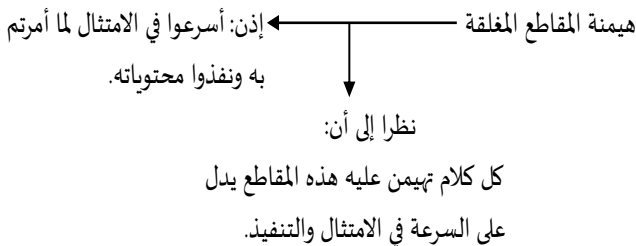
وفي الأخير، فسواء هيمنت المقاطع المفتوحة التي تخاطب أساسا العواطف كالتحسر والتقريع، كما هو الشأن في الأمثلة السابقة، أو غيرها من المعاني، أو هيمنت المقاطع المغلقة التي تخاطب العقل بشكل أساس، والتي تدل على الجد والصرامة والحسم وغيرها، فإن هذه الهيمنة، إذ تخلق إيقاعا قويا وجذابا ومثيرا يؤثر في النفوس، فإنها تحقق في الكلام، من خلال هذا الإيقاع، وظيفتين حجاجيتين، تتمثل أولاهما في التنبيه: أي تنبيه المخاطبين، من خلال هيمنة نوع معين من المقاطع بما يحمله من خصائص سرعة النطق أو بطئها وقوة الإسماع أو ضعفها، إلى أهمية الكلام وما يتضمنه من معان ومضامين. أما ثانيهما فتتعلق بالدفع إلى الفعل، أي دفع المخاطبين، بعد استيعابهم لأهمية المعاني المطروحة، إلى العمل بمحتواها، وذلك من خلال سلوكهم للمسارات الحجاجية التالية:

أ- عند هيمنة المقاطع المغلقة:

*وظيفة التنبيه:



*وظيفة الدفع إلى الفعل:



ب-عند هيمنة المقاطع المفتوحة:

*وظيفة التنبيه:

وفيهما مرحلتان:

_المرحلة الأولى:

- هيمنة المقاطع المفتوحة
إذن: المعاني المعبر عنها هي معان عاطفية كالتحسر والتوبيخ والتقرير.
نظرا إلى أن:

كل كلام تهيمن عليه هذه المقاطع يعبر عن معان عاطفية تتطلب
الوضوح السمعي العالي والبطء في التوصيل كالتحسر والتوبيخ والتقرير.

_المرحلة الثانية:

- المعاني المعبر عنها تدل على التحسر والتوبيخ
إذن: أفعالكم غير مناسبة.
نظرا إلى أن:

كل تحسر أو توبيخ يكون نتيجة عمل
فعل غير مناسب.

***وظيفة الدفع إلى الفعل:**

-أفعالكم غير مناسبة
إذن: غيروا أفعالكم باتباع ما أمرتم
به، واجتناب ما نهيتم عنه.
نظرا إلى أن:

كل فعل غير مناسب يجب تغييره.

خاتمة: نخلص مما سبق إلى أن المقاطع المهيمنة في الجملة أو النص، حين تخلق من خلال جرسها السمعي إيقاعا جذابا يشد إليه النفوس ويميل نحوه الطبع، تدفع المخاطبين إلى إدراك طبيعة المعاني التي يتضمنها الكلام وتنبيههم إليها، كما تدفعهم إلى العمل بمحتوياتها، فهم إذ تتردد على مسامعهم المقاطع المغلقة، بما تحمله من دلالة على

الجد والحسم والسرعة، فإن هذا الأمر يدفعهم إلى الاقتناع بأن اللحظة لا تحتمل أي تراخ أو تماطل، وإنما هي لحظة الجد والإسراع إلى التخلص من الصفات السلبية التي تميزهم وتلبية نداء الجهاد، أما المقاطع المفتوحة التي تملك قوة إسماع عالية، فإنها تكون الأقدر على إسماع بعض المعاني التي تتطلب هذه القوة كالندم والتحسر والتقريع... وغيرها، وتمكينها في قلوبهم وأذهانهم.

لائحة المراجع والمصادر:

ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط: 2، ج: 10، دار إحياء الكتب العربية، 1965.

أبو زيد أحمد: التناسب البياني في القرآن، منشورات كلية الآداب، الرباط، 1992

عمر أحمد مختار: دراسة الصوت اللغوي، عالم الكتب، القاهرة، 1997.

قادر فخريه غريب: تجليات الدلالة الإيحائية في الخطاب القرآني، ط: 1، عالم الكتب الحديث، إربد، 2011.

المطلبي غالب فاضل: في الأصوات اللغوية دراسة في أصوات المد العربية، منشورات وزارة الثقافة والإعلام العراقية، 1984، العراق.

نجله محمود أحمد: لغة القرآن الكريم في جزء عم، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1981.

هوامش البحث:

¹ - أحمد أبو زيد: التناسب البياني في القرآن، منشورات كلية الآداب، الرباط، 1992، ص: 311.

² - أحمد مختار عمر: دراسة الصوت اللغوي، عالم الكتب، القاهرة، 1997، ص: 283.

³ - نفسه، ص: 284-285.

⁴ - نفسه، ص: 286.

⁵ - إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية، مكتبة نهضة مصر للنشر، مصر، د.ت، ص: 92.

⁶ - نفسه، ص: 93.

⁷ - نفسه، ص: 87.

⁸ - نفسه، ص: 314.

- 9- محمود أحمد نجله: لغة القرآن الكريم في جزء عم، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1981، ص: 357.
- 10- أحمد أبو زيد: التناسب البياني في القرآن، مرجع مذکور، ص: 321.
- 11- فخريّة غريب قادر: تجليات الدلالة الإيحائية في الخطاب القرآني، ط: 1، عالم الكتب الحديث، إربد، 2011، ص: 108.
- 12- أحمد أبو زيد: التناسب البياني في القرآن، مرجع مذکور، ص: 321.
- 13- نفسه، ص: 324.
- 14- أحمد أبو زيد: التناسب البياني في القرآن، مرجع مذکور، ص: 325.
- 15- ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط: 2، ج: 10، دار إحياء الكتب العربية، 1965 ص: 67.
- 16- فخريّة غريب قادر: تجليات الدلالة الإيحائية في الخطاب القرآني، مرجع مذکور، ص: 109.
- 17- أحمد أبو زيد: التناسب البياني في القرآن، مرجع مذکور، ص: 321.
- 18- نفسه، الصفحة نفسها.
- 19- نفسه، الصفحة نفسها.
- 20- ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج: 8، ص: 103.
- 21- يقول أبو زيد بأن السر في قوة الإيقاع الناجم عن المقاطع المغلقة يعود إلى انتهاء هذه المقاطع بسكون تركيز ينضاف عند النطق إلى المتحرك السابق، فيشاركه في تركيز القوة في مجال صوتي ضيق، فتكون الحركة الإيقاعية حادة وعنيفة. (أنظر: التناسب البياني في القرآن، مرجع مذکور، ص: 323).
- 22- فخريّة غريب قادر: تجليات الدلالة الإيحائية في الخطاب القرآني، مرجع مذکور، ص: 113.
- 23- ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج: 6، ص: 127.
- 24- نفسه، الصفحة نفسها.
- 25- أحمد أبو زيد: التناسب البياني في القرآن، مرجع مذکور، ص: 324.
- 26- ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج: 7، ص: 44.
- 27- نفسه، ج: 1، ص: 251.
- 28- أحمد أبو زيد: التناسب البياني في القرآن، مرجع مذکور، ص: 321.
- 29- ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج: 2، ص: 74.
- 30- نفسه، ص: 300.
- 31- نفسه، ج: 10، ص: 67.
- 32- ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج: 10، ص: 72.
- 33- نفسه، ج: 1، ص: 303.
- 34- فخريّة غريب قادر: تجليات الدلالة الإيحائية في الخطاب القرآني، مرجع مذکور، ص: 109.
- 35- محمود أحمد نجله: لغة القرآن الكريم في جزء عم، مرجع مذکور، ص: 357.
- 36- ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج: 1، ص: 305.

- 37- غالب فاضل المطلبي: في الأصوات اللغوية دراسة في أصوات المد العربية، منشورات وزارة الثقافة والإعلام العراقية، العراق، 1984، ص: 45.
- 38- ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج: 2، ص: 74.
- 39- ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج: 7، ص: 70.
- 40- نفسه، ج: 2، ص: 111.
- 41- ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج: 1، ص: 132.
- 42- نفسه، ج: 7، ص: 181.
- 43- ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج: 2، ص: 74.
- 44- فخريه غريب قادر: تجليات الدلالة الإيحائية في الخطاب القرآني، مرجع مذکور، ص: 109.
- 45- نفسه، ص: 115.

منهج سيبويه في التلقي عن شيخه: الخليل بن أحمد ويونس بن حبيب

د. محمد عطية محمد علي

جامعة تبوك

البريد الإلكتروني: drmohmedatia67@gmail.com

تاريخ النشر: 2019/03/31

تاريخ القبول: 2019/03/12

تاريخ إرسال المقال: 2019/01/15

الملخص:

تعددت طرق تلقي سيبويه عن الشيخين الخليل بن أحمد ويونس بن حبيب، فلم يلتزم نمطا واحدا أو طريقة واحدة في الأخذ والتلقي، فجل ما أخذه عن شيوخه كان نتيجة حوار علمي قائم على السؤال والجواب والتدقيق والمراجعة وإعادة سؤال الشيخ مرة أخرى ثم هو يدقق في اختيار ألفاظ يحكم بها على الآراء.

اتفقت طرق تلقي سيبويه عن الخليل وطرق التلقي والأخذ عن يونس من حيث استخدام ذات العبارات: أخبرني، حدثني، وسألت، زعم، قال..إلى آخر ذلك، وقد وقع اختلاف بين المروي عن الشيخين في أن المروي عن الخليل كان أكثره في الآراء النحوية والاجتهادات في التنظير في حين كان أكثر المروي عن يونس من أشعار ولغات عن العرب.

اختلف سيبويه مع شيخه في بعض المسائل منها ما يتعلق بالآراء النحوية ومنها ما يتعلق ببعض مرويات كل منهما، أثبت سيبويه عدم قوتها أو عدم صحتها بناء على مراجعتها وعرضها على لغات العرب. جاءت هذه الدراسة في تمهيد وخمسة مباحث وخاتمة: التمهيد: فيه حديث عن شخصية الشيخين وعلاقة سيبويه بهما. المبحث الأول: منهج سيبويه في التلقي عن الخليل وعرض آرائه. المبحث الثاني: منهج سيبويه في التلقي عن يونس وعرض آرائه. المبحث الثالث: عرض آراء الخليل ويونس معا. المبحث الرابع: مسائل خلافية مع الخليل. المبحث الخامس: مسائل خلافية مع يونس. الخاتمة: فيها أهم ما توصلت إليه الدراسة

الكلمات المفتاحية: نحو الخليل سيبويه، التلقي، شيخ....

Syboye's approach to receiving the sheikhs: Alkalel bin Ahmed and Younis bin Habib

Abstract: There were many ways of receiving Siboyeh from the two Sheikhs Khalil bin Ahmed and Yunis bin Habib, did not adhere to one pattern or one way to take and receive, so what he took from the elders was the result of scientific dialogue based on the question and answer and audit and review and the question of Sheikh again and then he checks the choice of words.

I have agreed on the methods of receiving Sebwayh from Hebron and the ways of receiving and taking away from Yunus in terms of using the same terms: Tell me, tell me, and I asked, he claimed, he said .. to the other, and there was a difference between the irrigated from the two sheikhs in that al-Marwi from Hebron was most of the grammatical opinions and jurisprudence.

Seboye differed with his elders on some issues, including the grammatical views, including some of the narrations of each of them. Sibweh proved his powerlessness or lack of validity based on his review and presentation of the languages of the Arabs. This study came in a preface and five investigations and conclusion: Preface: It is a talk about the personality of the two Sheikhs and the relationship Siboyh them. The first topic: Sebwayeh's approach to receiving from Hebron and presenting his views. The second topic: Sebwayeh's approach to receiving Yunus and presenting his views. The third topic: Presentation of the views of Hebron and Yunus together. The fourth topic: controversial issues with Hebron. The fifth topic: controversial issues with Yunus. Conclusion: The most important findings of the study

Key words: Syboye; sheikhs ; Receive ; Alkalel;

المقدمة:

الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ونسأله سبحانه أن يوفقنا لكل خير ، وأن يجعلنا ممن هداهم على علم ، وأن يطهر قلوبنا من كل تعصب ، وأن يوفقنا إلى التفقه في كتابه الكريم ولغته الخالدة آمين

إن سيبويه — رحمه الله — كان أميناً فيما رواه عن شيوخه من آراء ، وما أخذه عنهم من مرويات عن العرب ولغاتها ، لكنه أكثر في الأخذ عن بعضهم كالخليل بن أحمد ويونس بن حبيب وأقل في الأخذ عن الآخرين .

ولم يكن ما أخذه عن الخليل ويونس من آراء ومرويات على درجة واحدة ، فنراه يأخذ عن الخليل ثلاثة أضعاف ما أخذه عن يونس تقريبا ، ولذلك أسباب سوف أتعرض لها بالتحليل في موضعها .

لم يكن سيبويه متلقيا عن شيوخه وحسب كما اتهمه بعض الدارسين المعاصرين بأنه لم يكن إلا جامعا لآراء شيوخه¹ ، وإنما كان محاورا لشيوخه موازنا بين آرائهم ، محللا مستخلصا مستنتجا ، وقد أداه كل ذلك إلى الخروج بنظرية عظيمة في التحليل النحوي بقيت شامخة إلى اليوم .

في هذه الدراسة سأعرض لمنهج سيبويه في التلقي عن شيوخه : الخليل بن أحمد ويونس بن حبيب ، وقد رأيت الوقوف عند هذين الشيخين لأنهما أكثر من روى عنهم سيبويه في الكتاب فعلى آرائهما عقد سيبويه كثيرا من مسائل الكتاب ، ولأن في الكتاب تباينا بين كم المروي عن الشيخين ونوعه وكذلك في موقف سيبويه من الشيخين مما سيأتي تفصيله وبيانه .

من خلال الدراسة سوف يتضح لنا منهج سيبويه في التلقي عن الشيخين ، وهل وقف عند حد الأخذ والتلقي أو تعدى ذلك إلى البناء والزيادة بما أضافه من اجتهاداته ؟ وسوف يتضح أيضا مكانة الشيخين عند سيبويه وأنها لم يكونا بنفس المنزلة ، فقد كان الخليل في المنزلة العليا وكان يونس دونها ، وسوف أدلل على ذلك وأبينه .

تقف الدراسة عند المسائل التي خالف فيها سيبويه شيوخه ليتضح من خلالها أن سيبويه لم يكن متلقيا عنهما فحسب وإنما كانت له منهجية في النقد والاختلاف مع ما يحمله لشيوخه من تقدير .

¹ " سيبويه جامع النحو العربي " د/ فوزي مسعود — الهيئة العامة للكتاب — 1986

ضرب سيبويه المثل في الأمانة في النقل عن الشيخين فكان يبين الطريق التي من خلالها نقل عنهما ، فقد يكون بسؤالهما مباشرة أو يكون بواسطة فينص عليه ويصف ذلك الذي نقل عن الخليل أو يونس ، ولم يكن تقديره لشيخه يمنعه من عرض مروياتها على لغات العرب فيبين درجة ذلك المروي في الاستعمال ، فيكون الحكم بالقلة أو القبح أو الرداءة أو الكثرة ... إلى آخر ذلك من الأحكام والأوصاف .

جاءت هذه الدراسة في تمهيد وخمسة مباحث وخاتمة :

- التمهيد : فيه حديث عن شخصية الشيخين وعلاقة سيبويه بهما .
- المبحث الأول : منهج سيبويه في التلقي عن الخليل وعرض آرائه .
- المبحث الثاني : منهج سيبويه في التلقي عن يونس وعرض آرائه .
- المبحث الثالث : عرض آراء الخليل ويونس معا .
- المبحث الرابع : مسائل خلافية مع الخليل .
- المبحث الخامس : مسائل خلافية مع يونس .
- الخاتمة : فيها أهم ما توصلت إليه الدراسة .

التمهيد :

ولد الخليل بن أحمد سنة مائة من الهجرة وتوفي سنة مائة وخمس وسبعين ، أما يونس بن حبيب فقد توفي سنة اثنتين وثمانين ومائة وقيل في ثلاث وثمانين وكان عمره قد جاوز المائة وقيل بين السبعين والثمانين ، أما سيبويه فولد بالبيضاء من بلاد فارس سنة نيف وثلاثين

ومائة ، ورحلت أسرته من البيضاء إلى البصرة حيث نشأ وتلقى العلم وتاريخ وفاته على الأرجح سنة مائة وثمانين من الهجرة فأغلب الروايات تميل إلى القول بها².
إذن الشيخان يكبران سيبويه بعقود وقد أدركهما في أخريات حياتهما وقد شاء المولى أن تكون أخريات حياته أيضا فقد مات شابا .

من البدهي أن نتناول أولا شخصية الخليل بن أحمد لما له من فضل واسع على العربية لما قدمه من علوم ومعارف ، كان الخليل أعلم الناس وأذكاهم وأفضل الناس وأتقاهم ، وكانوا يقولون : لم يكن في العرب بعد الصحابة أذكي من الخليل بن أحمد ولا أجمع³.
وقد قيل إن الخليل دعا وهو بمكة أن يرزق علما لم يسبقه إليه أحد ولا يؤخذ إلا عنه فرجع من حجه ففتح عليه بالعروض ، واستنبت أيضا من علم النحو ما لم يسبقه إليه أحد ، وحصر علم اللغة بحروف المعجم وسماه كتاب العين⁴.

اجتمع الخليل وابن المقفع ليلة بطولها يتذاكران وافترقا فسئل الخليل عن ابن المقفع فقال : رأيت رجلا علمه أكثر من عقله ، وقيل لابن المقفع كيف رأيت الخليل ؟ فقال : رأيت رجلا عقله أكثر من علمه⁵.

كان الخليل أشد الناس تعففا ، فلقد كان الملوك يقصدونه ويتعرضون له لينال منهم فلم يكن يفعل ، ولقد وجه سليمان بن حبيب بن المهلب إلى الخليل يستزيره فكتب إليه :

أبلغ سليمان عني أي عنه في دعة وفي غنى غير أي لست ذا مال
سخي بنفسي أي لا أرى أحدا يموت هزلا ولا يبقى على حال
الرزق عن قدر لا الضعف ينقصه ولا يزيدك فيه حول محتال
والفقر في النفس لا في المال تعرفه ومثل ذلك الغنى في النفس لا المال

وقال النضر بن شميل : أقام الخليل في خص من أخصاص البصرة لا يقدر على فلس وأصحابه يكسبون بعلمه الأموال⁶.

كان سيبويه مقربا من الخليل يخصه بحفاوة الاستقبال وبعلمه وبمروياته ، وقيل في ذلك لأن أصلهما الفارسي جمع بينهما ، فالخليل أصله من فراهيد اليمن وكانوا بقايا أولاد الفرس ،

² إنباه الرواة على أنباء النحاة - للقطبي - المكتبة العصرية - بيروت - ط1 - 1424

³ معجم الأدباء - لياقوت الحموي - تحقيق إحسان عباس - دار الغرب الإسلامي - بيروت - ط1 - 1993

⁴ إنباه الرواة 1/ 377

⁵ السابق

⁶ إنباه الرواة 1/ 377

وبالبلدية والقراية ضم الخليل سيويه إلى نفسه حتى خرجه⁷. يضاف إلى هذا أن سيويه قد وجد في الخليل بغيته وضالته من علم كثير ومنهجية رائدة في النظر والاستنباط ، ووجد الخليل في سيويه نباهة التلميذ وذكاءه .

حدث ابن النطاح قال : " كنت عند الخليل بن أحمد فأقبل سيويه فقال الخليل : مرحبا بزائر لا يمل . قال أبو عمرو المخزومي : وما سمعت الخليل يقولها لغيره"⁸.

ولم تكن لسيويه عند الخليل تلك المكانة لولا نباهته ولولا أن الخليل رأى فيه أهلية حمل العلم عنه بما كان في سيويه من شغف على العلم والحرص عليه ، وبما ملكه من عقلية واعية وذهن متقد ، هذا هو الأصل الذي جمع بين الشيخ وتلميذه ، ويمكن الاستئناس بالأصل الفارسي لكنه لم يكن لب العلاقة وأساسها .

ولقد عد موقف الخليل من سيويه وتعليمه إياه من أياديه عند العرب ، فقد قيل : إن للخليل ثلاثة أياد عند العرب كبار لم يسد مثلها إليهم عربي منهم ، أحدها ما نهج لتلميذه سيويه من التأييد لتأليف كتابه حتى علمه كيف يفرق جمهور النحو أبوابا وتجنيس الأبواب أجناسا ثم تنوع الأجناس أنواعا حتى أخرجه معجز التأليف⁹.

أما يونس بن حبيب فهو أقل من الخليل بن أحمد علما وشهرة وعطاء ، فقد روى عنه سيويه في الكتاب ثلث ما روى عن الخليل تقريبا ، كانت تلك المرويات في غالبها روايات لأشعار ولغات عن العرب ، وكان النذر اليسير منها آراء واجتهادات ، في حين كانت جل رواياته عن الخليل آراء وتفسيرات واجتهادات .

هذا إن نظرنا إلى يونس في مقابل الخليل ، أما في ميزان كثيرين فإن يونس ذو دور بارز في تاريخ العربية بما أخذ عنه من مرويات من لغات العرب وأشعارها .

وكانت له بعض الآراء الدالة على ذوق رفيع ووجهة نظر ثاقبة ، من ذلك ما حدث به ابن سلام قال : سألت يونس النحوي عن أشعر الناس فقال : لا أومئ إلى رجل بعينه ولكني أقول : امرؤ القيس إذا غضب ، والتابغة إذا رهب ، وزهير إذا رغب ، والأعشى إذا طرب¹⁰.

ويبدو أن يونس كان حاد الطبع مع تلاميذه ، ولم يكن يحتفي بهم كما كان يفعل الخليل مع سيويه ، كانت فيه غلظة في التوجيه وكان سييء الظن ، من ذلك أن سيويه ذكر عنده

⁷ معجم الأدباء 3 / 1261

⁸ معجم الأدباء 5 / 2124

⁹ السابق 3 / 1261

¹⁰ معجم الأدباء 6 / 2851

فقال : أظن هذا الغلام يكذب على الخليل ، فقيل له : قد روى عنك أشياء فانظر فيها فنظر فقال : صدق في جميع ما قال هو قولي¹¹ .

وحدث التاريخي عن أبي خالد يزيد بن محمد المهلبي عن البجلي عن قتب بن بشر قال : كنت مع بكر بن حبيب السهمي بموضع يقال له قصر زربي ونحن مشرفون على المربرد إذ مر بنا يونس بن حبيب النحوي فقال : أمر بكم الأمير ؟ قال بكر : نعم مر بنا عاصبا فوه ، فرمى يونس بعنانه على عنق حماره ثم قال: أف أف ، فقال له بكر : انظر حسنا ، ثم قال : نعم . وإنما ظن يونس بن حبيب النحوي أنه لحن وأنه كان يجب أن يقول : عاصبا فاه ، فلما تبين أنه أراد عصب الفم صدقه¹² .

وتلك سنة الله في خلقه أن يتفاوت الناس فيما بينهم من حظوظ العلم والتأمل والإدراك ، ويبدو أن يونس كان راوية ناقلا أكثر منه محللا منظرا ، لذلك كانت أكثر الروايات عنه في الكتاب في المحفوظ المروي عن العرب وشعرائها وأقلها في التحليل والاستنتاج والتنظير ، يقول أبو الخطاب زياد بن يحيى : " مثل يونس كممثل كوز ضيق الرأس لا يدخله شيء إلا بعسر ، فإذا دخله لم يخرج منه يعني لا ينسى " ¹³

بين هاتين الشخصيتين كان سيبويه إلى شيخه الخليل أميل ولصحبه أزم ، عرف له قدره ومنزلته ، أكثر في الرواية عنه ، ترحم عليه في الكتاب كثيرا ، تعددت طرق عرضه لآراء شيخه ، وهذا ما سنراه في التالي .

المبحث الأول : طرق التلقي عن الخليل وعرض آرائه

كان سيبويه لشيخه الخليل التلميذ الوفي الصادق فيما نقل وروى ، المجمل لشيخه ، الحافظ له مكانته وفضله ، لازم شيخه وسمع منه وسأله وحاوره ، ثم هو دون أقواله وردوده ، فإذا قال سيبويه " وسألته " بضمير الغائب دون مرجع سابق فإنما يعني الخليل ، وذلك لكثرة ما وردت تلك العبارة بعد ذكر الخليل . ثم هو يعرض ما رواه عن شيخه على لغات العرب فينبه إلى ما وافق منها وخالف .

¹¹ أخبار النحويين البصريين 38/1

¹² معجم الأدباء 2 / 751

¹³ إنباه الرواة 4 / 74

ويتنقل سيبويه بين دروب النقل عن شيخه غير ملتزم صورة واحدة ، فنراه مرة ينص على السماع المباشر من الخليل وأخرى ينص على الأخذ عن شيخه بواسطة ، وإذا أجاب الخليل عن سؤال موجه إليه من غير سيبويه نص سيبويه على ذلك .

ولا يلتزم سيبويه عبارة واحدة في عرض آراء شيخه ، فاستخدم في سبيل ذلك حوالي أربعين عبارة ، كان أكثرها دورانا في الكتاب :

وزعم الخليل حوالي 100 مرة

وسألته حوالي 62 مرة

وقال الخليل حوالي 44 مرة

وسألت الخليل حوالي 62 مرة منها عشر مرات مشفوعة برحمه الله

قول الخليل حوالي 57 مرة

تفسير الخليل حوالي 8 مرات

وأما العبارات التي كانت أقل استخداما ودورانا في الكتاب ، وتكرر استعمالها بين مرة ومرتين وثلاث فمثالها : لا أعلم الخليل ، سمعناه من الخليل ، ذكر الخليل ، سمعته من الخليل ، حدثنا الخليل ، روى الخليل ، جعل الخليل ، يقول الخليل ، فأما الخليل ، يحتج الخليل ، وسألوا الخليل ، أنشده الخليل ، أنبأنا بذلك الخليل ، حدثني الخليل .

وقد سبقت الإشارة إلى أنه إذا قال " وسألته " فإنما يعني الخليل ، وذلك لكثرة ورودها بعد ذكر الخليل . ، فلما كثر استعمالها وكثر عود الضمير فيها إلى الخليل استعمالها سيبويه في مواضع لم يكن فيها ذكر الخليل ، وفي موضع واحد ذكر فيه سيبويه عبارة " وسألته " بعد ذكر يونس بن حبيب ، وأعتقد أن هذا الموضع قد يبهم على بعض قراء الكتاب ، فهل نعتبر الضمير فيه راجعا إلى الخليل كما هي عادته في الكتاب أو نرجعه إلى يونس فهو المذكور قبل ؟

يقول سيبويه : " وسمعت يونس يقول : ما أتيتني فأحدثك فيما أستقبل فقلت له : ما تريد ؟ فقال أريد أن أقول : ما أتيتني فأنا أحدثك وأكرمك فيما أستقبل وسألته عن " ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة " ¹⁴ فقال : هذا واجب وهو تنبيه " ¹⁵. فهل يرجع الضمير هنا في " وسألته " إلى يونس المذكور قبل أو إلى سيبويه على اعتبار أن ذلك الأصل الغالب والأكثر ؟

¹⁴ الحج 63

¹⁵ الكتاب 3 / 40

الذي أراه في هذا الموضوع أن الضمير يرجع إلى يونس فهو المذكور قبل ، ولا يمكن إرجاعه إلى الخليل الذي مر ذكره قبل صفحات من هذا الموضوع ، يؤيد هذا أن سيبويه نقل عن أبي الخطاب فقال : " وزعم أبو الخطاب - وسألته عنه غير مرة - أن ناسا من العرب يوثق بعربيتهم وهم بنو سليم يجعلون باب قلت أجمع مثل ظننت " ¹⁶ فلا يمكن إرجاع الضمير إلى غير أبي الخطاب ولا يمكن الاستدلال بأن الأكثر في وسألته يعني الخليل إذا كان أقرب المذكور غير الخليل .

قد يتوهم بعض الدارسين فيرى في استعمال سيبويه الفعل " زعم " عند نقله عن شيوخه في الكتاب خاصة الخليل بن أحمد أن الزعم يعني الظن والادعاء ، والحق غير ذلك فشواهد الاستعمال تنيد أن زعم يعني رأى وذهب أو روى إن كان في سياق الحكاية عن العرب ، يقول سيبويه : " وزعم الخليل أن إن هي أم حروف الجزاء ، فسألته لم قلت ذلك ؟ فقال : من قبل أني أرى حروف الجزاء قد يتصرفن فيكن استفهاما ، ومنها ما يفارقه فلا يكون فيه الجزاء وهذه على حال واحدة أبدا لا تقارن الجزاء " ¹⁷ .

في أول الكلام استعمال سيبويه الفعل " زعم " في نقله عن الخليل ، وعند سؤاله لم يسأله ب : لم زعمت وإنما سأله : لم قلت ، واستعمل الخليل في الجواب الفعل : أرى ، فالزعم على هذا هو القول والرؤية والمذهب .

ويقول سيبويه : " وزعم الخليل - رحمه الله - أنه يستضعف أن يكون كلهم مبنيا على اسم أو على غير اسم ، ولكنه يكون مبتدأ أو يكون كلهم صفة فقلت : ولم استضعفت أن يكون مبنيا ؟ فقال : لأن موضعه في الكلام أن يعم به غيره من الأسماء بعدما يذكر فيكون كلهم صفة أو مبتدأ " ¹⁸ . فلو كان الزعم هو الادعاء ويعني بالتبعية الطعن لم يكن سؤال سيبويه لشيخه " ولم استضعفت " .

وتبلغ دقة سيبويه وأمانته في النقل عن شيخه أنه لا يكتفي بقال الخليل وإنما يبين دافع القول ومناسبته وهو سؤاله له أو سؤال غيره له ، يقول : " وقال الخليل - رحمه الله - وسألته عن يا زيد نفسه ويا تميم كلكم ويا قيس كلهم ، فقال هذا كله نصب كقولك : يا زيد ذا الجمعة " ¹⁹ .

16 السابق

17 الكتاب 63/3

18 الكتاب 2 / 116

19 الكتاب 2 / 184

وقد يكون السؤال من غير سيبويه فينص على ذلك ، يقول : " وسألوا الخليل عن مقتوي ومقتوين ، فقال : هذا بمنزلة الأشعري والأشعرين "20 .

وإذا كانت الرواية عن الخليل بطريق غير مباشر نص سيبويه على ذلك أيضا مبينا طريق الرواية ، قال : " وحدثني من لا أتهم عن الخليل أنه سمع أعرابيا يقول : إذا بلغ الرجل الستين فإياه وإيا الشواب "21 .

وقد يفسر الخليل مسألة ، فهل يكون التفسير رأيا له أو هو يرى غيره ؟ فيتدخل سيبويه لينص على أن ذلك التفسير رأي للخليل ، يقول : " ... فهذا تفسير الخليل رحمه الله وقوله "22

يبين سيبويه المراد من كلام الخليل ومقصده خشية أن يفهم الكلام على غير وجهه ، يقول : " ..وإنما ذكر الخليل رحمه الله هذا لنعرف ما يحال منه وما يحسن فإن النحويين مما يتهاونون بالخلف إذا عرفوا الإعراب "23 .

ويفرق بين ما يذكره الخليل للتمثيل ولم يذكره كلاما عن العرب حتى لا يختلطا ، يقول : " ..وذلك قولك ما أحسن عبد الله ، زعم الخليل أنه بمنزلة قولك : شيء أحسن عبد الله ، ودخله معنى التعجب ، وهذا تمثيل ولم يتكلم به "24 .

وردت جل آراء الخليل في الكتاب بما يفيد النقل المباشر عنه ، أو بما يفيد النقل غير المباشر وذلك في القليل النادر من مثل : وحدثني من لا أتهم عن الخليل 25 ، والمعتمد الكثير أن يذكر سيبويه اسم الخليل أولا ثم يتبعه بالرأي ، وفي مواضع كان يذكر الرأي أولا ثم يذكر نسبه للخليل بعبارة مثل : "وهذا قول الخليل رحمه الله "26 ، "وكان الخليل يراه"27 ، "وهذا تفسير الخليل رحمه الله وقوله "28 .

20 الكتاب 410/3

21 الكتاب 1 / 279

22 الكتاب 1 / 377

23 الكتاب 2 / 80

24 الكتاب 1 / 72

25 الكتاب 2 / 279

26 الكتاب 1 / 92

27 الكتاب 1 / 102

28 الكتاب 1 / 193

قال أبو جعفر : " سمعت أبا إسحاق يقول : إذا قال سيبويه بعد قول الخليل : وقال غيره فإنما يعني نفسه ، لأنه أجل الخليل عن أن يذكر نفسه معه " ²⁹ .

وليس الأمر كما ذهب ، إذ لا يقوم من كلام سيبويه دليل عليه ، فما ورد في الكتاب من عبارات من مثل : وقال غيره ، لا نجد فيه إشارة إلى هذا الفهم ، يؤيد هذا أن عبارة " وقال غيره " بعد ذكر رأي الخليل قد وردت في الكتاب كله ثلاث مرات ، ووردت عبارة " وأما غيره " وردت ثلاث مرات أيضا في إحداها وردت بعد ذكر شيخه يونس ، فهل أجل سيبويه يونس عن أن يذكر نفسه معه وقد خالفه في بضع مسائل ؟ يقول سيبويه : " وأما يونس فزعم أنه نون مضطرا وزعم أن قوله : لا نسب اليوم ولا خلة على الاضطرار ، وأما غيره فوجهه على ما ذكرت لك والذي قال مذهب " ³⁰

نقد سيبويه آراء الخليل ومروياته فرأى فيها رأيا مخالفا لما عليه شيخه أو يقوي آراء شيخه ويؤيدها ، فبين مكانتها في استعمال العرب والقياس ، ثم هو يعضد رأي شيخه أو يضعفه أو يستحسنه ، وقد أثرت هنا التعبير بالنقد لأنه يشمل المخالفة والتأييد ، وسوف أفرد مبحثا للحديث عما اختلف فيه سيبويه مع شيخه الخليل وسأكتفي هنا بالإشارة إلى شخصية سيبويه في تلقيه آراء الشيخ ونقده لها .

يبين سيبويه مكانة رأي الخليل في العربية يقول " فهذا تفسير الخليل وهو قول العرب " ³¹ ويقول : " وقول العرب على قول الخليل " ³² ويقول : " وهو قول العرب وقول الخليل " ³³ وليس أدل على مراجعة سيبويه لرأي شيخه من قوله : " والذي ذكرت لك قول الخليل ورأينا العرب توافقه بعدما سمعناه " ³⁴ ويقول : " وزعم الخليل — رحمه الله — أن قولهم : ربحت الدرهم درهما محال حتى تقول في الدرهم وللدرهم ، وكذلك وجدنا العرب تقول " ³⁵

ويضعف سيبويه لغة حكاها الخليل عن العرب ، يقول : " وزعم الخليل — رحمه الله — أنه سمع عربيا يقول : ما أنا بالذي قائل لك شيئا . وهذه قليلة ومن تكلم بهذا فقياسه اضرب أيهم

²⁹ الكتاب 1 / 6

³⁰ الكتاب 2 / 309

³¹ الكتاب 3 / 522

³² السابق

³³ الكتاب 3 / 542

³⁴ الكتاب 2 / 117

³⁵ الكتاب 1 / 395

قائل لك شيئاً" ³⁶، ويقول: "وحدثني الخليل أن ناسا يقولون: ضربتبه فيلحقون اليباء، وهذه قليلة". ³⁷

ويحكم سيبويه على رأي الخليل بالشذوذ، يقول: "وقد قال بعض العرب: كدت تكاد فقال فعلت تفعل كما قال فعلت أفعل وكما ترك الكسرة كذلك ترك الضمة وهذا قول الخليل وهو شاذ من بابه". ³⁸

وإذا كان في المسألة رأيان منقولان عن الخليل بين سيبويه الصحيح منها واستدل على صوابه، يقول: "وذكر لي بعضهم أن الخليل قال: أن مضرة بعد إذن. ولو مما يضر بعده أن فكانت بمنزلة اللام وحتى لأضمرتها إذا قلت: عبد الله إذن يأتيك فكان ينبغي أن تنصب إذن يأتيك لأن المعنى واحد ولم يغير فيه المعنى الذي كان في قوله: إذن يأتيك عبد الله كما يتغير المعنى في حتى في الرفع والنصب، فهذا ما رواه، وأما ما سمعت منه فلاول". ³⁹

ويبين سيبويه رأي الخليل في القياس، فالقياس عنده أحد الأصول التي يحتكم إليها، يقول: "وتقول في رجل سميته بارمه: هذا ارم قد جاء، وينون في قول الخليل وهو القياس". ⁴⁰

ويحكم على بعض آراء الخليل بالقوة أو الضعف، يقول: "ولا يقوى قول الخليل في أمس...". ⁴¹

ويعلق سيبويه على مذهب الخليل ومذهب مخالفه بأن كلا الرأيين صواب، فقال في باب "علم مواضع الزوائد من مواضع الحروف غير الزوائد" بعدما عرض رأي الخليل ورأي مخالفه: "وكلا الوجهين صواب ومذهب". ⁴³

مما تقدم يتبين لنا أن سيبويه كان مع شيخه الخليل التلميذ الواعي المدقق الذي لا يتلقى علومه وهو مغمض العينين دونما نقد وتمحيص حتى وإن كان التلقي من كبار شيوخه، فرأيناه يعرض مرويات شيخه على لغات العرب ليبين صحيحها من ضعيفها، ويقوي آراء شيخه ويستحسنها في مواضع، وفي أخرى يضعفها بالقلّة أو الشذوذ.

36 الكتاب 2 / 404

37 الكتاب 4 / 200

38 الكتاب 4 / 40

39 الكتاب 3 / 16

40 الكتاب 3 / 317

41 الكتاب 2 / 164

42 الكتاب 4 / 399

43 الكتاب 4 / 329

ولم يسلك سيبويه في سبيل التلقي عن شيخه مسلكا واحدا ، وإنما سأله فأجاب وسمع غيره يسأله ، وراجع شيخه في مسائل فسأله عنها غير مرة ، وفي مواضع بين طريق التلقي هل بالسماع المباشر أو عن غيره ممن نقلوا عن الخليل ؟ .

المبحث الثاني : طرق التلقي عن يونس وعرض آرائه

سمع سيبويه من يونس مباشرة كما سمع من الخليل ، وقد ترددت عبارات في الكتاب تدل على ذلك غير أنها لم تكن بتلك الكثرة والتنوع الموجودين عند الخليل ، ولم تختلف طرق عرض سيبويه آراء يونس عنها عند الخليل فقد ترددت في الكتاب عبارات متنوعة بعضها كثر ترددها ودورانها في الكتاب وبعضها كان قليلا ، من ذلك :

زعم يونس حوالي 70 مرة

حدثنا أو حدثني يونس حوالي 14 مرة

قول يونس حوالي 27 مرة

وأما يونس حوالي 21 مرة

أنشدنا يونس حوالي 4 مرات

سألت يونس حوالي 7 مرات

أن يونس حوالي 4 مرات

أخبرنا يونس حوالي 4 مرات

ومما كان أقل دورانا في الكتاب عباراته : " قال يونس ، عند يونس ، جعل يونس ، كان يونس ، سمعت يونس ، يقول يونس ، أخبرنا بذلك يونس عن العرب " كل ذلك لم يتجاوز ذكره مرة أو مرتين .

وردت أكثر تلك الروايات والنقول عن يونس في شواهد اللغة من شعر أو من لغات العرب وليس في الآراء والاجتهادات النحوية والرؤى التحليلية ، فسيبويه فيما يبدو لم يكن معجبا بالجانب التحليلي الاستنباطي عند يونس كما كان مع الخليل ، فلم يكد الخليل يترك فيه بقية لغيره وخاصة في قواعد النحو وأقيسته .⁴⁴

نلاحظ دقة سيبويه في النقل عن يونس وأمانته كما كان مع الخليل ، وأنه لم يكتف بدور التلميذ المتلقي الناقل ، فحاور يونس وسأله ونقد آراءه فعرضها على لغات العرب والقياس ، وفرق بين ما رواه يونس وما كان رأيا له ، وإن كان ما رواه هو رأيه نص سيبويه عليه .

⁴⁴ المدارس النحوية ص28

يقول سيبويه : " وزعم يونس عن أبي عمرو وهو قوله أيضا وهو القياس أنك إذا قلت : لقيته العام الأول أو يوما من الأيام ثم قلت : غدوة أو بكرة وأنت تريد المعرفة لم تتون... " ⁴⁵ ، ويقول : " ... وزعم يونس وهو رأيه أن أبا عمرو كان يجعل لفظه كلفظ الواحد ... " ⁴⁶ . ثم هو يعرض أقوال يونس ومروياته على لغات العرب وأقوال العلماء ليستبين وجه الصواب فيها ويحكم عليها من حيث درجتها في الاستعمال من ندرة أو شذوذ أو كثرة أو قلة . يقول : " ... وكذا قول يونس ولا نعلم أحدا يوثق بعلمه قال خلاف ذلك " ⁴⁷ .

مما رأى فيه سيبويه موافقة العرب لما روى يونس قوله : " وقال يونس : من صرف هندقال : هذه هند بنت زيد فنون هذا ، لأن هذا موضع لا يتغير فيه الساكن ولم تدركه علة ، وهكذا سمعنا من العرب " ⁴⁸ .

ومما ضعفه سيبويه من مرويات يونس لأنه رأى العرب على غير ما ذهب إليه يونس قوله : " وكذلك كآين رجلا قد رأيت ، زعم ذلك يونس ، إلا أن أكثر العرب إنما يتكلمون بها مع من ، قال عز وجل : وكآين من قرية " ⁴⁹ ، ومن ذلك قوله : " وزعم يونس أن قوما يقولون : هذه عشرون أضعافها وهذه عشرون أضعاف ، أي مضاعفة والنصب أكثر " ⁵⁰ .

وليس مخالفة بعض لغات العرب أو إحداها لما رواه يونس سببا للطعن على روايته أو ردها فيؤيدها سيبويه بالقياس الصحيح أو بأن غالب لغات العرب عليها فيثني عليها .

يقول سيبويه : " وذو صباح بمنزلة ذات مرة ، تقول : سير عليه ذا صباح أخبرنا بذلك يونس عن العرب ، إلا أنه قد جاء في لغة لختعم مفارقا لذات مرة وذات ليلة ، وأما الجيدة العربية فأن تكون بمنزلتها " ⁵¹ .

ويضع سيبويه ما روى يونس عن بعض النحويين في مقابل استعمال العرب ثم هو يرى أن هذا المروي عن النحويين له وجه في القياس ، يقول : " وزعم يونس أن أبا عمرو كان يقول : داري من خلف دارك فرسخان فشببه بقولك : دارك مني فرسخان ، لأن الخلف ههنا اسم وجعل من فيها بمنزلتها في الاسم ، وهذا مذهب قوي ، وأما العرب فتجعله بمنزلة قولك :

45 الكتاب 3/ 293

46 الكتاب 3 / 303

47 الكتاب 3 / 369

48 الكتاب 3 / 506

49 الكتاب 2 / 170 والآية 13 سورة محمد

50 الكتاب 2/ 119

51 الكتاب 1/ 226

خلف ، فتنصب وترفع ، لأنك تقول : أنت من خلفي ، ومعناه أنت خلفي ولكن الكلام حذف
52 "

ويعرض سيبويه آراء يونس ومروياته على القياس فينص على أن ما رواه يونس أو ما ذهب إليه هو القياس ، يقول : " فإن سميت المؤنث بعمر أو زيد لم يجز الصرف ، هذا قول ابن أبي إسحاق فيما حدثنا يونس وهو القياس لأن المؤنث أشد ملاءمة للمؤنث والأصل عندهم أن يسمى المؤنث بالمؤنث " 53

ومن ذلك قوله : " وزعم يونس عن أبي عمرو وهو قوله أيضا وهو القياس أنك إذا قلت : لقبته العام الأول أو يوما من الأيام ثم قلت : غدوة أو بكرة وأنت تريد المعرفة لم تنون " 54 ويستحسن سيبويه رأي يونس ومذهبه ثم هو يعلل لذلك الاستحسان بدلالة السياق اللغوي ، يقول : " وتقول : إن تأتني آتك وإذن أكرمك ، إذا جعلت الكلام على أوله ولم تقطعه وعطفته على الأول ، وإن جعلته مستقبلا نصبت وإن شئت رفعته على قول من ألقى ، وهذا قول يونس وهو حسن ، لأنك إذا قطعت من الأول فهو بمنزلة قولك : فإذا فعل إذا كنت مجيبا رجلا " 55

ويأخذ سيبويه من رأي يونس ومروياته عن العرب دليلا على صحة بعض المذاهب النحوية ، ولا يخفى أن سيبويه في ذلك يعطي منزلة عالية لشيخه يونس ، يقول : "...ويقوي ذلك كله أن يونس زعم أنه سمع من العرب من يقول : يا فاسق الخبيث " 56 ومن ذلك : " وأما يا تميم أجمعون فأنت فيه بالخيار ، إن شئت قلت : أجمعون ، وإن شئت قلت : أجمعين ، ولا تنتصب على أعني ، من قبل أنه محال أن تقول أعني أجمعين ، ويدلك على أن أجمعين ينتصب لأنه وصف لمنصوب قول يونس : المعنى في الرفع والنصب واحد " 57

ويحتكم سيبويه إلى شيخه يونس لتوثيق ما سمعه من لغات العرب أو للتأكد من صواب رأي سمعه من نحوي آخر ، وفي ذلك ما لا يخفى من تقدير سيبويه لعلم شيخه وثقته في مروياته

52 الكتاب / 1 / 417

53 الكتاب / 3 / 242

54 الكتاب / 3 / 242

55 الكتاب / 3 / 15

56 الكتاب / 2 / 184

57 الكتاب / 2 / 184

عن العرب ، يقول : " وسمعنا بعض العرب يقول : الحمد لله رب العالمين ، فسألت عنها يونس فزعم أنها عربية "58.

ويقول : " وزعم عيسى بن عمر أن ناسا من العرب يقولون : إذن أفعل ذلك في الجواب ، فأخبرت يونس بذلك فقال : لا تبعدن ذا ولم يكن ليروي إلا ما سمع جعلوها بمنزلة هل وبل "59

ويقول : " وقال ناس كثير من العرب : قد حيي الرجل وحييت المرأة ، فبين ، ولم يجعلوها بمنزلة المضاعف من غير الياء ، وأخبرنا بهذه اللغة يونس "60

ويستأنس سيبويه برأي يونس ، فنراه يسوقه بعد أن حكم على لغة من لغات العرب بالبعد وأنها لا تكلم بها العرب ، يقول : " وزعم يونس أنه سمع أعرابيا يقول : ضرب من منا ، وهذا بعيد لا تكلم به العرب ولا يستعمله منهم ناس كثير ، وكان يونس إذا ذكرها يقول : لا يقبل هذا كل أحد ، فإنما يجوز منون يا فتى على ذا "61.

مما سبق يتضح لنا سماع سيبويه المباشر عن شيخه يونس ، ثم عرض ما سمع على استعمال العرب فكان الوصف بالقللة أو الندرة أو الشذوذ أو الكثرة ، واستدل سيبويه بآراء يونس وبمروياته عن العرب على الحكم على بعض اللغات ، ورأينا دقة سيبويه في النقل فبين ما كان يونس فيه راويا وما كان فيه راويا وصاحب رأي.

بالرغم من كل ما تقدم ذكره من طرق عرض بها سيبويه مرويات شيخه يونس وبعض آرائه وأنها قد تشابهت إلى حد كبير مع ما ذكر مع يونس واختلفت في كم المروي عن كل منهما ، فإننا نجد أحد الباحثين يذهب إلى أن الطريقة التي عرض سيبويه بها آراء يونس ومروياته أوهمت وضللت النحاة المتأخرين ، فلم يميزوا بين رواية يونس ورأيه ونظروا إليه رواية وليس نحويا له آراء ومواقف ، يقول : " غير أن الطريقة التي كان سيبويه يذكر بها يونس وروايته توهم وتضلل ، إذ يصعب على الباحث بسببها أن يميز بين ما هو رواية محضة ليونس وما هو رواية ورأي معا ، وقد وقع السيرافي أشهر شراح الكتاب في حيرة حين اعترضه قول سيبويه عن يونس في باب الندبة : وأما يونس فيلحق الصفة الألف فيقول وا زيد الظريفاه ، فقال ندبة

58 الكتاب 63/2

59 الكتاب 3 / 16

60 الكتاب 4 / 397

61 الكتاب 2 / 411

الصفة قول يونس والكوفيين ، والذي حكاه سيبويه عن يونس لست أدري إلحاق علامة الندبة له من قياس يونس أو مما حكاه عن العرب " ⁶² .

هذا مذهب يجانبه الصواب وتعوزه الدقة ويفتقر إلى الدليل ، لأن رواية سيبويه عن يونس في الكتاب ليست بهذا الغموض والتضليل المشار إليهما ، فقد مر بنا أن سيبويه قد نص في نقله عن يونس أن هذا القول أو ذاك رواية يونس ورأيه ، يضاف إلى ذلك أن جل ما رواه سيبويه عن يونس مرويات من لغات العرب وأشعارها ، وأقلها كانت آراءه النحوية .

يبدو أن الباحث متعصب ليونس يرى أنه مهضوم الحق وأنه يستحق منزلة فوق ما كانت له ، ولكنه لم يجد أدلة واضحة تؤيد مذهبه ، لذلك نجد في كلامه اضطرابا حيث ذهب أولا إلى أن طريقة سيبويه في عرض آراء يونس ورواياته قد ضللت النحاة من بعده ، ثم هو يقرر أن شخصية يونس النحوية برزت في معظم صفحات الكتاب ، يقول : " ومع أن يونس ذو شخصية واضحة بارزة تمثلت في معظم صفحات الكتاب وتتلازم مع الخليل في مواضع عدة إلا أن هذه الشخصية تكاد لا تبين بوضوح أو أن هذه الشخصية لا تأخذ المكانة التي تستحقها في معظم كتب النحاة المتأخرين " ⁶³

وقد فات الباحث أن تلك المكانة التي لا يرضاها ليونس في معظم كتب المتأخرين قد ترجع إلى أن المروي عن يونس ليس بالقدر الذي يجعله في مكانة مساوية لما كان عليه الخليل بن أحمد ، والأمر كذلك في كتاب سيبويه فطرق النقل عن يونس والخليل تكاد تكون واحدة إلا أن الكم في صالح الخليل والنوع كذلك حيث كان جل ما روي عن يونس في لغات العرب وأشعرها وكان النذر اليسير في آرائه وتحليلاته النحوية ولو علم سيبويه عنه أكثر لذكره ولم يخفه .

المبحث الثالث : عرض آراء الخليل ويونس معا

ورد في الكتاب عبارات تفيد ذكر يونس مقرونا بالخليل على النحو التالي :

عبارة : " يونس والخليل رحمهما الله " 4 مرات

" الخليل ويونس " بغير رحمهما الله 4 مرات

" يونس والخليل " بغير رحمهما الله 4 مرات

" يونس والخليل ومن رأينا من العلماء " مرة واحدة

" الخليل رحمه الله ويونس " 7 مرات

⁶² موقف من يونس بن حبيب ، محمود حسني محمود ، موقع مجمع اللغة الأردني ص4

⁶³ السابق ص4

وقف أحد الباحثين عند دعاء سيبويه للخليل بالرحمة إذا جاء ذكره قبل يونس وذلك في تلك المرات السبع ، وكذلك الدعاء للخليل ويونس معا بالرحمة إذا سبق ذكر يونس ذكر الخليل كما في " يونس والخليل رحمهما الله " ، ويرى في ذلك إغلاقا للترحم في وجه يونس وفتحه في وجه الخليل ، يقول : " ولعل ما سلكه سيبويه إزاء الخليل ويونس يذكرني بالأعرابي الذي صلى خلف النبي ثم دعا قائلاً : اللهم ارحمني ومحمدا ولا ترحم معنا أحدا فدهش النبي وقال له : لقد ضيقت واسعا " ⁶⁴.

نعم ، إنه لملاحظ جيد تؤيده عبارات سيبويه ، وأعتقد أن ذلك يرجع إلى مكانة الخليل عند سيبويه وقد سبقت الإشارة إلى حب الخليل لسيبويه ورفعته إلى مكانة عالية ووصفه بأنه زائر لا يمل وأعطاه من علمه الكثير وخصه به ، وقد قابل سيبويه الميل بميل والحب بحب فكان التلميذ الوفي الذي عرف لشيخه الفضل ، ولم تكن ليونس تلك المكانة ، وذلك لا يعيب سيبويه فتلك طبائع الأمور وشؤون الناس مع بعضهم .

من البدهي أن تلك المرات التي جمع فيها سيبويه بين الخليل ويونس كان الشيخان فيها متفقين في الرأي والمذهب ، يقول : " وزعم يونس والخليل رحمهما الله أن الدرهم ليست بنكرة لأنهم يقولون : مائة الدرهم التي تعلم ، فهي بمنزلة عبد الله . وزعم يونس والخليل أن هذه الصفات المضافة إلى المعرفة التي صارت صفة للنكرة قد يجوز فيهن كلهن أن يكن معرفة وذلك معروف في كلام العرب ... " ⁶⁵.

ومثاله : " ولم يجز الخليل ويونس رحمهما الله كم غلمانا لك ، لأنك لا تقول : عشرون ثيابا لك " ⁶⁶.

ويضع سيبويه رأي الخليل في مقابل رأي يونس دون الانتصار لأحدهما على الآخر ، يقول : " وزعم يونس أن لبيك اسم واحد ولكنه جاء على هذا اللفظ في الإضافة كقولك : عليك ، وزعم الخليل أنها تثنية بمنزلة حواليك ، لأننا سمعناهم يقولون حنان " ويقول : " وجعل يونس نصب وحده كأنك قلت : مررت برجل على حاله فطرحته على ، فمن ثم قال : هو مثل عنده ، وهو عند الخليل كقولك : مررت به خصوصا " ⁶⁷.

ولنا أن نأخذ من عدم انتصار سيبويه لرأي أحد الشيخين على الآخر دليلا على تجويز سيبويه الرأيين في المسألة .

⁶⁴ موقف من يونس بن حبيب ص 5

⁶⁵ الكتاب 1/ 428

⁶⁶ الكتاب 2/ 159

⁶⁷ الكتاب 1/ 378

ينقل سيبويه عن شيخه الخليل تخطئته لرأي يونس دون أن ينتصر لأحدهما على الآخر ، وقد نفهم من هذا السياق ميل سيبويه إلى رأي شيخه الخليل ، يقول : " هذا باب ما لا تلحقه الألف التي تلحق المندوب وذلك قولك : وا زيد الظريف والظريف وزعم الخليل رحمه الله أنه منعه من أن يقول الظريفاه أن الظريف ليس بمنادى ، وأما يونس فيلحق الصفة الألف فيقول : وا زيد الظريفاه ، وزعم الخليل أن هذا خطأ " ⁶⁸.

ويقول : " وسألت الخليل فقلت : كيف تقول مررت بأفعل منك من قوله : مررت بأعيمي منك ؟ فقال : مررت بأعيم منك ، لأن ذا موضع تنوين ، ألا ترى بأنك تقول : مررت بخير منك وليس أفعل منك بأثقل من أفعل صفة . وأما يونس فكان ينظر إلى كل شيء من هذا إذا كان معرفة كيف حال نظيره من غير المعتل معرفة ، فإذا كان لا ينصرف لم ينصرف ، يقول : هذا جوارى قد جاء ، ومررت بجوارى قبل . وقال الخليل : هذا خطأ لو كان من شأنهم أن يقولوا هذا في موضع الجر لكانوا خلقاء أن يلزموا الرفع والجر ... " ⁶⁹

وفي مواضع ينتصر سيبويه لرأي يونس في مقابل رأي الخليل ، وفي ذلك ما لا يخفى من حيادية سيبويه وأنه مع تقديره لشيخه الخليل كان العلم هو الغاية والتحقق والتدقيق هما المقصد ، يقول : " وسألت الخليل عن القاضي في النداء فقال : أختار يا قاضي لأنه ليس بمنون ، كما أختار هذا القاضي ، وأما يونس فقال : يا قاض ، وقول يونس أقوى ، لأنه لما كان من كلامهم أن يحذفوا في غير النداء كانوا في النداء أجدر ، لأن النداء موضع حذف يحذفون التنوين ويقولون : يا حار ويا صاح " ⁷⁰.

ومثل ذلك قول سيبويه : وسألت الخليل رحمه الله عن قوله :

الأرجلا جزاه الله خيرا يدل على محصلة تبيت

فزعم أنه ليس على التمني ولكنه بمنزلة قول الرجل فهلا خيرا من ذلك ، كأنه قال : ألا تروني رجلا جزاه الله خيرا . وأما يونس فزعم أنه نون مضطرا وزعم أن قوله : لا نسب اليوم ولا خلة ، على الاضطرار وأما غيره فوجهه على ما ذكرت ، والذي قال مذهب " ⁷¹

جاء في مغني اللبيب : " قال يونس : ألا للتمني ونون اسم لا للضرورة وقول الخليل أولى لأنه لا ضرورة في إضمار الفعل بخلاف التنوين ، وإضمار الخليل أولى من إضمار غيره " ⁷²

68 الكتاب 2/225

69 الكتاب 3/312

70 الكتاب 4/184

71 الكتاب 2/308

72 مغني اللبيب 1/97

ومن ذلك : " وسألت الخليل عن قول الأعشى :
 إن تركبوا فركوب الخيل عادتنا أو تنزلون فإننا معشر نزل
 فقال الكلام هاهنا على قولك : يكون كذا أو يكون كذا ، لما كان موضعها لو قال فيه أتركبون
 لم ينقض المعنى صار بمنزلة قولك : ولا سابق شيئاً . وأما يونس فقال : أرفعه على الابتداء
 كأنه قال : أو هو يرسل رسولا...وقول يونس أسهل وأما الخليل فجعله بمنزلة قول زهير :

بدالي أني لست مدرك ما مضى ولا سابق شيئاً إذا كان جائياً

والإشراك على هذا التوهم بعيد كبعده ولا سابق شيئاً " .⁷³

ومع أن سيبويه ذهب إلى الانتصار لرأي يونس ورآه أسهل وأقرب فإن ابن هشام ذهب إلى أن
 مذهب سيبويه والخليل واحد .⁷⁴

وفي مواضع نجد سيبويه ينتصر لآراء شيخه الخليل في مقابل آراء يونس ، وهذا هو الغالب
 الأعم ، ويستخدم في ذلك عبارات مختلفة كالاستحسان والأقرب ، مع تأييد مذهب الخليل
 بلغات العرب ، يقول : " وإنما منعهم أن يقولوا : سفيرجل أنهم كسروه ولم يقولوا : سفارجل
 ولا فرزدق ، وهذا قول يونس .وقال الخليل : لو كنت

محقرا هذه الأسماء لا أحذف منها شيئاً كما قال بعض النحويين لقلت : سفيرجل كما ترى ،
 فهذا أقرب وإن لم يكن من كلام العرب " .⁷⁵

ويستحسن سيبويه رأي الخليل فيفضله على رأي يونس وذلك : " إذا حقرت رجلا اسمه قبائل
 قلت : قبيل ، وإن شئت قلت : قبيل عوضا مما حذف والألف أولى بالطرح من الهمزة
 لأنها كلمة حية لم تجئ للمد وإنما هي بمنزلة جيم مساجد وهمزة برائل وهذا قول الخليل ،
 وأما يونس فيقول : قبيل بحذف الهمزة إذ كانت زائدة كما حذفوا ياء قراسية وياء عفاربية ،
 وقول الخليل أحسن كما أن عفيربية أحسن " .⁷⁶

وجاء في المقتضب : " فإن سميت قبائل أو رسائل قلت قبيل ورسيل في قول جميع
 النحويين إلا يونس بن حبيب فإنه كان يقول : قبيل ورسيل ، وذلك رديء في القياس ، فأما
 النحويون فأقروا الهمزة وحذفوا الألف لأن الهمزة متحركة والألف ساكنة والمتحرك حرف حي
 وهو في مواضع الملحقة بالأصول ألا ترى أن الهمزة من قبائل في موضع الفاء من عذافير
 والألف لا تقع من هذا البناء في موضعها إلا زائدة فكانت أحق بالحذف ، وأما يونس فكان

⁷³ الكتاب 3 / 51، 50

⁷⁴ مغني اللبيب 1/909

⁷⁵ الكتاب 3/418

⁷⁶ الكتاب 3/439

يقول : لما كانتا زائدتين كانت التي هي أقرب إلى الطرف أولى بالحذف ، وليس هذا القول بشيء⁷⁷ .

ويأخذ سيبويه من لغة العرب دليلاً على تخطئة يونس وصحة مذهب الخليل ، وذلك إما أن يكون بالإيجاب كأن تكون لغة العرب قد جاءت على ما ذهب إليه الخليل ، أو بالسلب كأن يكون مذهب يونس لم يقل به أحد من العرب ، يقول : " وكذلك من أمام ومن قدام ومن وراء ومن قبل ومن دبر ، وزعم الخليل أنهن نكرات كقول أبي النجم : يأتي لها من أيمن وأشمل . وأما يونس فكان يقول : من قدام ويجعلها معرفة وزعم أنه منعه من الصرف أنها مؤنثة ، ولو كانت شامة كذا لما صرفها وكانت تكون معرفة ، وهذا مذهب إلا أنه ليس بقوله أحد من العرب " .⁷⁸

ومما انتصر فيه سيبويه للخليل على يونس محتجا بلغات العرب قوله : " باب الوقف عند النون الخفيفة ، اعلم أنه إذا كان الحرف الذي قبلها مفتوحا ثم وقفت جعلت مكانها ألفا كما فعلت ذلك في الأسماء المنصرفة حين وقفت وذلك لأن النون الخفيفة والتنوين من باب واحد... وقال الخليل : إذا كان ما قبلها مكسورا أو مضموما ثم وقفت عندها لم تجعل مكانها ياء ولا واوا ، وذلك قولك للمرأة وأنت تريد الخفيفة : اخشي وللجميع وأنت تريد النون الخفيفة : اخشوا ، وقال : هو بمنزلة التنوين إذا كان ما قبله مجرورا أو مرفوعا . وأما يونس فيقول : اخشي واخشوا يريد الياء والواو بدلا من النون الخفيفة من أجل الضمة والكسرة... وقول العرب على قول الخليل " .⁷⁹

المبحث الرابع : مسائل خلافية مع الخليل

تعددت تلك العبارات التي عبر بها سيبويه عن مخالفته شيخه الخليل في بعض المسائل ، فتارة يعقب على رأي الخليل بأنه لا يقوى أو أنه ضعيف ، أو يستبعد رأي الخليل بالكلية ، وفي مواضع نراه يقيم الدليل على خطأ الخليل ، كل ذلك حسب مواضع الخلاف وسياقه ، ويمكن تقديم ذلك في التالي :

مما ضعف فيه سيبويه رأي الخليل :

1 - يقول سيبويه : " وزعم الخليل أن قولهم : لاه أبوك ولقيته أمس إنما هو على لله أبوك ولكنهم حذفوا الجار والألف واللام تخفيفا على اللسان وليس كل جار يضرر... ولا يقوى قول

⁷⁷ المقتضب 2/ 286

⁷⁸ الكتاب 3 / 291

⁷⁹ الكتاب 3 / 521 ، 522

الخليل في أمس ، لأنك تقول : ذهب أمس بما فيه " ⁸⁰ ، أي لو كانت أمس مما يقدر معه حرف جر لها وقع موقع الفاعل في " ذهب أمس بما فيه .

2 – " وزعم الخليل رحمه الله أنه يقول : إنه المسكين أحق على الإضمار الذي جاز في مررت كأنه قال : إنه هو المسكين أحق ، وهو ضعيف " ⁸¹

3 – وفي موضع نجد سيبويه لا يرد قول الخليل ولا يعلق عليه وإنما يذكر وجهها آخر لا يستبعده ويقويه ، فنقل أولاً عن الخليل أن موضع أن وأن بعد حذف الجار نصب ، ثم يذكر مذهبا يراها في موضع جر ، ويصف سيبويه هذا الرأي الأخير بأنه قول قوي ، يقول : " وسألت الخليل عن قوله جل ذكره " وأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون " ⁸² فقال : إنما هو على حذف اللام كأنه قال : ولأن هذه أمتكم أمة واحدة . وقال : ونظيرها " لإيلاف قريش " ⁸³ إنما هو لذلك فليعبدوا ، فإن حذفت اللام من أن فهو نصب ، كما أنك لو حذفت اللام من لإيلاف كان نصبا هذا قول الخليل " ⁸⁴ . ثم يذكر الرأي الثاني في قوله : " ولو قال إنسان إن أن في موضع جر في هذه الأشياء ولكنه حرف كثر استعماله فجاز فيه حذف الجار كما حذفوا رب في قولهم : وبلد تحسبه مكسوحا . لكان قولا قويا وله نظائر نحو قوله : لاه أبوك والأول قول الخليل " ⁸⁵ .

4 – قد سبقت الإشارة إلى أن سيبويه قد رأى أن مذهب يونس أسهل من مذهب الخليل في تفسير رفع تنزلون من قول الشاعر :

إن تركيبوا فركوب الخيل عادتنا أو تنزلون فإننا معشر نزل

حيث ذهب الخليل إلى أنه على التوهم وحمله على قول زهير :

بدا لي أنني لست مدرك ما مضى ولا سابق شيئا إذا كان جائيا

وحمله يونس على الابتداء كأنه قال : أو أنتم نازلون ، وعلق سيبويه بقوله : " وقول يونس أسهل " ⁸⁶ .

⁸⁰ الكتاب 2 / 163 ، 164

⁸¹ الكتاب 2 / 76

⁸² سورة المؤمنون الآية 52

⁸³ سورة قريش الآية 1

⁸⁴ الكتاب 3 / 126

⁸⁵ الكتاب 3 / 128

⁸⁶ الكتاب 3 / 50 ، 51

5— وكذلك سبقت الإشارة إلى أن سيبويه قوى قول يونس في القاضي في النداء حيث ذهب الخليل إلى أنه يختار يا قاضي بدون تنوين واختار يونس يا قاض بالتنوين ، قال سيبويه : "وقول يونس أقوى لأنه لما كان من كلامهم أن يحذفوا في غير النداء كانوا في النداء أجدر لأن النداء موضع حذف ، يحذفون التنوين ويقولون : يا حار ويا صاح ويا غلام أقبل "87 .
مما خطأ فيه سيبويه رأي الخليل تخطئة صريحة :

1 — خطأ سيبويه رأي الخليل في مسألة الجر على الجوار حيث ذهب الخليل إلى وجوب اتفاق الاسمين المتجاورين في العدد والتذكير والتأنيث ، فإن اختلفا فلا يجوز الجر على الجوار ، وأجاز سيبويه الجر على الجوار في حال اتفاقهما وفي حال اختلافهما ، يقول : "ومما جرى نعتا على غير وجه الكلام : هذا جحر ضب خرب ، فالوجه الرفع وهو كلام أكثر العرب وأفصحهم وهو القياس ولكن بعض العرب يجره وليس بنعت الضب ، فجروه لأنه نكرة كالضب ولأنه في موضع يقع فيه نعت الضب ولأنه صار هو والضب بمنزلة اسم واحد . وقال الخليل رحمه الله : لا يقولون إلا هذان جحرا ضب خربان من قبل أن الضب واحد والجحر جحران ، وإنما يغلطون إذا كان الآخر بعدة الأول وكان مذكرا مثله أو مؤنثا ، وقالوا : هذه جحرة ضباب خربة لأن الضباب مؤنثة ولأن الجحرة مؤنثة والعدة واحدة فغلطوا ، وهذا قول الخليل رحمه الله ، ولا نرى هذا والأول إلا سواء ، لأنه إذا قال : هذا جحر ضب متهدم فيه من البيان أنه ليس للضب مثل ما في التثنية من البيان أنه ليس بالضب "88 .

2 — خالف سيبويه الخليل في أصل لن الناصبة للمضارع ، حيث نقل سيبويه أولا عن الخليل أنها لا أن صارت لن بالحذف لكثرة الاستعمال ثم يرفض سيبويه هذا الرأي ، يقول : " فأما الخليل فزعم أنها لا أن ولكنهم حذفوا لكثرتة في كلامهم كما قالوا : ويلمه يريدون وي لأمه وكما قالوا : يومئذ ، وجعلت بمنزلة حرف واحد كما جعلوا هلا بمنزلة حرف واحد فإنما هي هل ولا ، وأما غيره فزعم أنه ليس في لن زيادة وليست من كلمتين ولكنها بمنزلة شيء على حرفين ليست فيه زيادة وأنها في حروف النصب بمنزلة لم في حروف الجزم في أنه ليس واحد من الحرفين زائدا ، ولو كانت على ما يقول الخليل لما قلت : أما زيدا فلن أضرب لأن هذا اسم والفعل صلة كأنه قال : أما زيدا فلا أضرب "89 .

87 الكتاب 4 / 184

88 الكتاب 1 / 437

89 الكتاب 3 / 5

جاء في الجنى الداني: " وذهب الخليل والكسائي إلى أنها مركبة وأصلها لا أن حذف همة أن تخفيفا ، ثم حذفت الألف لالتقاء الساكنين ، ورد القول بالتركيب الأول أن البساطة أصل التركيب فرع فلا يدعى إلا بدليل قاطع ، والثاني أنها لو كان أصلها لا أن لم يجز تقديم معمول معمولها عليها وهو جائز في نحو : زيدا لن أضرب ، بهذا رد سيبويه على الخليل " .⁹⁰

3 – سبقت الإشارة إلى تخطئة سيبويه رأيا منقولاً عن الخليل يقول بإضمار أن بعد إذن الناصبة للمضارع ، ويرى أن الصواب ما سمعه هو عن الخليل ، يقول : " وقد ذكر لي بعضهم أن الخليل قال : أن مضرة بعد إذن ، ولو كانت مما يضم بعده أن فكنت بمنزلة اللام وحتى لأضمرتها إذا قلت : عبد الله إذن يأتيك فكان ينبغي أن تنصب إذن يأتيك لأن المعنى واحد ولم يغير فيه المعنى الذي كان في قوله : إذن يأتيك عبد الله كما يتغير المعنى في حتى في الرفع والنصب ، فهذا ما رووا وأما ما سمعته منه فالأول " .⁹¹

4 – خالف سيبويه شيخه الخليل في أن لواحق إيا ضمائر في محل جر ، فذهب سيبويه إلى أن إيا هي الضمير ولواحقه حروف تبين الخطاب ، يقول : " وقال الخليل : لو أن رجلا قال : إياك نفسك لم أعنفه لأن هذه الكاف مجرورة ، وحدثني من لا أتهم عن الخليل أنه سمع أعرابيا يقول : إذا بلغ الرجل الستين فإياه وإيا الشواب " .⁹² وفي موضع آخر يقول : " ولا يجوز إيا أن تكون علامة لمضمر مجرور من قبل أن إيا علامة للمنصوب " .⁹³

المبحث الخامس : خلاف سيبويه مع يونس بن حبيب

اختلف سيبويه مع يونس كما اختلف مع الخليل بن أحمد وتشابهت عبارات الاختلاف مع الشيخين ، ففي مواضع نجد سيبويه يصف لغة نقلها يونس عن العرب بأنها قليلة أو قبيحة ، وفي مواضع يصف رأي يونس بأنه لا يجوز وبأنه لم يرد عن العرب ، إلى آخر ذلك مما سيأتي بيانه في النقاط التالية :

1 – مما حكاه يونس عن العرب ووصفه سيبويه بالقبح قوله : " وزعم يونس أن من العرب من يقول : إن لا صالح فطالح ، على : إن لم أكن مررت بصالح فبطالح ، وهذا قبيح ضعيف ، لأنك تضمر بعد إن فعلا آخر فيه حذف غير الذي تضمر بعد إن لا في قولك : إن لا يكن صالحا فطالح ولا يجوز أن تضمر الجار " .⁹⁴

⁹⁰ الجنى الداني 1 / 271

⁹¹ الكتاب 3 / 16

⁹² الكتاب 1 / 279

⁹³ الكتاب 2 / 262

⁹⁴ الكتاب 1 / 262

وقد تبع كثير من النحويين سيبويه في رده تلك اللغة التي حكاها يونس عن العرب ، جاء في الإنصاف : " وأما احتجاجهم بما حكى يونس أن من العرب من يقول : مررت برجل صالح إلا صالح فطالح ، أي: إن لا أكن مررت برجل صالح فقد مررت بطالح ، قلنا هذه لغة قليلة الاستعمال بعيدة عن القياس فلا يجوز أن يقاس عليها ، أما قلتها في الاستعمال فظاهر لأن أكثر العرب لا تتكلم بها ، وأما بعدها عن القياس فإنك تفتقر إلى إضمار أشياء وحكم الإضمار أن يكون شيئاً واحداً " ⁹⁵ .

ومما استقبحه سيبويه من رأي يونس قوله : " فإن قال قائل إن تأته يأتيك زيد ، وأجعل يأتيك صلة الذي ، لم يجد بدا من أن يقول : أنا إن تأتني آتيك ، لأن أنا لا يكون كلاماً حتى يبنى عليه . وأما يونس فيقول : أنا إن تأتني آتيك ، وهذا قبيح يكره في الجزاء وإن كان في الاستفهام " ⁹⁶ .

2 — من مرويات يونس التي وصفها سيبويه بالقلّة والخبث قوله : " وزعم يونس أن قوما من العرب يقولون : أما العبيد فذو عبيد وأما العبد فذو عبد ، يجرونه مجرى المصدر سواء ، وهو قليل خبيث ، وذلك أنهم شبهوه بالمصدر كما شبهوا الجماء الغفير بالمصدر " ⁹⁷ .

وقد جاء في الهمع : " قال أبو حيان : تضافرت نصوص النحويين على اشتراط المصدرية في المفعول معه ، وذلك أن الباعث إنما هو الحدث لا الذات ، وزعم يونس أن قوما من العرب يقولون : أما العبيد فذو عبيد بالنصب وتأوله على المفعول له وإن كان العبيد غير مصدر ، وأوله الزجاج بتقدير التملك ليصير إلى معنى المصدر كأنه قيل : أما تملك العبيد " ⁹⁸ .

3 — مما ذهب إليه يونس ورأى سيبويه عدم جوازه معللاً بأن العرب لم تقله ، ما رواه صاحب الهمع عن الكوفيين من جواز إدخال نون التوكيد الخفيفة على فعل الاثنتين وجماعة النسوة نحو : افعلان وافعلنان بالنون الخفيفة وإليه ذهب يونس بن حبيب البصري ، وذهب البصريون إلى أنه لا يجوز إدخالها في هذين الموضعين " ⁹⁹ .

قال سيبويه : " وأما يونس وناس من النحويين فيقولون : اضربان زيداً واضربنان زيداً ، فهذا لم تقله العرب وليس له نظير في كلامها ولا يقع بعد الألف ساكن إلا أن يدغم " ¹⁰⁰ .

⁹⁵ الإنصاف 1 / 328

⁹⁶ الكتاب 3 / 83

⁹⁷ الكتاب 1 / 389

⁹⁸ همع الهوامع 2 / 130

⁹⁹ الإنصاف 2 / 536

¹⁰⁰ الكتاب 3 / 725

ويشرح سيويوه هذا المذهب في قوله: "إذا أردت الخفيفة في فعل جمع النساء قلت في الوقف والوصل: اضربن زيدا ولتضربن زيدا ويكون بمنزلة إذا لم ترد الخفيفة وتحذف الألف التي في قولك: اضربننا لأنها ليست باسم كالف اضربا وإنما جئت بها كراهية النونات، فلما أمنت النون لم تحتج إليها فتركها كما أثبت نون الاثنين في الرفع إذا أمنت النون"¹⁰¹.

4 - خطأ سيويوه يونس في مذهبه الذي يجيز وقوع الاسم المعرف بأل حالا كما في قولنا مررت به المسكين ويستدل سيويوه على ذلك بالقياس، يقول: "وأما يونس فيقول: مررت به المسكين، على قوله: مررت به مسكينا، وهذا لا يجوز لأنه لا ينبغي أن يجعل حالا ويدخل فيه الألف واللام، ولو جاز هذا لجاز: مررت بعبد الله الظريف تريد ظريفا ولكنك إن شئت حملته على أحسن من هذا كأنه قال: لقيت المسكين لأنه إذا قال: مررت بعبد الله فهو عمل كأنه أضمر عملا"¹⁰².

5 - ومثل ما سبق خطأ سيويوه يونس في النسب إلى الاسم المقصور الذي ألفه خامسة منقلبة عن أصل بعد حرف مشدد نحو مصلى ومثنى فمذهب سيويوه والجمهور الحذف كحالها إذا وقعت خامسة منقلبة عن أصل وليس قبلها مشدد كمشتري فإنه لا خلاف في حذفها ومذهب يونس يجعله مثل معطى وملهى فيجيز فيه القلب كما يجيز الحذف¹⁰³، يقول: "وزعم يونس أن مثنى بمنزلة معزى ومعطى وهو بمنزلة مرامي لأنه خمسة أحرف، وإن جعلته كذلك فهو ينبغي له أن يجيز عدي وعبدوي كما جاز في حبلى حبلوي. فإن جعل النون بمنزلة حرف واحد وجعل زنته كزنته فهو ينبغي له إن سمى رجلا باسم مؤنث على زنة معد مدغم مثله أن يصرفه ويجعل المدغم كحرف واحد"¹⁰⁴.

6 - نقل سيويوه عن الخليل تخطئته ليونس في إلحاق ألف الندبة وصف المنادى ولم يعلق على تلك التخطئة، يقول: هذا باب ما لا تلحقه الألف التي تلحق المندوب وذلك قولك: وا زيد الظريف والظريف، وزعم الخليل رحمه الله أنه منعه من أن يقول الظريفاه أن الظريف ليس بمنادى... وأما يونس فيلحق الصفة الألف فيقول: وا زيد الظريفاه، وزعم الخليل رحمه الله أن هذا خطأ"¹⁰⁵.

101 السابق

102 الكتاب 2 / 76

103 همع الهوامع 3 / 398

104 الكتاب 3 / 356

105 الكتاب 2 / 225

وقد جاء في الإنصاف أن إلحاق علامة الندبة لوصف المنادى قد يكون من قياس يونس وأنه من الشاذ الذي لا يعبأ به ولا يقاس عليه¹⁰⁶.

وذهب المبرد إلى أن مذهب يونس في إلحاق علامة الندبة على النعت خطأ عند جميع النحويين مستدلاً بأن علامة الندبة إنما تلحق ما لحقه تنبيه النداء لمد الصوت والنعت خارج من ذا¹⁰⁷.

7 – نقل سيبويه عن الخليل تفضيل رأي أبي عمرو على رأي يونس في النسب إلى ظبية ، يقول : " وحدثنا يونس أن أبا عمرو كان يقول في ظبية : ظبيي ، ولا ينبغي أن يكون في القياس إلا هذا ، إذ جاز في أمية وهي معتلة وهي أثقل من رميي ، وأما يونس فكان يقول في ظبية : ظبوي ، وفي دمية : دموي ، وفي فتية : فتوي ، فقال الخليل : كأنهم شبهوها حيث دخلتها الهاء بفعلة ... هذا قول الخليل وزعم أن الأول أقيسها وأعربها¹⁰⁸ .

وذهب المبرد إلى أن قول يونس في النسب إلى ظبية ظبوي ليس بشيء¹⁰⁹.

8 – ينقل سيبويه تخطئة يونس له ، حيث رأى سيبويه الرفع في " مررت به المسكين " ، وكان يونس يرى حمل الاسم على الفعل ونصبه ، يقول : " وأما يونس فزعم أنه ليس يرفع شيئاً من الترحم على إضمار شيء يرفع ، ولكنه إذا قال ضربته لم يقل أبداً إلا المسكين يحمله على الفعل ، وإن قال ضرباني قال المسكينان حمله أيضاً على الفعل ، وكذلك مررت به المسكين يحمل الرفع على الرفع والجر على الجر والنصب على النصب ويزعم أن الرفع الذي فسرنا خطأ ، وهو قول الخليل رحمه الله وابن أبي إسحاق " ¹¹⁰.

سادسا : مخالفة سيبويه للخليل ويونس معا

أختم بمسألة خالف فيها سيبويه الخليل ويونس معا ، ولا أعلم مسألة في الكتاب اختلف فيها سيبويه مع شيخه سوى هذه . حيث نقل سيبويه عن شيخه الخليل أن أيهم في " اضرب أيهم أفضل " مرفوع على الحكاية ، يقول : " وزعم الخليل أن أيهم إنما وقع في اضرب أيهم أفضل على أنه حكاية كأنه قال : اضرب الذي يقال له أيهم أفضل وشبهه بقول الأخطل : ولقد أبيت من الفتاة بمنزلة فأبيت لا حرج ولا محروم " ¹¹¹.

106 الإنصاف 1 / 301

107 المقتضب 3 / 137

108 الكتاب 3 / 347

109 المقتضب 3 / 137

110 الكتاب 2 / 77

111 الكتاب 2 / 399

ثم ينقل سيبويه عن يونس أن الفعل اضرب معلق عن العمل ، يقول : " وأما يونس فزعم أنه بمنزلة قولك : أشهد إنك لرسول الله " ¹¹² ، ثم يرد سيبويه كلا المذهبين بقوله : " وتفسير الخليل رحمه الله ذلك الأول بعيد إنما يجوز في شعر أو اضطرار ، ولو ساغ هذا في الأسماء لجاز أن تقول : اضرب الفاسق الخبيث ، تريد الذي يقال له الفاسق الخبيث . وأما يونس فلا يشبهه أشهد إنك لمنطلق " ¹¹³ .

ثم يذهب سيبويه إلى أن الضمة في أيهم ضمة بناء بمنزلة الفتحة في خمسة عشر ، يقول : " وأرى قولهم : اضرب أيهم أفضل على أنهم جعلوا هذه الضمة بمنزلة الفتحة في خمسة عشر وبمنزلة الفتحة في الآن حين قالوا : من الآن إلى الغد " ¹¹⁴ .

وقد نقل صاحب الإنصاف الخلاف في هذه المسألة ذاهبا إلى تضعيف رأي يونس ، يقول : " ذهب الكوفيون إلى أن أيهم إذا كان بمعنى الذي وحذف العائد من الصلة معرب نحو قولهم : لأضربن أيهم أفضل . وذهب البصريون إلى أنه مبني على الضم وأجمعوا على أنه إذا ذكر العائد أنه معرب نحو قولهم : لأضربن أيهم هو أفضل ، وذهب الخليل بن أحمد إلى أن أيهم مرفوع بالابتداء وأفضل خبره ويجعل أيهم استفهاما ويحمله على الحكاية بعد قول مقدر والتقدير عنده : لأضربن الذي يقال له أيهم أفضل . وذهب يونس بن حبيب البصري إلى أن أيهم مرفوع بالابتداء وأفضل خبره ، ويجعل أيهم استفهاما ويعلق لأضربن عن العمل في أيهم ، فينزل الفعل المؤثر منزلة أفعال القلوب نحو : علمت أيهم في الدار ... وأما قول يونس فضعيف لأن تعليق اضرب ونحوه من الأفعال لا يجوز لأنه فعل مؤثر فلا يجوز إلغاؤه " ¹¹⁵ .

الخاتمة:

1 - تعددت طرق تلقي سيبويه عن الشيخين الخليل بن أحمد ويونس بن حبيب مما يدل على وعي سيبويه بأحسن السبل في الإفادة من شيوخه ، فلم يلتزم نمطا واحدا أو طريقة واحدة في الأخذ والتلقي ، فجعل ما أخذه عن شيوخه كان نتيجة حوار علمي قائم على السؤال والجواب والتدقيق والمراجعة وإعادة سؤال الشيخ مرة أخرى ثم هو يدقق في اختيار ألفاظ يحكم بها على الآراء .

¹¹² السابق

¹¹³ السابق

¹¹⁴ الكتاب 2 / 400

¹¹⁵ الإنصاف 2 / 583

2 - اتفقت طرق تلقي سيبويه عن الخليل وطرق التلقي والأخذ عن يونس من حيث استخدام ذات العبارات : أخبرني ، حدثني ، وسألت ، زعم ، قال ..إلى آخر ذلك ، وقد وقع اختلاف بين المروى عن الشيخين في :

- 1 - كم المروى عن الخليل يفوق المروى عن يونس بثلاثة أضعاف تقريبا .
- 2 - المروى عن الخليل كان أكثره في الآراء النحوية والاجتهادات في التنظير والتحليل النحوي في حين كان أكثر المروى عن يونس أشعار ولغات عن العرب .
- 3 - ذهبت الدراسة ومن خلال بعض الروايات إلى أن سيبويه كان إلى الخليل أقرب ، لازمه وحمل عنه الكثير وأن الخليل أجل سيبويه وقربه إليه ووصفه بالزائر الذي لا يمل ، على النقيض من ذلك كانت علاقة سيبويه بيونس الذي سارع باتهام سيبويه بالكذب في روايات في الكتاب ثم رجع عن اتهامه بعدما ثبتت .
- 4 - ظهرت تفرقة سيبويه بين الشيخين في الدعاء للخليل بالرحمة منفردا في كثير من المواضع والدعاء له وليونس إذا ذكرا معا ، على أن يكون الترحم بجوار ذكر الخليل ، ولم يدع بالرحمة ليونس منفردا .
- 5 - ضرب سيبويه أعظم المثل لتلميذ نجيب يجلب شيوخه ويقدرهم ، فلا يكتفي بدور المتلقي ، وإنما سألهم وحاورهم واستوثق مما ذكروا فبين الجيد فيها من الرديء ولم يقف دوره عند حد التلقي والرواية .
- 6 - اختلف سيبويه مع شيخه في بعض المسائل منها ما يتعلق بالآراء النحوية ومنها ما يتعلق ببعض مرويات كل منهما ، أثبت سيبويه عدم قوتها أو عدم صحتها بناء على مراجعتها وعرضها على لغات العرب ، وفي ذلك ما لا يخفى من شخصية علمية متفردة لها رؤيتها واستقلاليتها كان يمتلكها سيبويه رحمه الله .

المصادر والمراجع:

- 1- إنباه الرواة على أنباه النحاة - جمال الدين أبو الحسن القفطي - المكتبة العصرية - بيروت - ط1 - 1424 .
- 2- الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين - أبو البركات كمال الدين الأنباري - المكتبة العصرية - بيروت - ط1 - 2003 .
- 3- الجنى الداني في حروف المعاني - أبو محمد بدر الدين المرادي - تحقيق د/ فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل - دار الكتب العلمية - بيروت - ط1 - 1992
- 4- سيبويه جامع النحو العربي - د/ فوزي مسعود - الهيئة المصرية العامة للكتاب 1986
- 5- الكتاب - سيبويه - تحقيق عبد السلام هارون - مكتبة الخانجي بالقاهرة - ط3 - 1988 .
- 6- معجم الأدباء " إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب " شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموي - تحقيق إحسان عباس - دار الغرب الإسلامي - بيروت - ط1 - 1993 .
- 7- مغني اللبيب عن كتب الأعراب - ابن هشام - تحقيق د/ مازن المبارك ومحمد علي حمد الله - دار الفكر - دمشق - ط6 - 1985 .
- 8- المقتضب - أبو العباس المبرد - تحقيق / محمد عبد الخالق عضية - عالم الكتب - بيروت .
- 9- همع الهوامع في شرح جمع الجوامع - جلال الدين السيوطي - تحقيق عبد الحميد هندواي - المكتبة التوفيقية - مصر .
- 10 - موقف من يونس بن حبيب - محمود حسني محمود - موقع مجمع اللغة العربية الأردني في شبكة المعلومات الالكترونية .

سياق الموضوعات وأهميته في تصنيف صحيح ابن حبان

د. لغزال لخضر.

جامعة الشهيد أحمد دراية / أدرار.

lloghz@gmail.com

تاريخ النشر: 2019/03/31

تاريخ القبول: 2019/02/24

تاريخ إرسال المقال: 2018/07/20

الملخص:

لقد استشعرت الدراسات الإسلامية واللغوية العربية القديمة، - من فقه وتفسير وأصول وحديث وبلاغة ونقد. وغيرها- أهمية السياق (بنوعيه المقالي و المقامي) في وقت مبكر، فحازت على خاصيتي سبق والعمق معاً؛ بحيث تفوقت على نظيرتها الغربية الحديثة، التي عرفت في العصر الحديث، على يد (مالينوفسكي) و (فيرث) وغيرهما من منظري الدرس اللساني في الفكر اللغوي الغربي. بيد أننا نزعم أن علماء الحديث النبوي، ربما كانت لهم اليد الطولى في إشارتهم لأهمية السياق، من خلال دراستهم لأحوال الحديث - شكلاً ومعنىً-، وذلك من أجل استنباط الأحكام الفقهية، على اعتبار أن السنة النبوية، تأتي في المرتبة الثانية في التشريع الإسلامي بعد القرآن الكريم.

وإذا كانت بعض الدراسات الحديثة، تذهب إلى القول بأن الفكر اللغوي العربي القديم، يكون قد سبر العديد من الموضوعات التي طرقها الدرس اللساني الحديث؛ فإن علماء الحديث الأقدمون كان لهم شأن بارز، في الإحاطة بأهمية السياق في استنباط الأحكام الشرعية. فإلى أي مدى يمكن الإقرار بصحة هذا المعتقد؟ وما وجه الصحة فيه؟

إن هذا البحث أريد له أن يبيط اللثام، عن بعض ما توصل إليه (ابن حبان)، من خلال خاصة التصنيف لآلاف الأحاديث في صحيحه؛ والتي أبدع فيها مستغلاً وحدة سياق الموضوعات المتشابهة في متون الأحاديث؛ بغض النظر عن سياق الأحداث التي نجم عنها وجود هذه الأحاديث، مقدماً بذلك انطباعاً على أن علم أسباب نزول الآيات، يلتقي مع العلم بأسباب ورود الأحاديث في كثير من الخصائص العلمية والاستنباطات الشرعية.

-الكلمات المفتاحية: السياق، الحديث، النص، اللغة، الفكر، التراث.

Context of topics and its importance in the classification of Tass-nif Ibn Hibban

Abstract:The studies of the Arab and Islamic sciences have been recognized by jurisprudence, interpretation, fundamentals, modernity, eloquence and criticism. And the importance of the context (both types of pans and place) early, and acquired the characteristics of the head and depth together; So that it surpassed the modern Western counterpart, which in modern times by (Malinovsky) and (Firth)

And other scholars of the linguistic lesson in the Western linguistic thought, but we claim that the scholars of the Hadith, perhaps they had the upper hand in their reference to the importance of the context in their study of the conditions of the modern -forme and meaning- in order to devise jurisprudential provisions on the basis that the Sunnah, It comes second in Islamic legislation after the Holy Quran.

While some recent studies go on to say that the ancient Arabic linguistic thought has explored many of the topics that the modern linguistic lesson has taught, the older scholars of Hadith had a prominent role in understanding the importance of the context in devising legal rulings. To what extent can this belief be recognized? What is the health of it? And how do you agree with what the modern contextual approach...?

This research is intended to reveal some of these efforts, which give a clear impression of the primacy of Sunni scholars in their knowledge of the context of the case and the article.

key words : Context, speech, text, language, thought, heritage

توطئة:

يعتبر القرآن الكريم أول مصدر للتشريع الإسلامي، وتعتبر السنة النبوية ثاني مصدر للتشريع بعد القرآن الكريم، وهما لا ينفكان عن بعضهما. وبقدر تمسك المسلم بهما، بقدر ما يناله الخير في الدنيا والآخرة. ولقد انشغل المسلمون الأوائل بهذين المصدرين، وأولاهما عناية كبيرة فاقت كل عناية. و باعتبار القرآن أولى منزلة؛ فقد كانت له العناية الأولى، وقد تأخر اهتمامهم بالسنة النبوية لاعتبارات ظرفية، في عهد الخليفة الثاني (عمر بن الخطاب) رضي الله عنه.

وما من شك أن علماء الأمة الأوائل، كانت لهم صولات وجولات من أجل الاهتمام بنصوص السنة النبوية؛ فقد سعوا من أجل حفظها وضبط متونها، وكشفاً لدلالات تشريعاتها، وعلاقة كل ذلك بالقرآن الكريم. ولم يكن ذلك حكراً على علماء الحديث؛ وإنما تعدى ذلك إلى علماء اللغة العربية، عملاً على كشف روائع البيان، التي احتوتها نصوص السنة القولية، وقد قال النبي ﷺ: (أوتيت جوامع الكلم).

و بمرور العلوم المتخصصة، الشرعية منها و غير الشرعية، فقد نالت نصوص السنة نصيبها من باب الاجتهاد، في تصنيف علوم الحديث، من ذلك علم النسخ والمنسوخ، وعلم أسباب ورود الحديث، وعلم غريب الحديث، وغيرها من العلوم الأخرى.

ونحن الذي يهمنا من مجموع العلوم المرتبطة بالسنة القولية، هو الشق المتعلق بعلم أسباب ورود الحديث، لما لهل من علاقة مباشرة بمسألة السياق المقامي، الذي نسعى لتوضيحه في هذا المقال، باعتبار السياق مسألة مرتبطة بالقرينة، التي يمكن أن تؤدي إلى فهم الأحاديث النبوية الشريفة، وكشف المجمل فيها وبيان المقصود منها. وإذا كان علم المعرفة بأسباب نزول الآيات، يعين على فهمها؛ فإن الشأن نفسه في فهم مقاصد الأحاديث، إذ يلزم على الفقيه أو المحدث أو المجتهد، أن يكون على دراية بالملابسات والظروف، التي قيل فيها الحديث حتى يتمكن من فهم مقاصده.

حاصل كل ذلك أن نشأة نص الحديث النبوي، ترتبط في مقاصدها بالموقف الكلامي الذي تولد منه هذا النص، وهو ما يطلق عليه ب(قرينة السياق المقامي) وهذه الميزة التي تنبه إليها (ابن حبان) في صحيحه، كانت مدعاة لبروز شكل آخر من أشكال تصنيف الأحاديث

النبوية ، على خلاف ما سبقه إليه كثير من علماء الحديث ، إذ كان الاعتبار لديه مبني على أساس (سياق الموضوعات) ، وهذا ما سنحاول الوقوف على حيثياته.

- أولاً: حول السياق في اللغة والاصطلاح

النص اللغوي تركيب متكامل ومتواصل ، وليس كلمات وألفاظ متناثرة بل هي دلالات يجمعها سياق لغوي متكامل المعاني ، وبذلك يتم التواصل وتتحقق الغاية ، من استعمال اللغة بين المتكلمين طلباً للمقاصد.

ولا خلاف في أن السياق له دور كبير في بيان المقصود من الكلام ، داخل سياقها وهذا عين ما أشار إليها العلماء قديماً ، في مختلف تخصصاتهم الدينية واللغوية ، ولذلك عبروا عن هذه الأهمية بقولهم (لكل مقام مقال) ، كم أن الكلمة لا معنى لها خارج السياق الذي ترد فيه ، و«ربما اتحد المدلول واختلف المعنى طبقاً للسياق ، الذي قيلت فيه العبارة أو طبقاً لأحوال المتكلمين ، والزمان والمكان الذي قيلت فيه»¹. كما أن لـ (سياق الحال) أو (المقام) في (الدرس الدلالي) فوائد منها: «الوقوف على المعنى وتحديد دلالة الكلمات ، وإفادة التخصيص ، ودفع توهم الحصر ، ورد المفهوم الخاطيء. وغيرها»².

01- من حيث اللغة:

السياق لغة مأخوذ من (ساق ، يسوق ، سوقاً وسياًقاً) ، نظير (قام ، يقوم). وأصل السياق ، السواق قلبت الواو منه ألفاً لسكونها وكسر ما قبلها وهو السين ، ويأتي المصدر الميمي منه على صيغة (مساق) ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ [سورة القيامة الآية 30]. تقول العرب: ساق الإبل وغيرها ، يسوقها سوقاً وسياًقاً ، وتساوقت الإبل إذا تتابعت ، وساق إليها الصداق والمهر سياًقاً و أساقه. وسياق المهر وسوق الهدي يقدمه وساق بنفسه سياًقاً: نزع بها عند الموت. ويقال: فلان في السياق ، أي في النزع ، والسياق نزع الروح³ . وردت

لفظة السياق في القرآن الكريم باستعمالات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ [سورة ق، الآية 21].⁴

02- من حيث الاصطلاح:

ترجع الترجمة الأصلية لمصطلح السياق، إلى اللغة العربية فإن «لفظ (Context) هو من السابقة اللاتينية (Con) بمعنى (مع Text+) اللاتينية أيضاً، والتي كانت تعني في الأصل (النسيج) ثم استعملت في معنى الكلمات المصاحبة للمقطوعات الموسيقية، ثم صارت تستعمل في معنى (النص)، أي تلك المجموعة من الجمل المتراسة، مكتوبة أو مقروءة».⁵

ومما ورد في المعاجم المتخصصة، في علوم اللغة واللسانيات بشأن مفهوم محدد للسياق، فنجد مثلاً ما ورد في قاموس السميائيات ل(غريماس) و(كورتيس)؛ بأن السياق هو: «مجموع النصوص التي تسبق أو توأكب وحدة تركيبية معينة، وتتعلق بها الدلالة حيث يمكن أن يكون السياق صريحاً أو لسانياً، ويمكن أن يكون ضمناً وفي هذه الحالة، يتميز بأنه سياق خارج لساني أو مقامي».⁶

وبالنظر إلى أهمية السياق، في التأثير على المعاني المطلوبة في عبارات اللغة، فقد كان محل عناية واهتمام الكثير من الاختصاصات الشرعية واللغوية عند العرب. إذ كان لعلماء الأصول مفاهيمهم الخاصة حول مصطلح السياق، والشأن نفسه بالنسبة لعلماء الفقه، كما كان لمختلف علماء علوم اللغة العربية، من بلاغة ونقد وإعجاز وحديث، عناية خاصة بهذا المفهوم في دراستهم للنصوص ومقاربتها، وقد ينجر عن عدم الاهتمام به الوقوع في الزلل و الأخطاء المتعلقة باستصدار الأحكام؛ وذلك ورد عن الفقهاء قولهم: لا معنى بدون سياق ولا تأويل من دون اعتباره.⁷

وبهنا هنا أن نؤكد على أن أكثر المجالات التي ظهرت فيها العناية بالسياق هي:

- البحث عن أسباب نزول الآيات القرآنية، وأسباب ورود الأحاديث النبوية.
 - إدراك دلالات النصوص الشرعية (قرآن و سنة)، وذلك لما يترتب عليه من أثر في فهم الأحكام وتوجيهها والكشف عن معانيها، بدقة ووضعها في الإطار الذي جاءت فيه.

ثانياً: الوعي بالسياق عند العلماء العرب الأوائل

01/- أهمية السياق عند المحدثين:

بذل علماء الحديث جهوداً كبيراً في الاعتناء بمتون الأحاديث النبوية الشريفة؛ واشتهر منهم علماء كثر سعوا من أجل الوقوف على بيان الأحكام الفقهية فيها، وابتكروا طرقاً جمة في تصنيفها وتبويبها وترجيح مقاصدها، ومقارنة كل ذلك بما جاءت به أحكام القرآن الكريم، تفادياً للوقوع في الزلل والعصمة من لأخطاء.

ومن أنواع علم الحديث التي تمثل معالم كبرى في فهم الأحاديث، ودرء ما قد يكون بينها من تعارض الجمع بينها ما أمكن، أو الترجيح بأحد المرجحات، أو القول بالنسخ. وتبرز هاهنا علوم أربعة معينة على الفهم وهي: علم مختلف الحديث، وعلم ناسخ الحديث ومنسوخه، وعلم أسباب ورود الحديث، وعلم غريب الحديث.⁸

إن من يطالع كتبهم سواء أكانوا من علماء الغريب أم من شراح الحديث، أو ممن تعامل مع ضبط الأحاديث ومتونها، يجد أنهم قد اهتموا بالسياق. والدليل على ذلك: وجود كثير من الألفاظ الواردة في ثنايا كتبهم، والتي كان فيها ذكر لدلالة السياق مباشرة، أو ذكر أحد مرادفاته ومن بينها: مقتضى الظاهر، و ظاهر الحديث وسياق الحديث، و قرينة السياق و سياق الرواية يقول (إدريس مقبول): «والسياق في مصنفات المحدثين لا يكاد يغيب مصطلحاً ومفهوماً، حتى بات لنا الاطمئنان إلى القول؛ بأن الدراسات الحديثة دراسات تداولية بامتياز، وأن الشروح الحديثة هي عبارة عن تحليل سياقي»⁹.

02/- وظيفة السياق عند أصحاب كتب الحديث:

ثمة علماء لم يشتهروا إلا باشتغالهم بعلوم الحديث، وهؤلاء سيكون حديثنا عنهم ويمكن تقسيمهم إلى الآتي:

أ/- أصحاب كتب الحديث: وهؤلاء قام جهدهم الأكبر على جمع أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، وترتيبها وتصحيحها، ويمكن أن نلتبس عندهم التفاتهم لعنصر السياق من خلال:

- ترتيب السنة، و تقسيمها تبعاً للسياق:

أولى علماء الحديث اهتماماً كبيراً بالسياق، مرتبين متون أحاديثهم ترتيباً منسقاً، يراعي درجة ثبوت السياق المقامي أو المقالي. يقول (فاروق حمادة): «لقد لفت نظري واسترعى انتباهي طويلاً، دقة المحدثين في هذا الباب، وهم يتعاملون مع السنة النبوية، و سياق الخطاب فيها، صنيع الحافظ (ابن حبان السبتي) في صحيحه المسمى (التقاسيم والأنواع)، إذ جعل السنة بين يديه، بل ملء خاطره وعينه، ونظر في كيفية صدورها عن النبي ﷺ و السياق الذي جاءت فيه، ثم قسمها أقساماً. وجعل تحت الأقسام أنواعاً، حتى يسهل منها الاستنباط، وتعرف منها معاهد الأحكام الشرعية، فلا يزل قارئها ولا يخطئ المجتهد فيها ولا توضع إلا في مواضعها»¹⁰.

وبهذا يتبين أن عمل الحافظ (ابن حبان) (ت354هـ)، في كتابه قائم على السياق بمفهوم الوحدة الموضوعية، واختياراته لأبوابه قائمة على أساس سياقي، فكل الموضوعات المتشابهة توضح في سياق واحد، لتصبح كأنها نص واحد. ومن ثم يسهل تفسيرها وشرح بعضها لبعض «وعلى هذا الأساس يبني عليه الأحكام الشرعية، ويستنبط منها الدلالات الفقهية، وكان هدفه في ذلك وأمله من صنيعه، أن يسهل للفقهاء والمجتهدين، عملهم ويضعهم بالموقع الصحيح، لرؤية الحديث حالة صدوره من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا أمر في غاية الأهمية، لم يبلغ أحد من المحدثين والمجتهدين، هذا المستوى الشمولي له في النظر للسنة النبوية، ما بلغه هذا الإمام الحافظ»¹¹.

03/- وظيفة السياق عند شراح الحديث الشريف:

إضافة إلى جهود المحدثين أصحاب الكتب الحديث، فإن هناك جهوداً لطائفة أخرى من العلماء، وهم شراح الأحاديث على اختلاف طرائق تناولهم للأحاديث النبوية، وهؤلاء في غالبهم علماء موسوعيون، ففي شرحهم نجد الفقه واللغة وغيرها من العلوم، وهم على وعي تام لأهمية دلالة السياق بنوعيه، وأثرها الواضح في توجيه المعنى ويمكن تقسيمهم للآتي:

- علماء غريب الحديث الشريف:

لا يختلف الحديث النبوي عن بقية النصوص اللغوية في استناد فهم دلالاته إلى السياقين الداخلي والخارجي، وقد حرص شراح غريب الحديث، على بيان دلالاته في ضوءها وظهر اهتمامهم بالسياق في الآتي:

- تفسير وفهم الحديث على الوجه الصحيح للمعنى، من خلال السياق اللغوي:

من أشهر كتب الغريب كتاب: (غريب الحديث) لصاحبه (أبي عبيد القاسم بن سلام الهروي) (ت 224 هـ). حيث إنه اهتم بالسياق، في كتابه اهتماماً واضحاً، ويتخذ من الملابس (سياق الحال)، والموقف الذي قيل فيه وسيلة لفهمه فهماً صحيحاً، وتحديد دلالة اللفظ الغريب منه بدقة. ومما أشار إليه (الهروي) من الأمثلة:

ورد في حديث (عبد الله بن مسعود) رضي الله عنه، في ذكر القيامة حين ينفخ في الصور قال: «فيقومون فيجبون تجبية رجل واحد قياماً لرب العالمين»¹². قال (أبو عبيد): قوله: (فيجبون التجبية)، تكون في حالين من إحداهما: أن يضع يديه على ركبتيه وهو قائم، وهذا هو المعنى الذي فيه هذا الحديث، ألا تراه يقول: قياماً لرب العالمين؟ والوجه الآخر أن ينكب على وجهه باركاً، وهذا هو الوجه المعروف عند الناس. وقد حمله بعض الناس على قوله: فيخرون سجوداً لرب العالمين " فجعل السجود هو التجبية، وهذا هو الذي يعرفه الناس»¹³.

04/- عناصر سياق المقام عند شراح الحديث:

نظر شراح الحديث للحديث الشريف، باعتباره خطاباً تفاعلياً بين متحدث ومخاطب، و العلاقة بينهما لا بد أن تقوم على التفاهم، و من ثم فإن أعظم الوسائل المعينة على إدراكه معرفة سبب الورد، والذي يعتبر ثمرة من ثمار جميع روايات الحديث، وقد تبين من تطبيقات الأئمة أن دلالة سياق المقام واسعة الدلالة، و قد ظهر أثرها في جوانب مختلفة، فمعرفة قصد المتحدث أدت إلى تأويل بعض النصوص على خلاف ظاهرها، فأخرجت النص من مساق الذم إلى مساق المدح، وأثمرت دقة في الاستنباط و معرفة للخاص من العام، واستبعاداً للغريب من الأقوال¹⁴.

ففي حديث (أبي هريرة رضي الله عنه) قال: «صلى بنا النبي صلى الله عليه وسلم الظهر ركعتين، ثم سلم ثم قام إلى خشبه في مقدم المسجد، ووضع يده عليها، وفي القوم يومئذ (أبو بكر) و(عمر)، فهابا أن يكلماه، وخرج سرعان الناس فقالوا: قصرت الصلاة؟ وفي القوم رجل كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو ذا اليمين، فقال: يا نبي الله، أنسيت أو قصرت؟ فقال: لم أنس ولم تقصر، قالوا: بل نسيت يا رسول الله. قال: صدق ذو اليمين فقام فصلى ركعتين، ثم سلم ثم كبر فسجد مثل سجوده أو أطول، ثم رفع رأسه وكبر، ثم وضع مثل سجوده أو أطول، ثم رفع رأسه وكبر»¹⁵.

وقد يوب (البخاري) (ت 256هـ) على هذا الحديث، بابا سماه (باب ما يجوز من ذكر الناس نحو قولهم: الطويل والقصير)¹⁶. قال (ابن المنير) (ت 683 هـ): «أشار (البخاري) في الترجمة إلى أن ذكر مثل هذا، إن كان للبيان والتمييز كما ورد في الحديث فهو الجائز. وإن كان في غير هذا السياق كالتنقيص والتغيب، فهذا الذي لا يجوز. وإشارة (عائشة) في بعض الحديث إلى المرأة التي دخلت عليها، ثم خرجت فأشارت (عائشة) بيدها إنها قصيرة، فقال (النبي صلى الله عليه وسلم): اغتبتها؛ لأن (عائشة رضي الله عنها) لم تفعل هذا بياناً؛ وإنما قصدت إلى الإخبار عن صفتها خاصة، ففهم التغيب، فنهيته»¹⁷.

وجه (ابن المنير) (ت 683 هـ) دلالة الحديثين السابقين، من خلال استحضار سياق الحال في كل منهما، والقرينة الحالية التي اعتبرت في فهم النص عائدة إلى فصد المتحدث، التي تدرك من شواهد الحال، لم يكن صلى الله عليه وسلم حال سؤاله لأصحابه قاصداً التنقص منه، وأما إشارة (عائشة) فكانت شواهد الحال، تدل على أنها تريد التنقص منها.

ولسياق الحال عند شرح الحديث أيضاً، أثره في تبين الظروف المكانية والزمنية، وضبط النص وله أثره في حسن فهمه، وذلك بتحديد نوع الأمر أو النهي، وبيان هيئة الفعل، وسلامة الترجيح ودفع الإشكالات الواردة على الحديث. ففي الحديث الوارد عن (عائشة) «أن النبي صلى الله عليه وسلم»، دخل عليها وعندها امرأة قال: من هذه قالت: فلانة تذكر من صلاتها قال: مه، عليكم بما تطيقون، فو الله لا يمل الله حتى تملوا، وكان أحب الدين إليه ما دام عليه صاحبه»¹⁸.

قال (ابن رجب) (ت 1393هـ) في شرحه: «وقول النبي صلى الله عليه وسلم زجر لعائشة، عن قولها عن هذه المرأة في كثرة صلاتها، وأنها لا تنام الليل وأمر لها بالكف عما قالت في حقها؛ فيحتمل أن ذلك كراهية للمدح في وجهها؛ حيث كانت المرأة حاضرة، ويحتمل - وهو الأظهر و عليه يدل سياق الحديث- أن النهي إنما هو لمدحها، بعمل ليس بممدوح في الشرع»¹⁹.

لقد ظهر أثر السياق واضحاً عند علماء الحديث الشريف، على اختلاف تعاملاتهم مع الحديث الشريف، وذلك في تحقيق الفهم السديد للحديث، كما ظهر في كلامهم أنهم على وعي بمفهوم السياق بنوعيه: السياق المقالي و المقامي، وأن مجالات الاستفادة من دلالة السياق عندهم كانت كبيرة، وفي مجالات متنوعة. كما أن للكلمة بالإضافة إلى دلالتها المعجمية، دلالة سياقية لا يمكن للمخاطب في الغالب أن يتعرف عليها، إلا من خلال السياق الذي ترد فيه؛ و الأمر نفسه ينسحب على نصوص الشريعة، - الحديث الشريف - «فالتأكد من مدلولات الألفاظ التي جاءت بها السنة، فإن الألفاظ تتغير دلالتها من عصر لآخر و من بيئة لأخرى، وهذا أمر معروف لدى الدارسين لتطور اللغات، و ألفاظها و أثر الزمان و المكان فيها، فقد يصطلح الناس على ألفاظ على معان معينة، ولا مشاحة في

الاصطلاح، ولكن المخوف هنا هو حمل ما جاء في السنة من ألفاظ، على المصطلح الحادث وهو ما يحدث الخلل والزلل»²⁰.

05/- تطور مفاهيم مصطلح السياق بين الإسهام العربي و المقترح الغربي:

إن المتتبع لمختلف المباحث العلمية، التي اجتهد فيها علماءنا الأوائل المقاصدية منها و الو سائلية، يملؤه يقين أن نصيب البحث في السياق المقالي اللفظي و المقامي أو الحالي منها؛ كان هو الأوفر في هذه الدراسات وبخاصة، منها المتعلقة بالقرآن الكريم و تفسيره والحديث و الفقه و علم الكلام. على اعتبار أن هذا الجزء من المبحث، كان بالنسبة لهم يمثل الوسيلة المينة بمراد خطاب الشارع وبيان مقاصده الشرعية. و لذلك سنجد أن القاسم المشترك بينهم، على اختلاف توجهاتهم البحثية عبارة (ما ساق الشارع الخطاب من أجله)، أو عبارة (وهذا الذي يتسوق) وغيرها من العبارات الأخرى.

كما شاع بينهم مصطلح القرينة السياقية، للدلالة على أن النص قد تعثر به بعض القرائن اللغوية و غير اللغوية؛ مما يساعد على بيان المجمل، أو تقييد المطلق أو تؤدي إلى كشف المبهم، أو ترجح معنى على حساب معنى آخر. وهذا كله في سبيل بيان مقاصد الشريعة الإسلامية، على اعتبار أن القرآن الكريم و السنة النبوية هما عماد هذا التشريع.

و بالنظر إلى تداول مصطلح سياق في الدراسات اللغوية الغربية، نجد أن هذا الدرس قد أولى أهمية قصوى للسياق، فقد حظي عندهم بكثير من الاهتمام، و ذلك للدور المهم الذي يقوم به في توضيح الدلالة، و بيانه توجهاتها المعبرة عن طبيعة التواصل الذي يحدث بين المنتج للنص و بين المتلقي، و ربما أشير في هذا الإطار إلى العالم الانكليزي (فيرث) (1890م-1960م)؛ الذي كان يعتقد بأن المفردة في السياق، لا يمكن أن تتضح دلالاتها إلا حينما يتم وضعها داخل سياق يناسبها، أو حينما يتم تسييقها في تراكيب لغوية مناسبة، وإلا لا معنى لها في حد ذاتها.²¹

و على الرغم من الزخم الكبير الذي عرفه مصطلح السياق في الفكر اللغوي الغربي، و إبلائه الأهمية الكبيرة إلا أن الفكر اللغوي العربي، ربما كان أسبق في بيان أهميته، على تحديد

مسار الدلالات النصية بالنظر إلى تتابعاتها أفقياً وعمودياً ، و لا أدل على ذلك العمل الكبير الذي قام به (عبد القاهر الجرجاني)، الذي يصرح قائلاً: « لا نظم في الكلم و لا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض ، و يبنى بعضها على بعض ، وتجعل هذا بسبب من تلك ». ²² و هذا الكلام فيه دلالة واضحة ، على أن المفردة إنما يفهم معناها ، حينما توضع إلى جانب مثيلاتها السابقة منها و اللاحقة ، في سياق اللغة الملفوظ منها و المكتوب ، « لأن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة ، أو من حيث هي كلم مفرد ، و أن الألفاظ تثبت لها الفضيلة و خلافها ، في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح لفظ . ²³

ولعله من الأنسب في هذا المقام القول بأن ثراء الدراسات البحثية العربية القديمة ربما اعتبر أكبر وجه دليل على أسبقية الفكر العربي الأول في استشعاره أهمية الحديث عن السياق و دوره في الوقوف على طبيعة التعالق بين الألفاظ و معانيها المعبرة عنها . ²⁴

ثالثاً: حول تجليات السياق في صحيح (ابن حبان):

01- ترجمة (ابن حبان) ²⁵:

هو أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد بن حبان ، التميمي ²⁶ ، البستي ²⁷ ، السجستاني ²⁸ . ولد سنة بضع وسبعين ومائتين ، بمدينة بست ، التابعة لإقليم سجستان ، وهي في التقسيم الحديث تابعة لدولة أفغانستان .

02- آثاره العلمية:

كان (ابن حَبَّان) كثير التصانيف، له من الكتب العدد الكثير، وكانت الرحلة إلى مصنفاته، في حياته، وبعد وفاته، وقد ذكر (الحموي)²⁹ كثيراً منها، إلا أن الكثير منها قد ضاع مع مرور الأزمان، بسبب ضعف أمر السلطان، واستيلاء ذوي العَيْث والفساد على أهل تلك البلاد، وعدم اهتمام أهل هذه البلاد بالعلم، وأهله وكتبه مع مرور الأزمان. أما ما وُجد وطُبع من كتبه فمنها:

- التقاسيم والأنواع.³⁰

- كتاب الثقات³¹.

- معرفة المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين.³²

- مشاهير علماء الأمصار.³³

- روضة العقلاء ونزهة الفضلاء.³⁴

03-وفاته: توفي (ابن حبان) بسجستان، بمدينة بست، ليلة الجمعة، لثمانية ليال بقين من شوال، سنة أربع و خمسين وثلاثمائة، وهو في سن الثمانين، ودفن (ببست)، قريباً من داره التي، جعلها مدرسة لأصحاب الحديث وجعل فيها خزنة كتب³⁵.

04-حول صحيح (ابن حبان)³⁶:

اسمه (المسند الصحيح على التقاسيم والأنواع، من غير وجود قطع في سندها ولا ثبوت جرح في نقلها) و اقتصر بعضهم على لفظ التقاسيم والأنواع، والكتاب مرتب على تقاسيم خمسة، وتحت كل تقسيم أنواع، فالتقاسيم هي:

- الأوامر: وتحتها مائة وعشرة نوع.

- النواهي: وتحتها مائة وعشرة نوع.

- الأخبار: عما احتيج إلى معرفته وتحتها ثمانون نوعاً.

- الإباحات: وتحتها خمسون نوعاً.

- أفعال النبي (صلى الله عليه وسلم): التي انفرد بفعلها وتحتها خمسون نوعاً، ويذكر تحت كل نوع ما فيه من الأحاديث التي على شرطه.

وقد طبع الكتاب في عدة طبعات، بتحقيقات مختلفة منها:

- تحقيق العلامة المحدث (أحمد محمد شاكر) (1892م-1958م)، صدرت عن دار المعارف بالقاهرة 1372هـ، ثم في دار ابن تيمية بالقاهرة 1406هـ. ولم يخرج منها إلا مجلد واحد.

- تحقيق (عبد الرحمن محمد عثمان)، صدر عن المكتبة السلفية بالمدينة المنورة، سنة 1390هـ. وطبع كاملاً.

- بتحقيق (كمال يوسف الحوت) في تسع مجلدات، باسم الإحسان بترتيب صحيح (ابن حبان).

- تحقيق (شعيب الأرنؤوط) باسم صحيح ابن حبان بترتيب (ابن بلبان)، صدرت عن مؤسسة الرسالة، بيروت 1408هـ. في (18) مجلداً، مع الفهارس.

- تحقيق الشيخ العلامة المحدث (محمد ناصر الدين الألباني) (1914 م — 1999 م)، باسم "التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان" عن دار باوزير، سنة 1424هـ.

لقد تكلم العلماء عن مظانّ الحديث الصحيح، والكتب التي اشترط فيها مؤلفوها الصحة، فاتفقوا على ثلاثة كتب هي من مظانّ الحديث الصحيح - بعد البخاري ومسلم-، اشترط فيها مؤلفوها الصحة فيما يوردونه من أحاديث، هذه الكتب هي: (صحيح ابن خزيمة)، و(صحيح ابن حبان)، و(مستدرک الحاكم).

واتفق العلماء على أن صحيح (ابن خزيمة) (ت 837م - 923م) و(ابن حبان) أعلى وأصح من (مستدرک الحاكم) (933م - 1012م). قال (ابن كثير) (ت 1301م - 1373م) في حديثه عن مظانّ الصحيح «و كتب آخر التزم أصحابها صحتها، ك(ابن خزيمة)، و (ابن حبان) البستي، و هما خير من المستدرک بكثير، و أنظف أسانيد و متوناً»³⁷. وقال (الحازمي)³⁸،
: «(ابن حبان) أمكن في الحديث من الحاكم»³⁹.

رابعاً: سياق الموضوعات في صحيح (ابن حبان)⁴⁰ :

- توطئة:

بيد أن (ابن حبان) قد دأب أن يذكر الأحاديث النبوية، حسب سياقها وصدورها من النبي صلى الله عليه وسلم، وكان وكده في ذلك وأمله من صنيعه أن يسهل للفقهاء والمجتهدين عملهم، ويضعهم بالموقع الصحيح لرؤية الحديث، حالة صدوره من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا أمر في غاية الأهمية، لم يبلغ أحد من المحدثين المجتهدين، هذا المستوى الشمولي في النظر للسنة النبوية ما بلغة هذا الإمام الحافظ.

لكننا ونحن نتتبع مواقع الشاهد- ونعني به هنا دلالات وقرائن سياق المقال والمقام، تبعاً لموضوعات الأحاديث الواردة في صحيح (ابن حبان) - سنجتهد في إبراز أهمية الترتيب المخترع، الذي وسم به صحيحه، والذي لم يكن مصنفاً لا على الأبواب ولا على المسانيد، كما كان معهوداً به عند علماء الحديث قبله؛ وإنما رجح عنده تصور لتصنيف غير مسبوق يقوم على:

- ابتدع ترتيباً أصولياً للأحاديث، كأصول الفقه مبنياً على ما يسمى بسياق الموضوعات المتشابهة، فجعلها أصنافاً كبرى وصغرى:

-التقاسيم: وضمت ما مجموعه سبعة آلاف وخمسمائة حديثاً ، واعتبرها التصنيف الأكبر و تتمثل في : الأوامر ، النواهي الأخبار الإباحات ، وأفعال النبي صلى الله عليه وسلم .

-الأنواع: جعل لكل تقسيم مجموعة أجزاء متفاوتة العدد، سماها أنواعاً. واعتبرها التصنيف الأصغر .

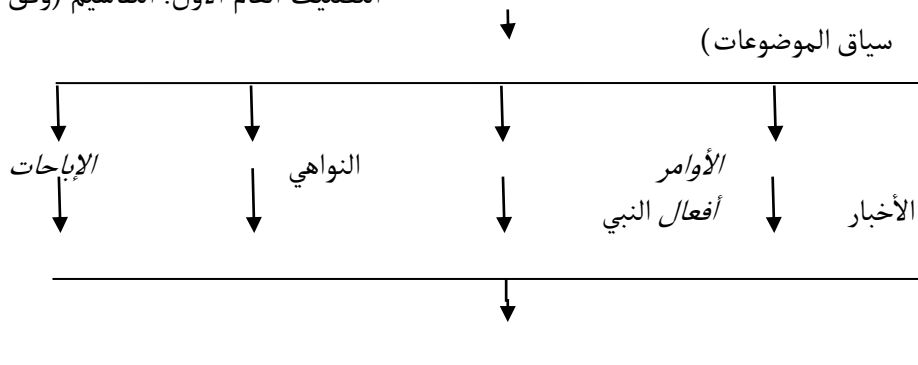
-الأحاديث: جمع تحت كل نوع ، مجموع الروايات ذات الموضوع الواحد⁴¹ والمشاركة في حكم النوع الواحد ، وهي متفاوتة العدد؛ حيث ابتداء كل حديث بترجمة سماها ذكراً ، (هو عنوان الحديث) وخلص في بعضها أحياناً بعبارة " قال أبو حاتم " تعقيباً .

كل ذلك قياساً على تقسيم القرآن الكريم ، الذي يقوم على الأجزاء ثم السور ثم الآيات ، وكان غرضه من هذا التصنيف محاولة ، درء التعارض الحاصل بين الأحاديث أو التضاد ، و التهاتر بينها تسهيلاً لاستنباط الحكم الشرعي منها؛ وذلك واضح في تراجمه حيث يسوق الحديث ، ثم يسوق عقبه حديثاً آخر أو عدة أحاديث ، تقيد مطلقه أو تخصص عامه .

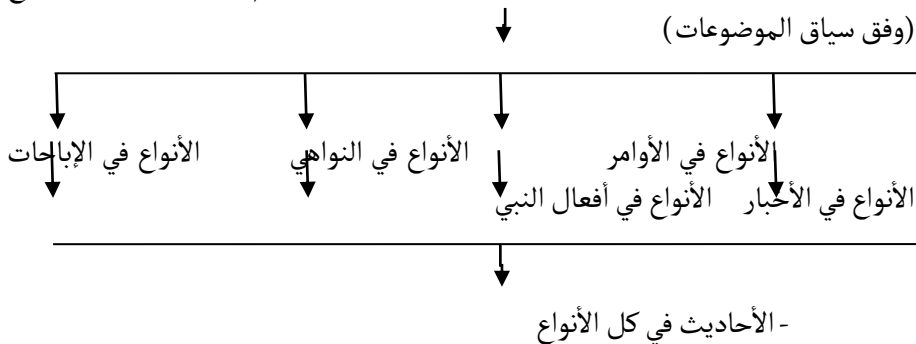
أما توقع سهولة حفظ الأحاديث من غرض هذا التصنيف فلم يكن ذلك مطلب (ابن حبان) في كتابه لأنه لم يرتبه ليحفظ إذ لو فعل لاتكل كل من يكون عنده على سهولة الكشف فلا يحفظه وإذا توعد طريق الكشف كان أدعى لحفظه ليكون على ذكر من جمعه. والخطاطة التالية تبين المقصود من سياق الكلام:

تصنيف ابن حبان لأحاديث صحيحه وفق سياق الروايات

- التصنيف العام الأول: التقاسيم (وفق



- التصنيف العام (مرحلة ثانية): الأنواع



01/- نماذج من سياق الموضوعات في تقسيم (الأوامر) من صحيح (ابن حبان):

ونحن هنا سنقدم بعضاً من النماذج، التي تكشف عن أسبقية (ابن حبان) في تصنيف متن الأحاديث، على أساس (سياق الموضوعات) التي تخدم الموضوع الواحد، بالنظر إلى السياق الخارجي (المقامي)، الذي دارت حوله أحداث و مناسبات هذه الأحاديث لنكتشف جمالية المشترك بينها. وسنكتفي في هذا الصدد، بكتاب واحد من صحيح (ابن حبان) هو كتاب (الإيمان) مقدمين منه بابين فقط هما:

- باب الفطرة.
- باب التكليف.

أ/- باب الفطرة⁴²:

- الحديث الأول:

ورد في صحيح (ابن حبان)، ما نصه «أخبرنا الفضل بن الحباب الجمحي، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا السري بن يحيى أبو الهيثم - وكان عاقلاً - حدثنا الحسن عن الأسود بن سريع، - وكان شاعراً وكان أول من قص في هذا المسجد -، قال: أفضى بهم القتل إلى أن

قتلوا الذرية ، فبلغ ﷺ ، فقال : (أو ليس خياركم أولاد المشركين ، ما من مولود يولد إلا على فطرة الإسلام ، حتى يعرب فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ..)⁴³.

- الحديث الثاني :

ورد في صحيح (ابن حبان) ما نصه « أخبرنا محمد بن الحسن ، بن قتيبة حدثنا حرملة بن يحيى ، حدثنا ابن وهب ، أنبأنا يونس عن ابن شهاب أن عطاء بن يزيد ، أخبره أنه سمع أبا هريرة يقول: سئل رسول الله ﷺ ، عن ذراري المشركين . فقال : (الله أعلم بما كانوا عاملين) »⁴⁴.

- الحديث الثالث :

ورد في صحيح (ابن حبان) ما نصه « أخبرنا عمر بن سعيد الطائي ، بمنبح أخبرنا أحمد بن أبي بكر الزهري ، عن مالك عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه كما تتاج الإبل من بهيمة جمعاء هل تحس من جدعاء ؟) قالوا : يا رسول الله أفرأيت من يموت وهو صغير؟ قال : (الله أعلم بما كانوا عاملين) »⁴⁵.

- الحديث الرابع :

ورد في صحيح (ابن حبان)، ما نصه « سمعت أبا خليفة يقول : سمعت عبد الرحمن بن بكر بن الربيع بن مسلم ، يقول : سمعت الربيع بن مسلم يقول : سمعت محمد بن زياد ، يقول : سمعت أبا هريرة يقول : سمعت أبا القاسم ﷺ يقول : عجب ربنا من أقوام يقادون إلى الجنة في السلاسل »⁴⁶

- الحديث الخامس :

ورد في صحيح (ابن حبان) ما نصه «أخبرنا عمر بن سعيد بن سنان، أنبأنا محمد بن أبي بكر عن مالك، عن نافع عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ، رأى في بعض مغازيهم امرأة مقتولة، فأنكر ذلك ونهى عن قتل النساء والصبيان»⁴⁷.

- الحديث السادس:

ورد في صحيح ابن حبان ما نصه «أخبرنا عمر بن محمد الهمداني حدثنا عبد الجبار بن العلاء حدثنا سفيان قال: سمعناه من الزهري عودا و بدءا عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس قال: أخبرني الصعب بن جثامة، قال: مر بي رسول الله ﷺ وأنا بالأبواء أو بودان فأهديت إليه لحم حمار وحشن فرده علي فلما رأى الكراهية في وجهي قال: (إنه ليس بنا رد عليك، ولكننا حرم-) وسئل النبي ﷺ عن الدار من المشركين، يبيتون فيصاب من نساءهم وذرايهم قال: (هم منهم). قال: وسمعتة يقول: (لا حمى إلا لله ورسوله)»⁴⁸.

- الحديث السابع:

ورد في صحيح (ابن حبان) ما نصه «أخبرنا جعفر بن سنان القطان بواسط حدثنا العباس بن محمد بن حاتم حدثنا محمد بن عبيد حدثنا محمد بن عمرو عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس عن الصعب بن جثامة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (لا حمى إلا لله ورسوله) وسألته عن أولاد المشركين : أنقتلهم معهم ؟ قال : (نعم فإنهم منهم) ثم نهى عن قتلهم يوم حنين»⁴⁹.

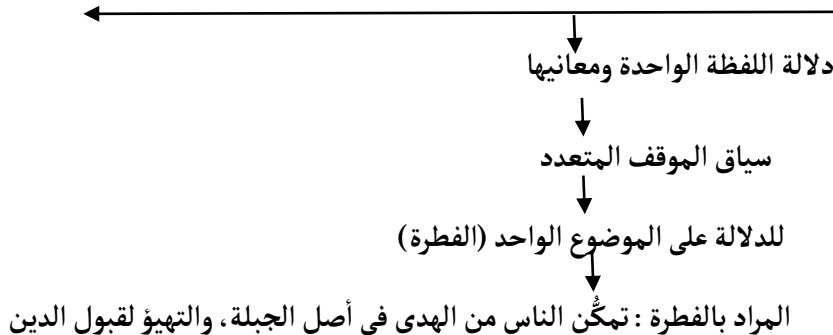
- الحديث الثامن:

ورد في صحيح (ابن حبان) ما نصه «أخبرنا عمران بن موسى بن مجاشع حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا جرير بن عبد الحميد عن العلاء بن المسيب عن فضيل بن عمرو عن عائشة بنت طلحة عن عائشة أم المؤمنين قالت : توفي صبي فقلت : طوبى له عصفور من عصافير الجنة. فقال النبي ﷺ : (أولا تدرين أن الله خلق الجنة وخلق النار، فخلق لهذه أهلاً ولهذه أهلاً)»⁵⁰.

المتأمل في مجموع الأحاديث الثمانية الواردة في (باب الفطرة) من (كتاب الإيمان) يدرك أنها تعالج موضوعاً واحداً متشابهاً، وهو ولادة الإنسان في صغره على فطرة الإيمان و التوحيد، على الرغم من أن الأحاديث تبدو مختلفة المناسبات، التي قيلت فيها. كما وأن (ابن حبان) سعى إلى أن يجد القاسم المشترك، بين متون هذه الأحاديث و هو هنا لفظة (الذراري)، و ما يدل على معانيها جاعلاً من مناسبة كل حديث (سياقاً مقامياً)، يرمي في صلب ما توحى به كلمة (فطرة)، حصل ذلك كله على الرغم من أن بعض الأحاديث، تتشابه متناً وتختلف إسناداً. ومع ذلك فالمناسبة لعبت دوراً كبيراً هنا في بيان طبيعة المفهوم، الذي تدل عليه لفظة (فطرة). و قد جعلها (ابن حبان) باباً من أبواب (كتاب الإيمان). و حاصل كل ذلك - كما أراده (ابن حبان) - أن خاصية تميز متون السنة القولية، و المتمثل في توحيد موضوعاتها التي تدخل تحت باب (الأوامر)، أفضت إلى تصنيفات جد مفيدة في التقصي و البحث، تعين الباحث على إيجاد المطلوب من الأحاديث الشريفة.

و بالنظر إلى سياق الموقف، التي أتيرت من خلاله هذه الأحاديث، نلاحظ وجود الموضوع الواحد على الرغم من اختلاف المواقف السياقية التي وردت فيها هذه الأحاديث. وهذه ميزة ملفته للاتباه تجعلنا نفكر ملياً في إمكانية الاستثمار، في هذه الخاصية على نطاق أوسع

أكبر، مما ذهب إليه (ابن حبان). مما سيعطي نتائج غاية في الأهمية و خاصة، و أن وسائل
التقانة و نظم المعلوماتية و تطبيقات
الحواسيب الحديثة، يمكن أن تقوم بدور في هذا الإطار، مما يوفر الجهد و يقدم خدمة جلييلة
في مسألة التصنيف و التبويب و الإحصاء.
و مقارنة كل ذلك بما توصل إليه البحث الشرعي الحديث في علوم القرآن المختلفة.ناهيك
على أن ذلك يمكن أن يوصلنا مستقبلاً إلى
معرفة علمية تخصصية مستحدثة، بين الدراسات الاحصائية و الرقيمة و بين مثيلاتها في السنة
النبوية. على النحو الذي يقدمه (ابن حبان)،
و نكون بذلك قد قدمنا خدمة جلييلة للسنة النبوية المطهرة .
ولسنا هنا في مقام معرفة آراء العلماء حول اختلافهم في حكم أطفال المشركين، فمنهم من
قال: إنهم في الجنة و استدل بحديث:
(كل مولود يولد على الفطرة) و حديث النهي عن قتلهم، و منهم من قال: هم في النار تبعاً
لآبائهم و استدل بحديث: (هم منهم)، و منهم
من توقف و استدل بحديث: (الله أعلم بما كانوا عاملين) و لكننا يهمننا من كل ذلك ان نعرف
أن صفة (الفطرة) التي جمعت تحتها
الأحاديث السابقة مناسبة تماماً على الرغم من أن بعض مناسبات الاحاديث تبدو متناقضة
في هذا المفهوم إلا أن هذا هو «المذهب
الصحيح المختار، الذي صار إليه المحققون . لقوله . تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ
رَسُولًا ﴾ (سورة الاسراء ، الاية 15) ،
وإذا كانا يعذب العاقل لكونه لم تبلغه الدعوة، فلإن لا يعذب غير العاقل من باب
أولى»⁵¹ .
و حتى ندل على مكمّن الموضوع الواحد، الدال على السياق الموحد لنماذج الأحاديث
المشار إليها في الفئة الأولى (باب الفطرة)
بإمكاننا الإشارة إلى العينات التالية، مرتبة كما في أحاديثها :
- (أولاد المشركين) - (ذراري المشركين) - (كل مولود) - (أقوام) - (الصبيان) -
(ذراريهم) - (صبي).



ب-/- باب التكليف⁵²

-الحديث الاول :

ورد في صحيح (ابن حبان) ما نصه: «أخبرنا الحسن بن سفيان قال : حدثنا محمد بن المنهال الضريير قال : حدثنا يزيد بن زريع، قال : حدثنا روح بن القاسم، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: لما نزلت على النبي ﷺ هذه الآية : (لله ما في السماوات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه، يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير) أتوا النبي ﷺ فجثوا على الركبن وقالوا : لا نطيعك لا نستطيع كلفنا من العمل ما لا نطيع، ولا نستطيع فأنزل الله : (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون)، إلى قوله (غفرانك ربنا وإليك المصير { فقال النبي ﷺ: (لا تقولوا كما قال أهل الكتاب من قبلكم : سمعنا وعصينا بل قولوا : سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير) فأنزل الله : (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا)، قال : نعم (ربنا و لا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا) قال : نعم (ربنا و لا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين)، قال : نعم.(ربنا و لا تحمل علينا إصرا كما حملته على

الذين من قبلنا). قال : نعم (ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ، واعف عنا واغفر لنا وارحمنا ، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين)»⁵³.

-الحديث الثاني:

ورد في صحيح (ابن حبان) ما نصه «أخبرنا إسحاق بن إبراهيم بن إسماعيل ، ببست قال : حدثنا حسن بن علي الحلواني ، قال : حدثنا وهب بن جرير قال : حدثنا شعبة عن أبي بشر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس في قوله : (لا إكراه في الدين) قال : كانت المرأة من الأنصار لا يكاد يعيش لها ولد فتحلف : لئن عاش لها ولد لتهودنه فلما أجليت بنو النضير ، إذا فيهم ناس من أبناء الأنصار ، فقالت الأنصار ، يا رسول الله أبناؤنا فأنزل الله هذه الآية : (لا إكراه في الدين)»⁵⁴.

-الحديث الثالث :

ورد في صحيح (ابن حبان) ما نصه «أخبرنا أبو يعلى حدثنا شيبان بن فروخ ، حدثنا حماد بن سلمة عن حماد عن إبراهيم ، عن الأسود عن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ: رفع القلم عن ثلاثة : (عن النائم حتى يستيقظ ، وعن الغلام حتى يحتلم، وعن المجنون حتى يفيق)»⁵⁵.

-الحديث الرابع :

ورد في صحيح (ابن حبان) ما نصه : «عن ابن عباس : أن النبي ﷺ صدر من مكة فلما كان بالروحاء ، استقبله ركب فسلم عليهم فقال : (من القوم ؟) قالوا:المسلمون (فمن أنتم ؟)

قال: رسول الله ﷺ ففزعت امرأة منهم فرفعت صبيا لها من محفة، وأخذت بعضلته فقالت: يا رسول الله، هل لهذا حج؟ قال: (نعم ولك أجر)»⁵⁶.

- الحديث الخامس :

ورد في صحيح (ابن حبان) ما نصه «أخبرنا أبو يعلى قال: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة قال: حدثنا محمد بن بشر قال: حدثنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال رجل: يا رسول الله إنا لنجد في أنفسنا أشياء ما نحب أن نتكلم بها، وإن لنا ما طلعت عليه الشمس فقال صلى الله عليه وسلم: (قد وجدتم ذلك؟). قالوا: نعم قال: (ذاك صريح الإيمان)»⁵⁷.

- الحديث السادس :

ورد في صحيح (ابن حبان) ما نصه «أخبرنا أبو عروبة بحران قال: حدثنا محمد بن بشر، قال: حدثنا ابن عدي عن شعبة عن عاصم بن بهدلة عن أبي صالح عن أبي هريرة، أنهم قالوا: يا رسول الله، إنا لنجد في أنفسنا شيئا لأن يكون أحدنا حممة، أحب إليه من أن يتكلم به قال: (ذاك محض الإيمان)»⁵⁸.

- الحديث السابع :

ورد في صحيح (ابن حبان) ما نصه «أخبرنا محمد بن عبد الرحمن الدغولي، ومحمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري بمكة وعدة قالوا: حدثنا محمد بن عبد الوهاب الفراء، قال: سمعت علي بن عثمان، يقول يقول: أتيت سعير بن الخمس أسأله عن حديث الوسوسة فلم يحدثني فأدبرت أبكي ثم لقيني فقال: تعال حدثنا مغيرة عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال: سألتنا رسول الله ﷺ عن الرجل يجد

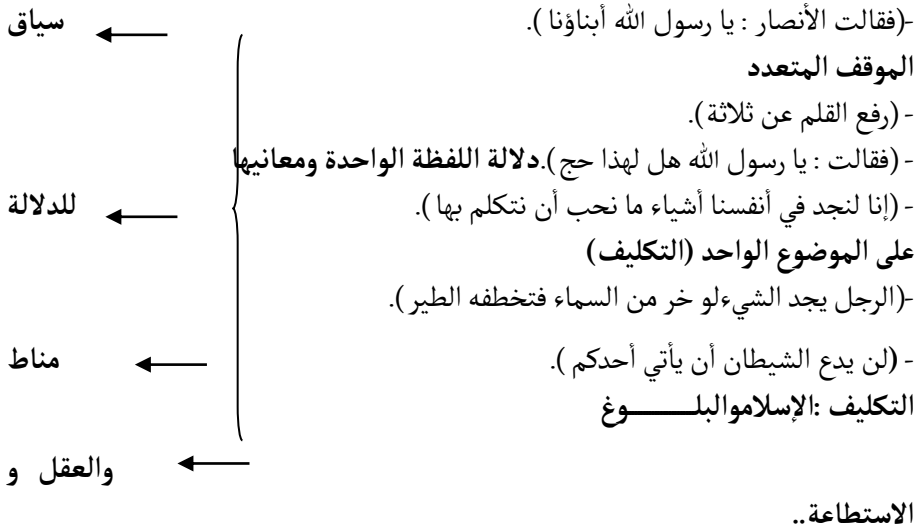
الشيء لو خر من السماء فتخطفه الطير ، كان أحب إليه من أن يتكلم قال : (ذاك صريح الإيمان)»⁵⁹ .

- الحديث الثامن :

ورد في صحيح (ابن حبان) ما نصه « أخبرنا العباس بن أحمد بن حسان السامي بالبصرة ، حدثنا كثير بن عبيد المذحجي حدثنا مروان بن معاوية ، أخبرنا هشام بن عروة عن أبيه ، عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : (لن يدع الشيطان أن يأتي أحدكم فيقول : من خلق السماوات والأرض ؟ فيقول : الله فيقول : فمن خلقك ؟ فيقول : الله فيقول : من خلق الله ؟ فإذا حس أحدكم بذلك فليقل : آمنت بالله وبرسوله)»⁶⁰ .

لعل المتأمل في مجموع الأحاديث في (باب التكليف)، يصل بالاستنتاج إلى نفس التأمل ، فيما هو موجود في (باب الفطرة) و يدرك طبيعة الموضوع الواحد ، الذي يجمعها فعلى الرغم من اختلاف المناسبات ؛ التي قيلت فيها هذه الأحاديث إلا أنها تشترك في مجموعها للدلالة على الحكم الشرعي المتعلق بالمعنى الواحد، ألا وهو مقصد التكليف كما هو مشرع به في الاسلام، بغض النظر على الاختلاف الذي يحصل بين العلماء ، حول تفرعات هذا الموضوع . و انظر إلى متون الأحاديث تدرك بسهولة القاسم المشترك بينها، قسم يسمى (سياق الموضوع الواحد). ألا وهو مناط التكليف في الاسلام ، الذي لا يتعدى حد القدرة و الاستطاعة للمسلم ، فيما يكلف به فلا تكليف بلا استطاعة ، و هذا بعينه ما تدل عليه الأحاديث في مجموعها . والمتبقي فيما أشار إليه (ابن حبان) كله مبني على هذا الأساس في باقي التقسيمات الأربعة الأخرى .

و حتى نستدل على مكمّن الموضوع الواحد، الدال على السياق الموحد، لنماذج الأحاديث المشار إليها في الفئة الثانية (باب التكليف) بإمكاننا الإشارة إلى العينات التالية مرتبة كما في أحاديثها الأصلية :
- (وقالوا : لا نطيع لا نستطيع كلفنا من العمل ما لا نطيع ولا نستطيع)
- (فقال الأنصار : يا رسول الله أبناؤنا).



كل العبارات الواردة بين قوسين، أعلاه — إلا ما اختلف سنداً وتشابه متناً - تعكس مجتمعة حكماً شرعياً واحداً، هو (التكليف). و سياق المواقف الكلامية في أحاديثها، يفسر طبيعة الخلافات بين العلماء حول مناط التكليف، الذي ذهب فيه الدارسون قديماً وحديثاً مذاهب شتى. ونحن لا يعنينا الخلاف الشرعي بين العلماء حول اجتهاداتهم، في قضية التكليف. وإنما الذي يسترعي انتباهنا هو إحاطة (ابن حبان) بمسألة تجميع الأحاديث، وفق سياق مواقفها الكلامية و التي تدل على ميزة علمية راسخة عند هذا المجتهد، لم يسبقه إليها غيره من المجتهدين في علم الحديث .

02-ن ماذج من سياق الموضوعات في تقسيم (النواهي) من صحيح (ابن حبان):

- كتاب الزجر : عن تقسيم النواهي فيما أورده (ابن حبان) في صحيحه يقول: « وقد تبعت النواهي عن المصطفى ﷺ وتدبرت جوامع فصولها وأنواع ورودها؛ لأن

مجراها في تشعب الفصول مجرى الأوامر في الأصول، فرأيتها تدور على مائة نوع وعشرة أنواع»⁶¹.

الحديث الأول : أورد (ابن حبان) في صحيحه ما نصه : «أخبرنا أحمد بن محمد بن الحسن، قال حدثنا أحمد بن يوسف السلمي، قال أخبرنا عبد الرزاق قال أخبرنا عبد الله بن سعيد بن أبي هند عن أبيه، عن أبي هريرة قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله يبغض كل جعظري، جواظ سخاب بالأسواق جيفة صارت حمار بالنهار، عالم بأمر الدنيا جاهل بأمر الآخرة»⁶².

الحديث الثاني : كما أورد (ابن حبان) في صحيحه ما نصه : «أخبرنا الحسن بن سفيان، قال حدثنا حبان قال أخبرنا عبد الله، حدثنا يزيد بن إبراهيم التستري قال حدثني بن أبي مليكة، عن القاسم بن محمد عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قول الله: (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات) إلى آخرها فقال: إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه : فاعلموا أنهم الذين عنى الله (فاحذروهم)»⁶³.

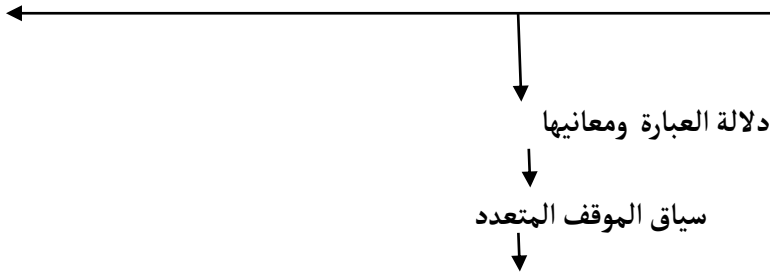
الحديث الثالث : كما أورد (ابن حبان) في صحيحه ما نصه: «أخبرنا الحسن بن سفيان الشيباني، قال حدثنا عاصم بن النضر الأحول، قال حدثنا المعتمر بن سليمان، قال سمعت أيوب يحدث، عن أبي مليكة عن عائشة أنها قالت قرأ نبي الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية: (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أمالكتاب وأخر متشابهاً) إلى قوله (أولي الأبواب)، قالت: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا رأيت الذين يجادلون فيه فهم الذين عنى الله (فاحذروهم)»⁶⁴.

الحديث الرابع : و أورد (ابن حبان) في صحيحه ما نصه : «أخبرنا أحمد بن محمد بن سعيد المرزوي، بالبصرة قال حدثنا محمد بن سهل بن عسكر قال حدثنا بن أبي مريم، عن يحيى بن أيوب عن بن جريج عن أبي الزبير، عن جابر، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء ولا تماروا به السفهاء ولا تخيروا»⁶⁵.

الحديث الخامس : و أورد (ابن حبان) في صحيحه، ما نصه : «أخبرنا أحمد بن علي بن المثنى ، قال حدثنا أبو خيثمة، وهارون بن معروف قال حدثنا المقرئ قال حدثنا سعيد بن أبي أيوب عن عطاء بن دينار ، عن حكيم بن شريك عن يحيى بن ميمون الحضرمي ، عن ربيعة الجرشي عن أبي هريرة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه ، قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا تجالسوا أهل القدر و لا تقاتحوهم»⁶⁶.

إن الناظر في متون هذه الأحاديث الخمسة، لا شك أنه يلفت انتباهه عبارات مشتركة بينها، تفيد واجب الحكم الشرعي في الزجر النبوي، و المقيد بالالزام لا على سبيل الإباحة وهذه العبارات هي :

- (إن الله يبغض) - (فاحذروهم) - (لا تعلموا العلم) - (ولا تماروا به) - (ولا تخيروا) - (لا تجالسوا) - (لا تقاتحوهم).



الدلالة على الموضوع الواحد(الزجر)



المراد:وجوب التقييد بالزجر امتثالاً لأمر الرسول على وجه الالتزام لا على سبيل الإباحة

و هذه الصيغ التي تقيّد (الزجر) في مجموعها، تقوم على ما يسمى ب(سياق الموضوعات) المتشابهة، على الرغم من أن مواقف الكلام التي كانت في سبب ورود الحديث مختلفة و متباعدة الزمان و المكان. و لكن لم يمنع ذلك من أن يكون آية من الآليات التي تقيّد في حصر الأحاديث، و تصنيفها و تبويبها بغية الوصول إلى استنباط بعض الأحكام الفقهية و الشرعية. و هذا الذي سعى إلى ذكره (ابن حبان) في صحيحه، من خلال التشجير الذي أخرج به، بجعله لكل تقسيم عدداً من الأنواع و لكل نوع عدداً من الأحاديث يجمع بينها سياقاً واحداً، هو سياق الموضوعات الموحدة.

و تأمل في دلالات العبارات أعلاه، تكتشف البعد الذي يفيد الزجر و المنع و الابتعاد و النهي، و كل ما يدل على معانيها، و عاود ربط هذه المعاني بسياق الحديث الذي جاء فيه، تجدها قد اختلفت سنداً و متناً لكنها مع ذلك توحدت موضوعاً.

- ختمة البحث: خلاص البحث إلى النتائج التالية:

01/- أولى علماء الحديث السياق أهمية كبرى في دراستهم للسنة النبوية، من أجل فهم النصوص الشرعية المتضمنة فيها، باعتبارها المصدر التشريعي الثاني في الإسلام، كما أن تلك الدراسة تتضمن من الخصائص البحث العلمي، ما يؤهلها لأن تخوض أي مقارنة لغوية نصية .

02/- أن (ابن حبان) تنبه إلى إيجاد تبويب جديد صنف، به صحيحه، لم يكن معهوداً من قبل، يقوم أساساً على مبدأ مراعاة (سياق الموضوعات)، المتشابه في المعنى الواحد.

03/- أن غرض (ابن حبان) من هذا التصنيف، هو دفع الدارسين للسنة في بحثهم عن الحكم الشرعي من الأحاديث، و وجوب مراعاة المعنى المشترك، و عدم تجريد الحديث من

سياقه العام الوارد فيه، زيادة على بذل الجهد في العثور على الحديث المطلوب، ترغيباً في حفظ متون أحاديث السنة، والاعتناء بنصوصها.

04/- أن تصنيف (ابن حبان) لصحيحه يدفع إلى الاعتقاد باستفادته من العلم بمناسبة نزول آيات الذكر الحكيم، وتوظيفه لمنهجية العلم بسبب ورود الأحاديث النبوية، لحصول التشابه بين هذا العلم و بين قضية السياق، على أساس الموضوعات الموحدة في متون الأحاديث النبوية.

-الهوامش:

- 1- حماسة عبد اللطيف، (النحو والدلالة، مدخل لدراسة المعنى)، دار غريب، القاهرة، (ط01)، 1983 م، ص33.
- 02- عوض حيدر، (سياق الحال في الدرس الدلالي)، مكتبة النهضة المصرية القاهرة، (د ط)، ص30.
- 03- ينظر: ابن منظور، (لسان العرب)، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، سنة 1999م، (ج 10)، ص 166-167.
- 04- وقد وردت في عديد الآيات منها سورة الأعراف وفاطر والسجدة ومريم والزمر والأنفال. لكنها في جميعها بخلاف المعنى الذي نقصده من مصطلح السياق في هذه الدراسة.
- 05- البركاوي عبد الفتاح، (دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث: دراسة تحليلية للوظائف الصوتية والبنوية والتركييبية في ضوء نظرية السياق)، دار المنار للطبع والنشر والتوزيع سنة 1991، القاهرة، (د ط)، 1991 م، ص46.
- 06- علي آيت أوشان، السياق و النص الشعري- من البنية إلى القراءة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، سنة 2000 م، ص 31.
- 07- ينظر: عبد الحميد العلمي، (منهج الدرس الدلالي عند الإمام الشاطبي)، الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، سنة 2001 م، ص 165.
- 08- ينظر: السيوطي جلال الدين، (تدريب الراوي في شرح تقريب النووي)، تحقيق: مازن بن محمد السرساوي، دار ابن الجوزي، الرياض، ط01، 1431 هـ، ج 2، ص 763.

- 09- ادريس مقبول، (السنة النبوية الشريفة ومستويات التام السياق، مقارنة لسانية تداولية) (مداخلة)، من ضمن أبحاث السنة النبوية بين ضوابط الفهم السديد ومتطلبات التجديد: ج 01، الشارقة، الإمارات، سنة 2009 م، ص 96.
- 10- حمادة فاروق، (مراعاة السياق وأثره في فهم السنة النبوية)، مجلة الإحياء، المغرب، عدد 26، نوفمبر 2007، ص 65.
- 11- نفسه، ص 72.
- 12- ابن الأثير أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، (النهاية في غريب الحديث)، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي محمود محمد الطناجي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط 01، 1979 م، جزء 01، ص 238.
- 13- نفسه الجزء 04، ص 76.
- 14- ينظر: التخيفي عبد المحسن، (دلالة السياق وأثرها في فهم الحديث النبوي) (مداخلة)، الندوة الدولية الرابعة للحديث الشريف: "السنة النبوية بين ضوابط الفهم السديد ومتطلبات التجديد"، والمنعقدة في كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدي، دولة الإمارات العربية المتحدة، 2009م
- 15- النووي أبو زكرياء، (المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ح رقم 573. سنة 1392 هـ.
- 16- البخاري أبو عبد الله، (صحيح البخاري)، طبعة: دار ابن كثير، دمشق، ح رقم: 6051. سنة 2002م.
- 17- ابن المنير الاسكندراني، (المتوازي عن تراجم أبواب البخاري)، تحقيق: صلاح الدين مقبول أحمد، مكتبة المعلا، الكويت، ط 01، 1987 م، ص 357.
- 18- صحيح البخاري، سابق، حديث رقم: 43.
- 19- الحنبلي زيد الدين أبي الفرج، (فتح الباري شرح صحيح البخاري)، تحقيق: محمود بن شعبان بن عبد المقصود وغيره، مكتبة الغرباء الأثرية، القاهرة، ط 1996 م، (ج 01)، ص 164.
- 20- الشрман خالد محمد محمود، (الحديث الموضوع دراسة تأصيلية)، دار الفرقان، عمان، ط 01، سنة 2009 م، ص 174.
- 21- ينظر: أحمد مختار عمر، علم الدلالة، دار عالم الكتب، القاهرة، (ط 1)، سنة 1985م، ص 68-69.
- 22- الجرجاني، دلائل الإعجاز، مكتبة الخانجي، مطبعة المدني، م 01، القاهرة، ص 38.
- 23- نفسه، ص 32.
- 24- لعل الأصوليين على اختلاف اتجاهاتهم وانشغالاتهم كانوا السباقين في تناولهم هذا المصطلح فعلماء علوم القرآن اعتمدوا في دراستهم للنص القرآني وفهم معانيه ودلالاته على جانبي السياق اللغوي الكلي أو ما يسمى بسياق النص، وسياق الموقف ويتمثل سياق الوقف عندهم في أسباب النزول، وأما علماء أصول الفقه فقد اعتمدوا على فكرة السياق في بيان المعنى في النصوص الشرعية فهذا الشافعي يعنون أحد أبواب رسالته الأصولية بقوله: "باب الصنف الذي يبين سياقه معناه
- 25- ينظر ترجمته بشكل مفصل في: (معجم البلدان)، شهاب الدين الحموي الرومي البغدادي، الناشر، دار صادر، بيروت سنة 1977م.
- 26- نسبة إلى تميم القبيلة العربية المشهورة.
- 27- نسبة إلى بُسْت، وهي بلدة من بلاد كابل، بين هراة و غزنه، وهي بلدة حسنة كثيرة الخضار والأثمار والبساتين.

- 28- نسبة إلى سِجستان، الإقليم المعروف، وهو اليوم تابع لدولة أفغانستان.
- 29- معجم البلدان، مصدر سابق، (ج 1) ص 417.
- 30- طبع مؤخرًا بدار ابن حزم بيروت: (1433هـ، 2012م)، بتحقيق: محمد علي سونمز، وخالص آيدمير.
- 31- نشرته: دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن الهند، في سنة 1973م، في تسعة أجزاء.
- 32- له أكثر من طبعة، منها طبعة: دار الصميعي للنشر والتوزيع، بتحقيق حمدي السلفي، في سنة، 2000م.
- 33- له أكثر من طبعة، منها طبعة: دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع بالمنصورة: (1411هـ-1991م).
- 34- مطبوع بدار الكتب العلمية بيروت، بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد.
- 35- معجم البلدان، سابق، (ج 1)، ص 419.
- 36- قام بترتيب صحيح ابن حبان الأمير علاء الدين الفارسي (ابن بلبان) على الكتب و الأبواب و سماه (الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان) و هو المتداول و المطبوع باسم (صحيح ابن حبان) وقد قام بتحقيقه شعيب الأرنؤوط يقع في 18 مجلداً ، طبع بمؤسسة الرسالة ببيروت ، وللألباني أيضاً (التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان) و تمييز سقيمه من صحيحه و شاذه من محفوظه)، وقسم الألباني أيضاً (موارد الظمان في زوائد ابن حبان للهيثمي) إلى صحيح الموارد ، و ضعيف الموارد ، و ضم إليهما زوائد صحيح الموارد، وزوائد ضعيف الموارد.
- 37- ابن كثير، (الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث)، الناشر، دار الكتب العلمية، بيروت، تحقيق أحمد شاكر، (د ت)، ص 23.
- 38- الإمام، الحافظ، الحجة الناقد: محمد بن موسى بن عثمان بن حازم، أبو بكر الحازمي، ولد في سنة ثمان وأربعين وخمسائة، كان من الأئمة الحفاظ العالمين بفقهِ الحديث ومعانيه ورجاله، له عدة مصنفات، منها: (الاعتبار في الناسخ والمنسوخ من الآثار)، (ت 584هـ).
- 39- الحازمي أبي بكر، (شروط الأئمة الستة)، طبعة حسام الدين القدسي، القاهرة، سنة 1357 هـ، ص 133.
- 40- اعتمدنا على النسخة المصورة المحققة على يد محمد علي سونمز وخالص أي دمير دار ابن حزم بيروت، لبنان، ط 01، سنة 2012 م.
- 41- يقرر العلماء أن قاعدة جمع الروايات في الموضوع الواحد هي أحد الضوابط المعينة على فهم السنة النبوية فهماً صحيحاً، فلا يكفي لاستنباط حكم أو إصدار فتوى، الاعتماد على حديث واحد حتى ولو كان صحيحاً، وإغفال النظر في مجموع الأحاديث الأخرى. بل يجب النظر في جميع الأحاديث الواردة في معناه، قياساً على أن القرآن يفسر بعضه بعضاً، حتى يصح إدراك معانيه في ذلك الحديث. وهذا المعنى هو الذي عبر عنه الإمام أحمد بقوله: «الحديث إذا لم تجمع طرقه لم تفهمه، والحديث يفسر بعضه بعضاً» ففقه الأحاديث لا يتأتى إلا بجمع روايات الحديث الواحد، وإعمال النظر فيها؛ ذلكم أنه قد يكون منسوخاً أو له معارض، أو يفهم من دلالاته خلاف ما يدل عليه، أو يكون أمراً مندوباً فيفهم منه الإيجاب، أو يكون عاماً له مخصص، أو مطلقاً له مقيد.
- 42- أصل الفطرة الشق ، ومنه قوله تعالى: (إذا السماء انفطرت) ثم أُطلق على الابتداء والاختراع، والفطرة هيئة الخلق وحاله، والمراد بها في الحديث ما فطر الله عليه الخلق من معرفته والإقرار بربوبيته ووحديته .
- 43- صحيح (ابن حبان)، السابق، ص 82. تم الاعتماد على نسخة الكترونية مصورة (بي دي أف) المحققة على يد محمد علي سونمز وخالص أي دمير دار ابن حزم بيروت، لبنان، ط 01، سنة 2012 م
- 44- نفسه، ص 82.
- 45- نفسه، ص 82.
- 46- نفسه، ص 82.

- 47-نفسه ، ص 83.
- 48-نفسه ، ص 83.
- 49-نفسه ، ص 83.
- 50-نفسه ، ص 83.
- 51-الشيخ هشام بن فهمي العارف، إلا إن خياركم أبناء المشركين (مقال) على الشبكة موقع www.sahab.net ، يوم 30 يناير 2006 م.
- 52-التكليف لغة هو:المشقة، ويطلق على الأمر بما يشق عليك، أي:الأمر بما فيه كلفة. واصطلاحاً هو:الخطاب أمر و نهى.
- 53-التقاسيم والأنواع، سابق، ص 87.
- 54-نفسه ، ص 87.
- 55-نفسه ، ص 88.
- 56-نفسه ، ص 88.
- 57-نفسه ، ص 88.
- 58-نفسه ، ص 89.
- 59-نفسه ، ص 89.
- 60-نفسه ، ص 89.
- 61-نفسه ، ص 09.
- 62-نفسه ، ص 277.
- 63-نفسه ، ص 277.
- 64-نفسه ، ص 278.
- 65-نفسه ، ص 278.
- 66-نفسه ، ص 283.

قائمة المصادر والمراجع:

*القرآن الكريم (رواية ورش).

- ابن الأثير أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، (النهاية في غريب الحديث)، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي محمود محمد الطناجي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط 01، (ج 01)، سنة 1979م،
- ابن المنير الإسكندراني، (المتواري عن تراجم أبواب البخاري) تحقيق: صلاح الدين أحمد، مكتبة المعلا، الكويت، ط 01، 1987 م.
- ابن حبان، (التقاسيم والأنواع)، دار ابن حزم ببيروت، تحقيق: محمد علي سونمز، وخالص أيديمير. سنة 2012م.
- ابن منظور، (لسان العرب)، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، (ج 10). سنة 1999م.
- البخاري أبو عبد الله، (صحيح البخاري)، طبعة: دار ابن كثير، دمشق، سنة 2002م.
- البر كاوي عبد الفتاح، (دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث: دراسة تحليلية للوظائف الصوتية والبنوية والتركييبية في ضوء نظرية السياق)، دار المنار للطبع والنشر والتوزيع سنة 1991، القاهرة، (د ط)، 1991 م.

- التخيفي عبد المحسن، (دلالة السياق وأثرها في فهم الحديث النبوي) (مداخلة)، الندوة الدولية الرابعة للحديث الشريف: "السنة النبوية بين ضوابط الفهم السديد ومتطلبات التجديد"، والمنعقدة في كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي، دولة الإمارات العربية المتحدة، 2009م
- الحازمي أبي بكر، (شروط الأئمة الستة)، طبعة حسام الدين القدسي، القاهرة، سنة 1357 هـ.
- الحموي الرومي شهاب الدين، (معجم البلدان)، الناشر، دار صادر، بيروت سنة، 1977م.
- الحنبلي زيد الدين أبي الفرج، (فتح الباري شرح صحيح البخاري)، تحقيق: محمود بن شعبان بن عبد المقصود وغيره، مكتبة الغرباء الأثرية، القاهرة، (ج 01)، ط سنة 1996م.
- السيوطي جلال الدين، (تدريب الراوي في شرح تقريب النووي)، تحقيق: مازن بن محمد السرساوي، دار ابن الجوزي، الرياض، ط01، (ج 2)، سنة 1431 هـ،
- الشрман خالد محمد محمود، (الحديث الموضوعي دراسة تأصيلية)، دار الفرقان، عمان، ط01، سنة 2009م.
- النووي أبو زكرياء، (المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، سنة 1392 هـ.
- حمادة فاروق، (مراعاة السياق وأثره في فهم السنة النبوية)، مجلة الإحياء، المغرب، عدد26، نوفمبر سنة 2007م.
- حماسة عبد اللطيف، (النحو والدلالة، مدخل لدراسة المعنى)، دار غريب، القاهرة، (ط01)، 1983م.
- عوض حيدر، (سياق الحال في الدرس الدلالي)، مكتبة النهضة المصرية القاهرة، (د ط).
- ابن كثير، (الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث)، الناشر، دار الكتب العلمية، بيروت، تحقيق أحمد شاکر، (د ت).

تحليل الخطاب والأسلوبية؛ المشاكلة أو الاختلاف؟ (محاولة لتحديد المصطلحين)

غلام رضا حقيقي¹، جامعة أصفهان

haghighi_gh@yahoo.com

محمد خاقاني اصفهاني²، جامعة أصفهان

mohammadkhaqani@yahoo.com

تاريخ النشر: 2019/03/31

تاريخ القبول: 2019/03/18

تاريخ إرسال المقال: 2019/03/15

الملخص:

إن تحليل الخطاب والأسلوبية مصطلحان في علم اللغة أو اللسانيات، فتحليل الخطاب بيان أجزاء الخطاب ووظيفة كل جزء فيها لكشف معنى النص ورمزيته، والأسلوبية علم يدرس الخصائص التي تخرج الخطاب عن وظيفته الإخبارية الإبلاغية إلى وظيفته التأثيرية والجمالية. وبما أن موضوع هذين المنهجين هو الخطاب فيواجه الدارس صعوبات في تحديد المعنى الدقيق لكل منهما، وقلما يجد أحدهما ينتهي إلى معنى الآخر أو يشتبك معه في عدد من الدلالات.

تدرس هذه المقالة بعض أوجه الاتفاق بين هذين المصطلحين كما تعالج بعض وجوه الاختلاف بينهما بهدف إزالة الغموض المحتمل من الإدراك الناقص وإساءة التأويل عن وظيفة كل منهما. يبين خلال البحث أن وجود هذه الاختلافات والإبهامات يرجع إلى المنطلقات النظرية لهذه التصورات، مما يفضي أحيانا إلى نوع من الالتباس بين مفاهيم متقاربة كتحليل الخطاب والأسلوبية.

الكلمات الرئيسية: تحليل الخطاب، الأسلوبية، المشاكلة، الاختلاف.

Discourse Analysis and Methodology (Stylistic)

Similarity or Contrast

An attempt for understanding for these concepts

Gholamreza Haghghi³

Mohammad khaqani Isfahani⁴

Abstract: Discourse Analysis (D.A) and Methodology are two expressions (terms) in linguistic. D.A considers the sentence constitutions (units) and specifies their tasks in order to discover and decodes the meaning of the context .

Methodology (Stylistic) is a knowledge that is considered the features of D.A caused not only presents information and messages, but also they will have the effective, beautiful function on the listener.

As, the topics of two procedures originate from discourse analysis. Therefore, researcher deals with a lot of problems in relation to presenting an exact meaning of these terms. Sometimes, the other concept will lead to another one, also in some denotations both of them will interfere to each other.

This study try to consider the common features i.e. similarity and contrast between two expressions to eliminate their ambiguity and complexity because of being incomplete, and misunderstanding of their functions .

This study shows the differences in determining of the true meaning of these two concepts (D.A & Methodology) refers to the theatrical references of this theory which can often let to a misunderstanding of the concept such as D.A & Methodology .

Keywords: Discourse Analysis (D.A), Methodology, Similarity. Contrast (difference)

المقدمة: إن للحصول على فهم النصوص آليات منها: "تحليل الخطاب" و"الأسلوبية"، هما يتناولان البحوث ويعالجان النصوص المكتوبة منها أو المنطوقة لكشف حقيقتها، لا يمكننا في هذا البحث التعريف الشامل لتاريخ المصطلحين -على الرغم من أن العرض التاريخي يبين الاختلافات الأساسية التي طرأت على أسس ومبادئ هاتين المفردتين- فسوف نكتفي بتوضيح جوهر الخطاب وتحليله والأسلوبية، للوقوف على أسس التعريف الصحيح وللوصول إلى التحديد الدقيق.

إن لتحليل الخطاب في مسير تطوره تلقيات: 1. كان البعض يرون أنه في عداد "المدرسة التركيبية الإنجليزية" والذي لم ينتفع منها بعد أن هجر إلى أمريكا، أي بعد وفاة أحد منظريه المشهور "فيرث"⁵، ولكن حاول "هاليداي" بعده أن يثبت للعالم أنّ تحليل الخطاب مازال قائماً على أسس المدرسة المذكورة وإن خرج من حضن أمه. 2. والبعض الآخر ومنهم "زيلج هاريس"⁶ فقد سعى أن يتخلى أو ينسلخ تحليل الخطاب عن منهجه التاريخي ويعطيه هوية جديدة، حتى يحفظ أثره كآلية للتحليل في الأعوام القادمة.

فنحن الآن نعتبر "تحليل الخطاب" استراتيجية⁷ تحليلية التي تدرس الخطاب فتطلب بعض المتطلبات المنهجية منها: الف) التعرف على منبع الخطاب على اختلاف أنواعه: أدبي، شعري، نثري، سياسي، اجتماعي، نفسي، تعليمي، علمي... الخ، ب) العلم بأن لكل خطاب دينامية تمارس مع تمارس مع كل أشكال الخطاب، ج) الاطلاع على أن الخطاب موجود حرّ ممارسه على الأشياء وليس ذاتياً في مصهر دلالات مسبقة.⁸

وأما الأسلوبية، فهي أنشئت من أجل دراسة اللغة، فاللغة كائن حيّ وهي طريقة الانسان في هذا الوجود، لذلك يحتاج الانسان إلى تعمقها ومعرفة أسرارها وطرق تناولها، وفي هذا الطريق الصعب يمدّ يده إلى إطار يبني عليه معرفته، فهذا الإطار هو الأسلوبية. وللأسلوبية أيضاً تلقيات منها: 1. كان ينظر إليها كوجه لجماليات التعبير الأدبي، 2. كان ينظر إليها على أنها مُنتجة للمعنى، 3. وكانت تدرس كأنها تكمن في الاختيار الواعي للأدوات التعبيرية.

وأما السؤال الذي يبحث عن جوابه خلال البحث فهو: أيشترك المصطلحان في الدلالة والتوظيف مع أنهما يختلفان في المعنى؟ والمنهج الذي اعتمد عليه الباحثان هو المنهج الوصفي والتحليلي، وذلك بجمع المادة العلمية في القضية موضع البحث، ثم محاولة تحليلها، ومناقشتها ونقدها، ومن ثم الوصول إلى النتائج.

سابقية البحث: أما بالنسبة إلى المحاولات التي تسهم في إظهار حدود للمصطلحين، فالملاحظ عدم وجود دراسات لغوية مستقلة تعني بهذا الأمر، غير أن "مهى محمود إبراهيم العتوم" ذكرت في رسالتها الجامعية بعض هذه الجهود، ولكنها تؤكد على أن مثل هذا الجهد في الأوساط العربية «ينحصر في التعريفات ورسم الحدود العامة بالإضافة إلى الترجمة لعدد من الكتب اللغوية التي اهتمت بالخطاب تحليلاً وتحديداً» (العتوم، 2004، 73) فإليك الآن بعض هذه الأعمال:

إن إبراهيم خليل في كتابه "الأسلوبية ونظرية النص" يقدم مفهوم الخطاب أثناء حديثه عن نحو الجملة ونحو النص، فتحليل الخطاب عنده يقوم على أنظمة الحوار والمخاطبات. أو عبد الله إبراهيم في كتابه "الثقافة العربية الحديثة والمرجعيات المستعارة"، بعد استعراض شامل لتعريف الخطاب عند عدد من اللسانيين والنقاد الغربيين ينتهي إلى نظرية خلاصتها أن الخطاب مفهوم لا تعني به اللسانيات المحضنة فحسب، وإنما نظرية الاتصال والسيميولوجيا ونظرية التلقي ينطوي عليها الخطاب، والمؤلف الآخر الذي يُذكر اسمه في كتاب "تحليل الخطاب في النقد العربي الحديث" هو منذر عياشي وكتابه "اللسانيات والدلالة/الكلمة"، كأن الكاتبة (مهى محمود إبراهيم) تؤيد جهد المسدي في تعيين حدود الخطاب حيث تقول: «وفي قاموس اللسانيات لعبد السلام المسدي يستخدم المسدي مفهوم الخطاب، ووضوح التحديد عند المسدي في هذا القاموس يفضي إلى وضوح الرؤية والتحليل في كتابه "الأسلوبية والأسلوب". فحين يعرض (المسدي) لتقسيم بالي للظاهرة الكلامية ينتهي إلى هذا القول: وتأتي الأسلوبية لتتبع بصمات الشحن في الخطاب عامة. وهذا يؤدي إلى فهم أن الخطاب في أي نص كان ومنه النص الأدبي هو مادة الدراسة الأسلوبية كما هو مادة الشعرية والأدبية» (المصدر نفسه: 71-72) لـ "منذر عياشي" كتاب آخر اسمه "الأسلوبية وتحليل الخطاب"، في الصفحة 107 من كتابه جاء بالتحديد الوظيفي بين المنهجين حيث يقول: «أما ما يخص الدراسات الأسلوبية، فإنها تهتم بالدرجة الأولى بالشروط الداخلية للغة الخطاب،... ذلك لأن عمل الأسلوبية يتجه إلى مراقبة وظيفة اللغة داخل الخطاب. أما علاقة هذا الخطاب بمرجع خارجي كالفائل أو كعلاقة المعنى بالبيئة، أو بغير ذلك، فهي أمور وإن كانت مشروعة في دراسات أخرى، إلا أنها لاتجد في الدرس الأسلوبية مكاناً لها» (عياشي، 2002، 107).

أما بالنسبة إلى المقالات، فمجلة "عالم الفكر"⁹ اختصت عدداً خاصاً¹⁰ بالأسلوبية عنوانه: آفاق الأسلوبية المعاصرة. أو مجلة "الخطاب"¹¹ مجلة مخصصة تعني بالمقالات العلمية في مجال تحليل الخطاب والأسلوبية إضافة إلى دراسات أخرى في اللغة والأدب، كمقالة عنوانها

"Analyse du discours" مقالة من أصل فرنسي قد ترجمت إلى اللغة العربية¹²، أو مقالة " من تحليل الخطاب إلى التحليل النقدي للخطاب" كتبها الدكتور محمد لطفي الزليطني، ففي مقدمتها نقراً هذه العبارة: « تنطلق هذه الورقة من فرضية أساسها العلاقة الوثيقة بين لغة الخطاب بمستوياتها وجوانبها المختلفة وما تعكسه من تفاوت في موازين السلطة والهيمنة داخل المجتمع » (لطفي الزليطني، 2014م، صص 9-36). إن ما ذكر في هذا القسم فهو القلة القليلة من المحاولات التي قد سعى أصحابها إلى بيانها في هذا المجال، فليُنظر الباحثون إلى المآخذ والمراجع التي ذكرت في خاتمة البحث.

قد بنى الباحثان بحثهما وجعلاه في خمسة مواضيع وخاتمة بالنتائج التي توصلوا إليها، وبالتالي تذكر هذه الموضوعات:

(الف) الأسلوبية؛ مفهومها وتاريخها. (ب) الخطاب؛ تطوراتها مفهوماً وتاريخياً. (ج) الأهداف من الأسلوبية وتحليل الخطاب. (د) الأسلوبية وتحليل الخطاب؛ معالهما عند التطبيق. (هـ) مشكلات أو اختلافات بين الأسلوبية وتحليل الخطاب.

الأسلوبية؛ مفهومها وتاريخها: لقد جاء الدكتور محمد عبدالله جبر في كتابه "الأسلوب والنحو" بعبارة تبين الاتجاه الغالب في الدراسات الأسلوبية وكيفية تطبيقها على الأعمال الأدبية وغير الأدبية، فهي: «إن دراسة الأسلوبية بقيت فترة طويلة -وما تزال- في أذهان الكثيرين مجالاً من مجالات النقد الأدبي، والأساس الذي قام عليه هذا النقد هو الذوق الشخصي وإن استعان بوسائل أخرى في مسيره، لكن دراسة الأسلوب أخذت تتجه اتجاهاً مغايراً باقتربها من حقل الدراسات اللغوية...» (جبر، 1998م: 9).

إن "نوفاليس"¹³ هو أول من استخدم هذا المصطلح، ولكن الأسلوبية إليه تختلط مع البلاغة، و"فورسيستر" بعده (1846م) لا يراها إلا هكذا. وإذا نظرنا إلى كتب الأسلوبية اللاتينية فسنرى أنها ليست سوى كتب للقواعد والأمثلة. لا بأس هنا أن نبدأ بالإشارة للجزر اللغوي لكلمة "أسلوب" في اللغات الأوروبية المعروفة واللغة العربية، فقد اشتقت في هذه اللغات من الأصل اللاتيني (Stilus)، ثم انتقل عن طريق المجاز إلى مفهومات تتعلق كلها بطريقة الكتابة، ثم أخذ يطلق على التعبيرات اللغوية الأدبية، وقد ظلت هذه الطبيعة عاقلة إلى حد ما بكلمة (Style) حتى الآن في هذه اللغات. والجدير أن الأسلوبية الجديدة تعادل مع اسم تشارلي بالي¹⁴ بطريقة يمكن أن يطلق عليه الأب لهذا المنهج وإن كانت نظرية الأسلوبية في الغرب طويلة الأجل. يرى بالي «أن اللغة مجموعة من وسائل التعبير التي تتناوب مع الفكرة أي الدلالات

المضافة (أو التأثيرات الوجدانية) مع الفكرة، وأن علم الأسلوب يعني بدراسة الوسائل التي يستخدمها المتكلم للتعبير عن أفكار معينة [...]. وظهر بعد مذهب بالي مذهب آخر، سمي بعلم الأسلوب الجديد ونُسب إلى العالم الألماني (ليو سبتزر)¹⁵، إن أغلب المدارس الحديثة في علم الأسلوب متأثرة بأرائه، ولا سيما تلك التي قررت أن هناك علاقة متبادلة بين الخواص الأسلوبية للنص والجو النفسي لمؤلفه. « (الكوّاز، د.ت، 66-67)

أما في اللغة العربية فـ "الأسلوب" كما يقول ابن منظور في لسان العرب كل طريق ممتد فهو أسلوب، فالأسلوب الطريق والوجه والمذهب، ... والأسلوب الطريق تأخذ فيه، والأسلوب الفن (ابن منظور، 1988، ج 17، 456). حتى هنا أخذنا نشرح اللغة من الوجهة اللغوية، لكن لا بد لنا من استكمال هذا الشرح بالمفهوم الدلالي، يقول الدكتور صلاح فضل¹⁶: « ولعل أدق تحديد له -على تأخره- يرجع إلى ابن خلدون الذي يقول في مقدمته عن الأسلوب: إنه عبارة عن المنوال الذي ينسج فيه التراكيب أو القالب الذي يفرغ فيه، وإنما يرجع الأسلوب إلى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كلية باعتبار انطباقها على تركيب خاص » (فضل، 1998م، 94) يعتقد المؤلف أن هذا المفهوم التركيبي الدقيق للأسلوب -الذي نجده في أعمال علمائنا كابن خلدون- إنما هو اصطلاح لا لغوي، ويسبق بقرون دخول الأسلوب في المصطلح النقدي الأوروبي.

فقد استخدم في النقد الألماني منذ أوائل القرن التاسع عشر في معجم "Grimm" وورد لأول مرة في اللغة الإنجليزية كمصطلح عام 1846م طبقاً لقاموس "أكسفورد" ودخل القاموس الفرنسي لأول مرة كمصطلح عام 1872م (المصدر نفسه: 94)، فيمكن القول إن الأسلوبية قد نشأت على أنقاض العصر البلاغي وترتحل من ألمانيا إلى إنجلترا وإلى فرنسا ثم إلى البلاد الأخرى لتعمر نحو ستين عاماً؛ من عام 1909م حتى عام 1969م، وكانت مرحلة الخمسينيات من القرن العشرين أزهى سني حياتها ثم يعلن موتها -بغتة- سنة 1969م أي قبل بلوغها العرب.

يشير "جورج مولينية"¹⁷ إلى أن إعلان الموت قد ظهر في العدد الأول من مجلة اللغة الفرنسية "Langue Francaise" المخصص للأسلوبية عام 1969م، وقد أرجع ذلك إلى أسباب خاصة تتعلق بالمسار الشخصي للباحثين (مولينية، 1999م: 68). فما معنى موتها؟ كأن الأسلوبية قد وضعت في عداد اختصاصات أخرى تستعمل في النقد الأدبي مثل التاريخ والتاريخ الأدبي وعلم النفس والفلسفة وعلم النص، بعبارة أخرى تقع الأسلوبية في رتبة التابع أي لا يتم

التفكير فيها لذاتها ولا لكونها اختصاصاً مستقلاً وكاملاً بل من حيث هي فرع من علم أكبر وأعظم ولا يمكن الحصول على أية دينامية خاصة لهذا الفرع فيحتمل بذلك في داخله بذرة موته¹⁸.

فالأسلوبية اليوم هي في الواقع المفهوم المتطور من الأسلوبية التعبيرية عند "شارل بالي" إذ هو يرى أن الأسلوبية هي في الحقيقة أسلوبين أحدهما لا يعنيه إلا إيصال الأفكار للمتلقي بدقة والآخر ينظر إلى التأثير على المتلقي، وقد قام تلاميذ بالي في مرحلة لاحقة بتطوير هذا الاتجاه عن طريق التوسع في دراسة التعبير الأدبي، فبحثوا في الأدوات الكفيلة التي يحتاجها الأديب للإفصاح والتعبير عن إحساسه الخاص، وما على الأسلوبية إلا البحث عن هذه الأدوات، فالأسلوبية «دراسة للغة، وهي أيضاً دراسة للكائن المتحول باللغة، وهي كذلك دراسة للعمل الإبداعي كما كان الحال قديماً مع البلاغة.» (جيرو، 1994م، 6). بالنظر إلى مجموعة من الأفكار والنظريات المقدمة في باب الأسلوبية خاصة عن مدارس علم الأسلوب الغربية¹⁹ نرى اتجاهات أو تيارات واضحة ينحو كل منها غير ما ينحو الآخر، ويهمننا أن نخلصها إلى ثلاث نتائج²⁰: الأولى: إن الأسلوبية أصبحت جسراً يربط علوم اللسان (اللسانيات) بالإبداع الفني الأدبي. أي صار علماً يكشف عن الخصائص المميزة (الأسلوبية) للتعبير المكتوب والمنطوق. الثانية: إن أهم مبدأ تعتمد عليه الأسلوبية، هو ثنائية اللغة والكلام التي تقوم بتحليل الظاهرة اللسانية إلى اللغة.

الثالثة: إن أي نظرية في الأسلوب تقوم على أساس فرضية منهجية قوامها أن المدلول الواحد يمكن التعبير عنه بدوال مختلفة، مما يؤدي إلى تعدد الأشكال التعبيرية على الرغم من وحدة الصورة الذهنية.

الخطاب: تطورات مفهوماً وتاريخاً: للنظر في مفهوم الخطاب لغوياً، لا بد أولاً من مراجعة المعاجم والقواميس العربية، يرتبط مصطلح الخطاب في دلالاته الأولى بالمحادثة أو بالحديث الحواري، ولعل استحضار الآية القرآنية الكريمة: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ (الفرقان: 63) تبين في بنيتها اللغوية عن حديث حواري مكون من خطاب وردٍ عليه. وهذه الدلالة لم تكن الوحيدة، فقد ورد الخطاب في مواطن أخرى من القرآن الكريم بدلالات أخرى، فقد وقف الفقهاء والمفسرون عند الآية الكريمة ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخُطَابَ﴾ (ص: 20) وقدموا تفسيرات متعددة دارت معظمها على عناصر لغوية وفقهية، وقد دارت معظم دلالات الخطاب في المعاجم العربية على هذه الدلالات.

والخطاب في الدراسات العربية بمفاهيمه الحديثة، مصطلح وافد من الثقافة الغربية، ويحمل فيها دلالات متعددة بتعدد الحقول التي يدخل فيها، فنجد في "معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب" يترجم الناقدان (Discourse) بالأطروحة والرسالة. (وهبه والمهندس، 1974م: 477)، وهذه ترجمة بعيدة عن الدلالة الإصطلاحية والنقدية الحديثة. وفي "معجم اللسانيات الحديث" يترجم الباحثون (Discourse) بالحديث الكلامي. (عياد، حسام الدين وجريس، 1997م: 40)، وهي ترجمة غير دقيقة أيضاً. أما في "معجم المصطلحات اللسانية" فيترجم المؤلف الكلمة (Discourse) بالخطاب. (الفاسي الفهري، 2009م: 82) وهذه ترجمة دقيقة. هناك سؤال: لماذا هذا الإضطراب في ترجمة المفردة الواحدة؟ يجب عن هذا السؤال الدكتور مصطفى غلفان وهو أستاذ بكلية الآداب عين الشق في الدار البيضاء حيث يقول: «إن اللسانيين العرب الذين لم يتمكنوا بعد من الاتفاق على تسمية واحدة لمجال تخصصهم لا يمكن أن ننتظر منهم الإتفاق على آلاف المصطلحات... باستثناء قلة قليلة- فإن المعاجم العربية المتخصصة في اللسانيات كتباً كانت أو ملحقات، ليست معاجم بالمعنى الدقيق، فهي لا تقدم تعاريف محددة كما هو الشأن في المعاجم العادية، أو لنقل إنها قوائم بالمصطلحات اللسانية فرنسية أو إنجليزية أو ألمانية مع مقابلاتها العربية.» (غلفان، لاتا:2)²¹

إذا تجاوزنا التحديد المعجمي إلى التحديد الاصطلاحي يتبين لنا أن مفهوم الخطاب غير واضح المعالم، لأن هذا المصطلح متداول وشائع في مجموعة من الحقول: النظرية النقدية وعلم النفس واللسانيات والفلسفة وعلم النفس الاجتماعي وعدد من الحقول الأخرى، وقد استعمل الخطاب بصورة واسعة في تحليل النصوص الأدبية والنصوص غير الأدبية، فإن مصطلح الخطاب في معناه العام المتداول في تحليل الخطاب "يحيل إلى نوع من التناول للغة أكثر مما يحيل على حقل بحثي محدد، فاللغة في الخطاب لا تعد بنية اعتبارية بل نشاطاً لأفراد مندرجين في سياقات معينة. (مانغونو، 38، 2008)، وفي تعريف آخر لمصطلح الخطاب نجد تعريف ميشال فوكو "إن الخطاب شبكة معقدة من النظم الاجتماعية والسياسية والثقافية التي تبرز فيها الكيفية التي ينتج الكلام كخطاب". (بوقرة، 2012، 18). كما يرى الفرنسي "أولفي روبرول" أن المقصود بالخطاب له عدة معان: المعنى الشائع: أن الخطاب مجموعة منسجمة من الجمل المنطوقة. المعنى اللساني المختزل: أن الخطاب عبارة عن متواليات من الجمل المشكلة لرسالة. المعنى اللساني الموسع: أن الخطاب عبارة عن مجموعة من الرسائل بين أطراف مختلفة تعرض طبائع لسانية مشتركة. (هبة عبد المعز أحمد).²² يطالعنا الدكتور جابر أحمد

عصفور²³ في ترجمته لكتاب "عصر البنيوية" لإديث كرزويل بتحديد مهم حيث يقول: « قد يوصف الخطاب بأنه مجموعة دالة من أشكال الأداء اللفظي تنتجها مجموعة من العلاقات أو يوصف بأنه مساق من العلاقات المتعينة التي تستخدم لتحقيق أغراض متعينة. » (عصفور، 1985م: 269-270) ولكن نظرة إلى نقد المشاركة تكشف عن أن مفهوم الخطاب متعدد المعاني، ففي كتاب "أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة" يترجم نايف خرما²⁴ الخطاب بالكلام المتصل، وأما ريمون طحان فإنه يترجمه بالكلام، ويقول في تحديده: «الكلام هو ما تتركب من مجموعة متناسقة من المفردات لها معنى مفيد والجملة هي الصورة اللفظية الصغرى أو الوحدة الكتابية الدنيا للقول أو الكلام الموضوع للفهم والإفهام.» (طحان، 1972م: 44)، يتضح من هذا التعريف الوقوف بالخطاب عند الجملة وهذا ما تجاوزه اللسانيات الحديثة إذ إن الخطاب لم يعد مجموعة من الكلمات تشكل جملة وإنما مجموعة من الجمل تتسق وتتسجم فيما بينها لتكون خطاباً. والجدير بالذكر أن بعض اللغويين العرب أغفلوا مصطلح الخطاب أيضاً وانتقلوا في دراسته من الجملة إلى النص دون المرور بالخطاب، مثل سعيد حسن البحيري في كتابه "علم لغة النص: المفاهيم والإتجاهات" والأهم من ذلك أنه في متن الكتاب يشير إلى الخطاب وتحليل الخطاب ولكن ضمن ما أسماه بـ (تجزئة النص) أو (التجزئة النحوية للنص)²⁵. وهذا الخلط بين مفهوم "الخطاب" من جانب وبين المفاهيم الأخرى من جانب آخر، يقع فيه عدد كثير من النقاد العرب. إنهم توصلوا إلى أن الخطاب وحدة تواصلية إبلاغية صادرة عن (مخاطب) موجّهة إلى (مخاطب) معين في سياق معين²⁶.

الأهداف من الأسلوبية وتحليل الخطاب: إن هدف التحليل -أسلوبياً كان أو خطابياً- هو الإكتشاف، فمهمة الناقد والمحلل هي دراسة النص بغية الكشف عن ماهية الإبداعات الأدبية ومعرفة الحقيقة وإبراز المعاني، لأن الآثار الأدبية «في جوهرها رمزية، لا بمعنى أنها تعتمد على الصورة أو الخيال أو الإشارة، وإنما بمعنى قابليتها لتعدد المعاني.» (فضل، 1985م: 299)، فإن معرفة هوية النص وقيمه الإبداعية من إحدى وظائف الأسلوبية وتحليل الخطاب، فمهمة الأسلوبية وتحليل الخطاب هي تأسيس نقدهما على هذه المعرفة. وبالتالي نشير إلى بعض الأهداف لهذين الإتجاهين: 1. من أهداف تحليل الخطاب هي معرفة مدى توفيق (المخاطب) في تكليف (المتلقي) بعمل ما، أو معرفة آلياته في سبيل توجيه (المخاطب) لمصلحته من جهة وإبعاده عن الضرر من جهة أخرى، وإدراك ميزان نجاح المخاطب في توجيه المخاطب لفعل مستقبلي معين. 2. ومن أهدافه الأخرى هي كشف الرابط بين الملافيظ التي يتكوّن منها الخطاب «وهذا الرابط متعدد الأنواع: موضوعي (thematique)،

مرجعي (referentielle)، قضوي (proportionnelle) وحجاجي argumentative... والمفهوم منه أن كل مجموعة من الملائمات يجمع بينها علاقة موضوعية مرجعية قضوية وحجاجية، إنما هي الخطاب» (الناجح، 2008م: 27) 3. ومن أهدافه الأخرى هي البحث عن الانسجام في الخطاب، باعتباره المقصد الأسنى من درس تحليل الخطاب.

وأما أهداف البحث الأسلوبي فتقوم على أساس نظرية علم اللغة التطبيقي، فعلى البحث الأسلوبي أن يعني في المقام الأول بتحديد موضوعه، بعبارة أخرى هل يريد أن «يعالج نصاً أدبياً مستقلاً، أو إنتاج مؤلف بأكمله، أو يقوم بإجراء مقارنات أسلوبية متعددة، أو يدرس تغير الأسلوب من حالة إلى أخرى.» (فضل، 1998م: 188) وبعد هذه المقدمة نأتي ببعض الأهداف في ميدان الأسلوبية: 1. فقد أثبت رولان بارت «أن هدف العمل الأدبي أو الأدب باعتباره عملاً هو أن يحول القارئ من مستهلك إلى منتج للنص.» (عناني، 1996م: 84) والأسلوبية تبين الآليات التي يستخدمها المؤلف في توطيد هذا التحول. 2. وهدفها الآخر هو رصد الخواص الجمالية التي تتصل بالتعبير ومحاولة الكشف عنها في التركيب اللغوي من حيث الربط بين الرمز والمدلول في صور الكلام. 3. ومن أهدافها الأخرى «هي دراسة الأساليب بوصفها اختيارات مختلفة بين وسائل التعبير التي تحتمها طبيعة النص ونوايا كاتبه.» (ناظم، 2002م: 25)، 4. «تصنيف الأساليب حسب نُظْم مختلفة بعضها أدبي وبعضها اجتماعي وبعضها آلي أو نفسي»²⁷ من أهداف الأسلوبية الأخرى، 5. من أهدافها خاصة في أسلوبية الكاتب، هي «الكشف عن شخصية المؤلف عبر تفحص أسلوبه أو بناء الأسلوبية في النص الأدبي.»²⁸

مشاكلات أو اختلافات بين الأسلوبية وتحليل الخطاب: إن «الأسلوب لدى غير المتخصصين في الدرس اللغوي وفي أيسر صور تعريفه، هو طريقة التعبير، وقد درج كثيرون على أن يقسموه قسمين: الأسلوب الأدبي والأسلوب العلمي»²⁹؛ فعالم الطبيعة أو الكيمياء أو الفلك يتصف أسلوبه بوصف الأسلوب العلمي، والأديب: القصاص أو الشاعر أو الخطيب يتخذ أسلوبه صفة الأسلوب الأدبي.» (جبر، 1998م: 5)، يمكن بواسطة الأسلوبية تقديم أساس علمي للناقد الأدبي أن يبني عليه درسه لنتاج أديب ما أو جماعة من الأدباء أو لنتاج عصر أدبي خاص، أو قد يرصد التطورات التاريخية لنوع أدبي في خلال عصور مختلفة. وقد يصلح أيضاً بواسطتها بيان ما لدى الأديب من عناصر إبداعية يتفرد هو باستعمالها أو الاتباع أحياناً والمحاكاة لها سبق إليه المبدعون في مجال الأدب. إن الأسلوبية تهيئ وسائل للدراسات اللغوية الحديثة فتساعد الدارس أن يقرب دراساته إلى الموضوعية.

أما بالنسبة لمعالج تحليل الخطاب فعلينا أن الخطاب «هو مصطلح لساني، يتميز عن نصّ وكلام وكتابة وغيرها بشكله لكل إنتاج ذهني، سواء كان نثرًا أو شعرًا، منطوقًا أو مكتوبًا، فريديًا أو جماعيًا، ذاتيًا أو مؤسسيًا، في حين أن المصطلحات الأخرى تقتصر على جانب واحد. وللخطاب منطق داخلي وارتباطات مؤسسية، فهو ليس ناتجًا بالضرورة عن ذات فردية يعبر عنها أو يحيل إليها، بل قد يكون خطاب مؤسسة أو فترة زمنية أو فرع معرفي ما.» {فوكو³⁰، لانا: 4} فتحليل هذا العنصر اللغوي مترتب على تزود المرء باليات وتأهبه بها، يبدو في أول الأمر أن الخطاب شيء بسيط والمحلل والناقد يكشف عن ارتباطه بالرغبة والسلطة، رغبة صاحبه في التدخل في الشؤون المختلفة والموضوعات المتعددة، وارتباطه بالسلطة الحاكمة والتأثير أو التأثير بينهما، وهو السلطة التي يحاول الاستيلاء عليها، ولكن ما فتئت هذه الرغبة تتغير بعد مواجهة المرء بالعوائق والصعوبات في ميدان التحليل. يمكن أن نذكر هنا سلاسل الخطابات التي ظهرت في القرنين الميلاديين الثامن عشر والتاسع عشر الخطابات المتعلقة بالثروة والفقر والإنتاج والتجارة التي صاغها الأثرياء والفقراء والعلماء والجهلة، البروتستانت والكاثوليك، والضباط والملكيون والتجار أو الأخلاقيون، وما عتّم أنها غيرت مسيرها وانتمت إلى كشف الحقيقة عن القوانين ذات نشأة تاريخية في سياق اجتماعي محدد. وما فتئت هذه السيطرة على النقد الأدبي تتغير، فظهرت أشكال جديدة في دائرة النقد كتحليل الخطاب، ضمن إرادة الحقيقة التي كانت في منتصف القرن السادس عشر والسابع عشر إرادة المعرفة فقط.

فتحليل الخطاب وموضعه أمام النصوص يمكن خلاصته بالتالي: 1. إن دراسة اهتمام المخاطب بالنظر إلى طبيعة المخاطب في سبيل اختيار لغة الخطاب المناسبة له، لا تتحقق إلا بعد تطبيق الأصول على النص المنطوق أو المكتوب. 2. إرساء هذه القاعدة في وجود الآخرين بأن وضوح اللغة في الخطاب «يرفع من مستوى التواصل مع الأفراد المخاطبين، ومن القدرة على التفاعل معهم والتأثير عليهم وإحداث التغيير المنشود في سلوكهم وحياتهم...» (الكيلاني، 2013)، وهذا التأصيل لا يتحقق إلا بمطابقة النصوص بعضها ببعض، 3. من مهمات تحليل الخطاب التي تتبين عند التطبيق هي الكشف عن المواد اللغوية غير المتجانسة في مفاهيمها ومناهجها بالخطاب، 4. إذا نظرنا إلى منهج تحليل الخطاب عند فوكو ندرك أن الهدف من تحليل الخطاب ليس تحليل نظام اللغة أو المضامين أو الدلالات، بل هدفه القصوى هو التركيز على المنطوقات كأحداث وعلى قوانين وجودها، وعلى ما يجعلها ممكنة أو غير ممكنة³¹، وهذا ضروري في ساحة التطبيق. 5. تحليل الخطاب يدرس تحقق الهدف التواصلية

بين طرفي الخطاب، أي المخاطب والمخاطب وبيّن أيضاً بعض الخصائص النفسية والاجتماعية والثقافية التي تتراوح بين المخاطبين. «فالتواصل لا يأخذ دوره الفعلي والجوهري، إلا إذا تعالق مع الفكر، ليشكلا هوية واضحة قادرة على تحقيق الانسجام بين الماضي والحاضر والمستقبل، ولعل الاقتصار على دور اللغة في التوصيل -بمعناه البسيط- أدى إلى خلل واضح في فهم مقصدية اللغة.»³²

إن الأسلوبية علم يدرس اللغة، فكان موضوعه «متعدد المستويات، مختلف المشارب والاهتمامات، متنوع الأهداف والاتجاهات.» (عباشي، 2002م: 27)، فمن الممكن بواسطة الأسلوبية تقديم أساس علمي للناقد الأدبي أن يبيّن عليه درسه لنتاج أديب ما أو جماعة من الأدباء أو لنتاج عصر أدبي خاص، أو لرصد التطورات التاريخية لنوع أدبي في خلال عصور مختلفة، وهذا ما نراه في تحليل الخطاب أيضا بشكل آخر إذ إن «الخطاب لا يتعامل إلا بالمظهر اللغوي أو بالوحدات المشكلة من اللغة في النص دون أن يتجاوزها إلى ما وراءها...» (صلاح فضل، 1996م: 294)، ولتحليل الخطاب وتحديد عناينا أن نحدد الاتجاه الذي ينتمي إليه الأديب والمجال الذي يشغل فيه مثلما ترصده الأسلوبية في دراستها لنتاج الأدباء وهذا ما نراه في كلام الدكتور سعيد يقطين حيث يقول: «لتحديد الخطاب وتحليله، التحديد والتحليل المقبولين، علينا أن نحدد الاتجاه الذي ننتمي إليه والمجال الذي نشغل فيه وفق أسئلة "إستمولوجية"³³ محددة نجيب من خلالها عن هذه الأسئلة: لماذا هذا التعريف؟ ما هي الأدوات والإجراءات المناسبة؟ إلى ماذا نبغي الوصول؟ وكيف؟» (يقطين، 1997م: 26)، إن مسألة التزامن في دراسة الأساليب مهمة، وهذا معنا أننا لن نحصر مباحثنا في الحاضر وحده، بل إنها لتمتد إلى أبعاد زمنية ذات ثقافة وفكر مختلفين عن ثقافتنا وفكرنا ومن الواجب أن نعرض لهذه الأساليب بعقلية معاصرة لزمناها. وهذه الميزة جارية في تحليل الخطاب أيضا. والمشكلة الأخرى، أن اللغة بوسعها أن تستعين بعدد محدود من الوسائل لتنتج عدداً لا يتناهي من الاستعمالات وهذه الاستعمالات هي التي تركز عليها الأسلوبية، وأما السؤال عن علة انتخاب الاستعمال الخاص من بين الاستعمالات فهو الذي يركز عليه تحليل الخطاب، فالاستعمال اللغوي مع كل ما يعطيه الهوية من مستوياته المتعددة ومظاهره المتنوعة يكون في بؤرة اهتمام الاتجاهين؛ تحليل الخطاب والأسلوبية.

عند مواجهة النقاد النصوص، لهم في هذا المجال آراء خلاصتها هي: أن أموراً خارج النص تساعد في فهمه، فالإحاطة بتلك الأمور الخارجية إحدى المجاري للنفوذ في النصوص، وهذا ما نراه في قضية تحليل الخطاب، عندما ندرس التأثير المتقابل بين الخطاب وبين الظروف

الاجتماعية، والنكتة الإجمالية في هذا الصدد هي: أن اللغة أبعاداً منها البعد الوظيفي الذي يقتصر على مجرد الإعلام أو الإبلاغ والذي نعتبره البعد الدلالي أيضاً، والبعد التعبيري الذي يرتبط بقدرة المتكلم في الإفصاح عن مشاعره، والبعد التأثيري الذي يركز على من يوجه إليه الكلام لدفعه إلى فعل معين، فنحن نجد الأسلوبية تتجه إلى البعد التعبيري والبعد الوصفي للغة أو بعبارة أخرى تُعني بالجانب العاطفي في الظاهرة اللغوية أو ما يسميه "ج.كوهين" بالانتهاك، خروجاً على النمط اللغوي العقلاني الخالص³⁴، وتحليل الخطاب يركز بالإجمال على البعد التأثري مع أنه لا يغفل عن الأبعاد الأخرى. والإشارة الأخيرة في هذا القسم هي أننا على موقف إيجابي أمام رأي الدكتور أحمد درويش حيث يقول: «لا سبيل لنا إلا تطوير فروع الدراسات اللغوية والأدبية»، فلقد تابع قوله بالإشارة إلى "أسلوبية عربية" كمثال لكلامه والتي من قدراتها تلبية حاجات الأجناس الأدبية ينتجها الأدب العربي المعاصر كالشعر الحديث والقصة القصيرة والرواية والمسرحية، ونشير نحن إلى "تحليل خطاب عربي" يحمل معه دلالات تتبع من الذات العربية ولا يُغرس فيها من الخارج.

النتائج :

حاولنا خلال البحث توضيح الفرق بين تحليل الخطاب والأسلوبية وذلك من خلال إحصاء التعريفات الخاصة بكل مصطلح في سبيل إزالة اللبس والمشاكلة والوصول إلى التفريق بين مختلف هذه التحديدات. بينما أنّ توظيف تحليل الخطاب والأسلوبية آية من آليات البحث الأدبي واستراتيجياته في مجال النقد الأدبي، بما أن الأول كقيل بدراسة المعنى المركزي للنص في حين أن الثاني يعني بالإنتاج الكلي للكلام، فإن تنوع المدارس الأسلوبية ومناهجها والخلط فيما بينها وبين منهج تحليل الخطاب دون تحديد دقيق لهذه الدراسات، يعتبر من أهم المشكلات أمام المهتمين بقضايا هذين المنهجين. فيمكن التمييز بين الوظائف التي تتكفلها الأسلوبية وبين الوظائف التي يتحملها تحليل الخطاب على النحو التالي:

الف) يفترض الخطاب وجود السامع الذي يتلقى الخطاب، بينما تتوجه الأسلوبية إلى دراسة العلاقة بين صيغ الخطاب والفكر في عمومها، ومن هنا فتحليل الخطاب دراسة تأثيرية في حين أن الأسلوبية دراسة توليدية وليست دراسة تقويمية. ب) دراسة الخطاب مرتبطة بلحظة إنتاجه وتعيين أثره في المخاطب وبيان مقدار كفايته في تغيير الوضع الموجود أو حفظه أو مدى تأثره من الظروف الاجتماعية بينما الأسلوبية فهي لا تخرج عن نطاق اللغة ولا تتعدى وقائعها في حد ذاتها. ج) إن تحليل الخطاب يعنى بمقاصد القول ويرتبط بالنقد الاجتماعي

والتاريخي والنفسي، بينما الأسلوبية تعتدّ بالأبنية اللغوية ووظائفها داخل النظام اللغوي وتتوقف على علم الدلالة ودراسة المعاني، أي أنها ترتبط بالنقد الأدبي. (د) إن الأسلوبية تبحث عن العلاقة بين مؤلف النص والنص نفسه؛ أي بين المؤلف الذي يختار الكلمات والتراكيب، والنص الذي يتشكّل من الاختيارات نفسها. بينما استندت نظرية تحليل الخطاب بوصفها مجموعة من الاستجابات التي تصدر عن المخاطب بفعل قوة الخطاب التي يسّطها النص.³⁵

هـ) لا تهتم الأسلوبية -خاصة اللغوية منها- بالتأويل، بل تعتنى بتقديم وصف لغوي دقيق لنص ما، في حين أن الوصف اللغوي في تحليل الخطاب ليس غايته القصوى بل هو داخل في الوصف الذي هو أحد سطوح التحليل. (و) الأسلوبية تتعامل مع النص بعد أن يولد، فوجودها تالي لوجود النص، وهي لا تنطلق في بحثها من قوانين مسبقة أو افتراضات جاهزة، أما تحليل الخطاب فهو موجود قبل وجود النص في صورة مسلمات واشتراطات وقوانين. (ز) يقوم تحليل الخطاب على ثنائية الأثر بمعنى فصل الشكل عن المضمون، أما الأسلوبية فتتنظر إلى النص على أنه كيان لغوي واحد بدوآله ومدلولاته، ولا مجال للفصل بينهما. (ح) تتضمن موضوعات محددة من التحقيق في تحليل الخطاب تحديد مستويات الاتصال التنظيمية، وتمييز المعنى من سياقها وإلقاء الضوء على عملية الإدراك، بينما- في رأينا- أنّ الأسلوبية هي عملية إنتاج هذا الإدراك وإعادة إنتاجه الذي يأتي من مسارات الخطاب. (و) "الخطاب كنص مفسر"³⁶ أي اتصال شفهي أو غير لفظي ينطوي على تبسيط المعنى، في حين أنّ الأسلوبية منهج ينطوي على تحليل طرق بيان المعنى. (ز) وأخيرا ينظر تحليل الخطاب إلى اللغة على أنها وسيلة وغاية، أما الأسلوبية فتتنظر إلى اللغة على أنها غاية في حد ذاتها.

المصادر والمراجع

الكتب

- بارت، رولان. (لاتا). النقدية والحقيقة، المترجم: إبراهيم الخطيب، مراجعة: محمد برادة. الشركة المغربية للنشر المتحدين.
- البحيري، سعيد حسن. (1997م). علم لغة النص: المفاهيم والاتجاهات. (ط 1). بيروت: مكتبة لبنان ناشرون والقاهرة والشركة المصرية العالمية للنشر، لونغمان.
- بلوحي، محمد. (2004م). آليات الخطاب النقدي العربي الحديث في مقارنة الشعر الجاهلي (بحث في تجليات القراءات السياقية). دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب.
- بوقرة، نعمان. (2009م). المصطلحات الأساسية في لسانيات النص والتحليل. الأردن: جدار الكتاب العالمي.
- _____ (ب2012م). لسانيات الخطاب: مباحث في التأسيس والإجراء. (ط1). بيروت: دار الكتب العلمية.
- جبر، محمد عبدالله. (1998م). الأسلوب والنحو. (ط 1). الاسكندرية: دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع.
- جيرو، بيير. (1994م). الأسلوبية. المترجم: منذر عياشي. (ط 2). مركز الإنماء الحضاري للترجمة والنشر.
- حنا، سامي عياد وآخرون. (1997م). معجم اللسانيات الحديث. (ط 1). لبنان: مكتبة لبنان ناشرون.
- درويش، أحمد. (1998م). دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث. (ط 1). القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع.
- الشهري، عبد الهادي بن ظافر. (2004م). استراتيجيات الخطاب، مقارنة لغوية تداولية. (ط1). دار الكتاب الجديد المتحدة.
- طحان، ريمون. (1972م). الألسنية العربية. (ط 1). بيروت: دار الكتاب اللبناني.
- العتوم، مهى محمود إبراهيم. (2004م). تحليل الخطاب في النقد العربي الحديث (دراسة مقارنة في النظرية والمنهج). منشورات الجامعة الأردنية.
- عصفور، جابر. (1997م). خطاب الخطاب. التحرير: إبراهيم السعافين. (ط 1). دار صادر.

- عنانى، محمد. (1996م). المصطلحات الأدبية الحديثة. (ط1). القاهرة: الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان.
- عياشى، منذر. (2002م). الأسلوبية وتحليل الخطاب. (ط1). مركز الإنماء الحضاري.
- فضل، صلاح. (1985م). نظرية البنائية في النقد العربي. (ط 3). بيروت: دار الآفاق الجديدة.
- _____ (ب1992م). بلاغة الخطاب وعلم النص. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
- _____ (ت1996م). بلاغة الخطاب وعلم النص. (ط 1). بيروت: مكتبة لبنان ناشرون والقاهرة: الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان.
- _____ (ث1998م). علم الأسلوب؛ مبادئه وإجراءاته. (ط1). القاهرة: دار الشروق.
- فوكو، ميشل. (لاتا). نظام الخطاب. المترجم: محمد سبيلا. القاهرة: دار التنوير.
- كريزويل، إديث. (1985م). عصر البنيوية. المترجم: جابر أحمد عصفور. (ط 1). بغداد: دار آفاق عربية للصحافة والنشر.
- الكوّاز، محمد كريم. (لاتا). علم الأسلوب؛ مفاهيم وتطبيقات. منشورات جامعة السابع من أبريل.
- مانغونو، دومنيك. (2008). المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب. المترجم: محمد يحياتي. (ط1). الجزائر: منشورات الاختلاف.
- المسدي، عبدالسلام. (لاتا). الأسلوبية والأسلوب. (ط 3). تونس: الدار العربية للكتاب.
- مولينية، جورج. (1999م). الأسلوبية. الترجمة والتقديم: بسام بركة. (ط 1). بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
- ناظم، حسن. (2002م). البني الأسلوبية؛ دراسة في أنشودة المطر للسياب. (ط 1). الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.
- وهبه، مجدي. (1974م). معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب. (ط 1). بيروت: مكتبة لبنان.
- يقطين، سعيد. (1997م). تحليل الخطاب الروائي. بيروت: المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.
- المجلات
الزواوي، بغورة. (2000م). «منهج في تحليل الخطاب». مجلة إبداع. القاهرة: ابريل / مايو.

الزعبي، زياد. (2013م)، «مصطلح الخطاب وتجلياته في الدراسات الحديثة». منشورات جامعة اليرموك.

عبابنة، يحيى. (2013م). «الأسس الفلسفية لتحليل الخطاب». منشورات جامعة مؤتة. غلفان، مصطفى. (لاتا). «المعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات، أي مصطلحات لأي لسانيات؟». الرباط: المكتب الدائم لتنسيق التعريب في العالم العربي. الكيلاني، عبدالرحمن إبراهيم. (2013م). «اللغة في الخطاب الدعوي». منشورات الجامعة الأردنية.

مصلوح، سعد. (1994م). «هل ثمة آفاق للأسلوبية المعاصرة؟». مجلة عالم الفكر. العددان الثالث والرابع. صص 7-9.

الناجح، عزالدين. (2008م). «مقاربة تداولية لحكمة عطائية». مجلة الخطاب. منشورات جامعة مولود معمري - تيزي وزو. العدد الثالث. صص 26-40.

يحياري، راوية. (2006م). «تطبيق المنهج على النص الشعري من خلال الخطاب النقدي العربي»، مجلة الخطاب. منشورات جامعة مولود معمري - تيزي وزو، العدد الأول، صص 147-161.

الهوامش والإحالات:

- ¹ - طالب في مرحلة الدكتوراه في فرع اللغة العربية بجامعة أصفهان haghghi_gh@yahoo.com
- ² - أستاذ في اللغة العربية وآدابها وعضو هيئة التدريس في جامعة أصفهان m-khaqani.ir
- ³ doctoral student of Arabic language and literature at University of Isfahan.
- ⁴ . . professor of Arabic language and literature at University of Isfahan
- ⁵ . عالم اللسانيات الإنجليزي جون فيرث John Firth الذي كان من أبرز علماء المنهج الوصفي السباقي، فكانت نظريته أول مشاركة لغوية في بريطانيا، في وقت كانت الدراسات اللغوية لا تعدو وضع المعاجم والدراسات الصوتية والهجية، أما فيرث فقد كان مهتماً باللغات الشرقية نظراً لاستقراره فترة من الزمن في الهند، فتأثر بهم وبلغتهم السانسكريتيه فوصفها وصفا صوتياً. (حلمي خليل، دراسات في اللسانيات التطبيقية، ص31)
- ² zellig Harris وهو لغوي أمريكي من أصل روسي تحصل على دكتوراه من جامعة بنسلفانيا عن بحث نحوي حول اللغة الفينيقية، ينتسب إليه مفهوم التحويل في التيار التوزيعي الذي أرسى دعائمه ليونارد بلومفيلد Leonard Bloomfield. من مؤلفاته: مناهج اللسانيات وتحليل الخطاب والهيكل الرياضية في اللغة. (بو قره، 2009، 271-272).
- ³ يعرفها ظافر الشهري فيقول: «فالأستراتيجية عملية تخطيط لتحقيق سياسة ما، والتحكم في الوضع بشكل كلي، وعرفت أيضاً بكونها طرق محددة لتناول مشكلة ما أو القيام بمهمة من المهمات، أو هي تدابير مرسومة من أجل ضبط معلومات محددة والتحكم بها» (الشهري، 2004، 53).
- ⁸ - انظر عرضاً لهذا الجانب في كتاب "تحليل الخطاب في النقد العربي الحديث" لـ"مهي محمود إبراهيم العتوم".
- ⁹ - مجلة دورية محكمة تصدر أربع مرات في السنة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت.
- ¹⁰ - يناير / مارس - أبريل / يونيو 1994م المجلد: الثاني والعشرون (22) العدد: (ثالث) و (الرابع).
- ¹¹ - دورية أكاديمية محكمة تعني بالدراسات والبحوث العلمية في اللغة والأدب من "منشورات مخبر تحليل الخطاب" جامعة مولود معمري-تيزي وزو.
- ¹² - ترجمة الفصل الأول من كتاب تحليل الخطاب، تأليف فرنسين مازيير Francine Mazière، المترجم: حمو الحاج ذهبية، مجلة الخطاب، العدد الثالث ماي 2008م، صص 384-395.
- ¹³ - نوفاليس (بالألمانية: Novalis)، واسمه الحقيقي (فريدريش فراهير فون هاردنبج). فيلسوف وشاعر وكاتب ألماني. ولد عام 1772 ومات في عام 1801.
- ¹⁴ - تشارلي بالي Charles Bally (1865 . 1947) لغوي سويسري ولد في جنيف، ودرس فقه اللغة اليونانية ثم السنسكريتية وتلمذ لأستاذه فرديناند دي سوسور (F.de Saussure) وكان واحداً من أبرز طلابه ولازمه طوال ثلاثين عاماً، ثم خلفه عام 1913م في تدريس النحو المقارن واللسانيات العامة في جامعة جنيف. وقد ركز بالي على الطابع العاطفي للغة، وأولى الجانب الوجداني والانفعالي للكلام وارتباطه بالقيمة والتواصل اهتماماً أكبر، وهذه هي فكرة الأسلوبية وأساسها عنده، ومهمتها تنحصر في دراسة العلاقات القائمة بين الأفكار وصيغ التعبير عنها. (وائل بركات، موسوعة المعرفة).
- ¹⁵ - ليو سبتزر (Leo Spitzer)، 1887-1960، نمساوي من علماء اللسانيات ونقاد الأدب.

- 16 - أستاذ للنقد الأدبي والأدب المقارن بكلية الآداب بجامعة عين شمس ورئيس لقسم اللغة العربية وهو الآن أستاذ متفرغ فيها. (ويكيبيديا، الموسوعة الحرة).
- 17 - أستاذ الأسلوبية في جامعة سوريون ورائد من رواد هذه الدراسات.
- 18 - وللدكتور سعد مصلوح في قضية موت الأسلوبية - حسب الظن الأوروبي - مداخلة، يناقشها هكذا: «ليس لنا - فيما نرى - أن نهتف مع الهاتقن في أوروبا بموت الأسلوبية - بما هي منهج نقدي - صارفين أنظارنا إلى ما تلاها على ساحة النقد من أبدال. ولقد علمنا تاريخ العقل البشري أن الأفكار لا تموت بالسكنة القلبية، وأنها إن ماتت في مكان أو زمان بأعينهما حَيَّت في مكان أو زمان آخرين على صورة أخرى...» (مصلوح، 1994م، 8).
- 19 - نذكر منها: مدرسة أسلوبية التعبير، وأسلوبية الفرد، أو الأسلوبية المثالية، والأسلوبية التكوينية، والوظيفية والبنوية
- 20 - لمثل هذا الاستنتاج، لقد ساعدنا كتاب (علم الأسلوب؛ مفاهيم وتطبيقات) للدكتور محمد كريم الكوّاز، ص 68.
- 21 - انظر مقالة (المعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات، أي مصطلحات لأي لسانيات؟) للدكتور مصطفى غلفان، مجلة اللسان العربي.
- 22 - فيما يلي بعض الكتب المشهورة حول تحليل الخطاب، بحيث إذا كان المخاطب يهتم بدراسة هذا الموضوع على نطاق أوسع، سيكون على دراية بعناوين هذه الكتب:
- (أ) How to Do Discourse Analysis كيف نفعل تحليل الخطاب من "جيمس بول جي".
- (ب) An Introduction to Discourse Analysis مقدمة لتحليل الخطاب من نفس المؤلف.
- (ج) Discourse Analysis تحليل الخطاب من "باربارا جونسون".
- (د) The Routledge Handbook of Discourse Analysis كتيب روتليج لتحليل الخطاب بقلم "جيمس بول جي" و "مايكل هاندفورد".
- (هـ) Critical Discourse Analysis تحليل الخطاب النقدي: دراسة نقدية للغة من "نورمان فيركلو".
- (و) Analysing Discourse: Textual Analysis for Social Research تحليل الخطاب: التحليل النصي للبحوث الاجتماعية لـ "نورمان فيركلو".
- (ز) Methods of Critical Discourse Analysis (Introducing Qualitative Methods series) طرق تحليل الخطاب النقدي (إدخال سلسلة الأساليب الكمية) بقلم "روث ودالك".
- 23 - كاتب ومفكر مصري ورئيس المجلس القومي للترجمة وكان أميناً عاماً للمجلس الأعلى للثقافة.
- 24 - ولد في صدف بفلسطين عام ١٩٢٥ حصل على البكالوريوس في الأدب الإنجليزي من لندن والماجستير في الآداب وطرق تدريس اللغة الإنجليزية من الجامعة الأمريكية في بيروت والدكتوراه في التربية (تطبيقات علم اللغة على تعلم اللغات الأجنبية) من جامعة لندن.
- 25 - انظر تفصيلاً لهذا الكلام في كتاب "علم لغة النص: المفاهيم والاتجاهات" لـ "سعيد حسن البحيري".
- 26 - انظر مقالة (النص العربي وتعدد القراءات) لـ (بشير إبرير) الكاتب والاساذ الجامعي من الجزائر على موقع www.mohamedrabeea.com
- 27 - انظر البنى الأسلوبية؛ دراسة في أنشودة المطر للسياب، تأليف حسن ناظم.
- 28 - راجع المصدر نفسه ص 37.

²⁹ - إن من أهل النقد من ينكر على الأسلوبية صفة العلم ويرى أن انكفاءها على الدرس اللساني والتحليل الإحصائي لا يمكن أن يعجل بدخولها دائرة العلوم. (من مقالة «هل ثمة آفاق للأسلوبية المعاصرة» بقلم الدكتور سعد مصلوح بالتصرف).

³⁰ - هو من أكبر منظري الخطاب شهرة وتأثيراً الذي خصص للخطاب كتابين من كتبه، وهما: أركولوجيا المعرفة 1969، ونظام الخطاب 1971، وقدم فيهما تصوره للخطاب، وهو تصور يفارق بصورة واضحة المفهوم عند سابقه، ومن خلال الاستعراض التاريخي لمفهوم الخطاب في الثقافة الغربية. (الزعيبي، 2013، 3)

³¹ - راجع مجلة (إبداع) المطبوعة بالقاهرة، أبريل 2000م، مقالة (منهج في تحليل الخطاب)، قد كتبها بغفورة.

³² - للتزود على المعلومات في هذا المجال اقرأ محاضرة الدكتور (رائد عكاشة) المعنونة بـ (اللغة في الخطاب

الثقافي) والتي ألقاها في المعهد العالمي للفكر الإسلامي بتاريخ 21 تشرين الثاني عام 2013م.

³³ - Epistemology أي نظرية المعرفة. انظر مقالة (ما هي نظرية المعرفة) في موقع "منتدى علماء الدين السابع للتعليم والتنمية البشرية وتطوير الذات لأكاديمية olm.org7aladdin. "، أبريل 2009.

³⁴ - ذلك أن المتكلم قد يضيف على أفكاره ثوباً عقلياً موضوعياً بحيث يتلاءم مع الواقع ولكنه في أغلب الأحيان يضيف إليها عناصر عاطفية قد تشف عن ذاتيته في صفائها الكامل، وهذا ما نسميه الخروج على النمط اللغوي العقلاني الخالص.

³⁵ - من مدخل كتاب "البنى الأسلوبية: دراسة في أنشودة المطر للسياب"، لـ "حسن ناظم"، ص 19، بالتصرف.

³⁶ - مقتطف من مقال بعنوان (الخطاب والممارسة: أدوات جديدة لتحليل الخطاب النقدي)، لـ "ثيو فان ليوين".

أسلوبية الانحراف وانفساح أفق الحرية الباطنية للنص.

د. بن الدين بخولة

جامعة الشلف

تاريخ النشر: 2019/03/31

تاريخ القبول: 2018/12/04

تاريخ الإرسال: 2018/09/04

المخلص: تعد ظاهرة الانحراف ركيزة أساسية من ركائز الدراسات الأسلوبية الحديثة، والكشف عن التحولات المختلفة للبنى التركيبية، في تواترها الدائم بين البنية السطحية الإبداعية، والبنية العميقة وللانحراف الأسلوبية أثر كبير في الدراسات النقدية إذ أن رصد ظواهر الانحراف الأسلوبية يساعد الناقد على قراءة النص قراءة استبطانية تعتمد على العلاقات بين بنى النص داخل العمل الأدبي وما لذلك من أبعاد دلالية وإيحائية كما أنه ينمي مهارات الأديب على إبداع أساليب جديدة، تستعمل فيها اللغة استعمالات غير مألوفة، إن نجاح الأديب في توليد أساليب جديدة يساعده على تشكيل لغته تشكيلاً يمكنه من التعبير عن إحساسه ورؤاه، بأساليب ذات أبعاد دلالية وإيحائية، خالية من الوضوح والابتذال

الكلمات المفتاحية: الانحراف؛ الانزياح، الأسلوبية، المتلقي؛ المبدع، اللغة، المنهج الأسلوبية

Stylistic deviation and the opening of the horizon of the inner freedom of text.

Abstract: The phenomenon of deviation is a fundamental pillar of modern stylistic studies, and the detection of the various transformations of synthetic structures, in their constant frequency between the creative surface structure, the deep structure and the astral deviation, have a great impact on the critical studies. The reader helps the reader to read the text in a causal reading based on the

relationships between the structures of text within the literary work and the dimensions of the symbolic and suggestive as it develops the author's skills to create new methods, using the language unusual uses of the help of the reader to read the text reading based on the interrelationships between the structures The text within the literary work and so on the dimensions of the author and suggestive as it develops the writer's skills to create new methods, in which the language uses unusual The writer's success in generating new methods helps him to form his language form that enables him to express his sense and vision, in methods of dimensions of the symbolic and suggestive, free of clarity and vulgarity

Keys words Deviation; displacement, stylistic, recipient; creator, language, methodological approach

مقدمة: يسعى النص الأدبي إلى تحقيق هويته من خلال الاختلاف عن الخطاب الشائع ، والتعالى على مرتكزات التعبير التقليدي مستنكفاً بذلك عن كل ما هو قارّ وثابت ، كأنه يؤسس ذاته وجماليته في تمرده على التأثير، فقد نظر العرب إلى الأسلوبية على أنها علم مستحدث ارتبطت نشأته الحقيقية بالدراسات اللسانية ، وهي الدراسات اللسانية التي ظهرت بوادرها في مطالع القرن التاسع عشر⁽¹⁾

إن المفهوم الذي استقر عليه مصطلح الأسلوبية وبهذه الصيغة اللفظية ، " لم يظهر إلا في بداية القرن العشرين ، مع ظهور الدراسات اللغوية الحديثة ، التي قررت أن تتخذ من الأسلوب علماً يدرس لذاته ، أو يوظف في خدمة التحليل الأدبي ، أو التحليل النفسي ، أو الاجتماعي ، تبعاً لاتجاه هذه المدرسة أو تلك"⁽²⁾

فقد سار النقاد العرب المحدثون في المنهج الأسلوبي ، وقد تعرفوا على الأسلوبية الغربية ، فكان توجههم نحو القديم محاولة لاستكشاف معاني الأسلوبية الحديثة في الطرح القديم ، حين يشيرون إلى صورة أسلوبية اصطلاحية في القديم ، فإنهم يقولون على سبيل المثال: "وهذه النظرية تجد ما يقابلها في أسس النظرية الأسلوبية الحديثة"⁽³⁾. ثم يأتي مفهوم

الأسلوبية عند الغرب ومعه صراع إشكالية التعريف؛ وذلك بسبب "مدى رحابة الميادين التي صارت هذه الكلمة تطلق عليها"⁽⁴⁾ فقيمة الانحراف في مقاربة الحدث الأسلوبي تتأتى من أنه واسطة بين اللغة والأسلوب؛ فلا سبيل لصياغة الأسلوب من اللغة إلا بالتسامح في القواعد التي تربط أنظمة اللغة ومكوناتها، تسامحا يتخذ شكل الخروج عن المألوف، أو النمط، بخرق قواعد النظام وانتهاك أعراف المواضعة، وغيرها من التجاوزات التي تضي على الأسلوب طابع التفرد ويكسبه تميزا خاصا كثيرا ما أوعزه الدارسون إلى عبقرية المبدع. لقد ازدادت ظاهرة الانزياح ترسخا بظهور الأسلوبية كعلم يحاول مقارنة ظاهرة الأسلوب مقارنة علمية وصفية تستند إلى منجزات الدرس اللساني الحديث. ولعل أولى مظاهر هذا الاحتفاء وأكثرها بروزا أن جعلت الأسلوبية، بمختلف اتجاهاتها، من مفهوم الانزياح عصب البحث الأسلوبي، واعتمدت عليه في تعريفها للأسلوب ووظيفته كلما دعت الضرورة إلى الحديث عن خصائص النص غير العادي لدرجة أن بعض الأسلوبيين ذهبوا إلى القوان بين الانزياح والأسلوب، حتى غدا الأسلوب عندهم هو الانزياح أصلا⁽⁵⁾ ويعلل أحد الباحثين لهذا الحضور المكثف للانزياح في ظاهرة الأسلوب بقوله: "ولئن استقام له (أي للانزياح) أن يكون عنصرا قارا في التفكير الأسلوبي، فلأنه يستمد دلالاته لا من الخطاب الأصغر، كالنص والرسالة، وإنما يستمد تصوره من علاقة هذا الخطاب الأصغر بالخطاب الأكبر وهو اللغة التي فيها يسبك⁽⁶⁾

علاقة الأسلوبية بعلم اللغة:

تعد الأسلوبية طريقة للكتابة لكاتب ما وللون معين او لفترة معينة موضوعاً لدراسات خاصة منذ زمن بعيد وتم تصنيفها ضمن اطار فن التعبير الادبي وكمعيار واداة لتقييم الاساليب الفردية للمؤلفين لذلك كان لها علاقات وثيقة مع البلاغة (التي كانت الأسلوبية تعد جزءاً منها) والادب والقواعد وعلم اللغة، وهي علم يدرس اللغة ضمن نظام الخطاب، ولكنها أيضا علم يدرس الخطاب الموزع على مبدأ هوية الأجناس، ولذا كان موضوع هذا العلم متعدد المستويات.

إن علاقة الأسلوبية بعلم اللغة هي علاقة منشأ ومنبت. ولا يعني هذا عدم استقلال علم الأسلوب، بل الأقرب أن يُعدّ علماً مساوقاً لعلم اللغة، يهتم بعناصرها، وإمكانياتها التعبيرية. وقد طرح بعضهم أن يكون لعلم الأسلوب أقسام علم اللغة نفسها، وقد

أدى الارتباط التاريخي، بين علم اللغة وعلم الأسلوب، ببعض المؤرخين إلى الوقوع في الخلط بينهما، حين عدوا كل دراسة تتناول المظاهر الأسلوبية اللغوية بأنها من الأسلوبية. إذ لا يعني هذا الالتقاء في التاريخ والأدوات، أن يكون هناك التقاء في مجالات العمل بحيث ينتفي معه التفريق بين العلمين. بل إن علم اللغة هو علمٌ له حدوده ومعالمه، كما أن لعلم الأسلوب حدوده ومعالمه، فلا بد من أن يحافظ كلا العلمين على ذلك التمايز.

الانزياح مفهوماً:

قبل تعريف مفهوم الانزياح أوما يسميه بعض المتخصصين بالعدول أو المجاوزة نشير إلى أن جون كوهن قد شيد صرحه النظري والمنهجي في تحليل "بنية اللغة الشعرية" على مجموعة من الثنائيات، رغبة منه في إضفاء طابع العلمية والموضوعية على عمله من جهة، وتجاوز الانطباعية والتأثرية التي سقطت فيها البلاغة القديمة من جهة أخرى. ولعل أهم ثنائية اعتمدها كوهن في تحليل الخطاب الشعري ثنائية: (معياري/انزياح) أو ما يعرف اختصاراً بنظرية الانزياح⁽⁷⁾. والمتتبع لمباحث الأسلوبية يرى أن الانحراف هو من أهم الظواهر التي يمتاز بها الأسلوب الشعري عن غيره، ذلك لأنه عنصر يميز اللغة الشعرية ويمنحها خصوصيتها، وتوجهها وألقها، ليجعلها لغة خاصة تختلف عن اللغة العادية، وذلك بما للانحراف من تأثير جمالي وبعد إيحائي، وذلك يتمثل في رصد انحراف الكلام عن نسقه المألوف، أو كما يقول الناقد جون كوهين هو الانتهاك الذي يحدث في الصياغة، والذي يمكن بواسطته التعرف على طبيعة الأسلوب، بل ربما كان هذا الانتهاك هو الأسلوب ذاته. وهذا مما يؤكد أن الانزياح في الشعر هو استعمال العبارات المألوفة بطريقة غير مألوفة كما يقول الشعراء الرمزيون. فظاهرة الانحراف تنزل من الحدث اللغوي، نظاماً وممارسة، منزلة المركز من الذات. ويتأكد حضورها ويزداد إحاحا على مستوى الممارسة، لما يتخذ المتكلم حريته مع اللغة، فيخرق نظامها، وينتهك قواعدها، ضمن أطر متعارف عليها داخل الجماعة اللغوية. ويتعمق هذا الخرق ويتوضح هذا الانتهاك كلما سعى المتكلم إلى الارتقاء بكلامه درجات الإبداع؛ فحين يلامس الكلام قيم الشاعرية يتبدى الانزياح ويسفر عن مكنوناته وطاقاته في تفجير اللغة وإعادة تشكيلها وفق قواعد تخرق المعيار دون أن تلغيه، ثم تعود فتشكل لنفسها معياراً يتعالى على اللغة دون أن يحدث القطيعة معها.

إن الانزياح يمر بمرحلتين كي يحقق تحرره، الأولى تحرر من القيود المفروضة على اللغة كيفما كانت ثم مرحلة خلخلة المعاني "إن الشاعر حين يخرق تلك القواعد التي فرضت عليه، فإنه يكون على وعي بذلك، إنه لا يكتب أي شيء، إنه خبير و مبدع للغة، يعيد إنتاجها كما يعيد بناء القواعد، لأن تلك الانزياحات إذا ما تأصلت تصير قواعد"⁽⁸⁾

إن مفهوم الانزياح عند كوهن لا يختلف عن التعريف الذي يعطيه شارل برونو للواقعة الأسلوبية فالأسلوب عنده " هو كل ما هو ليس شائعا ولا عاديا ولا مطابقا للمعيار العام"⁽⁹⁾ ومن هنا يمكن القول إن الأسلوب انزياح، وحينئذ لا نحدد ما يوجد فيه، ولكن نحدد ما لا يوجد فيه، أي أن الأسلوب هو ما ليس شائعا ولا مألوفاً ولا مصوغاً في قوالب مستهلكة. إن الرسالة لا تعد شعيرية إلا إذا انزاحت عن سنن اللغة أو بتعبير بارت إن الأسلوب يحدد بالقياس إلى درجة الصفر في الكتابة، ذلك أن كوهن لا يؤسس تعريفه للشعر على أساس معايير كمية "فالشعر تقيض النثر"⁽¹⁰⁾

يعد هذا المصطلح إشكالياً، من حيث إطلاق المسميات عليه. فمنهم من يسميه الابتعاد، ومنهم من يسميه النشاز، وكذلك الانحراف. "⁽¹¹⁾ ، ومن ناحية المعنى، فإنه، "يكاد الإجماع ينعقد على أن الانزياح: خروج عن المؤلف أو ما يقتضيه الظاهر، وأهو خروج عن المعيار؛ لغرض قصد إليه المتكلم، أو جاء عفو الخاطر، لكنه يخدم النص بصورة أوبأخرى، وبدرجات متفاوتة"⁽¹²⁾ ويمكن القول باختصار: إن الانحراف هو مقابل المجاز في البلاغة.

إن أساس هذا الاتجاه هو علم اللغة. وقد تلتقي عدة اتجاهات في هذا الأساس، وتختلف في السبيل " وهذه النظرة تعد بمثابة رد فعل جاد من المناهج اللغوية على تيارات، أو اتجاهات انطباعية سادت ساحة النقد الأدبي، أو كادت تسوده "

إن ظاهرة الانحراف الأسلوبي تدل على أن هناك أصلاً تم الانحراف عنه، فما المقياس الذي على ضوءه يعد الأسلوب منحرفاً وتعرف درجة انحرافه؟ إن المستوى العادي للغة الذي تستعمل فيه اللغة وفق النمط المثالي المؤلف المتواضع عليه و تستعمل فيه الكلمات في معناها الأصلي هو الأساس الذي يقاس عليه الانحراف الأسلوبي وتعرف درجة انحرافه، والقاعدة التي يقاس عليها الانحراف يطلق عليها " درجة الصفر " " degre zero " ولعل أوضح تحديد لها ما ذهب إليه أنصار جماعة البلاغية، الذين يرون أن درجة الصفر

تتمثل في الخطاب المحايد، حيث تسمى الأشياء بشكل مباشر فيقال عن القط إنه قط، ويسميتها رولان بارت "Roland barthes" لدرجة الصفر للكتابة⁽¹³⁾ وهي صفة تطلق على الخطاب الذي تدل فيه كل كلمة على ما وضعت له في أصل اللغة، ولا يحتاج السامع في فهمها إلى تأويل، ويظهر ذلك جلياً في مستويات اللغة العادية، وبهذا تكون الدرجة الصفر إشارة إلى المرحلة التي كان عليها الكلام قبل دخوله في صياغة فنية تنحرف به عن أصله، على أن الاستناد إلى مستويات اللغة العادية في قياس الانحراف ليس على إطلاقه بل ينبغي الاستناد إلى مستويات اللغة المعاصرة للأثار الأدبية المدروسة، وليس إلى مستويات من عصور بعيدة⁽¹⁴⁾، فالمرجعية اللغوية، المتمثلة في المعيار اللغوي، أو في الكلام العادي الواقع في الدرجة الصفر، ولا المرجعية النصية، المتمثلة في السياق أو في اللغة المعيارية المرافقة للغة الشعرية، بقادرتين على تحديد المعيار الذي يقاس في ضوءه الأسلوب تحديداً كافياً شافياً. فقد تستميك الواحدة منهما، فلا تكاد تطمئن إليها حتى تظهر محدوديتها الكامنة في صعوبة تطبيقها وتحديد مفهوم قار للأسلوب في ضوءها. ولأجل ذلك قد يصح القول بأن المعيار في عالم الأسلوب مفهوم فرار، بمعنى أننا لا نكاد نمسك به حتى يفلت منا، تماماً كما هو مفهوم الأسلوب على حد تعريف كوهن السالف الذكر، مما حمل بعض الدارسين، وهو "غراي" B. Gray، إلى إنكار شيء يُسمى الأسلوب⁽¹⁵⁾ وبعيدا عن هذا التطرف، لابد من الاعتراف بالأسلوب بصفته حقيقة لا سبيل إلى إنكارها، وبأن المعيار الذي تُقاس في ضوءه الوقائع الأسلوبية مطلب لا مندوحة عنه، غير أن تحديده بكيفية علمية دقيقة تصمد للاختبار يبقى الهدف الأسمى لكل من جعل همّه التّفاذ إلى حقيقة الأسلوب واستنطاق كوامنه.

وليس لكل انحراف أسلوبى أثر جمالي وقيمة فنية، لأن بعض الانحرافات تعدّ من المستوى العادي للغة و هي الانحرافات المطردة التي تحكمها قاعدة نحوية أو تصريفية، كالانحراف عن أصل الكلمة في الإعلال و الإبدال، أو الانحراف عن أصل وضع الجملة، وما دامت القاعدة تحكم هذه الانحرافات فهي انحرافات مطردة، وكذلك بعض المجازات إذا كثر استعمالها فقدت قيمتها الأسلوبية، يقول يحيى العلوي⁽¹⁶⁾: (إن المجاز إذا كثر استعماله صار حقيقة عرفية، ومثاله قولنا الغائط، فإنه يكون مجازاً في قضاء الحاجة، وحقيقته المكان المطمئن من الأرض، ثم تعورف هذا المجاز وكثر حتى صار حقيقة سابقة إلى الفهم).

إن تعيين الانحرافات أو مراقبتها تصبح من أهم عناصر الدراسة الأسلوبية" (17) ويمكن إيجاز الجدوى من دراسة الانحراف على النحو الآتي (18):

1. يمكن عن طريقها استخدام الظواهر الفنية للأداء التركيبي، والوصول إلى نتائج محددة من خلال رصد كيفية الأداء ونظام التركيب اللغوي للجمل.
2. قد يتحول الانحراف مع مرور الزمن إلى ما يسمى بـ "الانحراف المطلق"، أي: قد يصبح ما هو مجازي حقيقياً، كما يصبح ما هو حقيقي مجازياً. وهذه صورة لافتة للنظر، وقد غلّلت بكثرة الاستهمال، الذي يجعل من الانحراف حقيقة عرفية.
3. رصد ظواهر الانحراف في النص يمكن أن تعين على قراءته قراءة استبطانية تتعد عن القراءة السطحية والهامشية.
4. تأتي أهمية دراسة الانحراف أيضاً من أهميته ذاته، على صعيد المبدع والنص والمتلقي (19)

يجسد الانحراف قدرة المبدع على استخدام اللغة وتفجير طاقاتها وتوسيع دلالاتها، وتوليد أساليب وتراكيب جديدة لم تكن دارجة أو شائعة في الاستعمال. كما يقدم الانحراف للنص أبعاداً دلالية وإيحائية، تجعل من لغته موجهاً ومثيراً و سلطاناً مؤثراً في المتلقي. كما تظهر أهميته في تلك التعبيرات الجديدة، والعلاقات اللغوية التي تخالف ما تربي عليه الذوق، أو ما تأسس في معرفة الإنسان الأولية.

يخضع بسبب الانحراف إلى سلطان الدهشة والمفاجأة والغرابة، التي تعرض فيها الصور والحقائق. ويمكن القول إن التأثير الذي يتعرض له المتلقي يأتي من الجديد الذي تعكسه ظاهرة الانحراف الذي يساعد على ترسيخ الروح الشعرية في النصوص، وهي بدورها تثير من خلال دلالاتها الكامنة والمشحونة أثراً كبيراً في نفس المتلقي.

شعرية الانزياح وبنية النص:

ويمكن القول، إن دراسة الانحراف تعكس سعة الأفق التي يتمتع بها الدارس وتؤثر على مداركه إيجابياً. ويظهر من خلالها صورة إبداعية تضاف إلى إبداع صاحب النص. بل ربما

يقدم النص بصورة جديدة لم يكن مبدعه يفكر في ذلك الأمر حين كتبه أو نظمه. وربما كانت فكرتي هذه متأثرةً بالتطور الذي شهدته الساحة النقدية وظهور المناهج النقدية الحديثة التي تؤمن بالبنية المفتوحة للنص. وهذا مبحث دراسي مستقل بحد ذاته يكفيني في هذا المقام الإشارة إليه. بضمياً الانزياح يضيفي دوراً جمالياً كبيراً يسهم في لفت انتباه المتلقي، ومن ثمة التأثير فيه وتوصيل الرسالة التي يريدتها الخطاب، فالتفاعل ضروري وهام بين العناصر المنزاحة والعاوية لأن هذه العناصر دون تفاعلها لا أهمية لها بل قد تكون عوامل معيقة لشعرية الخطاب. صحيح أن الجزء مهم لكن هذا الجزء يستمد أهميته من تفاعله مع الأجزاء الأخرى في كون عام اسمه الخطاب الشعري.

تتجلى ظاهرة الانحراف في محور الاختيار بشكل لافت للنظر حين يختار المتنبي لفظة من مجموع الألفاظ المستقرة في رصيده المعجمي التي تقوم بينها علاقات استبدالية بحيث يمكن الاستغناء بإحداها عن الأخرى، وفي هذه الحالة نجد المتنبي ينأى عن الألفاظ المستعملة في الوسط الأدبي ويختار الألفاظ الغريبة أو النادرة أو الشاذة و يقحمها في نصه الشعري عن قصد و تنتشر هذه الألفاظ في شعره بشكل يختلف إلى حد كبير عن الأدباء المعاصرين له ، يقول في مطلع إحدى قصائده⁽²⁰⁾

الأكلُ مَاشِيَةَ الخَيْزَلِي
فَدَى كُلِّ مَا شَبَّهَ الهَيْدَبِي
وَكُلُّ نَجَاةٍ بَجَاوِيَّةٍ
خَنُوفٍ وَمَا بِي حُسْنُ المِشَى
وَلَكِنَّهُنَّ جِبَالُ الحَيَاةِ
وَكَيْدُ العَدَاةِ وَمَيْطُ الأَدَى

لقد صدم الشاعر المتلقي باختيار كلمتين غريبتين في البيت الأول هما الخيزلي والهيدي، وقد أدخلهما في شعره عن قصد، وتزداد صدمة المتلقي بسبب انحراف الصورة التي جسدها هاتين اللفظتين، وذلك بمخالفته عادات العرب، بجعل كل امرأة مسترخية تمشي الخيزلي تفتدي كل ناقة مسرعة تمشي الهيدي، حيث عكس ما ألفه المتلقي فحقق الشاعر ما يريد من إثارة اهتمام المتلقي من أول بيت في القصيدة، وقال في مطلع قصيدته التي مدح بها عبد الواحد بن العباس بن أبي الأصعب الكاتب⁽²¹⁾

أَرْكَائِبِ الْأَحْبَابِ إِنَّ الْأَدْمَعَا تَطْسُ الْخُدُودَ كَمَا تَطْسُنُ الْيَرْمَعَا

فَاعْرِفَنَّ مَنْ حَمَلَتْ عَلَيْكَ النَّوَى وَأَمْشِيَنَّ هَوْنًا فِي الْأَرَمَّةِ خُصْعًا

لقد اختار كلمة " تطس " من بين عدة بدائل متاحة و كان بإمكانه أن يختار كلمة " تدق " لكنه اختار كلمة تطس لأنها هي التي تعبر عما في نفسه ، وكذلك اختار كلمة اليرمع ، وكان بإمكانه أن يختار كلمة الحجارة ، وربما يكون للقافية دور في اختيار اليرمع .

ولعلم النفس اللغوي دور بارز في كشف الانحرافات الأسلوبية و قد عنى بعلم النفس اللغوي عدد من الباحثين يأتي في مقدمتهم الناقد الأسنبي⁽²²⁾ توماس ألبرت سابوك (T.A Sebeok) الذي درس كيف تطفو مقاصد المتكلم ونواياه على سطح الخطاب في شكل إشارات ألسنية تنصهر في اللغة التي يتواضع على أنماطها مجموعة بشرية معينة ، كما درس سبل تمكين المتلقي لذلك الخطاب من تأويل تلك الإشارات .

وقد طبق الدكتور عبد السلام المسدي ذلك في دراسته⁽²³⁾ لمفاعلات الأبنية اللغوية في شعر المتنبي وانتهى الدكتور المسدي في بيان الحقيقة النفسية للمتنبي من خلال تراكيبه إلى أن شخصية المتنبي في شعره هي⁽²⁴⁾ (شخصية صراعية متمزقة ، يتجادبها قطبان متباينان: سلباً وإيجاباً ويتمثل هذا في روابط حياته الخارجية : المتنبي / سيف الدولة ، المتنبي / كافور و في الصراعات الذاتية الانطوائية التفاعلية مع الصراع الخارجي مما ولد ثنائياً تقابلياً أنطق الشاعر بصريح التناقضات و مرير الاعترافات ، كل ذلك من موقع المتأزم بين مرمى الطموح ، والسبيل إليه) ولعل أغلب ما ذكره الدكتور المسدي ينطبق على شعر المتنبي بشكل واضح بعد مغادرة سيف الدولة حيث الصراعات التي ظهرت آثارها على سطح خطابه الشعري .، فالمتحكم تشكيل الانزياح عوامل داخلية تنبع من الأثر الفني ذاته وتعود في أبسط صورها إلى التضاد الذي ينشأ عن تقاطع اللغة المعيارية مع اللغة الشعرية في النص ، مما يؤدي إلى بروز اللغة الشعرية في شكل نتوءات على سطح اللغة المعيارية. ولا تختص بالبروز إلا الوحدات الحيوية في اللغة الشعرية بكاملها، لأن بعضاً من هذه اللغة أصبح يشكل ، بحكم الابتذال ، آلية يسميها موكاروفسكي "آليات القانون الشعري" ، أو "القانون الجمالي التقليدي" . و لكي تتضح حركية هذه النظرية أكثر لابد من التأكيد على أن مفهوم الخلفية الذي تنعكس عليه عناصر الأمامية غير قار ، بمعنى أن الخلفية لا تتشكل من

اللغة المعيارية بمفهومها المتداول فحسب، بل ومن القانون الجمالي التقليدي المشار إليه سلفاً أيضاً.

خاتمة:

إن التصرف في الأسلوب عملية واعية تقوم على اختيار أدوات اللغة وتوزيعها واستغلال طاقاتها عن وعي وإدراك ، فهل في هذا نقض لمبدأ العبقرية و الإلهام⁽²⁵⁾ التولد الذاتي " في النتاج الإبداعي ؟ وهو المبدأ الذي يرى أن هناك قوة تلهم الشاعر ، وتمكنه من الإبداع كما يمكن المغنطيس قطع الحديد المتصلة به من قدرة الجذب ، وتجعل الشاعر الملهم لا يملك وعيه وهو يبدع قصائده ، ويبدو أن هناك خيطاً رفيعاً ينظم العلاقة بين الوعي واللاوعي . كما ترتبط الانزياح بالدراسة الأسلوبية؛ حيث عرّف بعضهم - ومنهم فاليري - الأسلوب بأنه انحراف عن قاعدة، وانزياح عن قانون أو عرف لغوي، وخروج عن المألوف، وخرق للسائد، إلا أن الذي يجب الاتفاق عليه هو أن الانزياح يتطلب أن تكون له دلالة، وأن يحقق إضافة جمالية للغة، وإلا فهو مجرد شذوذ لغوي لا يفيد ولا يؤخر، ويعتبر جون كوهين من أشهر المشتغلين على مفهوم الانزياح.

الهوامش والاحالات

- (1) شكري عباد ، اللغة والابداع ، مبادئ علم الاسلوب العربي ، 1988 ص 3
- (2) يوسف أبو العدوس الأسلوبية الرؤية والتطبيق ص 39 الاسلوب والاسلوبية مدخل في المصطلح وحقول البحث ومناهجه ص 61
- (3) ابراهيم عبد الحواد الاتجاهات الاسلوبية في النقد في النقد العربي الحديث: ص 64.
- (4) يوسف أبو العدوس الأسلوبية الرؤية والتطبيق ص 38
- (5) المسدي ، عبد السلام (1982)، الأسلوبية والأسلوب ، تونس، دار العربية للكتاب الطبعة الأولى ، ص. 97 و98.
- (6) المرجع نفسه ، ص. 94.
- (7) Ecart Viol ، الخرق لم يلتزم كوهن باستعمال مصطلح واحد في أعماله فهو يستعمل الانزياح ، الانحراف Déviation
- (8) خالد سليكي ، من النقد المعيارى إلى التحليل الألسني ، ص 414
- (9) بنية اللغة الشعرية ، ص 15.
- (10) J.M. Klinkenberg, Rhétorique, in Introduction aux études littéraires, p40
- (11) مزسى سامح رباعية الاسلوبية نفاهيمها وتجلياتها ، دار الكندي ، اربد ، 2003 ، نص 46

46- عدله عبد السلام المسدي احد عشر مسني هب الانزياح ، ، والتجاوز ، الانحراف ، الاختلال ، ي الاطاحة

(12) يوسف ابة العدوس الرؤية والتطبيق ص 180

(13) ينظر : بارت ، رولان ؛ الدرجة الصفر للكتابة :

Roland Barthes , Ledegre Zero de Lecritur – 1953.Paris,le Seuil

ترجمة محمد براءة ، بيروت منشورات دار الطليعة للطباعة و النشر ، (د . ت) ص 86 وانظر : الأهر الزناد :

دروس في البلاغة العربية نحو رؤية جديدة ، الدار البيضاء – بيروت ط 1 ، 1992 المركز الثقافي العربي للنشر

والتوزيع ط 1 ، 1992م ، ص 21

(14) عبد الحكيم راضي : نظرية اللغة في النقد العربي ، القاهرة منشورات مكتبة الخانجي (د . ت) ص 520 .

(15) موكاروفسكي ، يان (1984) ، " اللغة المعيارية و اللغة الشعرية " ، ترجمة: الرّوبي ، ألفت ، مجلة فصول ، المجلد

5 ، عدد1 ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، أكتوبر- ديسمبر ، ص 43

(16) يحيي بن حمزة العلوي الطراز ، صححه سيد بن علي المرصفي ، مصر ، مطبعة المقطم ، ج 1 ، 1941 ، ص ص

100 – 99 .

(16) موسى سامح ربايعي الاسلوبية ، مفاهيمها وتجلياتها ، ص 56

(17) المصدر نفسه ص 59/56

(18) نفسه ص 59

(19) ديوان أبي الطيب المتنبي – ديوان أبي الطيب المتنبي ، بشرح أبي البقاء العكبري ، المسمي بالبيان في شرح

الديوان ، لبنان بيروت دار المعرفة – ج 1 ، ص ص 36 – 38 .

(21) المصدر السابق ، ج 2 ، ، ص 259 .

(22) لمزيد من التفصيل انظر كتابه (الأسلوب في اللغة) :

Styleinlanguage,cambridge,mass.M.T.T.press,196

(23) انظر . د. عبد السلام المسدي ، مفاعلات الأبنية اللغوية و المقومات الشخصية في شعر المتنبي ، بيروت

مجلة الآداب ، نوفمبر 1977م ، ص ص 46- 53 .

(24) . عبد السلام المسدي : مفاعلات الأبنية اللغوية ص 41 .

(25) لمزيد من التفصيل انظر : رينيه ويلك – أوستن وارين : نظرية الأدب ، ترجمة محي الدين صبحي ، مراجعة

د . حسام الخطيب ، منشورات المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط 1 ، 1987م ، ص ص 88- 89 وكذلك

جان ماري جويو : مسائل فلسفة ، الفن المعاصر ، ترجمة وتقديم د. سامي الدروبي دمشق ، ط 2 ، 1965م ،

ص ص 133 – 138 ، وكذلك كتاب د. عبد السلام المسدي ، لأسلوبية والأسلوب – مصدر سبق ذكره – ص 75

قائمة المصادر والمراجع:

1 - أنيس : د . إبراهيم ، من أسرار العربية ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط 7 ، 1994م ،

2- بارت : رولان ، الدرجة الصفر للكتابة ، ترجمة محمد براءة ، بيروت منشورات دار الطليعة للطباعة

و النشر ، (د . ت) .

3- جويو : جان ماري ، مسائل فلسفه الفن المعاصر ، ترجمة شامي لدوري ، دمشق ط 2 1965م .

4- خليل ، إبراهيم محمود. النقد الأدبي الحديث: من المحاكاة إلى التفكيك ، دار المسيرة ، عمان -

الأردن ، ط 2 ، 2007م .

اللسانيات البنوية وأثرها في الدرس اللساني بالمغرب

مصطفى العادل

جامعة محمد الأول - وجدة

Prolingui123@gmail.com

تاريخ النشر: 2019/03/31

تاريخ القبول: 2018/11/09

تاريخ الإرسال: 2018/09/02

الملخص: عرفت اللسانيات الحديثة نقلة كبيرة بفعل ظهور (محاضرات في اللسانيات العامة) للساني السويسري (فيرديناند دو سوسير)؛ الذي أقام نظريته الجديدة على أسس علمية، وقدم بفعل خبرته العلمية العالية تحليلات دقيقة لكثير من قضايا اللغة، وأعاد بناء النظرية اللغوية على أسس علمية، منطلقاً من تحديد موضوع علم اللسانيات في دراسة اللغة في ذاتها ومن أجل ذاتها. وقد انتقلت اللسانيات البنوية إلى اللسانيات في الثقافة العربية، بفضل الانفتاح الكبير للسانيين العرب على اللسانيات خارج الأوطان العربية.

ولقد كان للمغرب حظ وافر في تقريب لسانيات سوسير إلى القارئ العربي، وذلك بفضل تنوع الدارسين اللسانيين وتأليفهم القيمة في تناول كثير من قضايا اللسانيات البنوية، ولعل من أهم أهداف هذه الورقة، تسليط الضوء على هذا الاتجاه من اللسانيات، إضافة إلى إثارة أبرز معالم اللسانيات البنوية بالمغرب، ولم يكتمل الهدف هنا، بل حاولت الورقة إثارة بعض الإشكالات المنهجية والنظرية والتصورية التي رافقت هذا الانفتاح اللساني.

الكلمات المفتاحية: اللسانيات؛ البنوية، المغرب؛ النقد اللساني؛ اللسانيات

الوصفية؛

Structural linguistics and its impact on the linguistic lesson in Morocco

Abstract: Modern linguistics has undergone a significant shift due to the emergence of lectures on general linguistics by the Swiss linguist Ferdinand de Saussure, who established his new theory on scientific grounds

and, with his high scientific experience, provided accurate analyzes of many language issues, , Starting from the definition of the subject of linguistics in the study of language for its own and the same. Structural linguistics has moved to linguistics in Arab culture, thanks to the great openness of the Arab linguists to linguistics outside Arab countries. Thanks to the diversity of linguists and their valuable equivalents in dealing with many of the issues of structural linguistics, one of the main objectives of this paper is to shed light on this trend of linguistics, in addition to raising the most prominent features of structural linguistics In Morocco, the goal was not completed here. Rather, the paper attempted to raise some of the methodological, theoretical and conceptual problems that accompanied this linguistic openness.

Keywords: linguistics; structuralism; Morocco; glossal criticism; descriptive linguistics;

مقدمة: عرفت الدراسات اللسانية تطورا ملحوظا في أواخر القرن التاسع عشر، حيث تم تجاوز المناهج المعتمدة في الدراسة اللغوية إلى اعتماد المنهج الوصفي البنيوي الذي يرجع معظم الباحثين بداية ظهوره إلى عهد (دو سوسير)، قبل انتشاره في كل بقاع العالم وتأثيره على مختلف العلوم والتخصصات. ولأن العالم العربي قد انفتح بشكل كبير على هذه المناهج في أواخر القرن الماضي وبداية هذا القرن، فإنه لم يكن ليففل عن اعتماد هذا المنهج في التنظير للدرس اللساني العربي الحديث، والسعي من خلاله إلى معالجة إشكالات اللغة العربية. ولما كانت سمة التطور ملازمة للنظريات اللسانية، فإنه كان لا بد من نقد المنهج البنيوي اللساني والاتجاه البنيوي في دراسة اللغة عامة، أو إظهار عيوب بعض مبادئه وأركانه لتبرير ضرورة التبشير بنظرية أخرى تقوم على أنقاض التي سبقتها.

لقد قادتنا إشكالية كبيرة ونحن نحاول الغوص في اللسانيات البنيوية، مفادها: هل استطاع اتجاه اللسانيات البنيوية بالمغرب أن يجيب على إشكالات اللغة العربية؟ وهل

استطاع النجاة مما وقعت فيه مختلف النماذج اللسانية العربية من إشكالات مرتبطة بالترجمة والتلقي وفوضى المصطلح وإشكالية التعامل مع التراث اللغوي والنحوي العربيين، وغيرها من الإشكالات المنهجية والنظرية والتصورية؟

وللإجابة على هذه الأسئلة اعتمدنا في هذه الورقة على المنهج الوصفي التحليلي في تناول قضايا اللسانيات البنيوية بدءاً من (سوسير) نفسه، ثم الاتجاهات اللسانية البنيوية الأخرى، مع إثارة أهم مناهجها ونظرياتها، كما استندنا كذلك إلى المنهج النقدي في تتبع إشكالية المصطلح، أو ما صار يطلق عليه بـ (فوضى المصطلح اللساني)، إضافة إلى المنهج التاريخي، حيث حاولنا قدر الإمكان التأريخ لما تمت معالجته سواء من حيث النظريات اللسانية أو من حيث الأعلام والتأليف.

ويفترض من هذه الورقة الوصول إلى نتائج مهمة لعل أبرزها:

- تميّز اللسانيات البنيوية بالمغرب من خلال محاولتها تقريب الدرس اللساني للقارئ العربي.

- اقتصار رواد اللسانيات البنيوية على التعريف باللسانيات، وهو ما يطلق عليه باللسانيات التمهيدية أو اللسانيات التعليمية دون العمل على تناول قضايا اللغة العربية من منظور بنيوي.

- سقوط اللسانيات البنيوية بالمغرب في بعض الإشكالات التصورية والمنهجية والنظرية.

وانطلاقاً مما سبق سوف تحاول هذه الورقة التطرق إلى اللسانيات البنيوية خارج الأوطان العربية من خلال المبحث الأول، وذلك عبر ثلاثة محاور، يعالج الأول منها اللسانيات البنيوية من حيث نشأتها، بينما يعالج الثاني أهم الأسس والمنطلقات التي بنيت عليها. ويتناول المحور الثالث بعض القضايا النقدية التي سجلت على هذا الاتجاه اللساني. أما المبحث الثاني فإنه تطرق إلى أثر اللسانيات البنيوية في الدرس اللساني بالمغرب، وذلك عبر محورين؛ تناول الأول منها نشأة اللسانيات البنيوية بالمغرب، وتطرق الثاني إلى جملة من الإشكالات المنهجية والتصورية في التعامل مع الدرس اللساني البنيوي بالمغرب.

ولعل من أهم أهداف الورقة، السعي إلى متابعة فكرنا اللساني قراءة وتحليلاً ونقداً دون عزله عن سياق ظهوره، وأهم العوامل التي أدت إلى ذلك، وكذا التنبيه إلى ضرورة القراءة النقدية والمنهجية لأعمالنا اللسانية في الثقافة العربية، بهدف الرقي بها إلى المستوى المطلوب، استجابة للضرورة الملحة في تناول قضايا اللغة العربية ودراساتها دراسة لسانية علمية بعيدة عن الاستيراد والاستهلاك والاسقاط، إضافة إلى الوقوف على مختلف القضايا الإبيستيمولوجية والإشكالات النظرية والتصورية التي رافقت نشأة وتطور الدرس اللساني بالثقافة العربية، من قبيل إشكالات التلقي والترجمة وفوضى المصطلح اللساني، وكذا إشكالية المنهج وموقع الدرس اللساني العربي القديم من النظريات اللسانية الحديثة وغيرها.

المبحث الأول: اللسانيات البنيوية خارج الأوطان العربية

المحور الأول: نشأة اللسانيات البنيوية: دو سوسير وما بعده

يتفق معظم الباحثين في الدرس اللساني الحديث على أن اللسانيات البنيوية قد بدأت بشكل فعلي وجلي مع صدور الطبعة الأولى من محاضرات (دو سوسير)، وإن اتفقوا كذلك في عدم وجود بنيوية واحدة، حيث تتعدد البنيوية وتختلف بتعدد رجال الفكر البنيوي واختلافهم، وهذه الحقيقة من شأنها أن تدفعنا إلى طرح جملة من الأسئلة المنهجية والتصورية الدقيقة، منها على سبيل المثال:

- هل نكتفي بتقديم المنهجية المتبعة في اللسانيات ليكون حديثنا حديثاً ملائماً لحقيقة المنهج البنيوي؟ وما العلاقة بين المنهجية البنيوية واللسانيات؟ ثم هل نتحدث عن الأسس اللسانية للبنيوية، أم عن الأسس الفكرية والفلسفية للبنيوية؟

1 -

إن دقة هذه الأسئلة المنهجية تكمن في كون المنهج البنيوي تجاوز الدرس اللساني ليشمل كل العلوم، مما يدفعنا بالضرورة إلى التمييز بين المنهجية البنيوية، واللسانيات البنيوية؛ أي البنيوية كمنهج عام، والدرس اللساني الذي يتخذ هذا المنهج أداة في التعامل مع الظواهر اللغوية. إن التمييز هنا ضروري، لأن الفرق بينهما كبير جداً، إذ " البنيوية بمعناها الواسع، هي طريقة بحث في الواقع، ليس في الأشياء الفردية. بل في العلاقات بينها"²، وهو ما يعبر عنه في التصور السوسيري بالنسق *systeme*، فالبنية *structure* عنده "نسق من العلاقات الباطنية، له قوانينه الخاصة المحايثة، من حيث هو نسق يتصف

بالوحدة الداخلية والانتظام الذاتي، على نحو يفضي فيه أي تغير في العلاقات إلى تغير النسق نفسه، وعلى نحو ينطوي معه المجموع الكلي للعلاقات على دلالة يغدو معها النسق دالاً على معنى³. والحق أن مصطلح البنية لم يظهر في لسانيات (دو سوسير)، بل تمة مفاهيم أخرى أخذت معنى البنية كما هو الشأن بالنسبة لمفهوم النسق، مما يوحي إلى أن الاتجاه البنيوي لم يبدأ من حيث المفهوم، بقدر ما برز في محاضراته باعتباره منهجاً جديداً في التعامل مع الظاهرة اللغوية.

ومن الحقائق التي ينبغي أن نسلم بها منذ البداية هي صعوبة الحديث عن البنيوية في الدراسات اللسانية في معزل عن باقي العلوم الأخرى، وفي معزل عن السياق الذي ظهرت فيه العوامل التي أنتجت هذا النوع من المنهجية. فقد فتحت البنيوية آفاقاً كثيرة في مجالات العلوم الإنسانية المختلفة، حيث "عرف الأدب البنيوية، وطبقها، كما عرف النقد الأدبي التوليدية، والبنيوية النقدية كما درست الأنثروبولوجيا البنيوية، والدراسة البنيوية للأسطورة والأسلوبية النقدية، وفي علم الاجتماع نجد الدراسة البنيوية والوظيفية، وفي علم السيميولوجيا، وعلم التحقيق اللغوي نجد دراسات متنوعة جادة"⁴، وفي هذا الصدد يقول غلفان: "ولم تعد المنهجية البنيوية تقتصر على المجال اللساني وحده. بل تُبْنِيْنُ structurer كل شيء، إذاً جاز لنا أن نستعمل هذا التعبير، تُبْنِيْنُ المجتمع واللاشعور والثقافة والأدب والفكر والسينما والمسرح والمطبخ واللباس والإعلانات الإخبارية وكل مرافق الحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية والاقتصادية"⁵. لكن بالرغم من انتشار المنهج البنيوي واعتماده في الدراسة من قبل مختلف العلوم والتخصصات، فإنه "قد عثر على مركزه في الدراسة اللسانية، واتخذ قوته الدافعة من منجزات (سوسير) و(جاكسون) وأسانذة آخرين كالفونولوجي الروسي (تروبتزكوي)"⁶.

لقد عرف القرن التاسع عشر انتشار المنهج التاريخي المقارن في دراسة اللغة، ومع بداية القرن العشرين وبالضبط مع صدور محاضرات (دو سوسير) 1916، حيث بين فيها اللساني السويسري أن المنهج المقارن لم يأت بنتائج علمية؛ مما دفعه إلى الاعلان عن البذرة الأولى لنشأة المنهج الوصفي في دراسة اللغة"⁷. وقد تطور هذا المنهج وعرف انتشاراً كبيراً بعد (دو سوسير)، "حتى بالغ بعض أصحابه في القول إن الدراسة اللغوية لا ينبغي أن تستعين ببعطيات غير لغوية، ولا بأي عامل من خارج اللغة، حتى وإن بدا أنه يساعد على فهم الظاهرة اللغوية"⁸. ولعل من أهم ما يبين ظهور المنهج البنيوي في اللسانيات على يد (دو

سوسير) تلك القفزة النوعية التي عرفتها الدراسات اللغوية بعد ظهور محاضراته وانتشارها بين الباحثين.

لقد انطلق (دو سوسير) من البحث في طبيعة اللغة باعتبارها موضوع البحث العلمي، محددًا موضوع هذا العلم في دراسة اللغة في ذاتها ولذاتها، مع تحديد موقع علم اللسانيات باعتباره جزءًا من علم عام كان (دو سوسير) قد بشر بميلاده وهو علم السيميائيات. "وأبرز ما يتجلى في هذه المحاضرات من المنهج الوصفي تحديد المادة المدروسة، والخروج من التعميم إلى التخصيص والفصل بين أمرين قد يتراءى للمرء أنها أمر واحد"⁹، فقد ميز بين اللغة والكلام، كما قسم اللسانيات إلى لسانية آنية synchronique ولسانية زمانية diachronique مع تحديد الدليل اللغوي (العلامة اللغوية) في الدال والمدلول والقول بالعلاقة الاعتباطية بينهما.

كانت هذه المبادئ بمثابة القواعد والأسس التي اعتمدها (دو سوسير) في إرساء بداية حقيقية للسانيات البنوية في جنيف قبل أن يعمل تلامذته على تطوير أهم أفكاره خاصة (تشارلز بالي 1865-1947) و(البيروت سيشهاي 1870-1946). بل إن "التأثير الذي أحدثته أفكار (دو سوسير) لم تبق حبيسة أوروبا بل وصل صداها إلى أمريكا حيث تكونت هناك مدارس بنوية إضافة إلى المدارس التي ظهرت بأوروبا بالرغم من الانتقادات التي وجهت إلى مبادئها، خاصة قضية التزامن عند (باختين) الذي يرى "أن النظام التزامني ليس له أي وجود حقيقي. وصرح (جاكسون) نفسه بأن التزامن الخالص يعتبر اليوم أشبه ما يكون بوهم"¹⁰. لكن، وبالرغم من تلك الانتقادات، فإن الدرس اللساني بدأ من (دو سوسير) "أصبح ينظر إلى اللغة على أنها موضوع "معرفة" مستقلة قابلة للدراسة المنظمة، باعتبارها جملة من الأحداث والوقائع المعقدة، على عكس ما تبدو عليه في واقعها المادي الملموس، وأصبح هدف التحليل الوقوف على العلاقات والوظائف التي تجمع بين الوحدات المكونة للغة في مختلف المستويات بعيدا عن العوامل الخارجية أيا كانت طبيعتها"¹¹. ولا يخفى على أحد تأثير (دو سوسير) في كل المدارس اللسانية البنوية التي جاءت بعده.

وقد برز بوضوح هذا التأثير في كتابات (ياكسون) و(تروبتسكوي) كما كان ل(ليفي ستراوس) الدور نفسه في استثمار المنهجية البنوية المستمدة من اللسانيات في أعماله الأنتروبولوجية¹². وعن هذا التأثير يتحدث (باختين) قائلا: "إن جميع العلماء الروس المختصين في علم اللسانيات تأثروا ب(فيرديناند دو سوسير) عبر واسطة تلامذته (بالي Bally)

و(سيشهاي Sechehaye) في كتابه (دروس في علم اللغة العام)¹³، بل تجاوز بعض الباحثين ذلك إلى القول بتأثيره في جميع النظريات اللسانية إلى اليوم. والحق أن ذلك طبيعي باعتبار التراكم المعرفي في الدرس اللساني.

جدير بالذكر أنه "من الخطأ الاعتقاد بوجود تيار بنيوي متجانس أو مذهب فكري موحد، بل العكس هو الصحيح، إذ نلاحظ تعددا في الرؤى، وتعددا في الأدوات، وتعددا في المفاهيم والمصطلحات، وتعددا في التطبيق والتحليل، وتعددا في المواقف والنتائج"¹⁴. وهذا التعدد والتفرع تجلى في عدد من الباحثين وفي جملة من المدارس والاتجاهات، حيث "ارتبطت البنية التكوينية ب(لوسيان كولدمان) والأنتروبولوجيا ب(كلود ليفي ستراوس)، والتشكيلية بأعمال حلقة براغ وباحثي (تشيكوسلوفاكيا) فيما بعد، والفلسفة ب(بول ريكور)... وغيرها، مما جعلها مقتصرة على اللغة والأدب وحدهما. وإنما تمتد إلى كل العلوم الاجتماعية بما في ذلك اللغة والأنتروبولوجيا"¹⁵. ولأن الذي يهمننا في هذا المقام هو الدرس اللساني، فإننا سوف نخرج بشكل سريع على أهم المدارس البنيوية التي شكلت بحق هذا المجال، ومثلت هذا المنهج خير تمثيل. وهذه المدارس "الشيء مشترك يجمع بينهما سوى القليل النادر. هو أنها اتفقت جميعا على اعتبار اللغة تركيبا يبنى من عناصر من الواجب تحديد وظائفها وعلاقاتها الداخلية"¹⁶. ولعل هذا هو ما أدى ببعض الباحثين إلى إدراج كل المدارس اللسانية بعد (دوسوير) تحت راية البنيوية.

لقد استطاع (دو سوسير) أن يخلق لنفسه مكانة مرموقة في الدرس اللساني المعاصر وأن يشكل رأيا مسموعا¹⁷، فكان بذلك المدرسة اللسانية الأولى، والتي أطلق عليها معظم الباحثين (مدرسة جنيف)، وتشمل (دو سوسير) وتلاميذه (شارل بالي) و(ألبرت سيشهاي)، وهما "الذنان اهتما بقضايا اللغة وتميزا بوجهة نظر. فقد اختص (شارل بالي) في السنسكريتية واليونانية، وذلك بعد أن استوعب مفاهيم أستاذه (دو سوسير) وتمكن من فهمها، اهتم بدراسة الأسلوب، وكان له دور بارز في إرساء الأسلوبية المعاصرة سنة 1902م"¹⁸.

لقد اتسم الدرس اللساني بعد (دو سوسير) بتعدد الاتجاهات وتفرعها. وحسب تمام حسان¹⁹ فإنه يمكن تقسم المدارس اللسانية الوصفية حسب مذهبي التصنيف والتفسير، كما يمكن تقسيم المدارس التصنيفية للاعتبار الجغرافي إلى مدارس أوروبية وأمريكية، ففي أوروبا ظهرت مدرسة (براغ) التي عملت على ربط الفونيم بالمعنى، ومدرسة (كوبنهاغن)، أي: (الغلويسيماتية)، ثم المدرسة الفرنسية التي قامت بربط الفونيم بالحدس. أما في أمريكا فقد

سيطر منهج (بلومفيلد) البنيوي على الدراسة اللغوية لفترة طويلة، وعرف في منهجه بشكل عام بالعزوف عن دراسة المعنى.

المطلب الثاني: اللسانيات البنيوية: الأسس والمنطلقات

يتفق اللسانيون على أن البنيوية تقوم على أساس نظري مؤداه "أن البنية تتألف من عناصر ومكونات جزئية، وأن أي تغيير يطرأ على أي واحد من هذه المكونات لا بد أن يؤثر في سائر المكونات والعناصر الأخرى"²⁰. وقد أشرنا فيما سبق إلى أن (دو سوسير) لم يستعمل مصطلح البنية والبنيوية في محاضراته، لكنه استعمل مضمونها، قال شريف استيتية: "ولم يستعمل (دوسوسير) هذا المصطلح كما قلنا، ولكنه تحدث عن مضمونه، وأول مرة استعمل فيها هذا المصطلح، كانت في البيان الذي أعلنه المؤتمر الأول للغويين في السلاف سنة 1929، فقد ورد فيه مصطلح البنية بمضمونه المعروف حتى اليوم، ومن المشاركين في هذا المؤتمر، (ياكسون) و(تروبتسكوي)، وقد دعا المؤتمر إلى تبني منهج جديد في دراسة اللغة سموه (المنهج البنيوي)"²¹. ولعل من أهم المفاهيم التي استخدمها (دو سوسير) مفهوم السياق كما أشار إلى ذلك (بنفينست) في قوله: "يجمل بنا أن نشير إلى أن (دو سوسير) لم يستعمل أبداً، وبأي معنى من المعاني، كلمة (بنية) إذ المفهوم الجوهري في نظره هو النسق"²². كما صرح (أنطوان ميه) -أحد تلامذة (دو سوسير) ومن أبرز المؤسسين للوسويولسانيات- بأن هدف أستاذه كان في البحث عن النسق، قال: "إن ما كان يبحث عن تحديده، طوال حياته كلها، هو نسق الألسنة التي كان يدرسها"²³. وبهذا يكون (دو سوسير) قد أحدث قطيعة إبستمولوجية عما كان قبله من مناهج في دراسة اللغة، كما أسهم إسهاماً لا يستهان به في النظرية اللسانية ومناهج بحثها، "وكانت المبادئ اللسانية التي اعتنقها تمثل نقطة الانطلاق في النظرية البنيوية، وقد أرسى كثيراً من وجوه التمايز النظرية التي كان لها تأثيرها الهائل على الفكر اللساني عند كل المدارس اللسانية الحديثة"²⁴.

لقد تميز (دو سوسير) بالبحث عن موضوع اللسانيات باعتباره علماً حديثاً ومستقلاً، لذلك فإنه حدد جملة من المبادئ التي توطر هذا العلم، بالإضافة إلى مبادئ في دراسة اللغة الطبيعية باعتبارها موضوع علم اللسانيات.

أما أهم هذه المبادئ فقد تناولها (المصطفى الشادلي) وذهب إلى القول بأنها ميزت كل المدارس التي جاءت بعد (دو سوسير)، ونذكر منها الآتي:

- مبدأ استقلالية الموضوع اللساني
- مبدأ المعالجة الوصفية للغة
- مبدأ الملاءمة
- مبدأ تقديم الشكل على الماهية
- مبدأ التفريق بين المستويات المستقلة والمستويات المتضامنة فيما يخص معالجة أفعال اللغة²⁵.
- وبالإضافة إلى هذه المبادئ، فإن اللسانيات منذ (دوسوسير) اعتمدت المنهج البنوي، مما جعلها أمام مرحلة جديدة من دراسة اللغات، وذلك لتمييزها بـ:
 - الانتقال من دراسة ظواهر لغوية واعية إلى دراسة بنيتهما التحتية اللاواعية.
 - التعامل مع المسميات أو الكلمات بوصفها منتظمة بعلاقات.
 - السعي إلى الكشف عن قوانين كلية، سواء كان ذلك بالاستنباط أو بالاستدلال، مما يعطي هذه القوانين صفة مطلقة²⁶.
- وهذه المبادئ التي قدمها (دو سوسير) في دراسة اللغة دراسة بنوية تعتبر نظاما لا يمكن تحليل ظواهره اللغوية بعزلها عن بعضها إذ هي أجزاء في نسق أكبر. ولعل من أهم المنطلقات التي انطلق منها (دو سوسير) اعتباره اللغة ظاهرة اجتماعية؛ وينبغي دراستها وفق هذا المبدأ، دون اللجوء إلى معايير أخرى خارجة عن مادتها. ولهذا فقد أبعده (دو سوسير) كل ما يتعلق بالذهن في دراسته اللغوية بهدف إثبات موضوعيتها²⁷.
- لقد انطلق (دو سوسير) من تحديد موضوع اللسانيات في دراسة اللغة في حد ذاتها ومن أجل ذاتها وذلك انطلاقا من الفصل بين جملة من الثنائيات نوجزها في الآتي:
- التمييز بين اللسان والكلام، أي: "التمييز بين النظام اللغوي langue والتكلم باللغة أو كتابتها؛ أي الكلام parole²⁸. وهذا التمييز في حقيقته تمييز لما هو اجتماعي عما هو فردي ذاتي لا تحكمه قواعد مشتركة. ولأن اللسان حسب (دو سوسير) خاضع لنظام عام لا يمكن تحليل مكوناته إن لم تكن داخل هذا النظام²⁹، فإن الأمر يتعلق بتحليل نسقه.

وكل نسق باعتباره مكونا من وحدات يشترك بعضها البعض الآخر، يتميز عن الأنساق الأخرى بالتنسيق الداخلي بين هذه الوحدات تنسيقا يكون منها البنية³⁰. فاللغة حسب (دو سوسير) متممة بالطابع الاجتماعي، ومن ثم فإنه يمكن النظر إليها بغض النظر عن المتكلمين بها، وبهذا تكون معاكسة للكلام الذي "لا يمكن أن يكون ظاهرة اجتماعية، لأنه إنتاج فردي شعوري تماما"³¹. إن اللسان انطلاقا مما سبق جزء من اللغة، ونتاج اجتماعي لها عكس الكلام الذي يتسم بالفردانية، فكان هذا التمييز بداية حقيقية لظهور التداويات والعلوم التي تدرس اللغة بمعزل عن السياق والمجتمع والعوامل الخارجية بصفة عامة. وقد كان (أنطوان ميه) من أهم من سلكوا هذا الطريق الذي أبعده (دو سوسير) في دراسته بعد الفصل بين اللغة والكلام.

- التمييز بين الدراسة التزامنية والدراسة التاريخية وإعطاء الأهمية للترانزية، لاعتبار سهولة فهم النظام في حالته الثابتة أكثر من الحالة المتغيرة³². وقد اتخذت هذه الثنائية عدة تسميات في الدرس اللساني بالوطن العربي، فقد ترجمها البعض بالترانزية والتاريخية، والبعض بالترنزية والترانزية³³، كم ترجمها البعض منهم بالآنية والتاريخية والتعاقبية، في الوقت الذي فضل البعض إبقاءها على النطق الصوتي الأجنبي؛ وهو ما يطلق عليه بالألفاظ الدخيلة في لغة فقاء اللغة قديما والمعجميين في الدرس اللساني الحديث، حيث أطلقوا عليها الدراسة السانكرونية مقابل الدراسة الدياكرونية.

تهتم السانكرونية بدراسة لغة معينة في مرحلة زمنية محددة بعينها، وتسمى كذلك بالدراسة الآنية. أما الدياكرونية فإنها تتبع ما تتعرض له اللغة من تغير وتحول خلال فترات زمنية متعاقبة. وقد اختار (دو سوسير) الدراسة التزامنية لأنها الأكثر مناسبة في دراسة اللغة دراسة بنيوية.

تجدر الإشارة إلى أن الدراسة التزامنية قد أثرت على الدرس اللساني بعد (دو سوسير)، وصار كثير من اللسانيين يدافعون عن تطبيقها على في الدراسات اللغوية، كما هو الشأن بالنسبة للباحث الروسي (كارتيبسكي) في دفاعه عن تطبيق المنهج التزامني في وصف الأفعال الروسية، مستشهدا بقول (دو سوسير): اللغة نظام يجب أن ينظر فيه إلى الأجزاء داخل علاقة مترابطة وتزامنية³⁴، و"على هذا الأساس قام التمييز بين نوعين من اللسانيات: لسانيات آنية تزامنية؛ تتناول اللغة باعتبارها نسقا في حقبة معينة، ولسانيات تعاقبية؛

تدرس متغيرات هذا النسق عبر مراحل تطوره³⁵. والحق أن هذه الثنائية تجاوزت حقل اللسانيات واقتحمت مختلف العلوم والمجالات.

- التمييز بين اللسانيات والسيميائيات: ينبني هذا التمييز على حقيقة مفادها أن التواصل الإنساني يتم "بأدلة لغوية وأخرى غير لغوية، وتهتم اللسانيات بدراسة الأدلة اللغوية، تاركة دراسة الأدلة غير اللغوية إلى الدلائلية (السيميائيات)"³⁶. وقد اعتبر سوسير - كما أشرنا سابقا- علم اللسانيات جزءا من هذا العلم الشامل، وإن ترك التفصيل في مباحثه وقضاياها للذين جاءوا بعده.

- التمييز بين الدال والمدلول: جاء هذا التمييز من التفريق الذي قام به (دو سوسير) بين اللسانيات والسيميائيات، حيث تهتم اللسانيات بالأدلة اللغوية. والدليل اللغوي في تصور (دو سوسير) يتكون من وجهين لا ينفصلان. فهو: "عنصر من عناصر الجهاز اللغوي، وهي مكونة من عنصرين يتصلان ببعضهما اتصالا كاملا. فهما كوجهي الورقة يسمى أحدهما (الدال) وهو الصورة السمعية التي يتضمنها الدليل أو العلامة، ويسمى الثاني (المدلول) وهو المتصور الذهني ويسمى قديما المعنى، فليست العلامة هي الدال وحده أو هي المدلول وحده وإنما هما معا، وبعبارة أخرى لا يمكن الفصل بينهما"³⁷. بهذا، إذن، تكون اللغات علامات وكل علامة لا تخرج عن كونها دال ومدلول. أي أصوات تتألف منها ومعنى ذهني يكون مخترنا في الذهن.

والحق أن العلامة اللغوية لم تكن وليدة اللسانيات ولا درس اللغوي العربي القديم، فمنذ عهد (أرسطو) في الحضارة اليونانية القديمة استعملت بالمعنى الذي نجدها عليه اليوم، فاللسان في تصور (أرسطو) "لا يتعدى كونه حشدا من الأسماء التي تقابل عددا مماثلا من الأشياء في العالم الخارجي"³⁸. وقال كذلك في حوار مع (هيرموجين): "إن الاسم إذن، على ما يبدو، محاكاة صوتية للشيء المحاكى، وذلك الذي يحاكي بواسطة الصوت يسمى ما يحاكي"³⁹، إلا أن (دو سوسير) يرفض هذه الفكرة التي تجعل مهمة اللساني ربط الأشياء بمسمياتها فقط، وأن اللغة مجرد قائمة من الألفاظ، ويرى في المقابل أن العلامة اللسانية "تربط بين مفهوم concept وصورة سمعية image acoustique بهذا المعنى فإن العلامة اللسانية لا تربط اللفظ بالشيء الموجود في العالم الخارجي ربطا مباشرا (...). بل تسند للعالم.

يتسم الدليل اللغوي حسب (دو سوسير) بالطبيعة النفسية لوجهه، حيث إن المدلول ليس هو الشيء، وهذه الطبيعة النفسية قد عبر عنها بالتصور، كما أن الدليل ليس هو الصوت الفزيائي المحض، وإنما الأثر النفسي الذي يحدثه الصوت، لذلك فإننا نستطيع أن نستظهر على سبيل المثال قصيدة في عقولنا دون تحريك أعضاء جهاز المصوت⁴⁰.

المبحث الثاني: الاتجاه اللساني البنيوي بالمغرب الأقصى

المطلب الأول: الاتجاه اللساني البنيوي بالمغرب وبدايات النشأة.

لقد توصلنا في بداية هذا البحث إلى جملة من الفرضيات منها:

- أن الدرس اللساني بالمغرب ظهر متأخرا بالمقارنة مع البلدان غير العربية من جهة، وبالمقارنة مع البلدان العربية الأخرى في المشرق من جهة ثانية.
- أن عددا من الباحثين اللغويين المشرقيين قد أسهموا في ظهور وتطور الدرس اللساني بالجامعة المغربية.
- أن البداية الفعلية للدرس اللساني بالمغرب قد بدأ بعد عودة البعثات الطلابية من جامعات أوروبا وخاصة جامعة السربون.
- أن اللسانيات بالمغرب عرفت ازدهارا كبيرا وتنوعا لافتاً من حيث المناهج المتبعة والنظريات المستوردة والأبحاث القيمة بالرغم من الملاحظات النقدية التي سجلت عليها.
- يتفق معظم الباحثين على أن الدرس اللساني بالمغرب لم يتجاوز عمره نصف قرن من الزمن إذا نظرنا إلى الأبحاث اللسانية التي انتهجت طريق الدراسات اللسانية الحديثة خارج الأوطان العربية بدءاً من (دو سوسير). "ففي أواخر الستينات من القرن الماضي، وبالضبط في 1967 كان الأستاذ محمد بنتاويت (التطواني)⁴¹ -رحمه الله- يدرّس مادة فقه اللغة المقارن فيها بعض أوصاف الفارسية والتركية والعربية، والأستاذ تقي الدين الهلالي⁴² -رحمه الله- يدرس العبرية، مع بعض المقارنة بالعربية، والأستاذ أحمد الأخضر غزال⁴³ يدرس الأصواتيات phonétique، يسميها الإصاةة"⁴⁴ كما ظهرت دراسات وأعمال كثيرة في فقه اللغة حاولت دراسة النصوص، خاصة القديمة مثلها باحثون كبار من بينهم محمد بوطالب في القسم الإنجليزي وأحمد العلوي⁴⁵ في القسم العربي .

لقد انفتح العالم العربي والمغرب على اللسانيات الأوروبية والأمريكية خاصةً بعد انتشار كتاب (دو سوسير) في أوروبا فكان بالضرورة في أمس الحاجة إلى نقل أحدث ما وصل إليه الدرس اللساني إما وصفاً وتبسيطاً وإما تطبيقاً لأفكارها على اللغة العربية، مما أدى إلى إحداث صراع بين رواد اللسانيات التراثية ورواد النماذج اللسانية الحديثة، حيث دافع أساتيد النحو والبلاغة وفقه اللغة المقارن على التراث اللغوي، حتى نعت أحمد العلوي النماذج اللسانية المستوردة بالصنمية وسماها في مقالاته (لسانيات هبل)⁴⁶. وفي هذا الصدد يقول: "وشخصياً قاومت تجارة الماركات اللسانية وخصوصاً في مقال طويل بعنوان لسانيات هبل) نشر في أعداد متتابعة من العلم الثقافي في زمن كان فيه ملحقات تلك الجريدة ذا شأن ثقافي مرموق، كما كنت أقاومها في الممارسة الجامعية بصحبة الأستاذ المرحوم الإدريسي وآخرين ممن انضموا إلى اتحاد اللسانيين المغاربة"⁴⁷.

وبالموازاة من ذلك فقد انتهج فريق آخر طريق التمهيد للدرس اللساني الحديث من خلال جملة من التأليف والكتب التمهيدية والتعليمية كان هدفها تقريب هذا العلم إلى القارئ المغربي والعربي بشكل عام.

في هذا الصدد كتب محمد الحناش⁴⁸ (البنوية في اللسانيات) 1980م وكتب مبارك حنون⁴⁹ (مدخل إلى لسانيات سوسير) 1987م و(دروس في السيميائيات) 1987م، وادريس السغروشني⁵⁰ في (مدخل إلى الصوارة التوليدية) 1987م وعبد العزيز حليلي⁵¹ في (اللسانيات العامة واللسانيات العربية) 1991م وغيرها.

ولأن المقام هنا للحديث عن الاتجاه البنوي فقد اخترنا الوقوف على ثلاثة أعلام من الرواد الأوائل في اللسانيات البنوية وهم:

- مبارك حنون من خلال كتابه: (مدخل إلى لسانيات سوسير) 1987م.

- عبد العزيز حليلي، من خلال كتابه: (اللسانيات العامة واللسانيات العربية) 1991م.

- مصطفى غلفان⁵²، من خلال كتابه: (في اللسانيات العامة) 2010م. (اللسانيات

البنوية: منهجيات واتجاهات).

تعتبر هذه النماذج من أبرز ما ألف في اللسانيات البنوية بالمغرب، وقد استثنينا هنا كتاب (الحناش 1980) لعدم تمكننا من الوصول إليه. فاقصرنا على هذه الدراسات الأربع فقط.

لعل دراسة (حنون 1987) من أهم الدراسات البنيوية الأولى في اللسانيات المغربية. قال غلفان: "ويعد عمل (مبارك حنون) متميزاً في تقديم أهم أفكار مؤسس اللسانيات الحديثة"، وذلك راجع إلى أهمية الكتاب بالنظر إلى سياق وروده وتاريخ تأليفه، إضافة إلى الطريقة التي تناول بها الباحث محاور كتابه.

انطلق مبارك حنون من إيمانه القوي بأهمية علم اللسانيات بعد التطورات التي عرفها هذا العلم خاصة بعد صدور كتاب (دو سوسير) ذي القيمة العلمية الكبيرة. إن هذا المنطلق لدى الباحث يطعمه إيمان آخر يكمن في أن مختلف الأعمال اللسانية الرائدة بعد (دو سوسير) لم تصل بعد إلى حلتها النهائية، مما يفرض بالضرورة إعادة قراءة (دو سوسير) قراءة جديدة ودقيقة، بهدف إغناء النظريات اللسانية وفتح آفاق جديدة في التعامل مع هذا العلم ومع الظاهرة اللغوية باعتبارها موضوعاً له.

إضافة إلى ما سبق يؤكد الباحث أن تأخر نقل اللسانيات إلى الوطن العربي وتطبيق مناهجها على الدرس اللغوي العربي؛ -الذي لم يبدأ إلا في الثمانينات مع ظهور الترجمة العراقية واللبنانية والمصرية والتونسية- قد حرم التفكير اللساني العربي مما جاء به (دو سوسير) لفترة طويلة من الزمن، وهذا يعني بشكل غير مباشر أن الكتاب يعتبر إسهاماً بشكل أو بآخر في تقريب أفكار (دو سوسير) اللسانية إلى القارئ العربي.

ينضاف إلى ذلك إيمان الكاتب بأن اللسانيات التي جاءت بعد (دو سوسير) لم تستطع أن تستوعب تصويره بشكل كامل ودقيق بقدر ما بسطته واختزلته، مما يعكس سلباً وبشكل مضاعف في الثقافة العربية، حيث يختلف المحيط الثقافي واللغوي والمرجعيات والخلفيات الفلسفية والمنطلقات المعرفية والفكرية بين الثقافتين.

أما دراسة (حليلي 1991) فقد أثارت بدورها جملة من القضايا والتعاريف المتعلقة باللسانيات البنيوية، استناداً لما ورد في محاضرات (دو سوسير) وغيره من اللسانيين البنيويين. وقد أثار في بداية كتابه تعريف البنيوية عبر ثلاث مصطلحات أساسية وهي: (المنهج- النظام- البنية)، كما حدد مفهوم مصطلح اللسانيات في قوله: "هي العلم الذي يدرس اللغات الإنسانية في ذاتها ولذاتها مكتوبة ومنطوقة كانت، أم منطوقة فقط"⁵³. ثم توقف بنوع من التفصيل مع أسس اللسانيات السوسيرية؛ ففصل القول في أهم مفاهيمها ومبادئها. وبالإضافة إلى هذا فإن الباحث توقف على جملة من القضايا اللغوية من قبيل قضايا البحث اللهجي وقضايا جمع وتقسيم العربية عند نحاة هذه اللغة المتقدمين. كما خصص

الشق الثاني؛ الموسوم بالدرس الصوتي الحديث من الكتاب لموضوعين، يتعلق الأول بمفاهيم بحث الأصوات النطقية *la phonétique articulatoire*، ويتعلق الثاني بأهم مفاهيم الصوتيات الوظيفية *la phonologie*.

أما الشق الأخير الموسوم بالصوتيات فقد خصصه لتعريف الفونيم وتلخيص ما يميز به عامة، وذكر تقنيّة الكشف عنه، إضافة إلى الوقوف على البنية المقطعية العربية.

وعلى العموم فإن ما يهمننا من إيراد هذا الكتاب هو محاولة الباحث تقريب الدرس اللساني البنيوي إلى القارئ المغربي خاصة والعربي بشكل عام، سواء فيما يخص لسانيات (دو سوسير) أو غيرها من الاتجاهات اللسانية البنيوية التي عرفتها اللسانيات الحديثة.

أصدر (غلفان) سنة 2010 كتابه الشهير (في اللسانيات العامة، تاريخها، طبيعتها، موضوعها، مفاهيمها)، وكان الهدف من وراء كتابه هذا، إطلاع القارئ العربي بأهم القضايا المتعلقة باللسانيات العامة، مع تتبع أبرز التحولات التصورية والمنهجية التي شهدتها الدراسات اللغوية في مطلع القرن الماضي وما كان قبله في القرن التاسع عشر. فقد خصص البابين الأولين لتناول بعض القضايا المتعلقة باللغة باعتبارها موضوع اللسانيات إلى جانب المتابعة التاريخية.

ولم يكن (غلفان) وهو يحاول وضع جملة من المقدمات الأساس لبناء الدرس اللساني العربي على أصوله المتينة حيث توقف على مفهوم اللسانيات من حيث تعريفها وحدودها وكذا الدراسة التاريخية لأهم تطوراتها.

بينما خصص الباب الثالث من هذه الدراسة للسانيات من حيث مجالها وموضوعها وأهم المفاهيم التي أثارها اللسانيات العامة. وفي هذا الباب فقد استطاع (غلفان) أن يميز بين اللسانيات وكل ما يمكن أن يختلط بها من العلوم العربية القديمة، فميز بين اللسانيات والفيلولوجيا وفقه اللغة والنحو والصرف. كما ميز بين الدراسة المقارنة والتاريخية للسانيات.

ما يهمننا في هذا المقام هو أن (غلفان) خصص مجالا واسعا ضمن هذه الدراسة للوقوف على اللسانيات السوسيرية من حيث المادة والموضوع، إضافة إلى فصل في نظرية العلامة اللغوية والفصل الأخير في إيراد أهم المفاهيم الأساسية في التحليل البنيوي، مع مراعاة القارئ والمتلقي العربي إذ هو الهدف الأول والمستهدف الرئيس من هذه الدراسة. قال غلفان: "كما حاولنا الابتعاد عن صميم الدرس اللساني بمعناه الدقيق حتى لا نساهم في تيه

القارئ العربي على الأقل حتى يشدد عوده وتزداد حمولته المعرفية. ولهذه الغاية عملنا على تجنب التفريعات والتفاصيل النظرية والمنهجية (...). فأما الوضوح في الفهم والإدراك فقد حاولنا الاقتراب منه ما أمكن بالابتعاد عن التأويلات الخاطئة للأفكار والتصورات مفهومات ومصطلحات⁵⁴.

ألف (غلفان) بعد ذلك كتابه: (اللسانيات البنيوية: منهجيات واتجاهات) 2013، تكملة للكتاب الأول، وإشارة منه إلى ضرورة التمييز النظري والمنهجي بين ما يندرج ضمن إطار اللسانيات العامة وما يندرج ضمن إطار المنهج البنيوي بمختلف اتجاهاتها، ودون عزلها عن السياق الذي ظهرت فيه والمنطلقات الفكرية والفلسفية التي أنتجت خطابها. ولأن اللسانيات البنيوية في الوطن العربي ما تزال تتخبط في جملة من العقبات التي تحول وتقدم الدرس اللساني، فإن الكتاب يحاول تقديم جملة من الإشارات تهم المدرّسين واللسانيين العرب بصفة خاصة، لعل أبرزها لفت انتباههم إلى أهمية الأفكار والتصورات والنظريات التي يتعين عليهم معرفتها وتدريسها والإلهام بمصادرها وحيثياتها⁵⁵. قال الكاتب: "سنحاول أن نقدم ما يمكن أن يعد الأساس والأهم في الموضوع الذي نحن بصدده. إننا ننظر إلى المؤلف كمعين على فهم أسس اللسانيات البنيوية من خلال مختلف المنهجيات التي طبقت في أبرز اتجاهاتها وأشهرها⁵⁶".

مما يميز كتابات (غلفان) أنها لا تكتفي بإيراد المعلومات والمعارف النظرية حول القضايا اللسانية معزولة بقدر ما تتجاوز ذلك إلى الوقوف على الإشكالات النظرية والمنهجية والمنطلقات الفكرية والفلسفية والمعرفية التي وجهت كل قضية على حدة؛ إنها بمعنى آخر تتجاوز مرحلة الوصف المجرد إلى التفسير والتحليل المنهجي الدقيق الذي يناسب القارئ والمتلقي دون التفصيل في الجزئيات التي لم تعد ذات قيمة بعد الثورة اللسانية المتراكمة، ولا إعادة ما أثارته الدراسات التي سبقته. وكل ذلك إنما تتميز به روح الكاتب من ثقافة منهجية ولسانية واسعة.

المطلب الثاني: اللسانيات البنيوية بالمغرب؛ إشكالات منهجية

من الحقائق المسلم به عند الجميع؛ أن كل عمل بشري لا بد أن يتسم بجوانب من النقص، ولا بد أن تتخلله إشكالات تكون نقطة البداية لعمل نقدي آخر يطور جوانبه السلبية ويسعى الوصول به إلى ما هو أفضل، وتكثر هذه الإشكالات والنواقص في الأعمال الأولية والتأسيسية في كل علم وتخصص؛ حيث يحمل الباحث على عاتقه مسؤولية البحث عن

المصطلحات الملائمة التي لا تخل بالمضمون ، والمنهج الكافي لتحقيق أعلى قدر ممكن من النتائج مع مراعاة طبيعة المتلقي النفسية والاجتماعية والفكرية وغيرها.

ولأن الاتجاه البنيوي قد حل ضيفا على البحث اللساني العربي والمغربي بشكل خاص في السبعينات من القرن الماضي ، فلا شك أنه سيواجه جملة من هذه الإشكالات والصعوبات التي تخل بقدرته العلمية في تناول قضايا اللغة العربية. وقد سجل بعض الباحثين ملاحظات نقدية على الاتجاه اللساني البنيوي في الثقافة العربية ، منهم على سبيل المثال مصطفى غلفان حيث ميز بين الاتجاهات اللسانية العربية وحاول الوقوف فيها على جملة من الملاحظات النقدية التي لازمت ظهور وتطور هذه الاتجاهات. ولأن الاتجاه البنيوي هو الذي يهمننا في هذا المقام فإننا سنكتفي بإثارة أهم النقط التي سجلها عليه غلفان وهي⁵⁷:

أ- عدم تحديد المصادر والأسس النظرية والمفاهيم المنهجية توضيحا كافيا: فقد أشرنا فيما سبق إلى أن اللسانيات المغربية بدورها لم تهتم في بداياتها بالإطار النظري ولم يدرك رواد اللسانيات سواء التوليدية أو الوظيفية أهمية التأطير النظري إلا بعد تناولهم لبعض قضايا اللغة العربية من منظور الاتجاه الذي يتبناه كل واحد منهم.

ويكمن الإشكال في اختلاف الاتجاهات والنظريات داخل مدرسة واحدة ، واختلاف المفاهيم والمصطلحات من ثقافة إلى أخرى مما يجعل الكتابة النظرية أمرا ملحا قبل الاشتغال بالشق التطبيقي ، ويكون الإشكال مضاعفا حينما يكون العلم دخيلا على أمة من الأمم إذ يستحيل التسليم بإمكانية تطوير ذلك العلم وتطبيقه على اللغة المحلية قبل الاطلاع على الجانب النظري لذلك العلم ومحاولة فهمه واستيعاب أفكاره ومبادئه. ثم إن اللسانيات العربية في الحاجة إلى تحديد نظري وتاريخي للنظرية اللسانية باعتبارها وليدة نظريات فلسفية محكومة بعوامل ذاتية وتاريخية وسياسية وعقدية.

ب- الالتقاء في التعامل مع النظريات اللسانية الوصفية: أولا من حيث الاختلاف على الذي ينطلق منه ويركز عليه كل باحث ، خاصة بين رواد الجانب الشكلي والجانب الوظيفي ، وثانيا بالتركيز على نظرية أو اتجاه واحد وإقصاء كل الاتجاهات التي تختلف عنه ولو اختلافا بسيطا ؛ وهذا التباين في اختلاف المعطيات اللسانية يؤدي إلى الاختلاف في المفاهيم والنتائج.

ت- السطحية في تناول المفاهيم والمبادئ اللسانية؛ حيث يتم الحديث عن مبادئ ومفاهيم اللسانيات البنوية بشيء من السطحية والتعامل معها بنوع من السهولة دون التعمق في حقائقها، والعمل على عرضها بما يقتضيه البحث اللساني من التعمق والضبط والدقة.

من جانب آخر خلص حافظ إسماعيلي علوي إلى أن المنهج اللساني البنوي يتميز بالسمات التالية⁵⁸:

- التطبيق الجزئي: يتم الاكتفاء ببعض القضايا الجزئية دون بلوغ حقيقة التكامل والشمول في البحث اللساني.

- بساطة التطبيق: لم يستطع التحليل اللساني البنوي التعمق في سبر أغوار بنيات اللغة.

- استمرار حضور التحليل اللغوي القديم: من الإشكالات التي لازمت الاتجاه البنوي أنه لم يميز بشكل دقيق بين المفاهيم التراثية والمفاهيم اللسانية، ولم يراع الاختلاف بينهما مما أغرقه في كثير من الاسقاطات الفاشلة.

- غياب الوصف بمعناه المنهجي الدقيق: لم تنقيد اللسانيات البنوية في الوطن العربي بخطوات المنهج الوصفي وإن اتخذته في دراستها، مما أفقدها الأساس المنهجي الدقيق.

- إسقاط عيوب النحو الغربي على النحو العربي: انتقدت اللسانيات خارج الأوطان العربية أنحاءها القديمة فنهج اللسانيون العرب نفس الطريق دون التمييز بين الثقافتين ومراعاة الاختلاف بين المرجعيتين لكل منهما، مما فتح الباب أمام معظم اللسانيين في نقد التراث اللغوي العربي، والنحو العربي خاصة، وأحيانا بشكل بعيد عن الدقة والضبط العلميين.

لقد وسمت اللسانيات البنوية بالمغرب كذلك بعدم تجاوزها مرحلة وصف المنهج البنوي إلى مرحلة تطبيقه وعرض قضايا اللغة العربية عليه، فمعظم الأبحاث البنوية بالمغرب اكتفت بنقل أفكار (دو سوسير) وآراؤه اللسانية وعرفت بمختلف المدارس والاتجاهات الأوروبية والأمريكية، مع الإشارة البسيطة إلى مبادئ ومفاهيم اللسانيات

البنوية؛ وهو ما يجعلها لسانيات تمهيدية وتعليمية أكثر منها بنوية، إذ الاتجاه البنوي لا يطلق إلا على مجموعة من الأبحاث والدراسات التي سلك بها أصحابها طريق الدراسة البنوية للمعطيات اللغوية.

انطلاقاً مما سبق يمكن القول: إن اللسانيات البنوية بالمغرب قد وسمت بجملة من الإشكالات التصورية والمنهجية التي حالت وتقدم البحث اللساني، منها ما يتعلق بالمنهج وإشكالية التلقي ومنها ما يتعلق بالمصطلح وإشكالية الترجمة ومنها ما يتعلق بعلاقة اللسانيات بالتراث اللغوي والنحو العربي، والحق أن هذه الإشكالات تبدو طبيعية إلى حد كبير إذا نظرنا في ملابسات التلقي والظروف التي تلقت فيه الثقافة العربية الدرس اللساني.

خلاصة: شكلت محاضرات (دو سوسير) بداية حقيقية للمنهج البنوي في الدراسات اللغوية الحديثة. وقد أثر على كل النظريات والأبحاث التي ظهرت بعده بدرجات متفاوتة من التأثير، مما فتح الباب لظهور أبحاث علمية تستمد قوتها من أفكاره ومنهجه في تناول مختلف جوانب الظاهرة اللغوية في مختلف اللغات البشرية.

وبفضل انفتاح الثقافة العربية على أوروبا فقد تأثر اللسانيون العرب والمغاربة بصفة خاصة بهذا المنهج في تناولهم لقضايا اللغة العربية، فشغل اهتماماتهم لسنوات عدة خاصة في البدايات الأولى للسانيات المغربية بالرغم مما صاحب ذلك من إشكالات نقدية تتعلق أساساً بالمنهج والمصطلح. والحق أن المنهج البنوي بالرغم مما يقال عنه إلا أنه ما يزال حياً يسري في دماء كتاباتنا اللسانية اليوم؛ وهو ما يدعونا بالضرورة إلى تجديده وإعادة النظر في قضاياها الراهنة.

الهوامش:

- 1 مصطفى غلفان، في اللسانيات العامة، ص 252
- 2 شولز روبرت، البنوية في الأدب، تر: حنا عبود، منشورات اتحاد الكتاب العرب 1914، الطبعة السابعة: 1977م. ص 14
- 3 كريزويل إديث، عصر البنوية، تر: جابر عصفور، دار سعاد الصباح، الطبعة الأولى، الكويت 1993، ص 413
- 4 كامل وفاء محمد، البنوية في اللسانيات، عالم الفكر، المجلد 26، العدد الثاني، أكتوبر ديسمبر 1997. ص

- 5 غلفان مصطفى، في اللسانيات العامة، ص 245
- 6 شولز روبرت، البنيوية في الأدب، ص 16
- 7 عميرة خليل احمد، في نحو اللغة وتراكيبها، منهج وتطبيق في الدلالة، مؤسسة علوم القرآن، عجمان، ط 2: 1990. ص 25
- 8 استيتية سمير شريف، اللسانيات: المجال، والوظيفة، والمنهج، ص 159
- 9 طليحات غازي مختار، في علم اللغة، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، الطبعة الثانية، دمشق 2000، ص 22
- 10 المرتجي أنور، ميخائيل باختين: الناقد الحواري، منشورات زاوية للفن والثقافة، 2009، ص 25
- 11 غلفان مصطفى، في اللسانيات العامة، ص 248
- 12 المرجع نفسه، ص 250
- 13 المرتجي أنور، ميخائيل باختين: الناقد الحواري، ص 19
- 14 غلفان مصطفى، في اللسانيات العامة، ص 245-246
- 15 بوجادي خليفة، في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 2009، ص: 30
- 16 بالمبرج برتيل، مدخل إلى اللسانيات، ص: 342
- 17 ياكسون رومان، الاتجاهات الأساسية في علم اللغة، ص، 17
- 18 شنوقة السعيد، مدخل إلى المدارس اللسانية، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة 2008، ص: 67
- 19 حسان تمام، اللغة العربية والحداثة، فصول مجلة النقد الأدبي، المجلد الرابع، العدد الثالث، أبريل، مايو-يونيو 1984، ص: 130
- 20 استيتية سمير شريف، اللسانيات: المجال، والوظيفة، والمنهج، ص: 161
- 21 المرجع نفسه، الصفحة، 161
- 22 إميل بنفينيست، البنية في اللسانيات، تعريب مبارك حنون، دراسات أدبية ولسانية، العدد الثاني السنة الأولى- شتاء 1986، ص: 129
- 23 المرجع نفسه، ص: 130
- 24 نقلا عن: كامل وفاء محمد، البنيوية في اللسانيات، عالم الفكر، المجلد السادس والعشرون- العدد الثاني، أكتوبر- ديسمبر - المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- دولة الكويت 1997، ص: 58
- 25 شادلي المصطفى، البنيوية في علوم اللغة، تر: سعيد جبار، رواية للنشر والتوزيع- القاهرة 2015، ص: 101-102
- 26 كريزويل إديث، عصر البنيوية، تر: جابر عصفور، ص: 39-40
- 27 بوجادي خليفة، في اللسانيات التوليدية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، ص: 18-19
- 28 جاكسون ليونارد، بؤس البنيوية: الأدب والنظرية البنيوية، تر: نائر ذيب، ص: 80
- 29 بوجادي خليفة، في اللسانيات التوليدية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، ص: 20
- 30 إميل بنفينيست، البنية في اللسانيات، تعريب مبارك حنون، ص: 133
- 31 عبد العزيز محمد حسن، علم اللغة الحديث، مكتب الآداب القاهرة 2011، ص: 206
- 32 بوجادي خليفة، في اللسانيات التوليدية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، ص: 20

- 33 جاكسون ليونارد، بؤس البنيوية: الأدب والنظرية البنيوية، تر: ثائر ذيب، ص: 101
- 34 المرتجي أنور، ميخائيل باختين: الناقد الحواري، ص: 23
- 35 المتوكل أحمد، اللسانيات الوظيفية المقارنة: دراسة في التنميط والتطور، دار الأمان الرباط، الطبعة الأولى: 2012، ص: 12
- 36 أوكان عمر، اللغة والخطاب، رؤية للنشر والتوزيع الطبعة الأولى، القاهرة، 2011. ص: 73/72
- 37 شنوقة السعيد، مدخل إلى المدارس اللسانية، ص: 46 47
- 38 غلفان مصطفى، في اللسانيات العامة، ص: 227
- 39 سبيلا محمد - سعيد العالي عبد السلام، اللغة، سلسلة دفاتر فلسفية، نصوص مختارة 5، دار توبقال للنشر، البيضاء-المغرب، الطبعة الخامسة 2010، ص: 23
- 40 أوكان عمر، اللغة والخطاب، ص: 73
- 41 كاتب ومؤرخ وباحث مغربي ولد سنة 1917 فاشتغل بالتدريس بجامعة محمد الخامس بالرباط ثم بكليات الآداب بفاس وتطوان وجدة وأكادير توفي سنة 1993
- 42 محدث لغوي وأديب وشاعر ولد بالريصاني واشتغل بالتدريس في جامعة فاس، توفي سنة 1987م.
- 43 ولد سنة 1918 بالرباط عرف بنضاله الكبير من أجل إعادة الاعتبار للغة العربية، أسهم بشكل كبير في عملية التعريب بالمغرب من خلال مشروعه الكبير وإنتاجاته القيمة، عرف بإبتكاراته المصطلحية، فقد ابتكر كلمة الحاسوب وغيرها، اهتم بالمصطلح والتعريب والمعجم، توفي سنة 2008
- 44 الفاسي الفهري عبد القادر، ملاحظات أولى عن تطور البحث اللساني بالمغرب، ندوة اللغة العربية والنظريات اللسانية، كلية الآداب فاس سايس 21-22/11/2007، ص: 1
- 45 علم من أعلام اللغويين المغاربة والعرب، أستاذ وباحث في اللغويات بجامعة فاس والرباط وبني ملال-(المغرب)، عرف بنقده الشديد للنظريات اللسانية الحديثة خاصة المستوردة من قبل اللسانيين العرب، ومن مؤلفاته اللسانية: الطبيعة والتمثال 1988م.
- 46 نشر المقال في أعداد متتابعة من العلم الثقافي.
- 47 العلوي أحمد، أسئلة اللغة، أسئلة اللسانيات، ص: 21
- 48 أستاذ الهندسة اللغوية العربية والعامية وأستاذ اللسانيات الحاسوبية، باحث في طرق تعليم اللغة العربية وغيرها بأحدث الطرق البيداغوجية، اشتغل أستاذا في كلية الآداب بظهر المهرز بفاس، وكلية التربية والعلوم الأساسية بجامعة عجمان وجامعة الإمارات المتحدة وجامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض، من تأليفه (البنيوية في اللسانيات) دار الرشاد الحديثة-البيضاء.
- 49 ولد سنة 1952 بالريصاني اشتغل بكلية الآداب بفاس واشتغل مديرا للمدرسة العليا للأساتذة بهكناس له إنتاجات في السيميائيات والترجمة.
- 50 باحث لساني وأستاذ جامعي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، واحد من كبار علماء اللغة العربية تخصص النحو واللسانيات، كاتب سياسي ومناضل كبير دافع عن اللغة العربية باعتبارها لغة دين وأمة، وعن المعرفة والبحث العلمي، عرف بابتكار نظرية انشطار الفتحة التي تسهم في توليد مفردات اللغة العربية دون المساس بالقواعد العامة للغة، وقد أسهم بذلك في حل كثير من المشاكل التي استعصت على النحاة، خاصة في بابي السماع والقياس، توفي سنة 2018.

- 51 كاتب ومفكر مغربي ورمز من رموز حزب الاستقلال توفي سنة 2017.
- 52 ولد غلفان مصطفى سنة 1952 بالدار البيضاء، اشتغل أستاذا للتعليم العالي بهراش والدار البيضاء، نشر أكثر من عشرين دراسة علمية في اللسانيات والنحو والمصطلح، ومن تأليفه القيمة نذكر إضافة إلى ما أوردناه في ثنايا البحث (اللسانيات في الثقافة العربية الحديثة: حفريات النشأة والتكوين) 2006، (اللسانيات الحديثة: دراسة نقدية في المصادر والأسس النظرية والمنهجية 1998م)
- 53 حليلي عبد العزيز، اللسانيات العامة واللسانيات العربية، ص: 11
- 54 غلفان مصطفى، في اللسانيات العامة، ص: 288 (خاتمة)
- 55 غلفان مصطفى، في اللسانيات البنوية: اتجاهات ومنهجيات، ص: 9
- 56 المرجع نفسه، ص: 10
- 57 غلفان مصطفى، اللسانيات العربية الحديثة: دراسة نقدية في المصادر والأسس النظرية والمنهجية. جامعة الحسن الثاني - عين الشوق كلية - الآداب والعلوم الإنسانية. سلسلة رسائل وأطروحات، رقم: 4
- 58 د . حافظ إسماعيلي علوي، اللسانيات العربية الحديثة - نحو مقارنة إستمولوجية - ج 2:
- https://boudramazaidi.blogspot.com/2016/02/Allsaniyat-Arabic-surgery-Nho-approach-abstamologih_19.html?m=1

مصادر ومراجع البحث:

1. أوكان عمر، اللغة والخطاب، رؤية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، القاهرة، 2011.
2. إميل بنفينيست، البنية في اللسانيات، تعريب مبارك حنون، دراسات أدبية ولسانية، العدد الثاني السنة الأولى - شتاء 1986.
3. بوجادي خليفة، في اللسانيات التوليدية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2009.
4. جاكسون ليونارد، بؤس البنوية: الأدب والنظري البنوية، تر: ثائر ذيب، المركز القومي للترجمة، العدد: 2204، الطبعة الأولى، 2014.
5. حافظ إسماعيلي علوي، اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، دراسة تحليلية نقدية في قضايا التلقي وإشكالاته، دار الكتاب الجديد المتحدة، الطبعة الأولى 2009.
6. حافظ إسماعيلي علوي - وليد أحمد العناتي، أسئلة اللغة أسئلة اللسانيات: حصيلة نصف قرن من اللسانيات في الثقافة العربية، إعداد وتقديم، دار الأمان الطبعة الأولى، الرباط 2009
7. حليلي عبد العزيز، اللسانيات العامة واللسانيات العربية، مطبعة النجاح الجديدة الطبعة الأولى، - الدار البيضاء، 1991.
8. داني رويبر دوفور، البنوية الطية والثالثوت، العرب والفكر العالمي، العدد التاسع، - شتاء 1990.
9. الركيك محند، نظرية التواصل في ضوء اللسانيات الحديثة، علامات، العدد 24، 1994.
10. ستروك جون البنوية وما بعدها: من ليفي ستراوس إلى دريدا، تر: محمد عصفور، عالم المعرفة، 206، يناير 1996

11. سبيلامحمد - سعيد العالي عبد السلام، اللغة، سلسلة دفاثر فلسفية، نصوص مختارة 5، دار توبقال للنشر، - الطبعة الخامسة، البيضاء-المغرب 2010.
12. استيتية سمير شريف، اللسانيات: المجال، والوظيفة، والمنهج، عالم الكتب الحديث، الطبعة الثانية 2008، الطبعة الأولى، إربد الأردن، 2005.
13. شادلي المصطفى، البنيوية في علوم اللغة، تر: سعيد جبار، رواية للنشر والتوزيع، القاهرة 2015.
14. شنوقة السعيد، مدخل إلى المدارس اللسانية، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة 2008.
15. شولز روبرت، البنيوية في الأدب، تر: حنا عبود، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1914، الطبعة السابعة: 1977م.
16. طليحات غازي مختار، في علم اللغة، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، الطبعة الثانية، دمشق، 2000.
17. عبد العزيز محمد حسن، علم اللغة الحديث، مكتبة الآداب، الطبعة الأولى، القاهرة 2011 م.
18. عمايرة خليل احمد، في نحو اللغة وتراكيبها، منهج وتطبيق في الدلالة، مؤسسة علوم القرآن، الطبعة الثانية: عجمان، 1990.
19. غلفان مصطفى، في اللسانيات البنيوية منهجيات واتجاهات، دار الكتاب الجديدة المتحدة، الطبعة الأولى، 2013
20. -في اللسانيات العامة: تاريخها، طبيعتها، موضوعها، مفاهيمها، دار الكتب الجديدة المتحدة، الطبعة الأولى 2010م.
21. غلفان مصطفى: اللسانيات العربية الحديثة: دراسة نقدية في المصادر والأسس النظرية والمنهجية. جامعة الحسن الثاني - عين الشوق كلية -الآداب والعلوم الإنسانية. سلسلة رسائل وأطروحات، رقم: 4
22. عبد القادر الفاسي الفهري، ملاحظات أولى عن تطور البحث اللساني بالمغرب، ندوة اللغة العربية والنظريات اللسانية، كلية الآداب فاس سايس 21-22/11/2007
23. كامل وفاء محمد، البنيوية في اللسانيات، عالم الفكر، المجلد 26، العدد الثاني، أكتوبر ديسمبر 1997.
24. كريزويل إديث، عصر البنيوية، تر: جابر عصفور، دار سعاد الصباح، الطبعة الأولى، الكويت، 1993
25. كلارك سايمون، أسس البنيوية نقد ليفي شتراوس والحركة البنيوية، تر: سعيد العليبي، المركز القومي للترجمة 2015م.
26. مالبرج برتيل، مدخل إلى اللسانيات، ترجمة السيد عبد الظاهر، مراجعة وتقديم صبري التهامي، المركز القومي للترجمة، الطبعة الأولى 2010.
27. المتوكل أحمد، اللسانيات الوظيفية المقارنة: دراسة في التنميط والتطور، دار الأمان، الطبعة الأولى، الرباط، 2012.
28. المرتجي أنور، ميخائيل باختين: الناقد الحوارية، منشورات زاوية للفن والثقافة، 2009.
29. مليطان محمد، نظرية النحو الوظيفي، الأسس والنماذج والمفاهيم، دار الأمان، الطبعة الأولى الرباط، 2014.

30. مومن أحمد، اللسانيات: النشأة والتطور، جيفري سامسون، ترجمة: محمد زياد كبة، مطابع جامعة الملك سعود، 1997.

31. ياكبسون رومان، الاتجاهات الأساسية في علم اللغة، تر: علي حاكم صالح وحسن ناظم، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، البيضاء- بيروت، 2002.

المواقع:

32. بناني محمد الصغير، المدارس اللسانية في التراث العربي وفي الدراسات الحديثة، ص:76؛ نقل عن:

عبد الله أحمد جاد الكريم حسن، أهم الانتقادات الموجهة إلى المدرسة البنيوية، شبكة الألوكة، الموقع:

http://www.alukah.net/literature_language/0/100817/

33. اللسانيات العربية الحديثة -نحو مقاربة إبستمولوجية- د. حافظ إسماعيلي علوي ج 2:

https://boudramazaidi.blogspot.com/2016/02/Allsaniyat-Arabic-surgery-Nho-approach-abstamologih_19.html?m=1

من مظاهر الارتباطات النحوية العربية

- البناء التصوريّ المعرفيّ على الخلفية البنيوية –

أ. سمير لعويسات

جامعة مولود معمري، تيزي- وزو

تاريخ الإرسال: 2019 / 02 / 07 تاريخ القبول: 2019 / 02 / 24 تاريخ النشر: 2019 / 03 / 31

الملخص: يقدم هذا المقال فرضية وجود علاقات بين الأنماط النحوية للغة العربية، تظهر هذه العلاقات نظرا لعدّة عوامل يمكن وصفها بالخلفيات، ومن ذلك الخلفية البنيوية، وهي الخلفية التي ركّزنا عليها في هذه الدراسة، والمقصود من قولنا الخلفية البنيوية هنا مجمل المعرفة اللغوية التي يخترنها ذهن المتكلم المثالي ولقد اخترنا هذه الفرضية من خلال فحص بعض الأنماط النحوية، وتتبع بعض الظواهر الناشئة بوجودها ضمن الكلام، ومن خلال بعض أقوال العلماء في النحو واللغة العربية قديما وحديثا ومن خلال التركيز على مبدأ التصور في النحو على ضوء اللسانيات المعرفية، وبناء على فرضية كون اللغة قد نمت بشكل متدرّج، ظهر لنا احتمال قوي لوجود العلاقات وبشكل كتشابه بين مختلف الأنماط النحوية العربية.

الكلمات المفتاحية: البناء التصوريّ؛ الخلفية البنيوية؛ المعرفة اللسانية؛ الواضع الأول؛ الارتباطات النحوية؛ الأنماط النحوية.

Som manifestations of the arabic grammatical correlations - the Knowledge background based conceptualization –

Abstract: This article presents the hypothesis of a relationship between the grammatical patterns for Arabic language, These relations arise due to several reasons, which can be described as backgrounds, including

structural background, It is intended background specifically in this study, The Structural background is intended to say here the overall linguistic knowledge which stockpiled the mind of an ideal speaker, this hypothesis has been tested through the examination of some of the grammatical patterns, and tracking of some phenomena arising from its existence within the speech, and through some words in Arabic Language scientists as old and new, and focusing on the principle of perception as in the light of linguistics knowledge, based on the premise that the language has grown gradually, appeared to us a strong probability of the existence of the relations between different grammatical patterns.

Keywords: Conceptualization; structural background; linguistic knowledge; the first developer ; gramatical correlations; gramatical frames.

مقدمة:

لقد أورد ابن جني في كتاب الخصائص نماذج كثيرة من الظواهر النحوية يمكن توظيفها لبيان مفهوم البناء التصوري القائم على الخلفية البنيوية، ولأجل هذا سيجد القارئ لهذه الدراسة أنّ الحضور الأكبر هو لابن جني، إلى جانب سيبويه وآخرين، وكان التركيز كثيرا على ما جاء به ابن جني كون مفاهيمه التي تظهر من مختلف مواقفه وتحليلاته تقترب كثيرا من المفاهيم اللسانية المعرفية.

1- البناء التصوري: هذا مفهوم اعتمدها مقابل المصطلح الأجنبي conceptualisation القريب من المصطلح: conceptual structure الذي يمكن مقابله باللفظ العربي: (البنية التصورية) من خلال النظرية اللسانية المعرفية، جاء في أحد مصادر هذه النظرية: "حين لم يكن البناء التصوري عندنا محصورا في مجال محدد، لم تكتف اللغة بالتزويد والحصّ على بناء البناء التصوري، إنما تؤدي اللغة كذلك وظيفة التفاعل"¹ وقد اعتمدنا مصطلح (البناء التصوري) من خلال مقاربة (معرفية) للنحو العربي تفكيراً واستعمالاً وفق أحد أسس التنظير المعرفي، هذا الأساس هو اعتبار النحو (تصوراً) لدى

اللسانيين المعرفيين، والاعتقاد بعدم الفصل بين المعرفة اللغوية - في الذهن - وسائر أنماط المعرفة الأخرى التي تشملها التجربة الإنسانية، ومن خلال عرضنا للفكرة، وبعد تحليل وتفكيك هذا المفهوم /التصوّر/ توصلنا إلى أنّ البناء التصوّريّ يقوم على مجموعة من الخلفيات: معرفية / ذهنية / بنيوية / فيزيولوجية، والخلفية البنيوية* هي المعرفة اللسانية لدى الفرد المتكلّم سليقة، سواء أكان الواضع الأوّل للسان، أو مكتسبه بعد اكتماله اكتساباً طبيعياً، وهذه الخلفية هي التي سنقف على مدى تأثيرها في تشكيل هذا البناء التصوّريّ الذي يتمظهر في هذه الارتباطات النحوية.

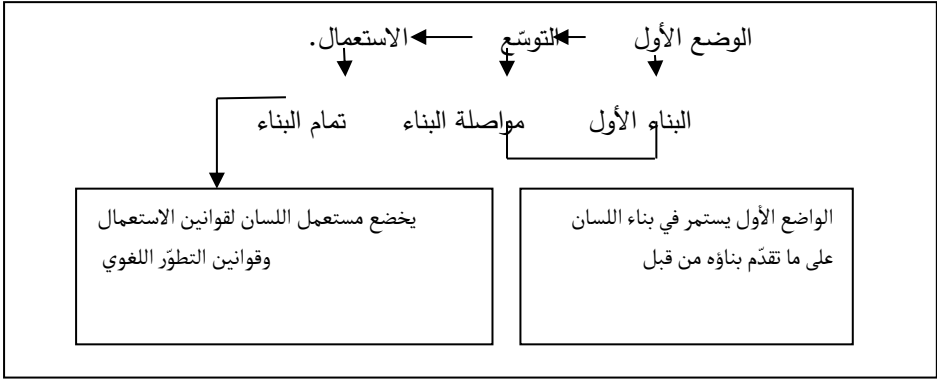
وخلال هذه المقاربة، وحين تمّ فحص مجموعة من الأنماط النحوية العربية، ظهر أنّ هذه الأنماط تربطها علاقات بعضها ببعض، يمكن وصفها بالمتشابهة، بموجب مختلف هذه الخلفيات المذكورة - وربما يوجد غيرها كذلك - أحيانا باجتماع اثنتين منها أو أكثر، وهذا جعلنا نرى نوعاً آخر من الارتباطات تبدو أكثر تعقيداً، بلغ مستوى تكوين علاقات بين أنماط نحوية مفردة وأخرى مركّبة، ولقد أشار ابن جنّي إلى هذا وساق مثالا بما نصّه: "فلما كانت بين المفرد والجملة هذه الأشباه والمقاربات وغيرها، شبهوا توالي الضمّتين في نحو سُرْحٍ وعُلُطٍ، بتواليهما في نحو زيدٌ قائمٌ"² وقد قال قبل هذا: "وذلك أنّا قد أخطنا علماً بأنّ الضمّة أثقل من الكسرة، وقد ترى مع ذلك إلى كثرة ما توالى فيه الضمّتان نحو طُنْبٍ وعُنُقٍ... وعلّة ذلك عندي أنّ بين المفرد والجملة أشباها"³ ولا نستبعد وجود هذه العلاقات المعقّدة كذلك حتّى حينما تكون الخلفية البنيوية وحدها.

ويوضّح لنا الجانب البنيويّ للسان العربيّ تلك الارتباطات النحوية بنيوية، ومن دلائل حصول هذه الارتباطات، وبالتالي نلاحظ نشأة ظواهر نحوية بموجب هذه الارتباطات، أنّها عند ابن جنّي أمر واقع وذلك حين تحدّث عمّا أسماه "قوّة تداخل هذه اللغة وتلاحمها، واتّصال أجزائها وتلاحقها، وتناسب أوضاعها..."⁴ ونجد ذلك مثلاً في النموذج الذي ذكره سيبويه في مسألة التثنية، بحيث جعلت الألف للرفع والياء للجرّ ولم يكن العكس فقال: "الجرّ الأكثر في الأسماء وذلك لكثرة العوامل الداعية إليه، فإذا كان الأغلب فلا يصحّ أن يكون تابعا"⁵ حينما قال: "الجرّ الأكثر في الأسماء" فهو يستند إلى البنية العامة أو عرف الاستعمال، إمّا بالاستقراء، أو كحال كلّ متكلّم مثاليّ يعي هذه الحقيقة ضمناً، وأثناء إنشاء الكلام يُستغلّ جزء من المعرفة اللسانية المخزونة /البنية العامّة/ ويتمّ استحضار أجزاء أخرى ليس لتوظيفها في السياق، وإنّما يستدعيها ما يتمّ استغلاله في السياق /البنية الخاصّة/

ذهنيا لعلاقة ما بين البنيتين، وقبل ذلك كان في ما مضى يستدعيها المقام لتحكيمها في شأن الأنماط المتولدة، لإتمام بناء اللسان، والمقصود بالعلاقات هنا تلك العلاقات التي عبّر عنها اللغويون قديما بما أسماه الشبه والنظير، والنقيض، والأصل والفرع، وكلّها تنتهي عند الشبه حين تقضي هذه العلاقات إلى حدوث الظاهرة النحوية، ولقد أقرّ النحاة قديما ثبوت هذه الخصية، فلذلك يقول الأستاذ عبد الجبار بن غريبة: "فإنّ جلّ النحاة شعروا بضرورة القول بوجود أصناف من الوحدات لها خصائص تؤهلها للانتباء إلى قسمين من الأقسام الثلاثة المذكورة وقد فسّروا ذلك في الغالب بمبدأ المشابهة"⁶ لأنّه في النهاية يكون العمل أو عدمه، أو استحقاق الصفة أو عدمه، بسبب هذه المشابهة التي منشؤها الخلفية النبوية، وعلى سبيل المثال "فإنّ تعمل لأنها تدلّ على التأكيد فأشبهت الفعل معنى، ولأنّها ثلاثية فأشبهته صورة، فإذا خفّفت ضعف شبهها به فقلّ عملها"⁷ لبعدها عن شبه الفعل في لفظها بعد تخفيفها؛ بل إنّ هذه المشابهة يمكن أن تحصل مرتين في آن واحد أي ذات اتّجاهين نفهم ذلك حين يقول ابن جني: "فلما رأى سيبويه العرب إذا شَبَّهت شيئا بشيء فحملته على حكمه، عادت أيضا فحملت الآخر على حكم صاحبه تثبينا لهما وتتميما لمعنى الشبه بينهما"⁸ أمّا العلاقات الأخرى، كالنظير والنقيض وحمل الأصل على الفرع والفرع على الأصل فتأبته كذلك، كاعتبار الجزم نظيرا للجرّ بسبب اختصاص الأوّل بالفعل واختصاص الثاني بالاسم، وذلك لما بين الفعل والاسم من تباين، قال سيبويه: "لأنّ الجزم في الأفعال نظير الجرّ في الأسماء"⁹ وكون الإعراب من خصائص الاسم، إلّا ما شابه الفعل، وكون البناء من خصائص الفعل، إلّا ما شابه الاسم والإعراب نقيض البناء فتنشأ علاقة حينئذ، قائمة على بنية اللسان المختزنة وعرف الاستعمال، فحين يعمل الاسم عمل الفعل فقد شابهه بموجب علاقتي النظير والنقيض هاتين، أو حينما يُحمل التعريف على التنكير لعلاقة النقيض التي بينهما، وكذلك بعلاقة الشبه التي يترتّب عنها عمل الاسم لمشابهته الفعل بسبب التنكير، وعدم عمله إذا لم يشبه الفعل، وذلك حين لا يكون التنكير، وعمل اسم الفاعل عمل الفعل المضارع بسبب مشابهة لفظية بينهما، أو كعمل المصدر عمل الفعل، أو تميل الكلمة إلى الاسمية أكثر لاحتوائها خصائص الاسم كالتعريف، أو التصغير، أو الوصف وغير ذلك، فتمتنع عن العمل حينئذ وتظهر من خلال هذا هذه العناصر: الاسم/ الفعل/ الإعراب/ البناء/ الشبه/ النظير/ النقيض/ التنكير من خلال (عمل الاسم لمشابهة الفعل).

ثمّ إنّ الحديث عن هذه الارتباطات يوجب علينا الإشارة إلى إمكان احتمال وقوع اختلاف بين الواضع الأوّل للسان، ومستعمل هذا اللسان بعد اكتمال تشكّل الأنماط

النحوية في المراحل المتلاحقة والظاهر أنّ ذلك يشكّل امتدادا طبيعيا وتصوره على هذا النحو:



تمثّل المرحلتان، الأولى والثانية مهمّة الواضع الأول، ويظهر في هذه المرحلة التدرّج في إحداث الأنماط النحوية وتكوينها، ويرى ابن جنّي هذا التدرّج أمرا منطقيًا في الوضع حيث قال: "فإنّها لا بدّ أن يكون وقع في أوّل الأمر بعضها، ثمّ احتيج فيما بعد إلى الزيادة عليه لحضور الداعي إليه، فزيد فيها شيئاً فشيئاً، إلّا أنّه على قياس ما كان سبق منها في حروفه"¹⁰ والظاهر أنّ القياس المذكور في هذا الكلام هو العملية الذهنية الضمنية المستمرة، وهو تصوّر ذهنيّ لأنّ "العلل النحوية والقياس شيء أرادته العرب وفعلته وإن لم تنطق بمصطلحاته"¹¹ والتصوّر الذهنيّ هو المفهوم الذي يعتمده اللسانيون المعرفيون وعليه فيكون التوسّع حينئذ بالنظر إلى ما قد سبق من أنماط، وربّما لأجل ذلك ظهرت هذه الارتباطات فيما بعد والثالثة مرحلة مكتسب اللسان بالطريقة الطبيعية ومستعمله، ولكلّ من الواضع خلال مراحل البناء والمكتسب بعد اكتمال البناء، تصوّر خاص للأنماط النحوية.

2- بعض الارتباطات القائمة على الخلفية البنيوية: سنسعى إلى بيان ذلك من خلال

فحص بعض الأنماط النحوية العربية، ويكون على النحو الآتي:

أ- التنكير والوصف والخبر: سنعرض هنا تصوّرنا حول إمكان الجمع بنيويا ما بين (الخبر والنكرة والصفة) والدافع إلى هذا التصوّر ومبدؤه ما يعرف بـ (النعته المقطوع) الذي كان في سياق ما صفة لموصوف، ثمّ يمكنه أن يتحوّل في السياق نفسه إلى خبر لمبتدأ، كقولك: مررت بالمدينة الصاخبة (يكسر التاء) في (الصاخبة) حين تكون إرادة الوصف، ثمّ تقول: مررت بالمدينة الصاخبة (بضمّ تلك التاء) للوصف كذلك ولكن بطريقة مختلفة، ومن الواضح أنّ السياقين مختلفان باعتبار قصد المتكلّم لأنّ في السياق الثاني يكون تقدير المضمّر الواجب الاستغناء عنه في التركيب الإضمينيّ، وحين يتمّ تقديره يحضر المعنى المناسب له وهو الحصر، فكأنّك تقول: (مررت بالمدينة هي الصاخبة) ولفظ (الصاخبة) بالضمّ خبر لا مبتدأ له في السياق، وإنّما يقدر تقديرا، مثلما أنّه وصف لا موصوف له باعتبار الموصوف في التركيب الأول، لعدم تحقّق المطابقة بين الموصوف والصفة حينئذ إعرابيا، وهذا يفضي إلى علاقة بين الخبر والصفة.

وتظهر هذه العلاقة بين الخبر والصفة/النعته بدءا بالاصطلاح، فالنحاة يسمّون النعته وصفا للموصوف، والخبر وصفا للمبتدأ بالاصطلاح كذلك، وكلاهما حكم على ما يليه رتبة أو في المعنى والخبر كما هو معلوم حكمه التنكير، والتنكير يسوّغ له الوصف في الابتداء، ليصحّ وصفه بالخبر ويمكن التعرّف على العلاقة بين الخبر والصفة كذلك من جهة العلاقة بين الوصف والتنكير، مادامت توجد علاقة بين الخبر والنكرة، كون الخبر نفسه نكرة في الأصل ويجيء في الكلام ليزيل إبهاما، هذا الإبهام الذي هو بمنزلة التنكير، والجملة بعد النكرة وصف لها، مثلما أنّ الخبر النكرة بعد المبتدأ وصف له وبالنظر إلى أنّ:

*- الجملة بعد النكرة وصف لها.

*- وفي الوصف يكون الخبر.

*- والخبر وصف ونكرة.

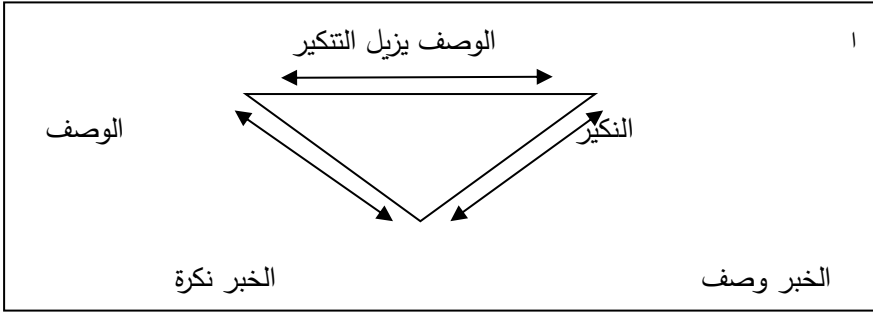
*- وفي الوصف تكون الجملة الواقعة بعد النكرة.

*- وفي الوصف تكون الصفة المسوّغة للابتداء بالنكرة ليصحّ الوصف بالخبر.

*- وفي التنكير يكون المبتدأ النكرة، والخبر، والنكرة التي تقع بعدها الجملة

الواصفة.

فتكون العلاقة حسب تصوّرنا على هذا النحو: ((حسب استنباطنا ممّا تقدّم))



فهذا ارتباط يتشكّل في ذهن المتكلّم العربيّ المثاليّ بنيويًا، من خلال استحضاره لعنصرين من هذه العناصر الثلاثة كلّها أراد توظيف العنصر الواحد منها في السياق، ولذلك نتوقّع أن يفرض العنصران الحاضران في الذهن – كلاهما أو أحدهما – صفة من صفاتهما أو أكثر في استعمال العنصر الحاضر في السياق؛ ولاسيما حين يكون العنصر الحاضر في الذهن ذا حضور كثيف في الاستعمال، كما هو حال النكرة، قال سيبويه: "واعلم أنّ النكرة أخفّ عليهم من المعرفة، وهي أشدّ تمكّنًا، لأنّ النكرة أوّل ثم يدخل عليها ما تعرّف به ... فمن ثمّ أكثر الكلام ينصرف في النكرة"¹² وأكثر الأنماط التي تنصرف ظاهرة تشكّل صورة ذهنية عند المتكلّم العربيّ، تحضر في الذهن حين تستعمل الأنماط ذات العلاقة بها ويضاف إلى المجموع مفهومًا الخفة والثقل لأنّهما يستدعيان مختلف الأنماط التي يمكن أن تحمل إحدى الصفتين، فمن هذه الناحية كذلك يحضر (الاسم) و(الفعل) و(التذكير) و(التأنيث) و(الأصل) و(الفرع) لأنّ الخفة قد ترتبط بمفهوم الأصل، ومثل هذا ما أورده سيبويه قائلًا:

"واعلم أنّ المذكَرَ أخَفَّ عليهم من المؤنَّثِ، لأنَّ المذكَرَ أوَّل، وهو أشدَّ تمكُّناً، وإنَّما يخرج التأنِيثُ من التذكير" مثلها خرجت حواء من آدم عليه السلام¹³ فكأنَّ المذكَرَ أصل والمؤنَّثُ فرع عليه، فحين يحمل المذكَرَ على المؤنَّثِ أو العكس يكون ذلك بسبب حمل الأصل على الفرع أو العكس، قال ابن جني: "إذا جاز أن يحمل حروف المضارعة بعضها على بعض - ومراتبها متساوية وليس بعضها أصلاً لبعض - كان حمل المؤنَّثِ على المذكَرَ لأنَّ المذكَرَ أسبق رتبة من المؤنَّثِ أولى وأجدر"¹⁴ ونحن نرى في هذا الكلام حضور حروف المضارعة إلى جانب قضية التذكير والتأنِيثِ في علاقة الأصل والفرع، وبموجب العلاقة الموجودة بين مفهومي (الإعراب) و(البناء) والعلاقات التي نسجتها الأنماط المتَّصِّفة بهاتين الصفتين / أو بسبب هاتين الصفتين وسيكون ذلك حتما جزءاً من تلك البنية العامَّة، ويمكن بالاستناد إلى هذه البنية أن تتشكَّل أنماط نحوية جديدة بالنسبة للواضع، أو أن يكون مبرِّراً لاستعمال معيَّن للأنماط ولنضرب لذلك مثلاً: يرى الزجاج أن المثنى مبني لتضمَّنه معنى الحرف (واو) فحين تقول جاء رجلان، فذلك يعني رجل ورجل "وكأنَّه بني لنفس العلة التي بنيت لها الأعداد المركَّبة مثل ثلاثة عشر"¹⁵ ولعلَّ البناء الذي يراه الزجاج وضعية نون المثنى المكسورة في جميع الحالات، وهذا يسمح بالاعتقاد بأنَّ أدنى ظاهرة نحوية يمكنها أن تشكِّل صورة ذهنية ينشأ على أثرها استعمال معيَّن.

ب- النفي والشرط والاستفهام - وصيغة اسم الفعل: نحن نبحث عن العلاقة بين هذه الأساليب الثلاثة من جهة، وصيغة اسم الفعل من جهة أخرى؟ ولذلك سنحاول تحليل هذه المعطيات على هذا النحو:

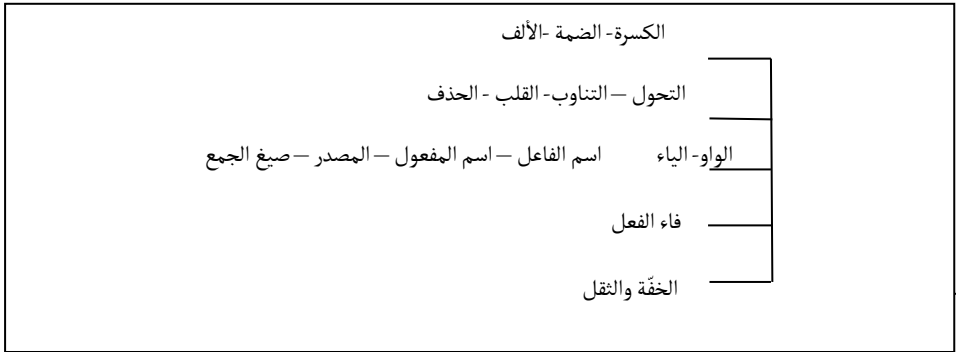
يُسلَب المعنى من الفعل بإدخال حرف النفي عليه، وقد يكون بهيئة الفعل نفسه دونها حاجة إلى حرف نفي، فأما الأوَّل فقولك، لم يعلم، ما علم، لن يعلم، لسلَب معنى العلم، وهذا الأغلب في العربية، وأما الثاني، فقولك: شكوتُ لإثبات معنى الشكوى، وأشكيت لسلبه، وهذا قليل، وأما عن علة وجود مثل هذه الأفعال في العربية يقول ابن جني: "وأنا أرى في هذا الموضع من العربية ما أذكره لك، وهو أنَّ هذا المعنى الذي وجد في الأفعال من الزيادة على معنى الإثبات بسلبه كأنَّه مسوق على ما جاء من الأسماء ضامناً لمعنى الحرف، كالأسماء المستفهم بها، نحو كم ومن وأي وكيف ومتى وأين وبقية الباب، فإنَّ الاستفهام معنى حادث فيها على ما وُضعت له الأسماء من إفادة معانيها"¹⁶ فإن كان قصد ابن جني بقوله: (ضامناً لمعنى الحرف) همزة الاستفهام، فهي تشبه في شكلها الهمزة في مثل:

(أشكيت) التي تفيد النفي، وربّما قصد حرفي الاستفهام / الهمزة وهل / ثمّ تكون الأسماء التي ضُمَّنت معنى هذين الحرفين، ثمّ إنّ من ناحية هذه الأسماء فهي تشبه أسماء الشرط، لهذا يقول ابن جني: "وكذلك الأسماء المشروط بها: من، وما، وأي، وأخواتهنّ، فإنّ الشرط زائد على مقتضاهنّ: من معنى الاسم، فأرادوا ألاّ تخلو الأفعال من شيء من هذا الحكم، أعني تضمّنها معنى حرف النفي"¹⁷ فأدّى هذا الشبه إلى الاستغناء عن حروف النفي، وتحقيق هذا المعنى بالفعل نفسه بتضمينه إياه كما يقول يالحاق الزيادة فيه، كما ضمّنوا الفعل معنى الأمر بتغيير هيئته في مثل: صه، ومه، ودونك، وحذار...

ت- الواو والياء: لقد اشتركت (الواو والياء) في الظهور في كثير من ظواهر نظام اللسان العربيّ وهذا يمكن تلمّسه من خلال فحص هذا الجانب، بناء على الخلفية النيبوية وحدها، وذلك من عدّة أوجه ذكر ابن جني في (الخصائص) ما يوحي بوجود علاقة وطيدة بين الواو والياء، كالتحوّل من إحداها إلى الأخرى، أو التناوب بينهما في الموضع الواحد، أو لحذف إحداها بسبب الأخرى، فقد أورد مثالا على هذا حول اسم المفعول من الثلاثي المعتل العين، نحو: "مبيع، ومكيل ومدين، ... لكن بنو تميم يقولون: مبيوع، ومكيل، ومخيوط..."¹⁸ فالواقع دخول الواو مع الياء عند التميميين، وعدم دخولها عند غيرهم كالحجازيين، فلذلك يجوز طرح هذا السؤال: ما الفرق بين (مبيع ومبيوع) من حيث الأثر الذهني لدى المتكلّم؟ ولماذا جاءت الواو بجانب الياء في الثانية ولم تكن معها في الأولى؟ والظاهر أنّ المسألة في هذه الظاهرة هي بين الواو والياء، ويخبر كذلك ابن جني عن الهذليين أنّهم يقلّبون الياء ألفا أكثر ممّا يقلّبون الواو ألفا، وذلك حسب "لبعد ما بين الألف والواو، وقربها من الياء، وكلّما تدانى الحرفان أسرع انقلاب أحدهما إلى صاحبه وانجذابه نحوه، وإذا تباعدا كانا بالصحة والظهور"¹⁹ فهذا لا شكّ ينبئ بتلك العلاقة التي نفترضها بين الواو والياء، وفي باب: (ترك العرب الأَخفّ إلى الأثقل من غير ضرورة) يذكر مسألة الواو والياء كذلك في ما نصّه: "... نحو قولهم: الفتوى والبقوى، والتقوى، والشروى، ونحو ذلك ألا ترى أنّهم قلبوا الياء هنا واوا من غير استحكام علّة أكثر من أنّهم أرادوا الفرق بين الاسم والصفة"²⁰ لعلّه يكون هذا الفرق هو المقصود ما بين الاسم والصفة كما قال، ولكنه كما قال كذلك ترك للخفيف واعتماد الثقيل، وما يهّمنا هو هذا الانتقال الحاصل من الياء إلى الواو، ففي هذا مظهر آخر لتلك العلاقة بين الواو والياء، ولم تنته العلاقة بين الواو والياء، فقد عرض ابن جني ملاحظة أخرى تخصّ هذين الحرفين في قوله: "وممّا يُسأل عنه من هذا الباب كثرة الواو فاء، وقلة الياء هناك، وذلك نحو وعد ووزن وورد... على قلة باب يمين ويسر"²¹

فكثرة ورود الواو في هذا المكان قد يكون بسبب سابق تصوّر ولّدته تلك العلاقة، ولاشكّ أنّ مجرد حضور الواو في ذهن المتكلّم العربيّ تحضر هذه الواو كتجربة متكاملة وتحضر الياء مع الواو وتجربة كاملة للياء، ولقد لاحظ ظاهرة أخرى ترتبط بالواو والياء كذلك، من خلال ظاهرة القلب التي تحصل في الأسماء والأفعال كالذي يحصل أثناء قلب (لواح) إلى (لياح) وهو - كما قال - صيغة فعّال من لاح حملا على جمع (فعال) المكسور الفاء مثل (حياض ورياض) من (حوض وروضة) أو حملا على المصدر (قيام وصيام) من (قام وصام) اللذين أصل عينهما واو / اق و م²² ويمكن إدراك هذه العلاقة ما بين الواو والياء من جانب الضمّة والكسرة، بما أخبر عنه ابن جنيّ إذ قال: "أفلا تراهم كيف سوّوا بين الفتحة والسكون في العدول عن الضمّة والكسرة إليهما"²³ مثل: العدول من فُعَلات وفِعَلات إلى فِعَلات وفِعَلات وفُعَلات وفِعَلات... كما قال في السياق ذاته أضف إلى ذلك أنّ مجيء الكسرة قبل الياء، والضمّة قبل الواو أكثر من مجيء الفتحة قبلها، ولقد نصّ على ذلك ابن جنيّ حين يقول: "الأ ترى أنّ الضمّة قبل الواو رسيّلة الكسرة قبل الياء والفتحة ليست من هذا في شيء لأنّها ليست قبل الياء ولا الواو وفقا لهما، كما تكون وفقا للألف"²⁴ ونفهم تلك العلاقة بين الضمّة والكسرة، والتي تؤشّر للعلاقة بين الواو والياء كذلك من حيث قيمة كلّ من الضمّة والكسرة، من خلال ما أورده الدكتور إبراهيم مصطفى مثلا حين يقول: "فأما الضمّة فهي علم الإسناد ودليل أنّ الكلمة المرفوعة يراد أن يسند إليها ويتحدّث عنها... وأما الكسرة فإنّها علم الإضافة وإشارة إلى ارتباط الكلمة بما قبلها... ولا تخرج الضمّة ولا الكسرة عن الدلالة على ما أشرنا إليه إلا أن يكون ذلك في بناء أو في نوع من الإتياع"²⁵ وعليه فتصوّر علاقة ما بين الكسرة والضمّة أمر منطقيّ ونحن تهّمنا هذه العلاقة لأنّها تحيلنا بدورها إلى ما بين الواو والياء من علاقة، من جهة أنّ الواو أخت الضمّة والياء أخت الكسرة²⁶ وتنضمّ إلى هذه الظاهرة عناصر أخرى يمكنها تعزيز هذه العلاقة بين الواو والياء، ذلك حينما نستعرض مسألة حذف الواو، ومختلف المواطن التي تحذف فيها، ونجد أنّ من أسباب حذفها أحيانا وجود الياء، كما في مضارع الأفعال: وزن- وعد- وضع - لأنّ قبل الواو المحذوفة ياء، وبعدها كسرة، والكسرة أخت الياء، وقد تمتدّ علاقة الارتباط بين الواو والياء إلى علاقة هذين الحرفين بحرف ثالث هو الألف، من حيث مسألة الحذف هذه التي قد تربط بين اللف والواو، ومن حيث اشتراك الياء والألف لكونهما علامتي نصب، كما أنّ الواو والألف علامتا رفع، ويمكن الاستعانة هنا بهذا النموذج الذي ذكره ابن جنيّ عندما قال: "إنّهم لم يقولوا: رأيت فاي، وإنّما يقولون: رأيت فيّ، هذا مع أنّ هذه الياء لا يُنكر أن تأتي بعد الألف، نحو رحايّ وعصايّ،

لخفة الألف فدلّ امتناعهم من إيقاع الألف قبل هذه الياء على أنه ليس طريقه طريق الاستخفاف والاستتقال، وإنّما هو لاعتزامهم ترك الألف والواو قبلها كتركهم الفتحة والضمة قبل الياء في الصحيح، نحو غلامي وداري²⁷ فهذا لا شكّ يدعم هذه العلاقة بين الواو والياء، من خلال قول ابن جني: (وإنّما هو لاعتزامهم ترك الألف والواو قبلها كتركهم الفتحة والضمة قبل الياء في الصحيح، نحو غلامي وداري) ولنفحص هذه العلاقة بتلخيص كلّ هذه الإشارات في هذا الشكل:



الأنماط الواردة في هذا الشكل تمثّل مجموعة من الارتباطات، استدعتها هذه العلاقة التي بين الواو والياء على الأقل، لأنّ هذه العلاقة ليست بمعزل عن ظواهر أخرى، أو ربّما علاقات أخرى، تشكّل ارتباطات أخرى، لأنّ للواو والياء حضور دائم في الكلام العربيّ، ولأنّ لكلّ هذه العناصر التي ظهر ارتباطها بظاهرة الواو والياء – في هذا الرسم على الأقلّ - مواقعها ولها ارتباطات هي الأخرى، ولقد ذكرنا الألف على سبيل المثال.

*- الخفة والتقل: فمسألة الخفة والتقل نجدها خلف نشوء ظواهر نحوية كثيرة، كوضع الياء بدل الواو في مصيبة التي أصلها مصوبة، قال ابن جني: "وإنّما مصيبة مُفَعِلَة من أصاب يصيب وأصلها مُصَوِّبَة"²⁸ لأنّها ارتبطت بصيغة جمع وهي (فعيلة) التي تجمع على (فعائل) قال كذلك: "وكأنّهم توهّموا أنّ مصيبة على مثال فعيلة، فهمزوها حين جمعوها كما همزوا جمع سفينة سفائن... وأكثر العرب يقول مصاوب"²⁹ ورغم ذلك عدلوا إلى مصائب وهي الأكثر شيوعاً، فالعربيّ كما يبدو خضع لقياسين أحدهما منطقيّ لأنّ المقيس عليه والمقيس

من فئة واحدة، والقياس الآخر ذهنيّ تصوّريّ مبنيّ على الخلفية البنيوية/ البنية العامة، يجمع بين طرفين لا ينتميان إلى فئة واحدة، إلا من جهة تلك العلاقة وتمتدّ مسألة الخفّة والثقل بين الواو والياء أكثر، لأننا نرى ظواهر سببها هذا المبدأ، فكثير من الأفعال الماضية التي فاؤها واو انقلبت في المضارع ياء بسبب الخفّة والثقل، وهنا تجتمع الواو والياء والضمة والكسرة في آن واحد، أو كالذي رواه ابن جنيّ عن الفراء حين قال: "وقال الفراء: إنّ الواو إنّما حذفت من (يعد ويزن) لأنّهما متعدّيان... وكذلك كلّ متعدّد³⁰ وهنا يظهر نمطان آخران هما التعديّة واللزوم والعلاقة بينهما.

*- اشترك الواو والياء في التحوّل إلى الألف: هذه الظاهرة تكون حينما تأتي الواو أو الياء مفتوحة وقبلها فتحة كذلك، والمعروف حينئذ قلب هاتين / الواو أو الياء ألفا تكون مداً للحرف المفتوح قبلهما نحو: قال / صال / دام / عاد / صام / قام وغيرها، فهذه أصلها صول / دوم / عود / صوم / قوم، بفتح الواو والحرف الذي قبلها، أمّا نحو: باع / ساح / تاه / مال / باد / وغيرها، فأصلها: بيع / سيح / تيه / ميل / بيد / بفتح الياء والحرف الذي قبلها، ويفسّر ابن جنيّ هذه الظاهرة بقوله: "فإذا قلت: فقد قالوا في يؤجل: يا جل، وفي ييأس: ياءس... فقلبوا الياء والواو هنا ألفين، وهما ساكتان، وفي هذا نقض لقولك؛ ألا تراك إنّما جعلت علّة قلب الواو والياء ألفين تلك الأسباب، التي أحدها كونهما متحرّكتين"³¹ وفي المثالين قلبت الواو ألفا والياء ألفا، وهما ساكتان، وهذا مخالف لما اعتبره ابن جنيّ قاعدة في تخصيص العلّة، ويبدو أنّ لابن جنيّ مخرجا من هذا، وهو في ما سمّاه: "المعلول بعلتين"³²

*- صيغ الجمع: في بعض هذه الصيغ، وحين تلتقي الواو والياء، يظهر لنا أنّ العلّة في مثل هذا إنّما هي بنيوية، ذلك ربّما بالاستناد إلى المثال الذي أورده ابن جنيّ في قلب الواو ياء في نحو: نحو (مسلميّ)³³ الذي أصله (مسلموي) قياسا على (مسلموك) فالعلّة في هذا القلب علّتان حسب ابن جنيّ وهما:

*- الأولى: اجتماع الواو والياء، وكانت الأولى ساكنة.

*- الثانية: كون ياء المتكلم تكسر الحرف الذي قبلها إن كان حرفا صحيحا.

ولكنّا نجد هذه الظاهرة تقع بين الواو والياء.

وتمتدّ هذه العلاقة إلى أنماط أخرى، فحينما شابهت التاء في الجمع المؤنث الواو والياء في الجمع المذكور؟ وهذا الشبه الذي كان بسبب اعتبار التنوين الذي يلحق التاء كالنون

في جمع المذكّر، فقد جعلوا تاء الجمع في الجرّ والنصب مكسورة وهي تاء جمع المؤنّث السالم الذي علامة نصبه الكسرة وهي ذاتها علامة الجرّ فيه وعلّة ذلك حسب سيبويه: "لأنّهم جعلوا التاء التي هي حرف الإعراب كالواو والياء والتنوين بمنزلة النون لأنّها في التأنيث نظيرة الواو والياء في التذكير فأجروها مجراها"³⁴ معتبرا التاء نظير الواو والياء / ذاهبات / ذاهبون / ذاهبين / وتحضر بالواو والياء هنا كذلك لأنّهما اشتركتا في هذه الصفة بالنسبة لتاء التأنيث في الجمع، إلى جانب مسألة التذكير والتأنيث، التي اعتبرها ابن جيّ مسألة أصل وفرح مضيّفا كلاما في حالة التاء هذه حين قال: "ثمّ لمّا صاروا إلى جمع التأنيث حملوا النصب أيضا على الجرّ، فقالوا ضربت الهدنات... ولا ضرورة هنا، لأنّهم قد كانوا قادرين على أن يفتحوا التاء فيقولوا: رأيت الهدنات، فلم يفعلوا ذلك مع إمكانه... فدلّ دخولهم تحت هذا - مع أنّ الحال لا تضطرّ إليه- على إثارهم واستحبابهم حمل الفرع على الأصل"³⁵ وكان فتح التاء ممكنا عند النصب كما قال.

ولقد حاول الباحث عبد العزيز سعيد مجحود الزاهريّ إيجاد العلاقة ما بين الواو والياء من خلال بحثه في الفعل الناقص، ما بين الواويّ واليائيّ منه، مختبرا نظرية تعرف بـ "بثنائية الألفاظ اللغوية"³⁶ إلّا أنّه تناول المسألة من جهة المعنى، دون أن تتّضح منطلقات اختيار الواوي واليائيّ عند هذا الباحث.

خاتمة: نخلص من هذه الدراسة إلى ما يلي:

- النحو العربيّ خاضع لمظاهر البناء التصوّريّ المعرفي، ويمكن الكشف عن هذه المظاهر من خلال فحص العلاقات الموجودة بين مختلف الأنماط بنيويا.
- البناء التصوّريّ المعرفيّ القائم على الخلفية البنيوية، ما هو إلّا وجه آخر للشبه، والنظير، والنقيض وحمل الأصل على الفرع، والفرع على الأصل، وهذا طرح نظريّ عربيّ قديم.
- هذه العلاقات التي من ضمنها علاقة الشبه، الظاهر أنّ هذه الأخيرة تحتويها، باعتبار أنّها تقف خلف نشوء نمط نحويّ أو ظاهرة لسانية بصفة عامّة، كما قد نرى في عمل وحدة من الوحدات، فهي محمولة على غيرها بسبب إحدى هذه العلاقات، ولكنها في النهاية تتشبه بالوحدة العاملة في الأصل.

- ليس شرطاً أن يحصل الارتباط بين الأنماط التي تنتمي إلى فئة واحدة، كما حصل بين التنكير والوصف، والخبر، أو كما حصل بين النفي والشرط والاستفهام من جهة -وهي أساليب تكون في التراكيب- وصيغة اسم الفعل التي هي بنية صرفية للكلمة.

الهوامش:

¹- Vyvyan Evans and Melanie Green, cognitive linguistics an introduction, Edinburgh university press, great Britain: 2006, p21.

*- ويمكن التعبير عن ذلك بفكرة القياس الذي يمارسه المتكلم كعمل ذهني مثل /قياس اللغة على اللغة/ بصفة ضمنية.

²- ابن جني، الخصائص، ط2. تحقيق: محمد علي النجار، مصر: 1952، المكتبة العلمية، ج3، ص 179.

³- نفسه، ج3، ص 177، بتصرف.

⁴- نفسه، ج1، ص 312، بتصرف.

⁵- عمرو بن عثمان بن قنبر، كتاب سيبويه، دط. تحقيق: عبد السلام محمد هارون، القاهرة: دت، مكتبة الخانجي، ج1 ص 18، في هامش الصفحة.

⁶- عبد الجبار بن غريبة "الواو بين العطف والتعليق" المعنى وتشكله، دب: 2003، منشورات كلية الأدب منوبة المجلد العاشر، ج1، ص 207 بتصرف.

⁷- إبراهيم مصطفى، إحياء النحو، ط2. القاهرة: 1992، ص26.

⁸- ابن جني، الخصائص، ط2. ج1، ص 308.

⁹- عمرو بن عثمان بن قنبر، كتاب سيبويه، دط. ج1، ص 19.

¹⁰- ابن جني، الخصائص، ط2. ج2، ص 28.

¹¹- سعيد الأفغاني، في أصول النحو، دط. دمشق: 1963، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية، ص 95.

¹²- عمرو بن عثمان بن قنبر، كتاب سيبويه، ج1، ص 22 بتصرف.

¹³- نفسه، ج1، ص 22.

¹⁴- ابن جني، الخصائص، ط2. ج1، ص 112.

¹⁵- شوقي ضيف، المدارس النحوية، ط7. القاهرة: 1968، دار المعارف، ص 138.

¹⁶- ابن جني، الخصائص، ط2. ج3، ص 81.

¹⁷- نفسه، ج3، ص 82.

¹⁸- نفسه، ج1، ص 260، بتصرف.

¹⁹- نفسه، ج1، ص 151.

²⁰- نفسه، ج1، ص 133-134، بتصرف.

²¹- نفسه، ج3، ص 181، بتصرف.

²²- نفسه، ج3، ص 162، بتصرف.

- 23- نفسه، ج 1، ص 59.
- 24- نفسه، ج 3، ص 23.
- 25- إبراهيم مصطفى، إحياء النحو، ط 2. القاهرة: 1992، ص 50، بتصرف.
- 26- ينظر ابن جني، الخصائص، ج 2، ص 327.
- 27- ابن جني، الخصائص، ط 2. ج 1، ص 175.
- 28- شوقي ضيف، المدارس النحوية، ط 7. ص 119.
- 29- نفسه، ص 119، بتصرف.
- 30- ابن جني، المنصف لكتاب التصريف، ط 1. تحقيق: إبراهيم مصطفى وعبد الله أمين، الإسكندرية: 1954، الهيئة العامة للكتاب، ج 1، ص 188.
- 31- ابن جني، الخصائص، ط 2. ج 1، ص 155، بتصرف.
- 32- نفسه، ج 1، ص 155.
- 33- نفسه، ج 1، ص 174.
- 34- عمرو بن عثمان بن قنبر، كتاب سيبويه، دط. ج 1، ص 18.
- 35- ابن جني، الخصائص، ط 2. ج 1، ص 111.
- 36- عبد العزيز سعيد محمود الزاهري، العلاقة بين الواوي واليائي في الناقص، رسالة ماجستير، المملكة العربية السعودية: 2012، جامعة أم القرى، ملخص الدراسة.
- مصادر ومراجع البحث -**

- إبراهيم مصطفى، إحياء النحو، ط 2. القاهرة: 1992.
- 2- ابن جني، الخصائص، ط 2. تحقيق: محمد علي النجار، مصر: 1952، المكتبة العلمية ج 3
- 3- ابن جني، المنصف لكتاب التصريف، ط 1. تحقيق: إبراهيم مصطفى وعبد الله أمين الإسكندرية: 1954، الهيئة العامة للكتاب، ج 1
- 4- سعيد الأفغاني، في أصول النحو، دط. دمشق: 1963، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية.
- 5- شوقي ضيف، المدارس النحوية، ط 7. القاهرة: 1968، دار المعارف.
- 6- عبد الجبار بن غريبة "الواو بين العطف والتعليق" المعنى وتشكله، دب: 2003، منشورات كلية الأدب منوبة، المجلد العاشر، ج 1

-
- 7- عبد العزيز سعيد محمود الزاهري، العلاقة بين الواوي والياء في الناقص، رسالة ماجستير المملكة العربية السعودية: 2012، جامعة أمّ القرى.
- 8- عمرو بن عثمان بن قنبر، كتاب سيبويه، دط. تحقيق: عبد السلام محمد هارون، القاهرة: دت مكتبة الخانجي، ج 1
- 9-Vyvyan Evans and Melanie Green, cognitive linguistics an introduction, Edinburgh university press, great Britain: 2006.

هندسة ماندلبروت الكسيرية نموذجاً للتطبيق اللساني

د. عبد الرحمن محمد طعمة

كلية الآداب، جامعة القاهرة، مصر

aaubad@cu.edu.eg

تاريخ النشر: 2019/03/31

تاريخ القبول: 2019/02/24

تاريخ الإرسال: 2018/06/27

الملخص: هذه المقالة الموجزة تحاول توضيح نظرية علمية مهمة وشهيرة جداً في رياضيات الطبيعة، تتكامل مع متوالية فيبوناتشي Fibonacci، ونموذج آلن تورنج Turing، وغيرهما، من العلماء الذين حاولوا تفسير التشكل والتخلق المُشاهد في صفحة الكون، والحقيقة أن توضيح جهد ماندلبروت Mandelbrot يحتاج إلى دراسة ضخمة، لكنني سأحاول بلورة الفكرة بصورة مكثفة وواضحة، مع تقديم نموذج التوليد عند تشومسكي Chomsky في إطار الطرح الجديد عن التوالد الذاتي المهيمن على هذه التشكلات في الكون كله، لأن اللغة هي الشكل الوحيد المعبر عن هذا الوجود، ولا يمكن أن تكون منفصلة بطبيعتها عن خصائص العناصر المُشكَّلة في هذا الكون؛ فإذا كانت فكرة التشابه المتكرر، أو التوالد الذاتي، هي النمط الأقرب إلى حقيقة ما نشاهده من تشكلات ممكنة في حيز إدراكنا، فإن هذه اللغة - بالتبعية - تخضع للفكرة نفسها في تشكيلها هي ذاتها. وهذا ما أحاول تبينه واقترحه من خلال ربطه مع نموذج واحد فقط من النماذج التي عالجت الظواهر الكونية الطبيعية، وهو نموذج الهندسة الكسيرية عند ماندلبروت.

كلمات مفتاحية: هندسة كسيرية؛ الطبيعة؛ تحليل لساني؛ توالد ذاتي؛ ظواهر كونية

Mandelbrot Fractal Geometry and Linguistic Patterns

Abstract:

This Paper is focusing on one of the most important theories of Mathematics; **Mandelbrot Fractal Geometry**, with a trial to relate its basic core of concepts with the processing of our natural Language,

through Linguistic Patterns self-similarity and recursion in Speech Acts.

I'll introduce the basic concepts of the theory with minute mathematical analysis correlated, then I'll bid to associate the whole phenomenon with one simple example from Arabic Grammar, relying on Chomsky's basic sample of Sentence treeing.

Key Words:

Fractal Geometry; Nature; Linguistic Analysis; Autopoiesis; Cosmic Phenomena

تمهيد: بينوا ماندلبروت (1924-2010) Benoit Mandelbrot هو رياضي فرنسي - أمريكي، بولندي المولد، مؤسس علم الهندسة الكسيرية؛ وقد بدأت فكرته عن الكسيريات بملاحظته أن هناك نوعًا من عدم القدرة على وصف بعض الأشكال في الطبيعة، من مثل شكل السحابة، أو الجبل، أو وصف الخط الساحلي للبحار والمحيطات، أو أشكال أفرع الأشجار، كما لاحظ أن الغيوم ليست مجرد كرات، وأن الجبال ليست مخاريط، وأن السواحل ليست دوائر، والبرق لا يسري على خط مستقيم... إلخ، حيث ورد هذا وغيره من الظواهر في كتابه الشهير "الهندسة الكسيرية للطبيعة"، ولُب فكرته هو أن هناك كيانات ذات أبعاد بينية غير صحيحة، وإذا كانت الأبعاد غير صحيحة فلا بد من أن تكون كسرية Fractional؛ فقام بسك مصطلح التكرسات Fractals عام 1975 م بالاشتقاق من الكلمة اللاتينية Fractus التي تصف شكل الحجر المكسور غير منتظم الشكل⁽¹⁾.

هذه الهندسة العبقرية سبقتها إرهاصات ومحاولات للبحث عن النمط الأوّلي لتشكلات الأشياء في الكون من خلال الرياضيات، وهي المعروفة بأنماط الانتظام في الطبيعة والكون المُدرَك؛ فدائمًا نلاحظ أن العلماء مهمومون بمحاولات فهم الطبيعة الأولية للأشياء، ومحاولة ربطها بما قد تتول إليه هذه الأشياء، ولم يجد البشر وسيلة أفضل من الرياضيات (آلة الذهن المتقدمة دوما) لاستكناه معظم الفروض والنظريات. وسأكتفي هنا بضرب مثالين فقط، أرى أهميتهما بالنسبة لهذا النوع من الهندسة الكسيرية، هما حدسية كولاتر الرياضية Collatz Conjecture وحلزونية أولام Ulam Spiral. حدسية كولاتر Collatz حدس بها هذا العالم الرياضي سنة 1937؛ ولها أيضا امتدادات أخرى شبيهة تُعرف بها وتقدم المعالجة ذاتها، مثل معضلة كاكوتاني Kakutani's problem (للياباني الرياضي كاكوتاني)، وحدسية توابتس Thwaites conjecture، وخوارزمية هاس Hasse's algorithm، ومعضلة سيراكوز

Syracuse problem. ومن دون الخوض في تعقيدات الرياضياتية⁽²⁾، فالحدسية تعتمد على متتالية من الأعداد الصحيحة الطبيعية وفق المبدأ:

- إذا كان العدد زوجيا نقسمه على 2

- وإذا كان فرديا نضربه في 3 ونضيف إليه 1

ولذلك تُعرف أيضا بدالة $3n + 1$... وتكرار العملية عدة مرات ستكون النتيجة دوما هي العدد (1)، مهما طالت الخطوات أو تعقدت الأرقام !! فمثلا إذا كانت $n=27$ فستصل المتتالية إلى الواحد بعد 111 خطوة، وهكذا دوما.

خذ مثلا بالرقم (5)؛ فطبقا للمعادلة السابقة يُضرب ب3 ويضاف إليه 1، فينتج عددٌ زوجي، يُقسم على 2، وهكذا، وبعد 5 مراحل حسابية سوف يتحول إلى الرقم (1)، وتفسير ذلك منطقيا صعب جدا:

$$\begin{aligned} 5: & (5 \times 3) + 1 = 16 \\ 16: & (16/2) = 8 \\ 8: & (8/2) = 4 \\ 4: & (4/2) = 2 \\ 2: & (2/2) = 1 \\ 1: & \end{aligned}$$

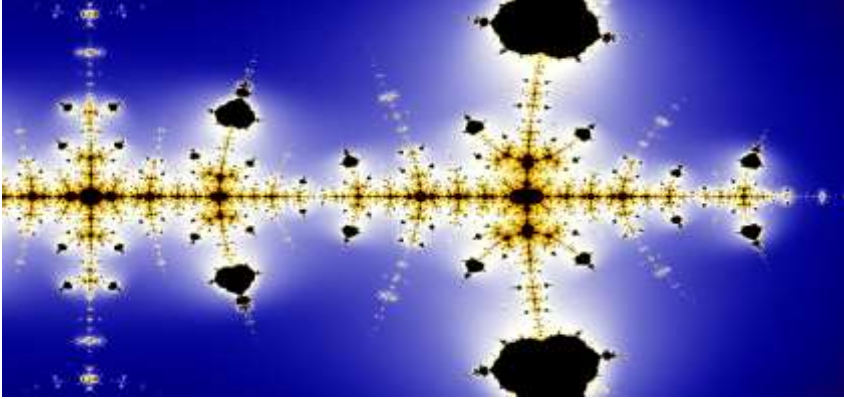
أليست فكرة الواحدية أو (الأحادية) - إذا أردنا فهم معنى التفرد- هذه ملفتة للانتباه، ألا تدعو إلى التدبر حولها، فالتعقيد الدائم، والتراكب، والتشاكل، يمكن دوما فكه والعودة به إلى الأصل الواحد. وأنا أعتقد أن الكون ينبئ عن موجدِه الواحد "الأحد" بهذه الطريقة المدهشة داخل متسلسلات الأعداد غير النهائية، وهي الممثلة لتلك الأنماط التي تعبر عن كل شيء وأي شيء في الكون، فأنت لا تستطيع أن تعرف ما هو أكبر رقم، ولا أصغر رقم في الكون، بل إن كم الأعداد المحصورة بين رقمين هو أيضا- رياضيا- غير نهائي؛ فالأمر أزلي وسرمدي، لكنه يرتبط بالواحد بالنهاية.

انظر الشكل المرفق الذي يمثل الصورة النمذجية لهذا النمط في جوار مستقيم الأعداد الحقيقية⁽³⁾،

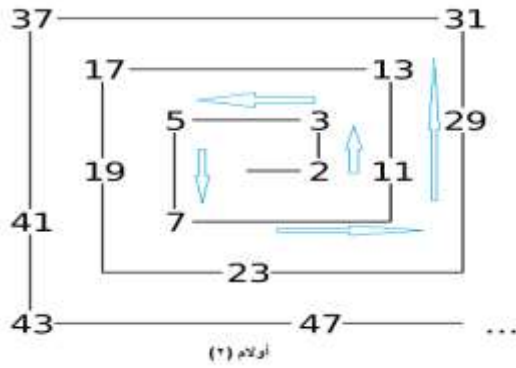
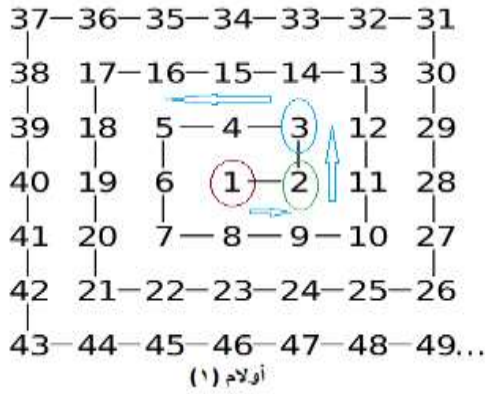
ونلاحظ تشابهه الشديد مع مجموعة ماندلبروت العبقرية، كما سيأتي التفصيل

[حدسية "كولاتز" Collatz منمذجة وفق تولدها على مستقيم الأعداد الحقيقية]

أما حلزونية "أولام"، فهي نمط رياضي للبحث في الأعداد الأولية، قام "أولام" بشرحها عام 1963م؛ حيث قام بكتابة الأعداد ابتداءً من الرقم 1 على شكل حلزونية. كما في الشكل "أولام" 1. ثم قام برسم دائرة صغيرة حول الأعداد الأولية، فلاحظ أن الأعداد الأولية تتوالى دوماً إلى خطوط مستقيمة تنطلق من مركز هذه الحلزونية⁽⁴⁾. كما في الشكل "أولام" 2. فإذا



حاولنا الربط بين تكوين الألفبائية العربية وأبجديات اللغات، وتشكل الكلمات من الحروف الأولية، كما تتشكل صفاتنا الحية وسلوكياتنا على الشريط الوراثي بطرق رياضية محض شبيهة، إذا حاولنا ذلك فسلاحظ أن كل هذه الأنماط: تكوّن الأرقام، وتسلسلها في مجموعات، سواء أكانت خيالية أو حقيقية، واقعية أو ميتافيزيقية، وتشكل الكلمات، وتسلسل الجُمَل في كلام البشر ... إلخ، وتولّد الأفكار في الدماغ، كل هذا يتبع نمطا رياضيا ذهنيا واحدا، ويؤول إلى نمط أيضا لا يعيد عنه، حتى إن حدثت بعض الفوضى بين المنشأ والمصير، هناك دوما نظام كوني عام وناموس مسيطر على تشكّل الأشياء كلها، في هذه الهجرة على أقل تقدير.



1- كسيريات ماندلبروت وتداخلها مع أنساق متغايرة في حيز الإدراك الحسي:

والملاحظ أن هذه الهندسة تركز عليها كل التشكلات في الطبيعة تقريبا، وقد حاول ماندلبروت من خلالها فهم كل الأشكال غير المنتظمة في الطبيعة، حتى تغيرات سوق المال! وكان يريد أن نركز على الأنماط غير المنتظمة لا المنتظمة فقط، لأن عدم الانتظام في الكون كله هو المسيطر الأكبر على الطبيعة المدركة: شكل الحصى، وقمم الجبال، والسُحب بتشكلاتها العجيبة، وفروع الأشجار، وتفرعات الأنهار، وحواف أمواج البحر ... إلخ. فهل من الممكن أن يشترك كل هذا في صفات موحدة ذات سمة رياضية؟ والحقيقة المبهرة أنه نعم يمكن؛ فكل شيء في الطبيعة، حتى في العالم الخفي الداخلي الميكروسكوبي، يخضع إلى قانون ذي أساس رياضي يسمّى التشابه الذاتي **Self Similarity**؛ حيث يمكنك - بهذا الطرح - أن تصف أي نظام به شكل ما يتكرر باستمرار، بحيث يبدأ من مقياس صغير جدا في الشكل، وخذ أفرع الأشجار مثلا؛ فهي تتكرر وتنتشر باستمرار، مكررة نفسها في مقاييس هندسية صغيرة جدا، وهي الملاحظة عينها التي نراها في التكوين النسيجي للرتتين عند الإنسان، وهي كذلك

في طريقة توزع الدم في الخلايا عبر الشعيرات الدموية Capillaries، حتى مجاري الأنهار بانقساماتها وتشعباتها إلى تفرعات مختلفة؛ فالطبيعة تكرر كل أنواع الأشكال بالطريقة نفسها.

وما اللغة الإنمط تكراري، يبدأ من شكل بسيط ثم يتعقد شيئاً فشيئاً ليُكوّن أنواع الخطابات التي نعرفها، وهل نحن، في تحليلات اللسانيات بمختلف مناهجها، سوى مجرد سابرين وباحثين عن النمط الدلالي الأولي، أو المصدر الأصلي، أو النواة المعجمية التي تشكل منها الجذر اللغوي، أو المحمول السياقي أو ... إلخ، حيث نبحت دوماً لأجل فهم تصوراتنا وتمثيلاتنا الإدراكية في الدماغ للأشياء في عالم الأعيان عن (جرثومة المعنى) الكامنة وراء كل تمثيل. إنه لأمر غاية في الإدهاش حقيقة.

إنه انتقال من الأبنية الصغرى Microstructures إلى الأبنية الكبرى Macrostructures من خلال قواعد مذهلة من الانتظام والانتهاك الرياضي، وتلك قضية أفضت في شرحها ضمن نظرية التوالد الذاتي، التي ستصدر تباعاً مستقبلاً.

اربط هذا مع مورفوجينية آلان تورنج، وهي نمط رياضي طبيعي آخر يحاول فهم التشكلات في الوجود المادي، لتلاحظ نوعاً من الديناميكا العُقديّة⁽⁵⁾ التي تُشكل معظم الموجودات في الطبيعة.

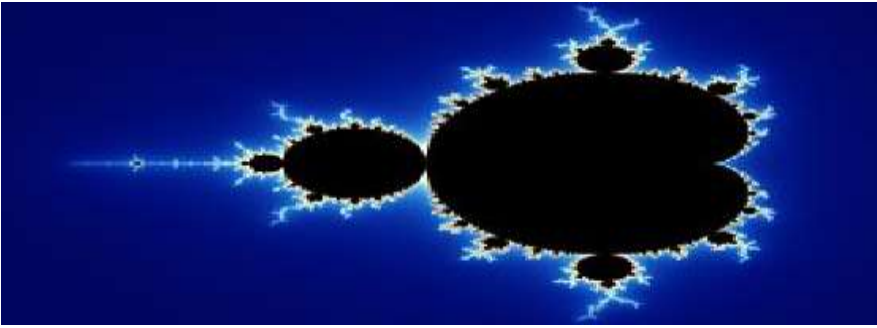
2- مجموعة ماندلبروت الأساسية عن الهندسة الكسيرية:

لقد وضع ماندلبروت مجموعته الشهيرة التي سميت باسمه Mandelbrot Set، وهي عبارة عن شكل كسيري مشهور جداً، حتى خارج مجال الرياضيات، لتداخلها مع ما يُدعى الفن الكسيري؛ حيث تُقدم صوراً فنية تتميز بالجمال والتجريدية. وما يميز مجموعة ماندلبروت هو البنية المعقدة التي تقدمها، على الرغم من بساطة تعريفها. وترتبط مجموعة ماندلبروت ارتباطاً شديداً بمجموعة الرياضي الشهير "جوليا" Julia set for f_c ؛ حيث تقدم تطويراً بنائياً لها. ويبين فيها ماندلبروت النمط الهندسي المتكرر، والتشكل الذاتي لمختلف الأنماط الناشئة عن نمط بسيط يبدأ منه أي شيء. ومع تعقد الحسابات والدوال الرياضية والهندسية أخرج لنا ماندلبروت بعبقريته نموذجاً الشهير عن التوالد الذاتي والتشابه العُقدي في الطبيعة؛ حيث وضع الأسس وترك الرياضيات تعمل، وترك الهندسة الكسيرية توضح لنا ما هو فوق إمكانيات العمل البشري، لأنه عمل خارج عن قُوانا وعلومنا، من ثم رأى العالم للمرة الأولى صورة لها يمكن أن يكون هو لب عمل الكون برمته، تلك الصورة التي تُجسد قمة التجريد الذهني الرياضي المَبني على مشاهدات الخلق في الطبيعة؛ حتى إن بعضهم أطلق

عليها بصمة الإله **Thumb-Print of God** لشدة دقتها وبراعتها التكوينية، وقد أخرجت الوثائقيات الكثير من الأفلام التي توضح كيفية عمل هذا النموذج، وكيفية عمل التوالد الذاتي من خلاله⁽⁶⁾.

صورة أولية لمجموعة ماندلبروت وهي مُضخمة بشكل مستمر وفي بيئة متغيرة الألوان

فكل جزء بسيط من التركيب في هذا النموذج الشديد التعقيد يحوي أعدادا مهولة من الأشكال المتناهية في الصغر؛ هي جزيئات ماندلبروت التي لا نهاية لها endless. وكل هذا منبثق من معادلة غاية في البساطة:



$$Z \Leftrightarrow Z^2 + C$$

فبإعطاء قيم عددية للمتغيرين Z & C بحيث تكون الأعداد صحيحة مُركبة وليست تخيلية، والتفاصيل الرياضية معقدة لن نخوض فيها هنا⁽⁷⁾، سنلاحظ تضخم قيمة Z إلى ما لا نهاية، في توالد ذاتي مستمر لا حدود له.

انظر الجدول التالي لتوضيح المسألة بمثال بسيط:

Z	C	$Z = Z^2 + C$	New Z
0	1	$Z = 0 + 1$	1
1	1	$Z = 1 + 1$	2
2	1	$Z = 4 + 1$	5
5	1	$Z = 25 + 1$	26

1مثلا). فقيمة Z تزداد دوما بصورة آلية، بشرط أن تكون C ذات قيمة عددية مركبة (ليست -

ونلاحظ أن هذه المعادلة ميزتها المركزية الأساسية، كما تبين صيغتها، أنها تغذي نفسها

عكسيا
Feed Back؛ وهي فكرة محورية للتوالد الذاتي لها مقام آخر؛ فكل مُخْرَج يتحول إلى مُدْخَل في الخطوة التالية، وهكذا، في ديمومة كونية لا نهاية لها، مما يُكوّن في النهاية هذه الصورة الشديدة التعقيد. وأليس الدماغ البشري نمطا من هذه الأنماط؛ فالمعلوم أن حجمه ليس ثابتا كما كان الاعتقاد القديم، لأنه ينكمش ويتوسع بمطاطيته، في دورة مستمرة من اللدونة العصبية Plasticity، ومن المعلوم أيضا أن الكون يسلك في توسعه الطريقة نفسها إلى ما نهاية من التعقيد التكويني Infinite Complexity⁽⁸⁾. وتعبيراتها ذاتها تبدأ من تشكل بسيط جدا، ما يلبث أن يتحول إلى محيط ضخم من الكلام، الذي يتشابك في سلاسل لأول لها ولا آخر، بمساعدة نظام القشرة في الدماغ وأجهزته المقترنة في نسج المخ الداخلي (مجموعة الحُصين والنتوء اللوزي والجهاز الحوفي Limbic System ... إلخ)⁽⁹⁾.

3- عبقرية الهندسات الكونية وعلاقتها بأنماط الانتظام الكوني وبلغتنا:

إن هذه المنظومة الهندسية (منظومة ماندلبروت) هي المبدأ الذي اقترب بقوة من لب نظام الحياة؛ فأنماط تورنج الرياضية، وأشكال ماندلبروت المعقدة، وتشكلات التفاعلات الكيميائية للعالم الروسي "بيلوسوف" Belousov-Zhabotinsky reactions، وتشابكات فيوناتشي ... إلخ، هي معالم واضحة لنظام عمل الطبيعة: من البساطة إلى التعقيد from Simplicity to Complexity، يتخللها طفرات بسيطة في النمط حسب الظروف.

وسبحان القائل: "وَمَا مِنْ دَائِيَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أَمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ." (الأنعام: 38). إن الأمر ليس تطورا غير منضبط، كما يزعم بعض الباحثين، فهذه الأنماط الذاتية التنظيم هي في الواقع أكبر دليل على سيطرة خارجية كبرى تحركها، بدليل أنك لا تتوقع أبدا متى سيبدأ النمط في الانتهاك وكسر النظامية! ورأيي الخاص أن الله تعالى قد أشار إلى مثل هذه الذاتية في آية شديدة الخطورة؛ يقول تعالى: "قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمْ يَا مُوسَى. قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى." (طه: 49 - 50)؛ فالتفسير الأمثل لها، برأيي، هو أن الله تعالى قد وضع لكل نظام من الأنظمة - حتى الجماد، الذي نفهمه على أنه جماد، والحقيقة أنه غير ذلك تماما- قوانين أولية، ثم الطريقة التي من خلالها يبدأ

في التطور والنمو، وهو ما نكتشفه بالتجربة؛ فنحن في الواقع نستكشف طريقة عمل الأشياء، لا جوهر الأشياء، وتلك مسألة تحتاج إلى بحوث أخرى لبيانها؛ فقط أشير إلى أمثلة سريعة ومعروفة؛ فالقلب يعمل كما توضح معادلات بيلوسوف لضبط النبض، والأوعية الدموية تنتظم وتتشعب كما بينت هندسة ماندلبروت الكسيرية، وخلايا الدماغ لديها مطاطية خاضعة للنمط التكراري نفسه من التشابه الذاتي والتوالد العصبي ... إلخ⁽¹⁰⁾. وكل شيء حي محكوم بنمط جيني تطوري، وجدناه واسكتشفناه ربما بالصدفة المحض! فمن أين جاء أصلا القانون الجيني الأولي؟!

إن التوالد الذاتي والانتظام التكراري، ولغتنا؛ ذاك النمط التعبيري المعجز من التواصل بين الجنس البشري، الذي أمكننا من خلاله أن نفكر ونبحث ونكتب مثل هذه السطور ونحلل المشاهدات ... إلخ، كل هذا التعقيد في الجهاز اللساني: دماغيا وسلوكيا وكيميائيا وجينيا ... إلخ، ما هو إلا، كما سبق توضيحه، نمط من ملايين الأنماط التي حاولنا فهمها من خلال نظرية واحدة، تحاول الحدس بأنظمة العمل في الطبيعة؛ فاللغة لم تتولد إلا بعد انجلاء معالم الأنظمة واستقرار الطبيعة بصورة تسمح للبشر ببناء الحضارة؛ فلولا اللغة ما كانت الحضارة، وهذه اللغة بدأت من خلال قواعد بسيطة (كما الطبيعة تماما)، وكما حاول تشومسكي وتلاميذه التوضيح، ثم بدأ التعقيد والتشابك والتوالد الذاتي للمفاهيم والتصورات والرموز والأصوات ... إلخ.

فالطفل يبدأ بمجموعة من الأنماط الأولية Prototypes؛ بحيث يكتسب من البيئة المحيطة طريقة اقترانها بالمفاهيم والتصورات، ومن خلال البرنامج الجيني الموجود بدماغه والأبنية العصبية المتأزرة لإنتاج الطاقة اللغوية التصويتية-مما لا مجال لعرضه هنا- ثم تتطور هذه الأنماط إلى صور أعقد وأعقد على مدار الحياة⁽¹¹⁾؛ وهو ما نلاحظه في لغة كل شخص منا في معجمه التواصلية: لغة شاعرة، ولغة علمية، ولغة تواصل عادية ... إلخ؛ إن العملية هي سلسلة من التكرار المعقد غير المنتظم أحيانا للنمط الأولي ضمن ضوابط من الديناميكا العقدية/الكسيرية؛ فإذا أنتهك النمط فإننا إزاء صورتين: الأمراض اللغوية ومشاكل الأرففونيا كما يعرفها اللسانيون العرفانيون، أو الإبداع وظهور الجديد في اللغة، وفي كلٍ ننتقل إلى حلقة جديدة من حلقات الاندفاع نحو مستقبل مجهول تماما !!

4 - نموذج توضيحي بسيط من اللسانيات:

تأمل النموذج اللساني التالي ، وسنرى كيفية حدوث التوليد به (بوصفه جزءاً من التوالد الذاتي الأوسع):

فمن خلال العلاقات المنطقية التربيطية التي تعمل وفق المخزون المعجمي الذهني ، ويحدث ذلك في أجزاء من الثانية؛ ترتبط الوحدة (مع) منطقياً مع وحدة (البتت الجميلة) والنعت ناسَبَ المنعوت ، والفعل مع الفاعل المقترن... إلخ، لتتكون شجرة تركيبية ذهنية مقبولة يصنعها الدماغ من خلال آلياته الكهروكيميائية المعجزة:

الولد الكبير تكلم مع البنت الجميلة.

وعلى المستوى الرياضي يمكن صياغة هذه القاعدة الذهنية لتكوين هذه الجملة:

$$S = NP + V + PP$$

وهي معادلة يبدأ منها التوالد بصوراً نهائية: فيمكننا مثلاً صياغة معادلات تمثل قواعد التوليف الداخلية:

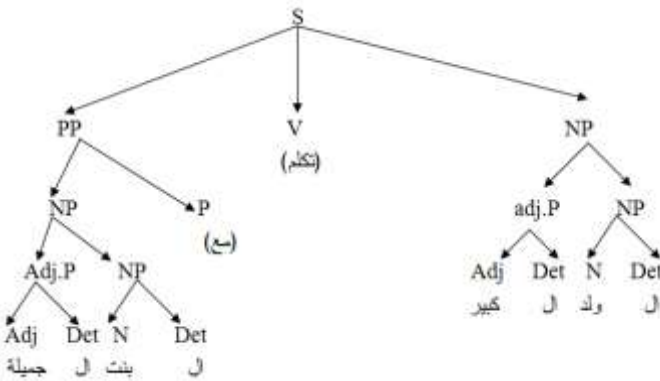
$$NP = NP + Adj.P$$

$$NP = Det + N$$

لكنهما يعطيان مركباً من النوع نفسه ، كما هو موضح أعلاه:

$$Adj.P = Det + Adj$$

$$PP = P + NP$$



والمعادلة الأخيرة تعطي أيضا نتيجتين: (مع البنت)، أو (مع البنت الجميلة)

هذه المجموعة من الصيغ الرياضية الذهنية تمكنا من توليد عدد لا حصر له من الجُمْل، وتستطيع من خلالها عمل إحلالات مفرداتية (لفظية) من المعجم الذهني لتنشأ معان جديدة تعبر عما تريد الحديث عنه؛ أي إن البناء الذهني ينشأ من خلال هذا المزج التوليقي بين منطقية العلاقات الداخلية للوحدات المؤبَّسة للتركيب كله الحامل للمفهوم اللغوي، المعبر عن العالم، الذي يعمل أيضا بالكيفية نفسها من التوالد والتشابه والتطوير والنمذجة⁽¹²⁾.

ولزيادة عدد الجُمْل (التوليد) يُضَاف من المعجم الذهني ما يتشابه مع أكواد الشجرة التركيبية المبيَّنة أعلاه؛ فمثلا نضيف (رجل). والشجرة نفسها يمكن تغييرها من خلال تغيير الأكواد أو تقييدها أو تخصيصها:

$$\begin{array}{l} \text{NP} = (\text{Det}) + \text{N} \longrightarrow \text{نكرة} \\ \text{Adj.P} = (\text{Det}) + \text{Adj} \longrightarrow \text{نكرة} \end{array}$$

حيث وضعنا قيدا على الأداة فتغير المُخرج تماما؛ أي إن قانونا واحدا من القوانين الذهنية من خلال وضع قيد على أداة (كود ذهني) يتحول إلى قانونين، وبتلك الطريقة تزيد القواعد، من ثم نحصل على نماذج تركيبية جديدة:

— ولد كبير يتكلم مع بنت جميلة (عموم)

— رجل عالم يتحدث مع شاب طموح

— الطالب يتناقش مع الأساتذة (لاحقة الجمع في الأسماء) ... إلخ

فلدينا أُنذ/: زيادة في مخزون المعجم الذهني + زيادة في القواعد التركيبية (أو زيادتهما معا)، لينشأ عن هذا التفاعل عدد لا نهائي من الجُمْل المعبرة عن المفاهيم والتصورات في العالم المحيط. أي إن التوليد اللاإرادي المحكوم جينيا وعصبيا يؤدي إلى توالد لا نهائي لسلاسل الكلام في لغة البشر، بتنوعاتها النمطية والتركيبية والثقافية، لكنها ذات أرضية مفاهيمية مشتركة بيننا جميعا؛ فالكرسي مثلا لن يتحول في ثقافة أخرى إلى علبة جبن!! وتلك هي الفرضية الأساسية التي يقوم عليها التحليل اللساني عموما: وجود نمط تصوري مفاهيمي

مشارك في أدمغة البشر له حد أدنى من الاتفاق، أما الاختلاف فيكون في تصور المعنويات، وما يدخل في إطار العقائد ... إلخ. وتلك أيضا قضية كبرى لها مقام آخر من البحث.

إنك لا تستطيع أن تعرف جملتك التالية في حوار ما، أو في كلام تكتبه، فقط تشعر بميكانيكا وديناميكية ذهنية عالية الطاقة في دماغك تدفعك وتعمل في رأسك، يتولد عنها كلامك، وهو ما أطلق عليه **فرضية وهم المعرفة**، ولها تفاصيل كثيرة، حتى إنك إذا طلب منك تكرار كلامك فستكرره بجمل أخرى وأصوات مختلفة، وإن كان المعنى واحدا، ألا ترى أن اللغة هنا هي نمط معجز من أنماط البساطة والتعقيد والديناميكا العقدية في أبعث صورها؛ وهي الصورة التعبيرية الممثلة في كلام البشر وكتاباتهم وفنونهم الرمزية حتى، التي تأتي اللغة الرمزية بوصفها محورا مركزيا فيها، تلك اللغة التي لولاها ما كان أي مما سبق تحليله وتوضيحه ممكنا أو قابلا للعرض والفهم، تلك اللغة التي تمثل أعقد نظام متشابك بتنوعاتها ولهجاتها واختلاف أسنتها ... إلخ، التي نحاول حتى اليوم محاكاتها في دماغ من الذكاء الصناعي AI، ولم نفلح إلا قليلا⁽¹³⁾!! نظرا لتعقد الجهاز العصبي وتشابكه غير المفهوم، وصعوبة تحليل الوعي البشري إلى عناصر عينية يمكن فهمها، فضلا عن أنظمة الشعور الأخرى المهمة المرتبطة بالتعبير اللغوي، من آلام وأفراح وعواطف معقدة عند البشر. تلك اللغة التي تمثل برأيي النمط الفريد والأمثل لفكرة التوالد الذاتي.

فالإنسان مجرد مجموعة من العناصر الطبيعية، التي شكلت بنيته العصبية والجسدية وفقا للتتابعات الجينية وقوانينها التصنيفية؛ فمن الطبيعي أن يكون النمط الذي يُخرجه الدماغ للتعبير عن الموجودات في الطبيعة والأفكار المثارة حولها، بل والتمثيلية الإمكان (أعني اللغة)، أن يكون موافقا بصورة ما لميكانيزمات العمل في الطبيعة (التوالد الذاتي)، لأنه نمط داخل النظام الكوني الأكبر.

هذا النموذج اللساني البسيط يمكن توسيعه من خلال ما قدمه "جاكندوف" Jackendoff عن هندسة التوازي، أو المعمار الموازي Parallel Architecture، وما طرحه "فوكونيي" Gilles Fauconnier عن هندسة التصورات والفضاءات الذهنية، وما قاربه "تورنر" Turner في نظرية المزج ... إلخ، فكلها مقاربات لفهم العلاقات المتشابكة بين عوالم (الأذهان) و(الأعيان)، يمكننا عرضها في دراسات لاحقة.

الهوامش:

(1) راجع المزيد من التفاصيل العلمية حول هذا، جون جرين: البساطة العميقة .. الشواش والتعقد وانبثاق الحياة، ترجمة مصطفى إبراهيم فهمي، المركز القومي للترجمة، ع 2058، ط1، 2013، ص 132 وما بعدها. وكلمة ماندلبروت بالألمانية والبيديشية تعني (خبز اللوز).

(2) كل هذه الحدسيات أو المقاربات الرياضية تتناول الفكرة ذاتها، فهي مسميات تدل على الفكرة نفسها، أي التوالد والتتابع في متتاليات خاضعة لضابط رياضي معين، هو كما بيّنه "كولاتر" في المثال المطروح، ولذلك يُطلقون على هذه المقاربات جميعها الأسماء:

Collatz problem, Hasse algorithm, Hasse–Collatz problem, problem, $(3n+1)$

Kakutani problem, Ulam problem.

والمشهور فيها هو "كولاتر" كما أوضحناه تفصيلا في المثال.

للتفاصيل:

D. Applegate, J.C. Lagarias, "Density bounds for the $3n+1$ problem II. Krasikov

inequalities" Math. Comp, 64 (1995), Pp 427–438.

(3) للتفاصيل، راجع:

Hew, Patrick Chisan: "Working in binary protects the repetends of $1/3h$: Comment on

Theoretical Computer Science, 618 (Pp Colussi's, The convergence classes of Collatz function,

135–141), March, 2016.

(4) للمزيد من التفاصيل:

Ben-Amram, Amir M: "Mortality of iterated piecewise affine functions over the integers:

, *Computability*, 1 (1), Pp 19-56, 2015."Decidability and complexity

(5) أي تكرار الدوال الرياضية التامة الشكل Holomorphic Functions، وهو أمر يحتاج إلى شرح

رياضي طويل لا يتسع له مقام هذه المقالة. وهو مجال يُبحث فيه لأول مرة من طرف عالمي الرياضيات

الفرنسيين بيير فاتو وجاستون جوليا في بداية القرن العشرين. راجع للتفاصيل: دليل العلماء الجديد عن الشواش،

تحرير نينا هول. وما ذكره مصطفى إبراهيم فهمي تعليقا على ذلك، البساطة العميقة، مرجع سابق،

هامش ص 133.

(6) للمزيد من التفاصيل المبسّطة، راجع مقالة هندسة الفركتال *Fractal Geometry*، تاريخ

الاسترجاع (6 فبراير 2019):

[http://www.fractal.org/Bewustzijns-Besturings-Model/Fractals-Useful-](http://www.fractal.org/Bewustzijns-Besturings-Model/Fractals-Useful-Beauty.htm)

[Beauty.htm](http://www.fractal.org/Bewustzijns-Besturings-Model/Fractals-Useful-Beauty.htm)

ومقالة نظرية الشواش، من ترجمة "إبراهيم قيس جركس"، تاريخ الاسترجاع (5 يونيو 2018):

http://www.maaber.org/issue_december09/epistemology1.htm

ولنظرة أكثر شمولية للموضوع برمته:

Michael Field and Martin Golubitsky: Symmetry in Chaos, Oxford Univ Press,

Oxford, 1st ed, 1992.

(7) للمزيد من التفاصيل، راجع التحليل الرياضي على الرابط، بتاريخ استرجاع (2 يونيو 2018):

<https://www.bowdoin.edu/~dfrancis/askanerd/mandelbrot>

وراجع أسس التحليل وفقا لطرح النظرية نفسها عند ماندلبروت في توضيحه للمضمون الرياضي لفكرة (الفراكتال) في كتابه الشهير:

Benoit Mandelbrot: The Fractal Geometry of Nature, Times Books, W.H. Freeman and

Company, New York, 1st ed, 1982. Pp 25 – 55.

(8) راجع شرحا لنموذج ديناميكي تفصيلي، وعرضا لفكرة علم النظام الأرضي وتنظيم الأرض نفسها ذاتيا من خلال مجتمع من الأحياء الحبة المتحركة، ودينامية الأنظمة وهي تعمل، فيما يُعرف بفرضية جايا أو نظرية جايا: جيمس لفلوك: وجه جايا المتلاشي: تحذير أخير، ترجمة سعد الدين خرفان، عالم المعرفة، الكويت، ع 388، مايو 2012، ص 129 وما بعدها.

(9) راجع للمزيد من التفاصيل، عبد الرحمن طعمة: البناء العصبي للغة .. دراسة بيولوجية تطورية في إطار اللسانيات العرفانية العصبية، دار كنوز المعرفة، عمان، الأردن، ط 1، 2017، الفصل الثاني من الكتاب.

(10) وهذه المسائل مطروحة تفصيلا في مصنف تفصيلي مزع حول نظرية التوالد الذاتي يصدر مستقبلا إن شاء الله. وإذا قارنت كل هذا بفكرة البوليميرات Polymers في الكيمياء فستزداد دهشتنا من أن كل أنماط الطبيعة والتداخلات الممكنة هي نماذج لانهائية من التعقيد البوليميري الكيميائي بتنوعات مختلفة !!!
(11) راجع الكتاب المهم ليوسف قطامي: نمو الطفل المعرفي واللغوي، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط 1، 2000. الفصل الأول من الكتاب.

(12) للمزيد من التفاصيل حول المزج التصوري وآلياته التوالدية، راجع: البناء العصبي للغة، الفصل الختامس من الكتاب، ص 430 وما بعدها.

(13) راجع للتفاصيل والمزيد من الإيضاحات:

Michael A.Arbib: Brains, Machines and Mathematics, Springer-Verlag, 2nd ed, 1987.

الإبداع في عملية التعلّم والتعليم طرقه وأهميته

د. سلمى عطالله

جامعة سيّدة اللّويزة، لبنان

abdallahsalma13@yahoo.com

تاريخ النّشر: 2019/03/31

تاريخ القبول: 2018/12/17

تاريخ الإرسال: 2018/11/01

المخلص: يبرز المتعلّمون في معظم مدارس عالمنا العربيّ وجامعاته تحت وطأة مناهج وأساليب تعليميّة غارقة في أقيّة الرّتابة والتقليد ... تخرّج إلى مجتمعاتنا أشخاصًا مشكّلين في قوالب متشابهة ومشتركة، أسيرة المصالح الماديّة، ومقدودة على قياس الامتحانات الرّسميّة في كلّ بلد، كما على حجم سوق العمل والوظيفة فيه. فيما غاب بناء الإنسان الحقّ، المختلف والمميّز، عن رؤى معظم هذه المؤسّسات التّربويّة. وقد يعود السّبب الرّئيس في ما آلت إليه حالنا هذه إلى غياب الإبداع عن رؤانا التّربويّة، وتيهاننا عنه في خصمّ مشاغل ومسائل حجبتة عنّا. فما هو الإبداع؟ ولماذا الإبداع؟ ما هي طرقه؟ ما هي أهميته؟ وكيف يمكن أن يتمظهر في أدائنا التّربويّ بخاصّة؟ أسئلة سوف تعمل هذه الورقة البحثيّة على الإجابة عنها، علّنا نعيد النّظر في بعض نظمنا ومخطّطاتنا التّربويّة، فنلامس الجديد والمتميّز في عالم اليوم، عالم المتشابه والمتكرّر... وذلك من خلال قسمين: الأوّل نظريّ يعرف بالإبداع، بطرقه، وأهميته، فيما الثّاني يضيء على بعض التّماذج والأمثلة التّطبيقيّة التي نأمل أن تكون الخطوة الأولى في مشوار الألف ميل.

الكلمات المفاتيح: الإبداع؛ المعلّم؛ التعلّم والتعليم؛ المُبدع؛ طاقة مستدامة؛

مهارة للحياة؛ عالم المتشابه والمتكرّر؛ الأمثلة التّطبيقيّة.

Creativity in The Process of Learning and Teaching, Its Ways and Importance

Abstract: In most of our schools and universities in the Arab world, students are burdened with curricula and methods steeped in monotonous and traditional artefacts ... and brought to our societies molded in similar and common forms of material interests. They are measured by the official examinations in each country, as well the size of the labor market and the job in it. While building of the different and distinctive right man has missed the visions of most of these educational institutions. The main reason for this situation may be due to the absence of creativity from our educational vision, and our dissuasion from it in the midst of concerns and issues that have prevented us from doing so. What is creativity? And why creativity? What are its ways? What is its importance? And how can it be reflected in our educational performance in particular? This research paper will answer these questions, publicly reviewing some of our educational systems and plans, the new and distinguished in today's world, the world of similarity and repetition... And this is done through two sections: the first is theoretical and known as creativity, its ways and importance, while the second shines on some models and practical examples that we hope will be the first step in the journey of a thousand miles .

Keywords: Creativity; Teacher; Teaching and Educating; Creative; Sustainable Energy ; A Skill for Life ; The World of Similarity and Repetition ; The Applied Examples...

مقدمة: يرحب المتعلمون في معظم مدارس عالمنا العربي وجامعاته تحت وطأة مناهج وأساليب تعليمية غارقة في أقبية الرتابة والتقليد ... تخرج إلى مجتمعاتنا أشخاصًا مشككين في قوالب متشابهة ومشتركة، أسيرة المصالح المادية، ومقدودة على قياس الامتحانات الرسمية في كل بلد، كما على حجم سوق العمل والوظيفة فيه. فيما غاب بناء الإنسان الحق، المختلف والمميز، عن رؤى معظم هذه المؤسسات التربوية، فبتنا جميعًا نسحًا عن أصل

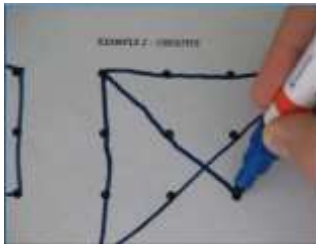
واحد، نسعى لاهتين خلف أهداف واحدة، شكّلها لنا الآخر وحصرنا فيها، فغيبنا عن جوهر وجودنا الحقيقي، وغربنا عن ذواتنا وعن لقاء صادق معها...

وقد يعود السبب الرئيس في ما آلت إليه حالنا هذه إلى غياب الإبداع عن رؤانا التربوية، وتيهاننا عنه في خضمّ مشاغل ومسائل حجبه عنا. فما هو الإبداع؟ ولماذا الإبداع؟ ما هي طرقه؟ ما هي أهميته؟ وكيف يمكن أن يتمظهر في أدائنا التربويّ بخاصّة؟ أسئلة سوف تعمل هذه الورقة البحثية على الإجابة عنها، علّنا نعيد التّظر في بعض نظمنا ومخططاتنا التربوية، فنلامس الجديد والتميّز في عالم اليوم، عالم المتشابه والمتكرّر... وستوزّع المضمون فيها إلى قسمين: الأوّل نظريّ يعرف بالإبداع، بطرقه، وأهميته، فيما الثّاني يضيء على بعض التّماذج والأمثلة التطبيقية التي نأمل أن تكون الخطوة الأولى في مشوار الألف ميل.

أولاً: التعريف بالإبداع، طرقه وأهميته.

1. ما هو الإبداع؟ "لم أشأ أن أقدم للمتعلّمين في أحد صفوفي تعريفاً جاهزاً

بالإبداع، فوضعتهم في مواجهة حيّة ومباشرة معه، علّهم يخرجون منها بالتّعريف المناسب له. فقدّمت لهم أوراقاً توزّعت عليها بعض نقاط، وسألتهم أن يصلوا بين النّقاط



ليشكّلوا أقلّ عدد ممكن من الخطوط المستقيمة، من دون رفع القلم عن الورقة. وعندما لم يفلحوا رفعت يدي

إحدى الأوراق، وبأخرى قلماً ورحت أنفّذ المطلوب بعد خروجي عن الحدود المرسومة للنّقاط. فرسخ أحد المتعلّمين، قائلاً: لكّنك خرجت على المرسوم من نقاط. فرددت: بإمكانك أن تقول أيضاً: إنك أبدعت!..."

قد يكون ما فعلته من أفصح ما يمكن أن يعبر عن معنى الإبداع، إذ يسلب الضّوء على أبرز سبيل له، فنحن عندما نتقلّت من القوانين والقيود التي تكبّتنا، ونطلق العنان لمخيلتنا والتّفكير، نكون في طريقنا نحو عالم الإبداع الجميل، لأنّ الإبداع هو اللّون حيث اللّاون، هو الحياة والحركة حيث الجمود والموات... به ننتقل من عالم الواقع إلى عالم اللّواقع، العالم الآخر، البعيد القريب... العالم المبتدع في الخيال الذي هو، في الحقيقة، الواقع،

لأننا نرى فيه ما لا نراه بالعين المجردة، بالحواس... لأنه أعلى من الحواس والمحسوسات، وأشمل منها...

وقد عرف عالم النفس "سترنبرغ" (Robert J. Sternberg) الإبداع، بأنه التجاوب مع الجديد، وبالتالي، القدرة على الخلق والتحويل، وعيش حالة تخطّ وتوق دائمة، ترفض اجترار المعرفة أو القبوع في مكان واحد، وتخلق الأجل من الجمال المطلق، وبأنه أيضاً الذكاء¹. وبأنه عادة، وككلّ عادة يمكن أن يشجع أو يُحبط...²

لكن ، إذا كان هذا هو الإبداع، فمن ممّا يستطيع أن يبدع؟ بكلام آخر، من هو المبدع؟

2. من هو المبدع؟ "كان" رامى " أحد المتعلّمين في الصّفّ الثّانويّ الأوّل، يجلس في زاوية الصّفّ بعيداً عن رفاقه يتأمّلهم حزياً، محبباً. اقترب منه المعلّم، وسأله الانضمام إلى رفاقه وإتمام المطلوب منه. لكنّ "رامى" رفض شارحاً للمعلّم السّبب، قائلاً له:

- لا أستطيع فأنا لست بمبدع، وتنفيذ المطلوب ممّي هو أمر خارج عن حدود طاقاتي.

فما كان من الأستاذ إلا أن اقترب من "رامى"، ربّت كتفه وردّ قائلاً:

- اسمع يا "رامى". عندما كنت صغيراً، كنت تضع الوساح على كتفيك وتحوّل إلى بطل خارق... كنت تأخذ مكنسة أمك وتحوّل إلى ساحر... كنت تتسلّق الشجرة غير مدرك أنّك قد تقع ببساطة... كنت تفكّر في كلّ فكرة وتجعل منها حقيقة لأنك آمنت بها... كنت آنذاك مبدعاً، مؤمناً بقدراتك... والآن، لم يفك الأوان! عندما تفكّر في أمر نفذه، ما زلت تقدر إن كنت تؤمن بنفسك. الإبداع ينبع من الإيمان بالذات!..."

في الحقيقة، عندما كنّا صغاراً كنّا نبدع، فننتقل إلى عوالم أخرى نرومها. إذًا، كان الإبداع في تناول أيدينا، من دون أن نسميه، أو ندرّك مفاهيمه وسبله. كان فيك، فيك، فيه، فيها، فينا جميعاً... ولأنّنا فينا جميعاً، لأنّه هنا، هناك، هنالك... في كلّ مكان... فنحن كلنا مبدعون. إنّما علينا أن نصدّق هذا الأمر، أن نعيشه كما يعيشه الأطفال بصدق وواقعية، فلا نرضى بأن نكون أقلّ من مبدعين، قادرين على خلق اللامألوف وعلى خرق حدود الحواس والمحسوسات... علينا أن نستعيد ثقنا بأنفسنا، أن ندرّب مستفيدين من كلّ فرصة، فنفعّل ما فينا من طاقات، مطلقين لحيّة الخردل التي فينا كلّ العنان، وإلا سيكون مصيرنا كمصير ذاك الذي طرده سيّده لأنّه لم يعمل على استثمار ما أعطاه من وزنات!...

3. لماذا الإبداع في عملية التعلّم والتعليم؟

إنّ مكان الإبداع الأوّل والطبيعيّ هو المدرسة، لأنّ هذه البيئة هي واحدة من أكثر البيئات الصّغيرة تأثيراً في تطوير الإبداع عند الأولاد. وهو ضرورة حتمية فيها، وذلك لأسباب عديدة، نذكر منها أنّه:

(أ) مفتاح المعرفة والإنجاز والمبادرة والتغيير والتحفيز والمتعة. فبالإبداع نُخرج المعلمين والمتعلمين من فخّ الركوند والرتابة والتقليد والتكرار، ونُضرم في عملية التعلّم والتعليم نار الحماسة والتطوّر والمنافسة، ونجعلها أكثر تجددًا وترقيًا وانتظارًا... لقد كشفت الكثير من الدراسات حول نمو الطفل وتطوره المعرفي، أن الطفل يولد ولديه الميل الفطري للاكتشاف والاستقصاء والتساؤل والتخمين، ولكن عادة ما يحصل تغيير سلبي في عملية التعليم في عمر ثلاث أو أربع سنوات، ويمكن تسمية هذا التغيير هدمًا، حيث يتعلّم الطّفل أن يتوقّف عن الإجابات التي تتضمن التخمين والإبداع عندما تواجه جهوده بالرّفص لعدد من المرّات، وبدلاً منها يصبح يوجّه الأسئلة مباشرة إلى الكبار، فهو يتعلّم أنّ الإجابات لا تعتمد على ما يفكر فيه الطّفل ويؤمن به، بل على ما يفكر فيه ويؤمن به أحد الوالدين أو المعلم. فالطّفل هنا يبدأ بالتصرف بسلبية، ويبدأ بالاعتماد على سلطة الآخرين بدلاً من الاستمرار في التّدرب على إيجاد الرّوابط والتخمين والإبداع، وبدلاً من زيادة مهاراته في الاكتشاف، والرّبط، والمقارنة، وربط المعلومات. فإذا لم يكن يعرف الإجابة الدقيقة، أو لم يكن قد فهم ما رآه بشكل كامل، فإنّه ينتظر شرح الآخرين³.

(ب) قيمة مضافة إلى أيّ شيء أو عمل. فبالإبداع تُخلق الرّوى والاتجاهات الجديدة في زمن باتت فيه المعرفة لا بل كلّ شيء متاحًا وجاهزًا للجميع، وباتت الأمور والأعمال كلّها متشابهة⁴. وبه تتحدّد الجدارة في كيفية تحويل هذه المادّة الواحدة المشتركة والمتشابهة إلى نوعيّة مميّزة وفريدة... وهذه هي الجدارة الحقيقيّة التي نحتاج إليها اليوم.



(ج) طاقة مستدامة ومهارة للحياة. لذا، يفترض بعملية التعلّم والتعليم، التي ليست أمرًا عارضًا في الحياة، أن تحوّل المتعلّم من مجرد مستمع سلبيّ إلى كائن فاعل

يسعى لـ "قراءة العالم من خلال الكلمة"، أن تحمل هذا الإبداع، أن تحتويه، أن تتمحور حوله، أن تهدف إليه وتعمل لأجله... كي تؤدّي دورها على أكمل وجه، فتبني في هذا المتعلّم

الإنسان وتعدّه لمواجهة الحياة... فهذه العملية التربوية، بحسب طبيب النفس السريي "بياجيه" (Jean Piaget) "تعمل على خلق أشخاص لا يقومون فقط بتكرار ما أنجزه السابقون، بل يعملون على صنع الجديد... أشخاص مبدعون، مبتكرون، ومكتشفون."⁵ ومما لا شك فيه، أنّ هذا النوع من الأشخاص يحتاج إلى تربية من نوع خاص، ألا وهي التربية الإبداعية، أو التربية في مجال الإبداع. فكما هناك تربية دينية، وتربية رياضية، وتربية فنية، هناك تربية إبداعية، توجه اهتمامها وأساليبها وأنشطتها إلى الإبداع، وتهدف إلى خلق الأفراد المبدعين في المجتمع، من خلال الكشف عن طاقاتهم الإبداعية وتنميتها وتطويرها واستخدامها في حياتهم اليومية لإثراء حياة الفرد والمجتمع الحاضرة والمستقبلية، وتنميتها، وتطويرها لمواجهة ما يطرأ عليها من متغيرات ومواقف ومتطلبات، بأفضل صورة ممكنة...

4. خطوات نحو الإبداع: كيف يتمظهر الإبداع في عملية التعلّم والتعليم؟ كيف ينمو ويتطوّر؟

لأنّ التعلّم يحتاج إلى أكثر من معرفة وإرادة، ولأنّ الأمر يتوقّف على ما لديك كمعلّم، أو لديك كمعلّمة، من قدرات ورغبات في التطوّر والتقدّم... ولأنّ الإبداع ليس مجرد عطية لـ"موزارت" (Mozart) و"آينشتاين" (Einstein)... بل مهارة تُعلّم وتُثقل وتُطوّر و تُمارس وتُستخدم وتُطبّق...⁶ كي تتمظهر في أيامنا وإنتاجاتنا وأعمالنا وبخاصّة التربوية منها، ولأنّ الإبداع عدوى تنتقل من المعلّم إلى المتعلّم، كان لا بدّ من هذه الإرشادات والنصائح التي تخلق البيئة المناسبة الحاضنة، المحفّزة، المرشدة، الموجهة، والقادرة على أن تعبّد طريق المعلّم والمتعلّم معاً، وتسند خطواتهما نحو إبداع مثمر وفعال، وبالتالي، تعليم خلاق، مراهنين على استعدادهم الطبيعي للإبداع، وذلك ضمن "عالم كلّ شيء ممكن":

(أ) عش حقيقتك كما هي لا كما يريدّها الآخرون. آمن بقدراتك!... انظر إلى نفسك كشخص يهتمّ للتعليم الإبداعي ولا يراه عبئاً، بل يستمتع به ويحفّز المتعلّمين عليه، واضعاً إياهم في أجواء من الإبداع تكتشف الطاقات وتنمّيها. فكلّنا يتحلّى بالإبداع إنّما الاختلاف يكمن في كيفية الاستعداد لتحقيق هذه القدرة.⁷

(ب) تتمتع بالإرادة، والرغبة في الإبداع، لا بل الشغف الدائم به، والتفكير الجادّ والمستمرّ فيه وفي سبله، كما بالجرأة، فأنت، بمجرد أن تمتلك فكرة جديدة تصبح أقلية مكوّنة من فرد واحد. حاول أن تنقل هذه الإرادة، وهذا الشغف إلى متعلّميك.

(ج) كن صاحب ملاحظة يقظة ودقيقة، تلتقط الإشارات من حولها، تسخرها وتوظفها لأهداف مرسومة أو مستجدة. درّب متعلميك على التقاط هذه الإشارات. ويمكن تحديد الإشارة بأنّها ببساطة شيء يؤثّر لشيء آخر بطريقة معيّنة، هي ما يسهم في إيصال المعنى، إذا استثمرت بالشكل المناسب... ويمكن أن تلتقط بأشكال عدّة: باللمس، الشمّ، الذوق، السمع، النظر، الفعل...⁸

(د) قارب أمورك بهدوء إنّما ليس بارتخاء، بروية وصبر ومثابرة، فالمبدعون يتميّزون دائماً بالقدرة الفائقة على تحمّل العناء. حاول، غامر، جرّب، طبّق، لا تستسلم ولا تقع فريسة الفشل، وإن أخطأت، فالفشل الحقيقيّ الوحيد هو عندما ترفض أن تحاول. لقد رأى الكاتب "ويليم ورد" (William Ward) أنّك "إذا تخيلت أمراً ما يمكنك تحقيقه. إذا حلمت به تصبح ما هو".

(هـ) كن شخصاً مرتّباً ومنظماً، فالإبداع ليس الفوضى. أبق دفتر الملاحظات أو المفكرة الإلكترونية دائماً معك ودون كلّ ما يتبادر إلى ذهنك. خطّط، حدّد أهدافك، أطر أعمالك، أنه كلّ ما تبدأ به. فكما يقول المرّبي والمؤلف "بيتر دراكر" (Peter Drucker) إنّ "الخطط تبقى مجرد نوايا جيّدة حتّى تتحوّل إلى عمل شاق!..."

(و) اسع لكي تكون منفتحاً وقابلاً لكلّ جديد، مرحّباً بالتقدّم، وخصوصاً الذاتيّ. لا تلجأ إلى ما هو جاهز، تخطّ القواعد المألوفة. نشط مخيلتك. أطلق لها العنان، وأحطها بكلّ ما يحفظها من معارف وأشياء... ف"المخيلة هي ما يجعلنا أكثر مرونة في مجتمعاتنا الحديثة"⁹. بها نتخطّى الحاضر، وننتقل لتكوين رؤى جديدة للحياة.

(ز) عش قلق البحث الدائم. وسع ثقافتك، وفّر لنفسك وللمتعلم البيئة الثقافيّة اللازمة، فللعوامل الثقافيّة تأثير كبير في سير تطوّر الإبداع، ومستوى وظائفه، وأنماطه، والمتعلّمون الذين يعيشون في بيئات مدعّمة وغنيّة ثقافياً يحصلون على درجات إبداع أعلى من الدّرجات التي يحصل عليها المتعلّمون الذين يعيشون في بيئات محبّطة ومحرومة، أو فقيرة ثقافياً.¹⁰ مدّ لغتك وطعمها، تعرّف إلى أماكن جديدة، الجأ إلى المطالعة. فهذه الأخيرة، تأثير كبير في سير تطوّر الإبداع وتعزيز مستوياته ووظائفه وأنماطه، كما في تنمية الثروة اللغويّة، وفي إشباع الخيال، والدخول إلى ذلك العالم العجيب، خصوصاً إذا كانت الحكايات والقصص هي محورها. فما يحصل من عجائب وظروف غير منطقيّة في عالم الحكايات هو أمور مقنعة جدّاً للصغار والكبار. والأدب الغنيّ، بوجوهه المتنوّعة، قادر على

تغذية مخيلة المتعلم، ومختلف جوانب تفكيره، بكل ما يثير ويمتع. كلنا لدينا هذه الساعات الأربع والعشرون، أما كيف نختار تمصيتها فهذا ما يميز فيما بيننا، ويحدد الفرق بين النجاح والفشل.

(ح) تعلم أن تفكر في التفكير. تدرّب ودرّب على تنمية المهارات والعادات الفكرية والتحليلية، وبخاصة قدرات التفكير الإبداعي¹¹. اعتمد الأسئلة وخصوصًا المفتوحة منها، وتلك التي تقتضي التحليل والمناقشة والعصف الذهني... فتخلق الفرد المفكر والناقد المستنير، الذي يحسن الحكم على الأمور، وتقدير العواقب، وابتكار الحلول، وربط الأسباب بالنتائج، والذي يستطيع أن يسير بمجتمعه خطوات إلى الأمام. فإذا كان إعداد المتعلمين لمواجهة التغيرات السريعة في العالم، اليوم، هو أحد تحديات التربية، فإنّ تعليمهم التفكير بإبداع يصبح حاجة ملحة.

(ط) أعط للعلوم الإنسانية بعامة، وللأدب بخاصة، حصّة من وقتك واهتمامك. فالأدب يعزّز التربية الصحيحة، ويبنى شخصية الفرد القارئ، السوي، المهتمّ بشؤون مجتمعه ومشكلاته، المتسم بصفات كدقة الملاحظة، والصبر والمثابرة، والتفكير الناقد، الجاد، والمستمرّ، وتنمية التأمل، والخيال، والتفكير الناقد... والتي تدعم الفكر والابتكار والإبداع...

(ي) اهتمّ بالفنون، ارسّم، غنّ واستمتع بالموسيقى... الجأ إلى المسرح الذي يُعتبر مفتاح الإنتاج الإبداعي، واطّلع على كلّ جديد في عالمه. فتأدية الأدوار على خشبة المسرح تحرك المخيلة، وتعزّز الثقة بالنفس والقدرات الإبداعية وتيسر تكوين المفاهيم.. تقول البروفسور "غادسدن" (Vivian L. Gadsden) إنّ الفنّ يسمح للمرء بأن يكون في جلدٍ آخر، ليختبر الحقيقة والواقع، لينتقل عبر الزمان والمكان والتاريخ والظروف...¹² من خلاله، يكتشف قوّة الإشارات، ويتعلّم كيف يطبّع أشياءها إلى معاني... وذلك كلّ من أجل رؤية العالم من وجهة نظر مختلفة... والتعبير عن ذاته وعن علاقته بالعالم الخارجي، كما لابتكار عالم جديد ممتع ومسلّ...¹³ التقى المؤلف الموسيقيّ "بيتهوفن" (Beethoven)، مرّة، بفتاة عمياء، قالت له: "أسمعك تتكلّم على ضوء القمر. كم أنا حزينة لأنني لا أستطيع أن أرى هذا الضوء الذي تتكلّم عليه!" فاقترّب "بيتهوفن" منها، وقال: "أنا سأجعلك ترينه". ثمّ راح يعزف مقطوعته "ضوء القمر" (Sonata Moon Light)!!... وإذا بالفتاة بتسم ابتسامة فرح ورضى، وترحل بها إلى مكان بعيد...

(ك) عد إلى الطَّبِيعَة والأرض، واستمع إلى لغتها، ففيها ستلتقي بذاتك الحقيقية، وستجد ذاك الهدوء الذي ينقلك إلى عالم الإبداع الذي تبغيه. قالت الكاتبة "أيرنيس مورودوك" (Murdoch): "إن أرقى إنسان هو ذاك الإنسان العاديّ الملتصق بالأرض، بالطَّبِيعَة..."

(ل) اهتمّ بما يحيط بك من مشكلات مختلفة، وأثر اهتمام متعلّميك وحماستهم وإحساسهم بها. زوّدهم بخبرات جماليّة وأخلاقيّة، وإنسانيّة، ثريّة بكل عناصر التّدوُق السّليم والاستنارة الغنيّة بالمفاهيم الصّحيحة، عن التّاريخ، والوجود، والكون والحياة... فهذا سيجعلهم مهيبين لأن يحيوا تجربة وابتدعوا منها، لأن يمتلكوا مصيراً.

(م) ألغ عوائق الإبداع في المدرسة، واجعل من هذا المكان بيئة حاضنة للإبداع وقادرة على تأطيره. فالكشف عن المبدعين ورعايتهم، ليس بالأمر السّهل، بل هو يحتاج إلى تخطيط تربويّ، وحشد هائل للطّاقات الماديّة والبشريّة:

○ تقبّل المتعلّم كفرد ذي قيمة، يتمتّع بحقّ المشاركة والتّعبير والحماية، كما بالكفاءة والقدرة على التّوقّع والتّأثير... آمن به بصرف النّظر عن وضعه، وحاول رؤية العالم من منظاره، ادعم أعماله الإبداعيّة وتعاطف معه، ساعده على أن يثق بنفسه وبقدرته على التّعلّم والإبداع... فهو، عندما يؤمن بأنّ النّجاح أمر ممكن، سيحاول. يرى عالم النّفس "كارل روجرز" (Carl Rogers) أنّ النّاس يحتاجون، إذا أرادوا أن يقوموا بعمل مبدع، إلى الأمان النّفسيّ والحريّة النّفسية، بالإضافة إلى التّقدير الإيجابي¹⁴...

○ خصّص وقتاً لإرشاد المتعلّم، قدّم له التّوجيهات والنّصائح بإيجابيّة بعيداً من القمع، أفده بما لديك من معرفة حول الإبداع، أحطه بنماذج إبداع ومبدعين من مختلف الأعمار... فالأشخاص العظماء، يعرفهم الكاتب "مارك توين" (Mark Twain) "بأنّهم من يُشعرون الآخرين بأنّهم عظماء أيضاً".

○ حضّر دائماً، جاعلاً كلّ مرّة تدخل فيها الصّفّ كأنّها المرّة الأولى. جدّد، ابتكر، خصوصاً في تعليم اللّغات، فاللّغة، كما يراها الفيلسوف "ابن خلدون"، "هي ملكة لا تصل إلّا بالابتكار الأفعال".

○ قدّم المادّة بوضوح واربط بين مهاراتها... ركّز على المنهج الاستقرائيّ الوصفيّ، وعلى التّدرّيات الاتّصاليّة. جهّز نفسك دائماً بمجموعة استراتيجيات مدروسة ومختبرة تنفع

كلّ المتعلّمين، وتحاكي مختلف أنواع الذكاء، وتعرّز الإبداع والتّعليم المستقلّ، وتسهم في إخراج الأفضل منك ومن متعلّميك، وتُمتّع الاثنين معًا وتحفّزهما... ساعد المتعلّم على الارتقاء من الأفكار اليومية إلى الأفكار المجرّدة. فالتّقريب بين الملموس والمجرّد، بحسب المؤلّف الموسيقيّ "فيدوفسكي" (Laszlo Vidovszky) هو أمر ضروريّ للتّوصّل إلى المفهوم.

○ استخدم الوسائط التفاعليّة والوسائل الرديفة كالتيكنولوجيا والفنون والألعاب، خصوصًا اللّعب الخياليّ. ففي دراسة أجريت مؤخرًا من قبل الباحثين "هوفمان" (J. Hoffman) و "روس" (S. Russ) (2012)، تبين أنّ التّظاهر باللّعب، وهو واحد من الأنماط التّمودجيّة للعب الأولاد، قد ساهم بشكل كبير في التّعلّم الإبداعيّ¹⁵.

وفي أحد التّماذج على هذا النوع من الألعاب يطلب "مارك"، وهو أحد المرّيين، إلى الأولاد أن يجلسوا بشكل دائرة، ويجلس هو على كرسيّ وضعها خلفه. يسحب من جيبه منديلًا مطويًا، يرميه في الهواء، ثمّ يطويه مجدّدًا بشكل شريط طويل. يشكّل عقدة في وسط المنديل، ثمّ يقف لينظر إلى الأولاد الذين يراقبونه بصمت وتوقّع. يرفع "مارك" المنديل بيديه الاثنتين، ماسكًا بطرفي العقدة ليشكّل هيئة رأس ورجلين. ثمّ يبدأ بتحريك الرّجلين، فيتحوّل المنديل إلى مخلوق يمشي ويقفز ويعرج. ويحدث أصواتًا صغيرة في الوقت نفسه. أحيانًا، يكون الوضع جدّابًا، وأحيانًا أخرى مضحكًا، وفي مرحلة معيّنة يتحوّل أمرًا مزعجًا. بعد دقائق قليلة، يبدأ الأولاد بالتحرك، والانحناء إلى الأمام، بعضهم يحاول الوصول إلى المنديل، وبعضهم الآخر يحرك يديه ليلاعب مخلوقًا منديليًا خياليًا خاصًا بهم. من الواضح أنّهم يريدون تجربة الأمر بأنفسهم. يوزّع "مارك" قطعًا من القماش على الأولاد ويقسمهم إلى مجموعات من ستة أو سبعة. كلّ مجموعة تعمل مع شخص راشد. أستاذ الصّفّ وأستاذان مساعدان و"مارك" يجلسون على كراسي مع مجموعات من الأولاد، وقد أعطوا تعليمات بتحويل قطع القماش إلى شخصيات لها حركات وأصوات خاصّة بها مع قصّة مرافقة لها. بعد نصف ساعة من المناقشة الحيويّة والعرض والكلام، يجمع "مارك" الصّفّ كلّ في دائرة كبيرة. تبدأ كلّ مجموعة بعرض دميّتها باختصار على المجموعة الكاملة. يُشجّع الأولاد على الوقوف والتحدّث مع دميّاتهم – التّمثيل معها، وتقديم اختراعهم¹⁶.

○ اِردم الهوة العميقة بين المعرفة والإنتاج. وقرّ جواً طبيعياً بينك وبين متعلّميك، عزّز المقاربات العفويّة البسيطة، مركزًا على القواعد الأساسيّة التي تؤهّل المتعلّم للإنتاج الإبداعيّ، فلا يفرق في مطّبات العمليّة التعلّميّة وتفصيلها وتعقيدها، بل ينطلق

بمخيلته إلى البعيد. يقول الفيلسوف والكاتب الفرنسي "جان جاك روسو" (Jean-Jacques Rousseau): "لنترك الطفل على طبيعته، مع مراقبته".



○ **وَقِّ بين المنطق والإبداع، ف "الإبداع غير مُجدٍ** وفعال من دون النَّظام والمنطق، وغير منتج من دون شرارات المخيلة". والدماغ فيه جزءان: الجزء الأيمن الإبداعي، والجزء الأيسر المنطقي، وهو يعمل بطريقتين: الأولى من خلال الإبداع، فيما الثانية من خلال المنطق. وبالتالي، على هذين الجزئين أن يعملوا على إيجاد الصِّلة فيما بينهما لكي تتم الأمور على أفضل وجه¹⁷.

ثانياً: في عالم الإبداع - خطوات نحو التنفيذ.

لابدّ، في هذا القسم من البحث، أن نعرض نماذج مختارة تقدّم فيها بعض المهارات بأسلوب إبداعيّ، مطبّقين بعض ما تمّ عرضه في ما سبق من مادّة نظريّة، واصفين السبيل التي أدت إلى تحقيق هذا الإبداع، كما تأطير النتيجة المبتغاة.

1. **التقاط الإشارات:** يمكن، من خلال عيش قلق البحث الدائم وإيقاظ الملاحظة الدقيقة التقاط الإشارات المناسبة وتوظيفها من أجل تعليم إبداعيّ. فعلى سبيل المثال، في أثناء مشاهدة فيلم سينمائيّ كفيلم "باتش آدمز" (Patch Adams)¹⁸، يمكن لمشهد حواريّ جرى بين البروفسور و "باتش آدمز"، يحمل المضمون التالي، أن نوظفه، مثلاً، من أجل شرح مهارة التحليل : "كان "باتش" كلّما التقى البروفسور، في أروقة المستشفى سأله الأخير: كم هو عدد هذه الأصابع؟ فيجيبه "باتش": أربع. فينظر البروفسور إليه ساخراً، ويكمل طريقه. ما أثار فضول "باتش" واستغرابه، فقرّر زيارة الرجل في غرفته للاطلاع على حقيقة الأمر. وعندما دخل الغرفة، جرى بينهما حوار، إليكم الجزء الذي يمكن الاستفادة منه:

- ما هو حلّ الأصابع؟

- كم إصبعاً ترى؟

- أربع أصابع.

- لا. أنت تركّز على المشكلة، لذا لا ترى الحلّ. انظر إلى ما وراء الأصابع. كم إصبعاً

ترى؟

-ثمانى أصابع.

-إجابة صحيحة. يجب أن ترى ما لا يراه الآخرون.“

وهكذا قد نطلق من بعض العبارات التي مرّت في الحوار لتحديد التحليل (ما لا يراه الآخرون = قراءة ما ليس مكتوبًا . انظر إلى ما وراء الأصابع = الذهاب إلى ما هو أبعد من النصّ. ← الأصابع الأربع هي المعنى المباشر للنصّ فيما الأصابع الثماني هي تحليل النصّ والوصول إلى معانيه العميقة..)

كما يمكن، في أثناء مشاهدة مباراة في كرة القدم التقاط إشارة من ملامح شخصيّة المدرب الإسباني "ديل بوسك" (Del Bosque) ووجهه التي لا تتبدّل وفق الظروف، بل تبقى كما هي في حالات الرّبح والخسارة، بغية الإقناع، مثلاً، بأهميّة الإلقاء والتّعبير والتّنظيم في أثناء القراءة.



عند تسجيل
إسبانيا



عند منح ركلة
جزاء للخصم



عند تسجيل
الخصم



عند منح ركلة
جزاء لإسبانيا



عند إنذار

2. استغلال الوسائط التفاعلية: يمكن استخدام الوسائط التفاعلية كالمبيوتر على سبيل المثال. فيتّم رسم ترسيمة تحت عنوان "العبور"¹⁹ وعرضها على اللّوح الذّكيّ أمام المتعلّمين لملئها واختبار تكوّن مهارة التحليل كخطوة ثانية بعد التّعرف إلى هذه المهارة.

بعد مشاهدتك فيلم "باتش آدمز" ووقوفك على معنى التحليل، املاً هذه الترسيمية بها يناسب من الكلمات والعبارات التالية: الأصابع الأربع، النَّصَّ على مستوى الدلالة الثانية، التحليل، الاستنتاج، النَّصُّج الشَّخْصِي، المخزون الثقافي، قراءة ما ليس مكتوباً، الإبداع، النَّصَّ على مستوى الدلالة الأولى، الأصابع الثماني.



كما يمكن تشكيل فيلم قصير من خلال رسوم متحركة بغية الإقناع بفكرة ما، كفكرة الحكم بموضوعية في فيلم "المطعم"²⁰:





وأيضاً، يمكن أن يتم ابتكار بعض الرسوم الهادفة والمعبرة عن السبب والنتيجة بغية تمكين هذه المهارة عند المتعلمين، من خلال ابتكار شخصية جديدة تعمل على توجيه هؤلاء المتعلمين، كشخصية العصفور: "العصفور يعلم" 21.





3. العودة إلى الطَّبيعة والإنصات إلى لغتها، بغية خلق أدبيّ جديد ومحفّز وهاذف يعمل على بناء الإنسان في المتعلّم، وعلى تعزيز القيم في حياته. فنستوحي من بعض عناصر الطَّبيعة كالشَّمس والمطر والأزهار والعصافير فكرة العطاء من دون مقابل، ونبني من خلالها أحداث قصّة، تحت عنوان "هكذا ساحب الآخريين"²².

"بطل هذه القصة طفل أناني لا يحبّ العطاء. أصدقاؤه الوحيدون هم الشَّمس والأشجار والعصافير والأزهار والفرشات. عندما يتماذى يوماً، في أنانيته يحلم حلمًا يرى فيه أنّ أصدقاؤه قد تركوه فيهرول مسرعًا إلى البستان ليتبيّن له أنّ الأمر مجرد كابوس. فيسمع من أصدقائه كلامًا عن المحبّة الحقيقيّة والعطاء من دون مقابل، ويقرّر العودة عن أنانيته..."

4. الاهتمام بالفنون واستخدامها في عمليّة التعلّم والتّعليم، وتحديدًا المسرح. إذ يمكن، مثلاً، إيصال بعض مهارات الصّرف والتّحوم خلال مشاهد مسرحيّة تجسّد هذه المهارات. إليكم في ما سيأتي مشهدين مسرحيين²³، يعالج الأوّل مهارة التّمييز بين "المضارع المبنّي والمضارع المعرب"، فيما يعالج الثّاني مهارة "فاء الجزاء في الجملة الشرطيّة"، كمثال يمكن الاقتداء به:

المشهد الأول: "لم في ضيافة المضارع".

("لم" تتدلى من رقبتها ربطة عنق كتب عليها: أداة جزم. تقف مع إحدى كلمات اللغة، ويجري بينهما هذا الحوار، فتبدأ "لم" قائلة:)

-همُّ النَّاسِ، أَجْنَاسٌ وَأَنْوَاعٌ:

مِنْهُمْ الصَّامِتُ وَالْجَامِدُ

وَمِنْهُمْ الْعَابِسُ وَالْحَاقِدُ

مِنْهُمْ اللَّطِيفُ وَالْخَفِيفُ.

(فتوقفها الكلمة الأخرى، قائلة:)

-حَسَنًا، حَسَنًا. وَمَتَى تَنْتَهِيَنَّ مِنْ هَذَا التَّعْدَادِ؟

-وَكَيْفَ لِي أَنْ أَنْتَهِيَ، وَالنَّاسُ كَثُرُ؟

-هَيَّا، مَاذَا تُرِيدِينَ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ؟

-أُرِيدُ أَنْ أُخْبِرَكَ عَنْ شَخْصَيْنِ يُثِيرَانِ فِي كُلِّ الْعَجَبِ.

-أَبْعَلُ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ مَنْ يُثِيرُ إِعْجَابَكَ؟

-نعم. انظري واسمعي.

(شخصان جالسان كل على مقعد: الأول لف رأسه بورقة كتب عليها: فتحة وبعدها

نون التوكيد: -ن / وسكون وبعدها نون الإناث: -ن. فيما الثاني لف رأسه بورقة كتب عليها
ضمة...)

الأول:

-مَرْحَبًا يَا سَيِّدَ "مضارع". أنا هنا.

-اجلسي من دون إزعاج.

- كيف سأجلسُ قربَ شخصٍ لا يلتفتُ إليَّ ولا يتأثرُ بوجودي؟
- هذا أنا، وسأبقى كما أنا. لن يُعَيِّرني أيُّ طارئٍ أو داخلٍ إليَّ. إذا كان الأمرُ لا يُعجبُك
فارحلي .

- لا، لا. كيف سأرحلُ. أنا مُلزَمَةٌ على البقاء.
- إذاً، اقبلني بما أنا عليه. فلن أُعَيِّرَ أيَّ شيءٍ فيَّ لأجلك.
- لقد بدلتُ رأيي. سأذهبُ إلى جارك. أف. يا لك من مضارع مُزعج!
- أنا لستُ مضارِعًا مزعجًا، بل أنا مضارعٌ مبنِي، لا أبَدِل ما في، لا بك ولا بغيرك! ...
(تنتقل " لم " إلى الرَّجلِ الثَّاني)

الثَّاني:

- أهلاً وسهلاً بكِ آنسة " لم " . تقضلي.
- شكراً. وهل ستبقي هذه الضَّمة على آخركِ؟ أنتَ تعرفُ أنني لا أحبُّها! إنَّها تُزعجني
كثيراً، لا بل تُفعلُ مُعاناتي مع الحساسِيَّة. هل
- لا تُكلمي أرجوك. ها هي الضَّمةُ قد طارتُ من أجلِ عينيكِ. بِمَ تُريدِينَ أنْ أُستبدلها؟
فالأمرُ لكِ.

- بسكونٍ لو سمحتَ.
- ها هي السُّكُونُ قد صارتُ جاهزةً، كما طلبتِ.
(ويضع الرَّجلُ على رأسه سكوناً مكان الضَّمة ، فتفرح " لم " به وتقول:)
- آه، كم أنتَ لطيفٌ، يا صديقي المضارع!
- سمَّيني المضارعُ المُعربَ الذي يعرفُ كيف يتبدلُ تلبيةً للظُّروفِ.
- طبعاً. فالأمرُ واضحٌ: تلبيةً للظُّروفِ، وإكراماً للضيوفِ! ...



المشهد الثاني: "جواب الشرط في المحكمة".

(مشهد المحكمة: القاضي "سيبويه" على كرسيه وأمامه شخص يؤدي دور "فعل الشرط" يقف ويشتكى ويحتج، فيما الحارس يعلن بدء المحاكمة.)

- الحارس: محكمة!

(القاضي يتوجّه إلى فعل الشرط الذي يشتكى:)

- اصُتْ، يا فعل الشرط، وتكلّم بهدوء كي أفهم ما تقول.

- فعل الشرط: سيدي القاضي، "سببوه"، أنت حتماً لا ترضى بأن يكسر أحدكم قاعدة سننتها ووضعناها.

- القاضي: طبعاً لا. ومن تجرأ على فعل هذا؟!

- فعل الشرط: إنه جواب الشرط، ريفي الدائم، يا سيدي.

- القاضي: وماذا فعل هذا الجواب؟

- فعل الشرط: لقد تمرد يا سيدي وخرج على كل الضوابط. كُنّا معاً فعلين مضارعين مجزومين... لكنه تمرد ولم يعد راضياً بهذا الحال، بل صار يختار كل يوم وجهاً جديداً. تخيل أنه صار يُفضّل الجملة الاسميّة عليّ أو الفعل الجامد (بقرف) بئس.. حبداً.. ساء.. عسى .. نعم. وفعل الطلب: الأمر، والنهي.. وصار يُفضّل رُفّة قَد ورُبّما والسين وسوف.

- القاضي: يكفي يكفي. سوف تقضي عليّ. أيها الحارس! أخضر لي هذا الخائن! أخضر لي جواب الشرط، سألقنه درساً لن ينساه.

- الحارس: حسناً، سيدي القاضي.

- فعل الشرط: وأخيراً سينال عقابه!...

- الحارس: هيّا تحرك!...

-جواب الشرط (مَجْرُورًا وَمَتَدَمَّرًا وَغَاضِبًا): حَسَنًا لَا تَزْكُنِي، أَهَذَا الْأَسْلُوبُ الْحَضَارِيُّ الَّذِي تَتَّبِعُونَهُ فِي مَحْكَمَتِكُمْ .

(ثمَّ يَنْقَلِبُ إِلَى مَسْكِينِ أَمَامِ الْقَاضِي)

-أَرْجُوكَ يَا سَيِّدِي، أَنَا بَرِيءٌ.

-القاضي: لَا تُؤَدِّ دَوْرَ الْمَسْكِينِ أَمَامِي. فَأَنْتَ لَسْتَ سِوَى خَائِنٍ لَعِينٍ. كَيْفَ تَجْرُؤُ عَلَى عَصِيَانِي؟ كَيْفَ تَتَمَرَّدُ وَتَشُدُّ عَلَى قَوَاعِدِي؟

-جواب الشرط: حَسَنًا سَيِّدِي، أَعْتَرَفُ بِذَنْبِي. أَرْجُوكَ أَنْ تَكُونَ رَحِيمًا وَأَنَا سَأَفْعَلُ كُلَّ مَا تُرِيدُهُ مِنِّي.

القاضي (يَنْظُرُ إِلَى فِعْلِ الشَّرْطِ).

-فِعْلُ الشَّرْطِ: لَا بَأْسَ، أَنْ تَبْقَى اثْنَيْنِ، أَفْضَلَ مِنَ الْعَيْشِ وَحِيدًا.

-القاضي: لَنْ أُرْمِيكَ فِي السِّجْنِ، لَكِنِّي سَأُضَعُ حَارِسًا يُرَافِقُكَ فِي كُلِّ مَرَّةٍ تَشُدُّ فِيهَا عَنِ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ، وَسِيرْبُطُكَ بِحَبْلِ يُبْعَدُ عَنْكَ الْبَلَاءَ اسْمُهُ فَاءُ الْجَزَاءِ!

-جواب الشرط: يَا إِلَهِي، يَرْبِطْنِي بِحَبْلِ!

-القاضي: اسْمِعْ أَيُّهَا الْحَارِسُ، عِنْدَمَا تَرَاهُ جَمَلَةً اسْمِيَّةً أَوْ فِعْلًا جَامِدًا أَوْ فِعْلًا طَلْبِيًّا أَوْ مُفْتَرًّا بِقَدْرٍ أَوْ رُبْمَا أَوْ سِينٍ أَوْ سَوْفٍ، مَاذَا سَتَفْعَلُ أَيُّهَا الْحَارِسُ؟؟

-جواب الشرط مستدرگًا بارتباك: سِيرْبِطْنِي بِهَذَا الْحَبْلِ الَّذِي سَمَّيْتَهُ فَاءَ الْجَزَاءِ..

-الحارس: وَسَأَكُونُ جَدًّا سَعِيدًا!... مَحْكَمَةٌ..."

توصيات نهائية:

الإبداع هو خلق الجديد، والتوق الدائم لتخطي المألوف...

أنت ستكون معلمًا رائعًا ومبدعًا، إذا آمنت بنفسك وبأهمية الإبداع... إذا سخرت طاقاتك لأجل توظيف الإبداع في عملية التعلّم والتعليم، فالنار لا تحترق في أعضاء محترقة...

باختصار، إذا استخدمت القليل من الإبداع والكثير من الاهتمام ستلغي التحدّيات التي تواجه المتعلّمين والتي باتت أكثر تعقيداً، ستواجه حاجاتهم بمجموعة متنوعة من أساليب التعلّم، ستزيل كلّ العوائق والحواجز المنهجية المستمرة التي تحول دون تحقيق التربية الإبداعية، ستساعدهم على تطوير قدراتهم المميزة والفريدة من أجل فكر وعمل إبداعيين، وستحوّل الثقافة المدرسية إلى ما هو إيجابي ومحفّز، فتصبح أمتع وأسهل...

عليك، علينا أن نعلّم أولادنا كيفية تشكيل المستقبل، وتطوير مهاراتهم واستقلاليتهم ليفكروا ويعملوا يابداً، ليحلّقوا في عالمهم الحاضر إلى ما هو أبعد منه. علينا أن نؤهلهم لهذا الطيران، "من يردّ تعلّم الطيران"، كما قال الفيلسوف "نيتشه" (Friedrich Nietzsche)، ف"عليه أولاً أن يتعلّم الوقوف والسّير والرّكض والتسلّق والرّقص... لا يمكن لأحد أن يطير فجأة". ف"العمليات الابتكارية والإبداعية تُعتبر صاحبة الفضل في تقدّم الحياة وتطوّرها على مرّ العصور والأجيال، ولهذا فإنّ أصحاب القدرات الابتكارية والإبداعية يكونون رأس مال قومياً وإنسانياً، يسهم في إثراء التّراث البشري، وتقدّم الإنسانية وازدهارها"²⁴.

أن تكون مبدعاً، هذا يعني أنّك ستخلق مُبدعين... هذا يعني أنّك ستدخل في صميم التطوّر الحضاري. فالى جانب التفكير المنطقي والتعاون والتواصل يعتبر الإبداع أحد مفاتيح مهارات القرن الحادي والعشرين، ويُفهم على أنّه وجه من وجوه التّراء المتعدّد الأبعاد والذي يمكن تطويره ورعايته. والمطلوب، اليوم، ليس كبح الإبداع إنّما تطويره وتميته ليصبح ذا أهداف كبيرة.

ختاماً، إنّ "القضية ليست أن يكون الإنسان أو لا يكون فقط، إنّما هي في أن يكون على أحسن ما يكون. إذًا، هناك تفضيل، والتّفضيل سير إلى الأمام، والسّير إلى الأمام يعتمد على التطوّر والحركة والتّغيير. هو حاجة ماسّة لا يمكن أن تحصل من دون جهد، والجهد يعني العمل".

فإلى العمل كلّنا... إلى العمل المثمر، المبدع، القادر على مواكبة حياتنا الجديدة وتطلّعاتها!... "فالأمس قد ولى، والغد لَمّا يأت، ولم يبق لدينا سوى اليوم، فلنبداً العمل..."

لائحة المراجع:

-العطري، سناء (2006). أدب الطفل والتربية الإبداعية، خاصّ القصة السّورية. عن موقع "أدب الأطفال العرب".

-عطالله، سلمى (أيار 2017). الإبداع: ماذا؟ لماذا؟ كيف؟ (ورشة عمل). جامعة سيّدة اللّويزة، زوق مصبح، لبنان.

-عطالله، سلمى (2018). هكذا سَأحَبّ الآخرين. دار أكاديميا، لبنان.

-De Bono, Edward (2007). *How to Have Creative Ideas*. Vermilion, London.

-Johnson, Lou Anne (2011). *Teaching Outside the Box: How to Grab Your Students by Their Brains, (2nd Edition)*. Jossey-Bass, San Francisco.

-Starbuck, David (2006). *Creative Teaching: Learning with Style*. (Second Edition). Continuum International Publishing Group, London.

-Wright, Suzan (2010). *Understanding Creativity in Early Childhood*. Sage Publications, London.

الهوامش والإحالات:

¹ Wright, Suzan (2010). *Understanding Creativity in Early Childhood*. Sage Publications, London, P 3.

² *Understanding Creativity Early Childhood*, P 13.

³ *Understanding Creativity Early Childhood*, P 15.

⁴ De Bono, Edward (2007). *How to Have Creative Ideas*. Vermilion, London, P 1.

⁵ -العطري، سناء (2006). أدب الأطفال والتربية الإبداعية، خاصّ القصة السّوريّة. عن موقع "أدب الأطفال العرب"، ص 1.

⁶ Starbuck, David (2006). *Creative Teaching: Learning with Style. (Second Edition)*.

Continuum International Publishing Group, London, P 2, 4.

⁷ *Understanding Creativity in Early Childhood*, P 3.

⁸ *Understanding Creativity in Early Childhood*, P 12.

⁹ *Understanding Creativity in Early Childhood*, P 2.

¹⁰ - أدب الأطفال والتربية الإبداعية، ص 5.

¹¹ Johnson, LouAnne (2011). *Teaching Outside the Box: How to Grab Your Students by Their Brains, (2nd Edition)*. Jossey-Bass, San Francisco, P 102.

¹² *Understanding Creativity in Early Childhood*, P 2.

¹³ *Understanding Creativity in Early Childhood*, P 23.

¹⁴ *Teaching Outside the Box*. Introduction.

¹⁵ *Understanding Creativity in Early Childhood*, P 62.

¹⁶ *Understanding Creativity in Early Childhood*, P 63.

¹⁷ *Creative Teaching: Learning with Style*, P 25.

18 فيلم أميركيّ (1998) يروي القصة الحقيقية لرجل بطوليّ، "هنتر باتش آدامز"، وعزمه على أن يصبح طبيباً بسبب حبه لمساعدة الناس. وقد غامر حيث لم يغامر الطبيب من قبل، باستخدام الفكاهة و الانفعال المفرط لإضفاء الفرح في حياة المرضى. الفيلم من بطولة "روبن ويليامز" وإخراج "توم شاديالك".
¹⁹ - عطالله، سلمى (أيار 2017). الإبداع: ماذا؟ لماذا؟ كيف؟ (ورشة عمل). جامعة سيّدة اللّويزة، زوق مصبح، لبنان.

²⁰ - الإبداع: ماذا؟ لماذا؟ كيف؟

²¹ - الإبداع: ماذا؟ لماذا؟ كيف؟

²² - عطالله، سلمى (2018). هكذا سألنا الآخرين، دار أكاديميا، لبنان.

²³ - الإبداع: ماذا؟ لماذا؟ كيف؟

²⁴ - أدب الأطفال والتربية الإبداعية، ص 2.

ديداكتيك النظرية الخليلية الحديثة

- كتاب السنة الأولى من التعليم الثانوي - جذع مشترك آداب أنموذجاً -

د. سمير معزوزن

المركز الجامعي عبد الحفيظ بو الصوف – ميله - الجزائر

samirmazouzen@yahoo.fr

تاريخ النشر: 2019/03/31

تاريخ القبول: 2018/10/07

تاريخ الإرسال: 11: 2018/07/

الملخص: نروم من خلال هذه الورقيات البحثية إلى دراسة ديداكتيك النظرية الخليلية، وأهمية استثمارها في تعليم اللغة العربية وأنشطتها في مرحلة التعليم الثانوي، حيث يتجلى لنا فضلها في كونها لم تتوقف عند حدود الدراسة اللسانية، بل سعت جاهدة إلى استثمار المفاهيم المكتشفة في تطوير البحث في تعليم اللغة العربية وتعلمها، وتقديم اقتراحات أنجع لتعليم اللغة وفق أسس علمية دقيقة ومضبوطة.

الكلمات المفتاحية: مفاهيم النظرية الخليلية الحديثة؛ الديداكتيك؛ الكتاب المدرسي؛ التعليم الثانوي.

Didactic of Modern khalily Theory - Book of the first year of secondary education - a common trunk model literature -

Abstract: In this article, we seek to study Modern khalily theory, and the importance of its investment in the teaching of the Arabic language and its activities in secondary education. It has also endeavored to exploit the concepts discovered in the development of research in the teaching and learning of the Arabic language, and to provide more effective suggestions for teaching the language according to precise scientific bases.

Keywords: Concepts modern khalily theory ; Didactic ;School book ;High school

تمهيد: لعل من نافلة القول، التأكيد على إسهامات النظرية الخليلية الحديثة في تطوير تعليم اللّغة العربيّة في مختلف المراحل التّعليمية في بلادنا، بدءًا في ذلك من مرحلة التّعليم الابتدائي، ووصولاً إلى التّعليم الثّانوي ما قبل الجامعي، أضف الى ذلك دورها الكبير في وضع تصورات علمية في إعداد مناهج تعليم اللّغة العربيّة تنطلق من المبدأ الوظيفي البراغماتي النفعي، الّذي يأخذ بعين الاعتبار الاحتياجات اللّغويّة (Les besoins langagiers) للمتعلّم. وعليه، يمكن الارتقاء بهذه المفاهيم النظرية إلى مفاهيم ديداكتيكية تربوية بيداغوجية، يمكنها أن تقدم لنا الكثير من الحلول فيما يخص الصعوبات المطروحة حالياً في تعليم اللّغة العربيّة في المدرسة الجزائريّة.

1 – التّعريف بالنّظرية الخليلية الحديثة:

وغني عن البيان، أنّ النظرية الخليلية الحديثة هي نظرية لسانية ثانية (Métathéorie) للنظرية الخليلية العربيّة الأصيلة الأولى الّتي أرسى معالمها الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت: 175 هـ) وتلميذه سيبويه (ت: 180 هـ) وممن شافهوا العرب الفصحاء ابتداءً من القرن الثّاني الهجري حتى القرن الخامس الهجري مع عبد القاهر الجرجاني (ت: 471 هـ). "والخليل ليس هو وحده المسؤول عن كل ما أبدعه عباقرة العلماء الأولين؛ فهناك من عاصره وكان عبقرياً مثله ومن جاء بعده وكان عبقرياً مثله، وأذكر من هؤلاء الإمام الشافعي، فهو في أصول الفقه بمنزلة الخليل في النّحو وعلوم اللّسان..."⁽¹⁾.

وبناءً على ما تقدّم ذكره، يظهر لنا جلياً، أنّ النظرية الخليلية سُميت بهذا الاسم بالتغليب إلى مؤسسها الأول الخليل بن أحمد الفراهيدي عبقرى زمانه، ونابغة العرب ومبتكر علم العروض وواضع أول معجم في اللّغة، وهو ما عبر عنه عبد الرحمان الحاج صالح بقوله: "والّذي جعلنا نفكر في حداثة أفكار النّحاة الأولين ممن عاصر الخليل وأتباعه وأصالتها خاصة (لأننا لا نزعم أبداً أنها مطابقة لأفكار علماء اللّسانيات) هما شيئان اثنان: أولاً الفوارق الكبيرة جدّاً التي تفتقر بها أفكار أولئك النّحاة عن الأفكار النّحوية العربيّة التّقليدية (مثل ما نجدّه عند ابن مالك مثلاً وشروح مؤلفاته)، فالنّصّور العلمي يختلف فيهما تماماً. وأمّا الثّاني فهو ما أجمع عليه الناس في وقتنا: فقد لاحظ كل معاصرنا أنّ الأفكار الأساسيّة الّتي بني عليها التّحليل عند الخليل هي رياضية محضة"⁽²⁾. فقد اخترع الخليل نظرية في الرياضيات واستغلها في وضع منهج قويم لمعجم العين الشّهير، إذ بناه على قلب كل الصيغ الأصليّة،

بحيث تندرج فيه مع كل كلمة الكلمات الأخرى التي تجمع حروفها وتختلف في تركيبها بتقديم بعض منها على بعض⁽³⁾.

وإنَّ ما يمكن الإشارة إليه - ههنا - أنَّ النظرية الخليلية الحديثة تجمع مجموعة من الباحثين، ويُعد الأستاذ عبد الرحمان الحاج صالح من أبرز علمائها الذين أسسوا لها ودعوا إليها. لقد عكفت هذه النظرية منذ حوالي أربعين سنة تقريباً تدعو معشر اللسانيين في العالم العربي إلى قراءة التراث بمنظار علمي بعيد عن التّعسف في الاستنتاج والاعتباط في التأويل⁽⁴⁾.

قام عبد الرحمان الحاج صالح بإعادة قراءة التراث اللغوي العربي الأصيل ومقارنته بما توصل إليه البحث اللساني الحديث، ومحاولة استثمار ذلك في الدّراسات اللّغوية العربيّة. فأراد بذلك من خلال دراسته، أن يُعيد الاعتبار لهذا التراث اللّغوي الّذي هُمس، وهذا لا يعني البتة أنه ضد فكرة التّجديد في الدّراسات اللّغوية العربيّة. حيث وُجه له في إحدى المحاضرات السّؤال الآتي: هل أنتم من المحافظين؟ فأجاب: لست مُحافظاً ولا مُجدداً، ولكن أبحث عن المفيد. اكتشفنا في القديم شيئاً عظيماً لم نجده في الحديث، ولو اكتشفناه في الحديث لأخذنا به⁽⁵⁾. وبذلك يكون قد جمع بين الأصالة والمعاصرة، واستطاع بذلك بعث الجديد عبر إحياء المكتسب.

2 - ديداكتيك النظرية الخليلية الحديثة:

سنحاول أن نتطرق في هذا الجزء إلى ما يمكن أن تسهم به النظرية الخليلية الحديثة في إيجاد الكثير من الحلول للمعوقات والصعوبات المطروحة في تعليم اللّغة العربيّة وأنشطتها في مرحلة التعليم الثانوي. وذلك من خلال إبراز وكشف كل ما وفرته هذه النظرية من قوانين ودراسات ونتائج، للوصول في النهاية للهدف المتوخى من وراء تعليم اللّغة العربيّة في مرحلة التعليم الثانوي، وهو " في مقام تواصل دال يكون المتعلم قادراً على تسخير مكتسباته القبلية لإنتاج نصوص في أشكال متعددة من التّعبير"⁽⁶⁾.

2-1 - حسن اختيار محتوى الأنشطة التّعليمية:

على الرغم من وجهة الإصلاحات التي أقدمت عليها وزارة التّربية الوطنية، إلا أنّها تكتنفها الكثير من النقائص والمشاكل، وهذا ما لاحظته عبد الرحمان الحاج صالح في إطار الدّراسة الّتي تُعرف بالرّصيد اللّغوي الوظيفي العربي المشترك. فقد رأى أنّ المحتوى اللّغوي

الحالي المطبق في مدارسنا لا يستجيب لحاجات المتعلّم التّليغية والاجتماعية، خصوصًا إذا تعلق الأمر بالتّعبير عن الكثير من المفاهيم المستخدمة في الحياة اليومية⁽⁷⁾. لأنّ المتعلّم يحتاج إلى المعارف التي لا غنى عنها لمواجهة مختلف وضعيات المشكلة التي يواجهها في محيطه الاجتماعي، ولكن المحتوى اللّغوي التّعليمي الذي لا يلبّي متطلبات واحتياجات المتعلّم الاجتماعية، لا يمكن أن يكون له أي دور بالنسبة للمتعلّم.

يتراءى لنا أنّ كتاب " المشوق " قد احتوى على نصوص أدبية ارتبطت بالمحيط الاجتماعي للمتعلّم، ووردت على شكل معارف من النّصوص المقرّرة في الكتاب من مثل: "الصلح والسلام" و " الفروسية" و " وصف البرق والمطر" و "تقوى الله والإحسان الى الآخرين". وباعتماد المقاربة النّصّية تنظر إلى النّص على أنه بنية كلية، فهو المحور الأساس لكل التّعلّمات، وحوله تدور كل الأنشطة التعليمية، والتي تتضمن مشروعًا من المشاريع الهدف منه جعل تعليم اللّغة العربيّة أكثر فعالية من خلال ربط تعليمها بالواقع اليومي للمتعلّم؛ فالهدف منها ليس تكوين المتعلم من أجل المهنة، وإنما جعل تعليم اللغة العربية أكثر فعالية من خلال ربط تعليمها بالواقع اليومي للمتعلّم، وبالتالي يقوم المتعلم بأعمال ذات معنى ودلالة تساعده على التعلّم الجماعي، والتكيف مع المحيط الاجتماعي بما يتناسب مع قدراته ورغباته وميولاته.

فمن مظاهر النقائص التي أقرها الحاج صالح في المحتويات التّعليمية الجزائرية، أنّ الحصيلة اللّغوية المقدمة للتّلاميذ من المفردات في مدارسنا تتسم بالكثير من العيوب والنقائص التي أثرت بطريقة سلبية في مكتسبات المتعلّم اللّغوية " فمن حيث الكم: تقدم للطفل غالبًا كمية كبيرة جدًّا من العناصر اللّغوية لا يمكن بحال من الأحوال أن يأتي على جميعها، ولذلك تصيبه ما نسميه بالتّخمة اللّغوية، وقد يكون ذلك سببًا في توقف آليات الاستيعاب الذهني والامتثالي، وهذا ما نلاحظه في تنوع المفردات في النّصّ الواحد مع وجود صعوبات أخرى تخص غرابة التراكيب بل غرابة المفاهيم. ومن حيث الكم والكيف: الكلمات التي يحاول المتعلّم تلقينها تكاد تشتمل على جميع الأبنية التي تعرفها العربيّة، ونلاحظ ذلك أيضًا في النّصّ الواحد، وهذا يسبب تخمة أخرى في مستوى البنى⁽⁸⁾.

وتجدر الإشارة، أنه من خلال متابعتنا ومعاينتنا للبرنامج المقرر في محتوى كتاب " المشوق " نرى أنه تطفى على الكتاب النزعة الكمية المملة على محتوى البرنامج، وهو ما جعل الكتاب لا يحتوي على العدد الكافي من الصفحات، وهذا بالمقارنة بما يحتوي عليه من

مقررات: الآداب والنصوص والنحو والصرف والبلاغة والعروض والتقييم النقدي. وهو الشيء الظاهر والبين في بعض النصوص والأنشطة الموجودة في الكتاب، من مثل: نص المطالعة: مشهد من مسرحية مجنون ليلي (لأحمد شوقي) والنص الأدبي " وصف البرق والمطر" (عبيد بن الأبرص)، والنص التواصلي: قيم روحية وقيم اجتماعية في الإسلام(د- شوقي ضيف) حيث ذكرت خطوات تحليل هذه النصوص على شكل خطوات، وما يلاحظ في محتوى خطوات معالجة هذه النصوص هو خلوها من أي شرح وتفسير، ما جعل الإجابة عن الأسئلة المطروحة في معالجة النص تقع على عاتق المتعلم، وهذا التصور في الوضع يخلق الكثير من الصعوبات لدى المتعلم في تحليل النص، وخاصة أنه في هذه المرحلة يحتاج إلى رصيد لغوي معرفي في المادة يساعده على تحليل معطيات النص. والسبب في كل الاختلالات السابقة الذكر – حسب تصورنا واعتقادنا الخاص- يعود إلى تأليف مقاييس الكتاب بثلاثة وعشرين ستمترا(23 سم) طولا، وستة عشر ستمترا(16 سم) عرضاً.

والأدهى والأمر من كل هذه الغزارة والخاصة، أنّ الكثير من تلامذتنا في المدارس والثانويات قد أصيبوا بما يسمى مرض اللّفظية (Verbalisme) حيث تجدهم في هذا السياق " يرددون ألفاظاً يجهلون معانيها أو لا يعرفونها بمدلولاتها المحددة بدقة"⁽⁹⁾. وتجدهم – مثلاً – في ثانوياتنا يتكلمون بألفاظ ويجدون متعة بالتحدث بها، ولكن إذا سألتهم عن معانيها يتلعثم لسانهم، وتأتي إجاباتهم مضطربة غير دقيقة.

إنّ ما يمكن الإشارة إليه – ههنا- هو صعوبة وغرابة بعض عبارات وتراكيب بعض النصوص الأدبية من مثل نص: "وصف البرق والمطر" لعبيد الأبرص، فهذا النص الأدبي - حسب تصورنا- يمتاز بألفاظه وتراكيبه الصعبة المعقدة التي تبتعد كثيرا عن لغة المتعلم في واقع استعماله اليومي للغة. لهذا يمكننا أن نسأل عن الميكانيزمات والضوابط التي تم اعتمادها في انتقاء ووضع النصوص الأدبية؟. وإن كان في هذا السياق، وضع المحتوى التعليمي في بلادنا يعتمد على المتخصصين فقط في المادة التعليمية المقررة دون النظر والاهتمام في الاختصاصات الأخرى التي تنظر في حاجات المتعلمين وميولاتهم الاجتماعية، وفهم نموهم وطرائق تعلمهم.

2 - 2 – تعليم نشاط النَّصّ الأدبي: لقد غدا مقرراً اليوم، أنّ النَّصّ الأدبي أصبح يتبوأ مكانة الصّدارة في التّعليم بالمقارنة مع بقية الأنشطة التّعليمية الأخرى. فالنّصّ الأدبي يمتلك من خصائص الجِدّة ما يجعله يثير إعجاب المتعلّم واهتمامه، حيث يُسهم " في بناء

شخصية التلميذ، إذ هو ميدان ممتاز يمكن المدرس في هذا المستوى من جعل التلاميذ منبهجين في عملهم، موضوعيين في تفكيرهم، مقنعين في نقاشهم، معترزين بمقومات أمتهم وواعين بدورهم في مجتمعهم الذين ينتمون إليه، وأخيراً مسهمين بفعالية في بناء حضارة أمتهم⁽¹⁰⁾.

ولكن عبد الرحمان الحاج صالح يرى بأن تلامذتنا لا يقبلون بشغف على هذه النصوص الأدبية، لأنها لا تتطابق مع حاجاتهم الحقيقية " فهناك مفاهيم حضارية لها علاقة بعصرنا الحاضر لا يجد الطفل أفاطاً عربية يعبر بها عنها"⁽¹¹⁾.

ولهذا، يُمكننا في هذا الإطار، أن نتساءل عن الكيفية التي تم فيها الربط بين المحتوى التعليمي وحاجات المتعلم وواقعه المعيشي، إذا كان تأليف هذا المحتوى - السنة الأولى ثانوي مثلاً- يرتبط بعصور زمنية ماضية (العصر الجاهلي، عصر صدر الإسلام والعصر الأموي) من جهة، وواقع المتعلم وحاجاته من جهة أخرى؟ وكيف يمكن أن تشبع هذه النصوص رغبات المتعلم واهتماماته، إذا كان البعد الزمني بين النصوص المبرمجة وحاضر المتعلم كبيراً جداً؟.

وعليه، يمكن أن نتساءل أيضاً عن الجدوى من اعتماد المعيار التاريخي في وضع النصوص الأدبية لتلاميذ السنة الأولى ثانوي - جذع مشترك آداب- إذا كانت النصوص الأدبية لهذه الفترات المتعاقبة (العصر الجاهلي، عصر صدر الإسلام، العصر الأموي) تمتاز بنوع من التعقيد والغموض يعكس الفترة التي ألفت فيها، على حساب قدرات المتعلمين الفكرية واللغوية في هذه المرحلة التي لم تصل بعد إلى مستوى يسمح لها بتحليل هذه النصوص وتدوقها. وعلى خلاف ذلك مستويات السنة الثانية والثالثة ثانوي التي خصصت لها محتويات ترتبط بالعصر العباسي وعصر الضعف والعصر الحديث، وهي سهلة التدوق والتحليل بحكم القرب الزمني بينها وبين حاضر المتعلمين. وهو ما جعل المحتوى التعليمي المدرج في كتاب " المشوق " يفتقر الى التدرج التربوي والمنهجي الذي يأخذ بعين الاعتبار قدرات المتعلم الفعلية في هذا المستوى التعليمي.

وتجدر الإشارة أيضاً، أنه من أهم الأسباب التي جعلت المتعلم لا يقبل على النصوص الأدبية التواصلية المقررة في كتاب " المشوق " ولا يتدوقها، هو ابتعادها الكبير عن واقع المتعلم وحياته الاجتماعية، فهي لا تعكس كثيراً عاداته وتقاليده، فهذا من منطلق أن اغليبتها مقتبسة من أعمال لكتاب عرب من مثل (أحمد شوقي، طه حسين، عباس محمود

العقاد، شوقي ضيف...)، ولهذا نتساءل عن سبب هذا الإقصاء؟ هل يعود السبب الى عدم وجود نصوص أدبية جزائرية صالحة للبرامج التعليمية؟ أو يرجع السبب إلى ذوق اللجنة الوطنية المكلفة بإعداد المناهج والمقررات التعليمية؟.

ومن هنا، -حسب تصور الحاج صالح- إذا أردنا أن يقبل التلاميذ بشغف على النصوص الأدبية، يجب أن نحرص على انتقاء لهم نصوص أدبية من الحياة المعاصرة اليومية التي يعيشونها، وننزل إلى الحياة الاجتماعية وننظر إلى ما يحتاجون إليه. " فالكارثة التي أصابتنا هو في انزواء العربية وابتعادها عن الميادين النابضة بالحياة ألا وهي الخطاب اليومي لأنه تشترك فيه الخاصة والعامة"⁽¹²⁾. وفي هذا السياق ميز الأستاذ الحاج صالح بين مستويين من التعبير:

1 – التعبير الترنيلي أو الإجلالي: وهو التعبير الذي تفرضه حرمة المقام، وفيه تظهر فيه عناية المتكلم مستعمل اللغة بحسن انتقاء الحروف والألفاظ والتراكيب، ويحرص على إبراز الحركات الإعرابية والنطق الصحيح للحروف واحترام أدوات الوقف. " ويستعمل الناس هذا المستوى من التعبير في جميع هذه الحالات التي تتصف بالحرمة كخطاب الخطيب وخطاب المذيع للناس في الإذاعة والتلفزة ومحاضرات الأساتذة إلا من ظلم العربية فاستبدلها حتى في هذه الأماكن بلهجته العامية"⁽¹³⁾.

2 – التعبير الاسترسال (الفصح لا العامي): وهو التعبير الذي يستعمل في مقام الأُس، وهو تعبير عفوي غير متكلف. " يسترسل فيه صاحبه لأنه يُخاطب شخصاً مأنوساً كصديق أو ابن أو زوجة؛ وفيه يكثر الإدغام والاختلاس للحركات والحذف للكلمات، وغير ذلك من التخفيف المعروف، وهو فصيح سمع من العرب الموثوق بعربيتهم"⁽¹⁴⁾. وهو التعبير الذي يسمح للمتعلم – حسب تصور الحاج صالح – باكتساب ملكة لغوية تستجيب لكل المواقف اللغوية الخطابية التواصلية، فتظهر بقوة في مواقف الاستعمال الحقيقي للغة. لأنّ "اللغة إذا صارت تكتسب الملكة فيها بالتلقين، وإذا اقتصر هذا التلقين على صحة التعبير وجماله فقط (أو ما يبدو أنه كذلك) واستهان بما يتطلبه الخطاب اليومي من خفة واقتصاد في التعبير وابتدال للألفاظ، تقلصت رقعة استعمالها وصارت لغة أدبية محضة"⁽¹⁵⁾.

ولا شك أن الناظر في قول الحاج صالح، يُدرك بجلاء، أنّ هذه الأحادية في التعبير وتضييق استعمال اللغة العربية في بعض المناسبات والخطب والندوات والنشرات الإخبارية هو الذي فتح الباب على مصراعيه لإحلال العامية واللغات الأجنبية مكان العربية الفصحى.

وتجدر الإشارة في هذا السياق، أن كتاب " المشوق " تطفى عليه فيما يخص مسألة اختيار النصوص الأدبية النصوص الشعرية على حساب النصوص النثرية، وهذا من منطلق انتصار المعدين للمناهج والمقررات التعليمية للنصوص الشعرية أكثر من النصوص النثرية. وعليه، فإنه من الأنسب ديداكتيكيا أن يكون توجهنا في تأليف محتويات الكتب التعليمية إلى النصوص النثرية على حساب النصوص الشعرية. ثم إن توجهنا هذا له أسبابه؛ فالنص النثري يُعدُّ الأقرب إلى قلوب المتعلمين والمثير لاهتماماتهم في واقع استعمالهم اليومي للغة، عكس النص الشعري الذي يرتبط استعماله بمجموعة من الضوابط والأسس.

2 – 3 – نشاط القواعد: غني عن البيان، أن الغرض المتوخى من وراء تدريس نشاط القواعد في مرحلة التعليم الثانوي هو "عصمة السنة المتعلمين وأقلامهم من الخطأ وإعانتهم على الدقة في التعبير والفهم، وبالتالي فهي تدرس على أساس أنها وسيلة فقط، وليست غاية. ولذلك ينبغي ألا ندرس منها إلا القدر الذي يعين على تحقيق هذا الغرض"⁽¹⁶⁾.

وفي هذا المسار، فقد لاحظ الحاج صالح أن تدريس نشاط القواعد لازال يتسم بالنمطية في العرض حيث ينطلق المعلم غالباً في تعليم الوحدات المقررة في نشاط القواعد باعتقاد التصور النمطي التقليدي في تمييز الوحدات اللغوية على أساس تصنيف النحاة المتأخرين لا النحاة المتقدمين. وفي محاولتنا النظر في الترتيب التي أقيم عليه المحتوى النحوي في كتاب "المشوق" نرى أنه تطفى عليه نزع التصور التقليدي الذي يميز منهج النحاة العرب المتأخرين و القائم أساساً على تمييز الوحدات اللغوية على أساس الميزة الإفرادية والحالة الإعرابية دون الميزة البنوية وما نادى به فطاحل علماء العربية المتقدمين. حيث نجد في هذا السياق، أن كل وحدة من الوحدات اللغوية الواردة في محتوى نشاط القواعد تدرس منفصلة ومعزولة عن نظيراتها الأخرى، وذلك بوضع لها تسمية أو اسم خاص بها مع مراعاة في ذلك حالتها الإعرابية، نذكر منها: المرفوعات: المبتدأ والخبر وأنواعهما، كان وأخواتها، كاد وأخواتها... المنصوبات: المفعول به، المنادى، المفعول المطلق... التوابع: النعت بنوعيه، التوكيد، البدل... الفعل: رفع الفعل المضارع ونصبه، جزم الفعل المضارع بالأدوات... وهو التصنيف الذي لا يتفق مع توجه وتصور النظرية الخليلية الحديثة التي ترى أن تحديد الوحدات اللغوية وتصنيفها وترتيبها يخضع لمنطق ما يلحق بهذه الوحدات اللغوية بينما وشمالاً على حسب ما تقتضيه مقاييس اللغة، وقابلية تلك الوحدة للارتباط مع وحدة

لغوية أخرى سابقة لها في الموضوع، مع الاهتمام ببنية الكلام وما يتصل به من أحكام إعرابية لا على أساس الحركة الإعرابية، وإنما على أساس بناء العناصر بعضها مع بعض.

وعليه، يرى "أنَّ القواعد النَّحوية والصَّرفية جد ضرورية في تعليم اللُّغة، لكن لا قواعد نظرية تحفظ عن ظهر قلب مطردها وشاذها، بل كمثل عملية تكتسب بكيفية خاصة"⁽¹⁷⁾. ونرى أن ما أقدم عليه كتاب "المشوق" في تدريس قواعد النحو و الصرف ما هو إلا قلب للمصطلحات والمفاهيم، فقد تم تبديل بعض المصطلحات بمصطلحات أخرى نذكر منها: مصطلح " التمارين" الذي تم تبديله وتغييره بمصطلح آخر أكثر علاقة مع مبادئ المقاربة بالكفاءات، وهو مصطلح "الإدماج" دون تحديث في المحتوى التعليمي. ونرى أن هذه التغييرات والتبديلات الشكلية في مضمونها وحقيقتها لا تعكس توجهات وتصورات ومبادئ المقاربة بالكفاءات. ولهذا بقي تدريس نشاط القواعد حبيس الطريقة التقليدية القديمة ما جعله في الأخير يعاني الكثير من الصُّعوبات والتعقيدات. واستطاع الحاج صالح من مجموعة من الأبحاث والدِّراسات التي قام بها أن يميز بين:

1 – المعرفة النَّحوية الضَّمنية: وهي معرفة يتحصل عليها المتعلِّم من خلال النَّشاط التَّبليغي التَّواصلِي الَّذِي يُمارسه دون بذل لأي جهد يذكر حتَّى تترسخ في الأخير قواعد تلك اللُّغة في ذهنه، وتصبح لديه ملكة لغوية عن طريقها يستطيع إنتاج الكلام وفهمه. وفي هذا السِّياق يقول: "فكل إنسان مفطور على تلك الجبله وهي القدرة على اكتساب وضع ما من بين الأوضاع التَّبليغية. فالمعلومات التي تكون منها هذه الملكة هي معلومات غير شعورية"⁽¹⁸⁾.

وقد قادنا البحث في كتاب " المشوق" إلى نتيجة مفادها، أنَّ تعليم نشاط القواعد (نحوًا وصرفًا) ينطلق من النَّص الأدبي حتى تترسخ القواعد النَّحوية في ذهن المتعلِّم ويستعملها في واقع استعماله اليومي للغة في إطار ما يعرف بالنَّحو الضمني (Grammaire implicite). الأمر الَّذِي يستدعي انتقاء نصوص أدبية تتوفر على الأنشطة النَّحوية والصَّرفية المقرر تدريسها. وبطبيعة الحال، هذا الأمر يقودنا إلى التساؤل، هل يمكن أن يوفر النَّص الأدبي الأمثلة التي تتطلبها دروس النَّحو والصَّرف؟. وهذا لا محالة ما جعل أغلبية الأساتذة ينطلقون في تعليم نشاط القواعد من مستوى نصي لا يستشهدون إلا بمثال أو بمثالين، ليعودوا بعد ذلك إلى مستوى جملي وبأمثلة خارجة عن إطار النَّص، لا تمثل مفاهيم المقاربة النَّصية ومقتضياتها.

ولابد من التأكيد – ههنا- على أنه رغم وجاهة التوصيات التي نادى بها المنهاج بدراسة الأنشطة اللغوية انطلاقاً من النَّص الأدبي، وهذا عملاً بمتطلبات المقاربة النصية في إطار التغييرات المعلنة في البرامج و المحتويات، وطرائق تعليم اللُّغة العربية وآدابها، إلا أنه لا يزال التصميم النظري المتوارث الذي ينطلق من محتوى جملي (Phrastique) هو الطاغى، والذي يستمد محتواه من نصوص ترتبط أساساً: بالقرآن الكريم، السنة النبوية، الشعر، الأقوال المأثورة. وعليه، فالمتعلم ليس مجبراً في تعلمه لنشاط القواعد أن يرتبط بأي نص من النصوص المرافقة (النصوص الأدبية النصوص التواصلية، نصوص المطالعة الموجهة)، وإنما يكفي في هذا السياق، أن يحفظ القاعدة كما جرت عليه القاعدة عن ظهر قلب. ونرى السبب في ذلك – حسب رأينا- هو أن النص الأدبي المقرر لا يستطيع أن يوفر كل الأمثلة التي تتطلبها دروس القواعد والبلاغة. ومن هنا، يجب أن نعيد النظر في محتوى دروس القواعد و البلاغة، بما يجعلها تقوم على معطيات المقاربة النصية، مع عدم إلغاء التصنيف اللغوي الجملي.

2 – المعرفة النَّحوية الواعية: وترتبط هذه المعرفة بالمعرفة التأميلية والواعية لقوانين اللُّغة ومقاييسها على شكل قوانين صورية. " وهي معرفة علمية بحثية، وهي غير ملكته اللُّغوية التي اكتسبها مثل أي إنسان آخر في اللُّغة التي حكمها وليست هذه المعرفة إذا من قبيل الأفعال المحكمة التي بها يسلم الكلام من الخطأ واللحن بل هي من قبيل المعرفة النَّظرية البحثية"⁽¹⁹⁾. وميز أيضاً بين:

1 – النَّحو العلمي: فقد أكد مؤسس النظرية الخليلية الحديثة في الكثير من مقالاته وأبحاثه المنشورة في المجلات والكتب أن النَّحو العلمي كنحو الخليل ونحو سيبويه "هو نظرية علمية مهمتها الأولى وصف وتغيير النسق العام للُّغة العربيَّة من خلال جهاز مصطلحي مفاهيمي يضبط الأحكام والمبادئ العامة والقوانين التي تخضع لها خصائص اللُّغة العربيَّة"⁽²⁰⁾.

2- النَّحو التَّعليمي:

وظيفته تربوية بيداغوجية، وتنحصر " في توظيف أو استثمار بعض المفاهيم والمصطلحات النَّحوية من هذه النظرية أو تلك، مثل استثمار بعض مفاهيم النظرية الخليلية الحديثة لتتخذ أصولاً ومبادئ لبناء منهجية تعليمية متسقة ومنظمة، تعتمد على النتائج التي توصل إليها علماء النفس والبيداغوجيا واللسانيات التَّطبيقية"⁽²¹⁾. وبذلك تتحول هذه

المعارف اللُّغوية وفق الأنشطة التَّعليمية المعتمدة إلى معارف علمية سلوكية تغطي احتياجات المتعلِّمين وتتجسد على شكل مهارات لغوية في مختلف أشكال التواصل اليومية. وأكد الحاج صالح على أنَّ اللُّغو العربي مُيسر في أصله، ولا يتَّسم بالجفاف والتَّعقيد، وإنما الذي يحتاج إلى تيسير هو طريقة تعليمه التي تبقى أسيرة الطريقة التَّقليدية القديمة التي تنطلق من أمثلة جوفاء تحفظ عن ظهر قلب.

غير أن واضع المحتوى النحوي وطريقة تعليمه في كتاب " المشوق " وجد نفسه أمام عقبة هذا الكم الهائل من الكتب والمؤلفات النحوية الجمالية، وعليه كيف له أن يقوم بنقل هذا المحتوى من منطق جملي إلى منطق نصي يستجيب لأبعاد المقاربة النصية وروافدها. وهذه المهمة – كما نرى - ليس مسؤولية المتخصص فقط في تعليم اللغات، وإنما هي مهمة المتخصص في علم اللسان أيضا. وهذه إحدى العقبات التي جعلت محتوى النحو في كتاب " المشوق " لا يخرج كثيرا عن إطار المحتوى الجملي، ولا علاقة له بالمقاربة النصية المعتمدة. وهو ما يتفق مع تصور الحاج صالح الذي يرى أن وضع المحتوى النحوي التعليمي في الجزائر لا يبتعد كثيرا عن المبدأ التحليلي الإعرابي الذي ينطلق من المرفوعات والمنصوبات والمجرورات والتوابع.

2-3 – تعليم الأصول قبل الفروع: من أهم القضايا التي ركزت عليها كثيرا النظرية الخليلية الحديثة قضية الأصل والفرع، واستطاع بذلك العلماء العرب أن يميزوا بين الأصول والفروع. فالأصل ما يبنى عليه ولا يبنى على غيره، وهو عنصر ثابت مستقل بنفسه، ولا يحتاج إلى علامات أخرى تميزه عن الفرع وله العلامة العدمية. "اعتبر الخليل ومن بعده سيبويه والنُّحاة بعده النظام اللُّغوي كله أصولاً وفُرُوعاً، وهي فكرة قريبة من ثنائية الجمل الأصلية (Kernel sentence) أو (phrase de base) التي تُولدها القواعد التوليدية، في الجمل المشتقة (phrases dérivées) التي تنتجها القواعد التحويلية، غير أن ثنائية الأصل والفرع أشمل وأدق لأنها لا تقتصر على التَّركيب فحسب، وإنما تستغرق البنية اللُّغوية في شموليتها وكتلتها إفراداً وتركيباً"⁽²²⁾.

وفي هذا الصدد، يرى الحاج صالح أنه في تعليم قواعد اللُّغة العربيَّة حتى يستعيب المتعلِّم هذه القواعد ويمثلها، يجب أن نبدأ بتعليمه المفاهيم الأصول من مثل النكرة التي هي أصل للمعرفة والمذكر قبل المؤنث والمفرد قبل الجمع والفعل الماضي قبل الفعل المضارع، ثم بعد ذلك ننقل إلى الفروع، وهذا من باب الانتقال من العام إلى الخاص.

ومن هذا المنطلق، نرى أن كتاب " المشوق " قد أخذ بعين الاعتبار هذا المبدأ، حيث انطلق مثلاً من المرفوعات: المبتدأ والخبر... إلى المنصوبات: المفعول به... إلى التوابع: البديل... وحتى في الأصل والفرع، تم الانطلاق من أقلها عنصراً، من مثل: المبتدأ والخبر، ثم بعد ذلك التطرق إلى الفروع الناتجة من عملية التحويل بزيادة العوامل اللفظية مثل الحروف الناسخة" كان وأخواتها". وفي قواعد الصرف انطلق مثلاً من الفعل المجرد إلى الفعل المزيد، ومن العدد الأصلي إلى العدد الترتيبي. مع الأخذ بعين الاعتبار في تعليم نشاط القواعد مبادئ المقاربة بالكفاءات، حيث تم صياغة العناوين (عد إلى النص ولاحظ، تعلّمت، أكتشف أحكام القاعدة، أبنى...) بأن جعلتها هذه الطريقة التعلّيمية الجديدة في صيغ الفعل المسند إلى ضمير المتكلم "أنا" من خلال جعل المتعلّم محور العملية التعلّيمية. وإن كان في الواقع، ما هو إلا تغيير سطحي في الخطوات، ولا تختلف كثيراً في محتواها عن العبارات والعناوين السابقة. وما نجده في كتاب " المشوق " هو مجرد قلب للتسميات والمفاهيم و المصطلحات.

2 - 4 - القياس كآلية لاكتساب اللّغة: وهو من المفاهيم الأساسية التي بني عليها النّحو العربي، وهو مبدأ علمي يتطابق مع المناهج العلمية الحديثة، إذ تقتضي قواعدها الشّمول والإطراد، لذلك اعتبر النّحاة العرب الأوائل النّحو كله مقياس يبنّي على أساسها الكلام الصّحيح والفسّيح⁽²³⁾. وهو حمل الشّيء على شيء لعلاقة جامعة بينهما و" هو من قبيل القسمة التركيبيّة، وهو إجراء شيء على شيء بتحقيق التناظر (Bijection)"⁽²⁴⁾.

وعليه، يقترب القياس كآلية لفهم وإنتاج الكلام من مفهوم الإبداعية في النظرية التّوليدية التّحويلية، وهو الأمر الذي جعل أهل الاختصاص في التّعليمية " يدعمون تقنية الأنماط التركيبيّة أو الجمليّة (Sentence patterns) التي سنّها النّحو البنيوي ويطورونها بإدراج جملة من التّدريبات أو التّمريبات المكثفة لترسيخ تلك الآليات النّحوية الأساسية في أذهان المتعلّمين"⁽²⁵⁾.

والقياس كآلية في التّعليم يمكن أن يوظفها المعلّم في تمارين إنتاجية، فيطلب - مثلاً- من المتعلّم أن ينتج جملاً جديدة، قياساً على هذه الجملة: 1- فعل + فاعل. 2- فعل + فاعل + مفعول به. 3- مبتدأ + خبر. أو إعادة ترتيب الجملة المبعثرة، قياساً على ترتيب الجملة الفعلية والجملة الاسمية.

ومن هنا، يمكننا أن نستشف ملامح القياس في كتاب " المشوق " من خلال الدرس الصرفي خاصة من مثل " اسم الفاعل وصيغ المبالغة"، " اسم المفعول"، " اسم المكان و الزمان"... حيث ينطلق المتعلم من خلال الأمثلة التي يقيس عليها إلى بناء قاعدة صرفية، يتخذها سنداً في بناء القواعد الصرفية الأخرى. وبذلك يمكن أن يساهم القياس في تيسير طرائق تدريس النحو والصرف – لاسيما- في مادة الصرف، وذلك عن طريق استخلاص القاعدة الصّرفية عن طريق المقيس والمقيس عليه.

2- 5 – تعليم نشاط البلاغة: وإذا ما حاولنا تلمس أسباب تعليم نشاط البلاغة في مرحلة التّعليم الثّانوي، أدركنا أنّ هذا التّعليم في المقام الأول يُعنى بإدراك مستويات التّعبير والتّذوق الجمال في النّصوص الأدبيّة. إنّ علم البلاغة " يُوضّح الأحكام والمعايير التي تحكم الأثر الأدبي وتقدم الأسس التي تبرز هذا الجمال وتلوّنه"⁽²⁶⁾.

ومن هنا، فتعليم نشاط البلاغة – كما يتصوّر عبد الرحمان الحاج صالح- يرتبط أساساً في كيفية استعمال المتكلم للغة في مختلف أحوال الخطاب اليوميّة⁽²⁷⁾. غير أن الظاهر الآن للعيان في ثانوياتنا أنّ ما يقدم للتلاميذ يفتقد كثيرا للتناظر الخارجي وواقع استعمالهم اليومي للغة. فالذي تقصده من تعليم اللسان هو إكساب المتعلم القدرة العملية (لا النظرية) على استعمال اللسان، وليس أن نجعل منه عالماً متخصصاً في علوم اللسان كعلمي النّحو والصّرف وعلم البلاغة"⁽²⁸⁾.

أضف إلى ذلك، من أهم أسباب التي جعلت المتعلم لا يستعمل اللغة استعمالاً جيداً، الطريقة النظرية المتبعة في تدريس نشاط البلاغة التي تُعنى كثيرا بالتّعريفات، وبأمثلة تكون أشبه بقواعد النّحو العربي دون شعور للمتعلّم بجمال النّصّ وتذوق ما يقرأ ويكتب، مع غياب تام في ذلك – إن لم نكن مبالغين- للواقع المعيشي اليومي للمتعلّم. حيث نجد أنّ محتوى نشاط البلاغة حالياً يختزل في تعريفات وقواعد منتزعة من متون التراث اللغوي، وبعيدة كل البعد عن واقع استعمال التلميذ للغة.

فالملاحظ والمتجلى في كتاب " المشوق " أن معظم النصوص البلاغية المقررة فيه جاءت نظرية بقت حبيسة المحتوى البلاغي المتوارث، ولهذا نرى أن تعليم هذا المحتوى للمتعلم وفق هذا التصور، الهدف من رواء تعليمه هو تعليم المتعلم كيفية بناء قاعدة نظرية بلاغية. وهو ما يتناقض مع أهداف تعليم الدرس البلاغي وفق المقاربة بالكفاءات الذي يرتبط بفهم الأدب وتذوق معانيه وإدراك بعض خصائصه والوقوف على أسرار جماله. وأضف إلى كل

ما سبق ذكره، أن وجود النص البلاغي ضمن الوحدة التعليمية التي ترتبط بالنص التواصلية في بعض أنشطة البلاغة يؤدي بأمثلة لا ترتبط بتاتا به، وهو ما يتنافى مع ما ينادي به المنهج، الذي يدعو إلى دراسة نشاط البلاغة انطلاقاً من النص الأدبي.

2-6- ربط النحو بالبلاغة في إعداد المحتويات التعليمية:

كثيراً ما ألح عبد الرحمان الحاج صالح في مقالاته، بضرورة الجمع بين علم النحو والبلاغة في إعداد المحتويات التعليمية. ولا نكتفي " في تعليم العربية بجانب السلامة اللغوية، أي جعل الطالب قادراً على تطبيق القواعد النحوية وحدها دون مراعاة ما تستلزمه عملية الخطاب، أي دون القواعد البلاغية كان تعليمنا هذا ناقصاً (وهو حاصل الآن في غالب البلدان العربية) وتجاهلنا بذلك أن الملكة اللغوية بكاملها وفي مجملها هي مهارة التصرف في بنى اللغة بما يقتضيه حال الحديث"⁽²⁹⁾.

ولأسف مازال درس القواعد يُعالج منفصلاً ومنعزلاً عن درس البلاغة في ثانوياتنا، ما يجعلنا نستفسر عن الجدوى من اعتماد المقاربة النصية كآلية في التعليم، إذا كان لا ينظر إلى النص على أنه كل متكامل، وهو مصدر جميع الأنشطة التعليمية من نحوٍ وصرفٍ وبلاغةٍ وعروضٍ ونقدٍ.

والمثلى في كتاب " المشوق " لا توجد أية إشارة للعلاقة الموجودة بين النحو والبلاغة في فهم النص وبناء المعنى. وبذلك فنشاط القواعد جاء منعزلاً ومنفصلاً عن نشاط البلاغة. هو الأمر الذي يقودنا إلى حقيقة أن تعليم أنشطة اللغة العربية وفق المقاربة بالكفاءات لا يزال حبيس الطريقة السابقة المتوارثة، حيث يتم تعليم كل نشاط من الأنشطة المقررة بمعزل عن الآخر. فالمحتوى البلاغي ومحتوى قواعد اللغة العربية مازال يقتبس من المحتويات البلاغية والنحوية المأثورة والمؤسسة على محتوى الجملة ومكوناتها. في حين أن منطلق التعليم وفق تصور النظرية الخليلية الحديثة يقتضي منا الانتقال إلى النص ودراسة مكوناته التي ترتبط مع بعضها البعض.

2-7- أولوية التعبير السفهي على التعبير الكتابي: ترى النظرية الخليلية

الحديثة ضرورة إعطاء الأولوية في تعليم اللغة العربية لنشاط التعبير الشفوي على حساب نشاط التعبير الكتابي، لأنه الأصل، أما المكتوب فهو عرض وتابع للمنطوق والمسموع. وهذا ما يسمح — لا محالة — في النهاية للمتعلم بامتلاك ملكة لغوية تمكنه من التعبير عن حاجاته

ورغباته في جميع أحوال الخطاب اليومي. وفي هذا الإطار يقول الحاج صالح: " استعمال اللغة هو مشافهة قبل أن يكون كتابة وتحريراً: معنى ذلك أن الكلام المنطوق هو الأصل، أما لغة التحرير ففرع عليه. فالمنطوق وبالتالي المسموع هو الذي يرجع إليه المتعلم للغة الحية أولاً وأخيراً ولا يقتصر أبداً على ما يقرأه من النصوص المحررة. فالاستعمال الطبيعي للغة يعتمد قبل كل شيء على المشافهة، فإذا اكتفى فيه على الجانب الكتابي فقط أو قل نصيبه في التعليم، فإن الطالب سيضطر بعد تخرجه أن يخاطب الناس بلغة مصطنعة"⁽³⁰⁾.

ولا شك أن الناظر في تقديم كتاب " المشوق " يدرك بجلاء، أن الهدف النهائي لنهاية السنة الأولى من التعليم الثانوي العام(جذع مشترك آداب) " في مقام تواصل دال، يكون المتعلم قادراً على تسخير مكتسباته لإنتاج نصوص متنوعة في أشكال متعددة من التعبير"⁽³¹⁾. ولكن تقديم الكتاب ومحتواه لم يهتم كثيراً بنشاط التعبير الشفهي كما اهتم بنشاط التعبير الكتابي والوضعية الإدماجية. وبما أن الكفاءة ذات طابع إدماجي، فإنه من الأولى إيلاء العناية لنشاط التعبير الشفهي على حساب نشاط التعبير الكتابي لأن كفاءة المتعلم اللغوية تظهر أكثر من خلال تواصله مع أصدقائه والمحيط الاجتماعي الذي يعيش فيه، وبلغة عربية سليمة من الأخطاء وذات قيمة جمالية وفعالية.

3- خاتمة:

وصفوة القول في الأخير، هو أننا حاولنا من خلال هذا العرض الموجز والمقتضب، أن نسلط الضوء على أهمية التوظيف الديدكتيكي لمفاهيم النظرية الخيلية الحديثة في تعليم اللغة العربية وأنشطتها في مرحلة التعليم الثانوي، وبالأخص من خلال كتاب " المشوق " السنة الأولى ثانوي — جذع مشترك آداب- وإسهاماتها المتميزة في خدمة تعليم اللغة العربية وتعلمها وفق أسس علمية، واستناداً إلى آخر ما توصلت إليه الدراسات الحديثة في مجال علم النفس والبيداغوجيا وعلم الاجتماع. ومن خلال التركيز على وضع معارف ذات صلة بواقع المتعلم المعيشي، مما يجعله في الأخير يُفَعِّل كل الإجراءات التي تساعد على تنمية مكتسباته اللغوية وتوظيفها بصورة فعالة.

والذي نرجوه في هذا السياق، أن يعمد أهل الاختصاص إلى توظيف مفاهيم النظرية الخيلية الحديثة في إعداد المناهج التعليمية ومحتويات المقررات التعليمية في جميع الأطوار التعليمية، لنحصل في الأخير على التوظيف الصحيح والجيد لمفاهيم هذه

النظرية في تعليم اللغة العربية وأنشطتها. وعليه، سنقدم فيما يلي مجموعة من الاقتراحات العملية المستمدة من تصورات وآراء الأستاذ الدكتور عبد الرحمان الحاج صالح:

- التدرج التربوي و المنهجي في إعداد المحتويات التعليمية ووضعها بهرعاة قدرات المتعلم والمرحلة التي يدرس فيها. فاعتماد المنهج التاريخي في وضع محتوى كتاب " المشوق" دون الأخذ بعين الاعتبار في ذلك قدرات المتعلم الفكرية واللغوية هو السبب الرئيس في الصعوبات التي وجدها التلاميذ في تحليل مضمون هذه النصوص و تدوقها. علما أن المحتوى التعليمي لتلاميذ السنة الثانية والثالثة ثانوي يرتبط بفترات العصر العباسي وعصر الضعف والعصر الحديث، وهي بذلك سهلة التذوق والتحليل بحكم قربها الزمني من حاضر المتعلم.

- ربط المحتوى التعليمي بواقع المتعلم المعيشي عن طريق التركيز في إعداد المناهج والمقررات التعليمية على النصوص الثرية أكثر من النصوص الشعرية، وهذا ليس معناه إلغاء النصوص الشعرية التي لها الدور الكبير في تكوين ملكة المتعلم اللغوية وصقلها، إنما المسألة -ههنا- ترتبط فقط بالعدد: أي بعبارة أخرى يجب أن يكون عدد النصوص الثرية أكبر من عدد النصوص الشعرية. ثم إن توجهنا هذا له أسبابه؛ فالنص الثري القرب إلى قلب المتعلم والمثير لميولاته في واقع استعماله اليومي للغة.

- الاعتماد على النظرة التفريرية الأصيلة لعلماء العرب المتقدمين ونظرة اللسانيات الحديثة في ترتيب محتوى نشاط القواعد والبلاغة اعتمادا على النظرة البنوية الجامعة للوحدات اللغوية والمحقة لسبل الترابط بينها بما تسمح به مقاييس اللغة. وعليه، وجب تغيير نظرتنا مثلا في تصنيف وترتيب الفعل على أساس دلالاته الزمنية (ماض ومضارع وأمر) إلى نظرة أخرى تأخذ بعين الاعتبار ما يلحق الفعل يميننا وشمالا. وفيما يخص الاسم وجب علينا تغيير نمط تقسيم الاسم على أساس الجنس والعدد والتخصيص إلى تحديد أقسام الاسم على أساس ارتباط الوحدات اللغوية كل في موضعها. فتخصيص الاسم يرتبط أساسا بقابلية تلك الوحدة (الاسم) الارتباط بوحدة لغوية أخرى لها في الموضع من مثل "أل" التعريف. مع الاعتماد في ذلك على مبدأ الأصل والفرع في ترتيب تعليم محتوى نشاط القواعد والبلاغة، وهذا مثلاً ببدأ التدرج؛ أي الانتقال في التعليم من السهولة إلى الصعوبة، وذلك مرمة أن لا يشعر المتعلم بغرابة المحتوى وصعوبته.

- ضرورة الربط بين الأنشطة اللغوية والنصوص المقررة للتدريس، حتى لا يشعر المتعلم بأن هذه الأنشطة التعليمية لا علاقة تجمع بينها وبين النصوص المقررة، وإنما علينا أن نشعره أنها كل متكامل لا يمكن عزل وفصل أحدها عن غيرها، بما يساعد المتعلم في النهاية على كشف كنه النص وصبغ أغواره. فمن هذا المنطلق، يجب علينا أن نعيد النظر في محتوى دروس القواعد و البلاغة، بما يجعلها تستجيب لمعطيات المقاربة النصية.

- التركيز في وضع محتوى المقررات التعليمية على إنتاجات المتعلم الشفهية أكثر من تركيزنا على إنتاجاته الكتابية، لأن ما يحتاجه في هذه المرحلة- المرحلة الثانوية- هو امتلاك لغة يتواصل بها في محيطه الاجتماعي مع أقرانه وتلبي مختلف احتياجاته الاجتماعية في مختلف أغراض التواصل.

- العمل على وضع وانتقاء نصوص أدبية وتنقيحها بما يسمح لنا بتوفير الأوجه المختلفة التي تتطلبها أنشطة النحو والصرف والبلاغة والعروض والنقد، مع الحرص أثناء تقديمها بربطها بمختلف السياقات والأحداث الاتصالية المختلفة. وهذا ما يساعدنا على تجاوز الطريقة التقليدية المتوارثة في تعليم هذه الأنشطة والتي تنطلق من أمثلة لا ترتبط أساسا بالنص المقدم وتستخلص منها القاعدة لتحفظ بعد ذلك عن ظهر قلب. يُؤمل منا أن يساهم هذا الانتقاء في معايشة المتعلم الحقيقة للغة في مختلف المواقف التعليمية في تلك الأنشطة اللغوية، فيحلل ويركب ويكتشف ويفسر.

الهوامش:

- (1) - عبد الرحمان الحاج صالح: النظرية الخليلية الحديثة، مجلة اللُّغة والأدب، معهد اللُّغة العربيَّة وآدابها، جامعة الجزائر العدد 10 ، 1996 ، ص 85- 86
- (2) - عبد الرحمان الحاج صالح: بحوث ودراسات في اللِّسانيات العربيَّة، موفم للنشر، الجزائر، ج 2 ، 2007 ، ص 46
- (3) - التواتي بن التواتي: المدارس اللسانية في العصر الحديث ومناهجها في البحث، دار الوعي، ط 2، الجزائر، 2008 ، ص 87
- (4) - محمد صاري: المفاهيم الأساسية للنظرية الخليلية الحديثة، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة عنابة، الجزائر، دت ، ص 02
- (5) - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- (6) - المشوق في الأدب والنصوص والمطالعة الموجهة: وزارة التربية الوطنية، الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية، الجزائر، 2008 - 2009 ، ص 08
- (7) - ينظر: عبد الرحمان الحاج صالح: بحوث ودراسات في علوم اللسان، موفم للنشر، الجزائر، 2007 ، ص 205
- (8) - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

- (9) - أحمد معتوق: ظاهرة اللفظية، مجلة جامعة الملك سعود، المجلد الخامس، الرياض، السعودية، 1993 ، ص504
- (10) - وزارة التربية الوطنية: منهاج اللغة العربية للسنة الأولى من التعليم الثانوي العام، الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية، الجزائر، 2007 ، ص16
- (11) - عبد الرحمان الحاج صالح: بحوث ودراسات في علوم اللسان، ص205
- (12) - عبد الرحمان الحاج صالح: بحوث ودراسات في علوم اللسانيات العربيّة، موفم للنشر، الجزائر، ج1 ، 2007 ، ص161
- (13) - التواتي بن التواتي: المدارس اللسانية في العصر الحديث ومناهجها في البحث، ص98
- (14) - عبد الرحمان الحاج صالح: بحوث ودراسات في علوم اللسانيات العربيّة، ج1 ، ص162
- (15) - المرجع نفسه، ص164
- (16) - وزارة التربية الوطنية: منهاج اللغة العربية للسنة الأولى من التعليم الثانوي العام، ص22
- (17) - عبد الرحمان الحاج صالح: بحوث ودراسات في علوم اللسان، ص178
- (18) - المرجع نفسه، ص176
- (19) - المرجع نفسه، ص177
- (20) - يحي بعبطيش: الكفاية العلمية والتعليمية للنظرية الخليلية الحديثة، مجلة التواصل، عنابة ، الجزائر، العدد 2010، 25 ، ص91
- (21) - المرجع نفسه، الصفحة نفسها
- (22) - يحي بعبطيش: الكفاية العلمية والتعليمية للنظرية الخليلية الحديثة، ص79
- (23) - ينظر: المرجع نفسه، ص84
- (24) - عبد الرحمان الحاج صالح: بحوث ودراسات في علوم اللسانيات العربيّة، ج2 ، ص42
- (25) - يحي بعبطيش: الكفاية العلمية والتعليمية للنظرية الخليلية الحديثة، ص92 - 93
- (26) - وزارة التربية الوطنية: منهاج اللغة العربية للسنة الأولى من التعليم الثانوي العام، ص23
- (27) - عبد الرحمان الحاج صالح: بحوث ودراسات في علوم اللسانيات العربيّة، ج1 ، ص182
- (28) - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- (29) - المرجع نفسه، ص184
- (30) - المرجع نفسه، ص176
- (31) - المشوق في الأدب والنصوص والمطالعة الموجهة، ص08

La langue française et les romanciers algériens : les choix littéraires.

M. Abdellaziz KHATI

Maitre de conférences classe A

Université Mouloud Mammeri de Tizi-Ouzou.

تاريخ النشر: 2019/03/31

تاريخ القبول: 2018/11/20

تاريخ الإرسال: 2018 / 09 / 30

Résumé : La langue française s'est étendue sur un vaste territoire principalement à la période coloniale. Fort du prestige d'être une langue de savoir et de civilisation, le français va concurrencer les langues locales des contrées où il s'est répandu. Dès le début, le caractère hégémonique du colonialisme français va dévaloriser les langues locales. Pour l'empire colonial, il n'est aucunement question de faire cohabiter sa langue et sa culture avec celles des colonies, il s'agit plutôt de gommer les langues et cultures locales et d'instaurer les siennes comme un substitut. Cela va engendrer l'émergence d'une élite francophone parmi les colonisés ayant parfois un sentiment d'acculturation et d'aliénation, mais paradoxalement cette langue française va lui permettre de se dire et de décrier les travers du système colonial. Le français sera donc au début la langue de domination, puis celle de la libération. Il faut dire aussi que les premiers romans francophones datant de la période coloniale sont marqués par le mimétisme du genre et modèle romanesque français. Mais cela va évoluer rapidement, notamment dans les années 1950 (le cas du Maghreb) et les années 1960 (le cas de l'Afrique noire) où le roman francophone va se caractériser par une affirmation identitaire et une volonté tranchée de se démarquer de l'Autre.

Au demeurant, il convient de souligner un fait important : toutes les littératures francophones issues des pays ex-colonisés ou dominés par la France sont marquées par l'hybridité, la double culture et l'on peut dire que la littérature francophone est donc une littérature de « l'entre-deux » (la notion est de Charles Bonn). Il serait, en effet, crédule de croire qu'écrire dans une langue étrangère notamment en période de domination coloniale, serait sans conséquence sur l'identité et les repères culturels de l'écrivain. Car, il s'agit de se servir de la langue française -donc inévitablement, d'une part, de la culture française- et, d'autre part, de la culture locale. Le résultat ne peut être qu'hybride.

Notre propos dans ce travail est de revenir sur les liens qu'entretiennent les romanciers algériens avec la langue française aux premiers temps de l'apparition de la littérature francophone ainsi que sur les choix littéraires auxquels ils ont recouru pour se dire dans la langue française.

ملخص: انتشرت اللّغة الفرنسية على نطاق واسع خاصة خلال الفترة الاستعمارية. متميزة بكونها لغة العلم والحضارة ، منافسة بذلك اللغات المحلية للبلدان التي انتشرت فيها. فمنذ البداية ، فإن الطابع المهيمن للاستعمار الفرنسي قلل من شان اللغات المحلية. فالنسبة للحكم الاستعماري ، فلا مجال لتعايش ثقافته ولغته مع ثقافة ولغة المستعمرات. بل قام بمحو وطمس هذه الاخيرة ووضع تلك الخاصة به كبديل لها. هذا ما ادى إلى ظهور نخبة من المثقفين تكتب باللغة الفرنسية ، والتي كانت تشعر أحيانا بالتناقض والتهيش ، ولكن وبشكل متناقض ، فإنّ استخدام اللّغة الفرنسية سمح لها بالتعبير عن نفسها ومجتمعها وبشجب مساوئ نظام المستعمر. فالفرنسية التي كانت في بداية الامر لغة الهيمنة والسيطرة ، اصبحت فيها بعد وسيلة للمطالبة بالحرية والاستقلال. يجب الاشارة أيضا أن الروايات المكتوبة باللّغة الفرنسية والعائدة للفترة الاستعمارية كانت متميزة بطابع التقليد للنوع والنموذج الروائي الفرنسي. و لكن سرعان ما تطور هذا ، خصوصا منذ 1950 (فيما يخص

المغرب العربي) وفي الستينيات (إفريقيا السوداء) اين تمتعت الرواية الفرونكفونية بإثبات الهوية ورغبتها الملحة في الاختلاف عن الآخر.

إضافة لذلك ، فإنه يجب الإشارة إلى حدث مهم: كل الآداب المكتوبة باللّغة الفرنسية الصادرة عن بلدان مستعمرة سابقا أو مسيطر عليها من قبل فرنسا كان يغلب عليها طابع التهجين ، والثقافة المزدوجة. فيمكننا القول أن هذا الأدب الفرونكفوني هو أدب "بين إثنين" حسب مصطلح شارل بون. فسيكون من السذاجة الاعتقاد أن الكتابة بلغة أجنبية ، خاصة في فترة السيطرة الاستعمارية ، لن تكون دون تأثيرات على هوية والمعالم الثقافية للكاتب. لأن استخدام اللّغة الفرنسية لا يمكن تفاديه من جهة ، ولا الاستناد والرجوع الى ثقافة المستعمر والثقافة المحلية من جهة أخرى ، فنتيجة ذلك لا يمكن لها إلا أن تكون مهجنة .

هدفنا من هذه الدراسة هو العودة على الروابط التي يحيكها الروائي الجزائري بين اللّغة الفرنسية في الفترات الاولى لظهور الادب الجزائري الفرونكوفوني وبين الاختيارات الأدبية التي يلجأ إليها ليعبر عن نفسه بواسطة اللّغة الفرنسية .

Abstract: The French language spread widely during the colonial era. Distinguished as the language of science and civilization, it competed with the local languages of the countries where it spread. The authoritative character of French colonialism quickly reduced the importance of local languages: according to the colonial rule, its culture and language could not coexist with the colonies' culture and language. Thus, it erased and obliterated the colonies' culture and language and replaced it with its own. This led to the emergence of an elite who wrote in French and who sometimes felt acculturation and marginalization, but in a paradoxical way. Indeed, the use of the French language allowed this elite to express themselves and the concerns of their society and denounce the abuses of the colonial system. French, which was initially a language of dominance and hegemony, became a means of demanding freedom and independence. This transformation can be perceived in the field of literature. The French

language novels of the colonial era were known for their imitation of French narratives. However, this trend evolved rapidly, especially since 1950 (in the case of the Maghreb) and in the 1960s (in the case of black Africa), as the francophone novel started to display emphasis on its specific identity and its urgent desire for difference. In addition, we must mention an important fact: all the francophone literature produced in countries colonised or controlled by France were characterised by diversity and biculturalism. We can say that this francophone literature is a “between-two” literature, to take up Charles Bonn’s phrase. It would be naïve to believe that writing in a foreign language, especially in the period of the colonial domination, did not have any influence on the identity of the writer’s cultural landmarks. On the one hand, the use of the French language was unavoidable; on the other, the simultaneous influence of colonial and local culture resulted in linguistic and cultural diversity. The aim of this study is to examine the links woven by the Algerian novelist with the French language in the earliest period of the emergence of the Algerian francophone literature and the literary choices that s/he resorted to in order to express himself/herself in that language.

Le choix du français et ses conséquences

Le choix du français, comme langue d’écriture, a souvent engendré des troubles d’ordre psychologique chez les romanciers francophones maghrébins. En effet, écrire dans la langue de l’ « Autre » en temps de colonisation est en soi une entreprise problématique, comme le confirme Albert Memmi :

« La non coïncidence entre la langue maternelle et la langue de culture est déjà source de sérieux handicaps et même de conflits psychologiques. » In. Jacqueline

Arnaud, *Anthologie des Ecrivains maghrébins d'expression française*, Ed Présence africaine, p. 18.

Cela a été perçu, par certains critiques, comme synonyme d'acculturation, d'assimilation et d'aliénation. Pour d'autres, ce « médicament chimique » était une rupture nécessaire avec les langues naturelles.

Aux lendemains des indépendances, la littérature francophone ne saura se départir de cette part française de son contenu culturel, car, même en voulant recouvrer pleinement ses racines et son identité, l'écrivain francophone a besoin de la langue de l'Autre pour se définir. Ici, paraît alors toute la complexité de la relation de l'écrivain francophone à la langue française. Si pour certains, elle est "un butin de guerre" ou "un bien vacant" qu'il faut précieusement sauvegarder, pour d'autres, elle est une résultante d'un passé colonial douloureux qu'il conviendrait de supprimer. La littérature francophone n'a pas cessé et ne cessera pas de vibrer au rythme des tensions conjoncturelles entre la France et les pays francophones. Aussi, cette littérature est intimement liée à l'évolution des rapports politiques souvent versatiles entre la France et ses ex colonies. Quant au rapport de l'écrivain francophone postcolonial à la langue française, il est d'une extrême complexité et se caractérise, globalement, par un désir d'altérité se traduisant par la persistance de l'attachement à la langue de Voltaire et une volonté de faire une place de plus en plus importante aux langues locales au sein des textes littéraires francophones, notamment par le biais de l'insertion de l'oralité.

L'Algérie et la langue française

Partout où la littérature francophone existe, jamais le choix linguistique n'a suscité autant de remous qu'en Algérie. La raison en est

essentiellement politique (la colonisation). La langue française a été considérée, en temps de colonisation, comme étant celle du colon, et en tant que telle, elle est l'instrument d'une profonde blessure identitaire autant que politique. Le choix de cette langue est parfois perçu comme synonyme de capitulation. Et on en trouve une belle illustration dans *Le Polygone étoilé* de Kateb Yacine (1966), où le père du futur écrivain, lettré en arabe, entreprend :

de me fourrer sans plus tarder dans la "gueule du loup", c'est-à-dire l'école française. [...] Jamais je n'ai cessé, même aux jours de succès près de l'institutrice, de ressentir au fond de moi cette seconde rupture du lien ombilical, cet exil intérieur qui ne rapprochait plus l'écolier de sa mère que pour les arracher, chaque fois un peu plus, au murmure du sang, aux frémissements réprobateurs d'une langue bannie, secrètement, d'un même accord, aussitôt brisé que conclu... Ainsi avais-je perdu tout à la fois ma mère et son langage, les seuls trésors inaliénables — et pourtant aliénés ! (Pp. 180-182).

Ainsi, l'écriture en langue française dans un pays colonisé ou ex-colonisé par la France résulte-t-elle d'une rupture généalogique. Et, du fait, cette écriture sera souvent celle des tourments, où l'écrivain francophone sera pris dans la haine de la langue française, mais aussi dans le désir et la séduction de cette même langue, comme l'illustre si bien le Marocain Abdelkebir Khatibi dans *La Mémoire tatouée* : « Quand je danse devant toi, Occident, sans me dessaisir de mon peuple, sache que cette danse est de désir mortel, ô faiseur de signes hagards » (1971, p. 188).

Durant la période coloniale, le choix linguistique dans la production littéraire se justifie essentiellement par deux faits. Le premier dépend justement de l'absence d'un modèle romanesque local (un roman moderne

arabophone ou berbérophone). Cela contraint donc le romancier algérien à recourir au modèle français et, par conséquent, à la langue française. On a parlé alors d'une littérature du mimétisme qui correspond à une période où l'on essaie d'écrire comme un Français. Quant à l'autre fait qui explique le choix de la langue française, il consiste dans le choix du public visé. En effet, il est de l'avis des romanciers algériens, eux-mêmes, qu'ils voulaient faire entendre leurs voix et celles de leurs peuples par le colonisateur. Or, faire connaître sa société à un public européen suppose tout naturellement la description à laquelle nous a habitué le roman réaliste, et dont Emmanuel Roblès, entre autres, fournit dans ses récits des modèles qu'on retrouvera dans les romans de Feraoun, de Mammeri et de Dib.

Quelques voix critiques se sont levées reprochant aux premiers romanciers maghrébins de viser, en premier lieu, le lecteur européen. Cela a été perçu comme un signe d'assimilation, alors que la chose peut tout simplement tenir d'une autre logique, comme l'affirme l'écrivain marocain Abdellatif Laâbi qui considère la langue française et le genre romanesque, comme un héritage impérialiste, certes, mais indispensable pour combattre cet impérialisme sur son propre terrain. La langue française, tout comme le genre romanesque permettent de bénéficier, grâce aux maisons d'éditions parisiennes, d'un lectorat qu'on n'aurait jamais trouvée autrement. En définitive, le choix aussi bien de langue que du modèle français durant la période coloniale, paraît évident et logique à bien des égards, compte-tenu de la présence coloniale et de sa politique linguistique qui n'ont guère entretenu les langues locales de l'Algérie, empêchant de la sorte l'émergence d'une littérature moderne en berbère ou en arabe.

Au lendemain de l'indépendance du pays, nombre de spécialistes ont prédit le tarissement de la production littéraire francophone. Leur argument

principal tient au fait que le choix de la langue d'écriture est dicté par la présence coloniale et sitôt que l'indépendance recouvrée, les Algériens se mettront naturellement à écrire dans les langues locales, essentiellement en arabe. Ces prévisions se sont, néanmoins, avérées infondées. La production littéraire s'est même accrue après l'indépendance, notamment avec l'émergence d'une nouvelle génération d'écrivains talentueux. Le genre dominant demeure le roman, vraisemblablement le mieux indiqué pour assumer la fonction de témoignage historique singulièrement présente dans cette littérature.

Certes, après l'indépendance, il y a eu les politiques de l'arabisation, de la reconstruction identitaire et des orientations idéologiques où la langue arabe et la culture arabo-musulmane ont été exclusivement les seules voies esquissées. Ces politiques ont eu pour conséquence de réhabiliter la langue arabe, de remplacer le français aussi bien dans les domaines de l'administration, l'éducation, les institutions politiques que dans le domaine de la culture. Mais la résistance et la persistance de la production romanesque francophone vaudront à la littérature francophone une insertion politique extrêmement délicate, d'autant que ce choix linguistique ainsi que le contenu de cette littérature sont en porte-à-faux avec les orientations idéologiques et identitaires des pouvoirs politiques.

L'on pourrait, bien évidemment, s'interroger sur cette persistance de la littérature francophone en Algérie après l'indépendance. On peut se contenter des facteurs relevant des politiques linguistiques caractérisées par l'échec, voire le rejet de l'arabisation par une partie de l'élite algérienne, par la logique contestataire envers les pouvoirs politiques qui inciteraient au choix de la langue française pour ce qu'elle représente en tant que langue de la laïcité, de la modernité et des libertés se prêtant ainsi à être, par excellence,

la langue de la contestation. Cependant, ce choix tient aussi de l'attachement et de la relation personnels de chaque romancier avec la langue française. En effet, bon nombre d'entre eux ont cessé d'écrire en français (Malek Haddad) d'autres alternent l'écriture en français avec l'arabe (Rachid Boudjedra). C'est dire que le maintien de la langue française passe aussi par cette passion que les Algériens ont développé envers la langue française, comme pour signifier que la colonisation française, avec tout son lot de malheur que l'on connaît, n'a pas été pour autant, qu'un épisode de souffrance. Le peuple algérien a gagné de cette épreuve un canal d'ouverture sur la modernité.

Dans ce qui suit, nous allons nous pencher sur le roman algérien de langue française, aux premiers temps de son affirmation, et voir quels ont été les choix littéraires faits par les premiers romanciers pour le façonner.

Le roman algérien

Le roman algérien francophone est en première position, notamment en volume, dans la production littéraire maghrébine. L'histoire de ce roman est indissociable de celle de la colonisation française en Algérie. Cette dernière a été, des trois pays du Maghreb, celle dont la colonisation fut la plus douloureuse et la plus violente. En effet, l'Algérie fut conquise en 1830 dans le sang, alors que la Tunisie et le Maroc ont été des protectorats (respectivement en 1881 et 1912), et si ces deux pays ont connu des politiques de gestion relativement souple gardant des apparences de pouvoir national, l'Algérie fut administrée comme faisant partie de la France.

En plus de cette particularité historique qui la distingue de ces voisines, la littérature algérienne de langue française, va se singulariser par le fait d'être précédée, dans l'Algérie coloniale, par une littérature des Français d'Algérie, dont Albert Camus ou Emmanuel Roblès et Jean Pélégri sont les auteurs les plus connus. Cela va influencer considérablement sur le genre

romanesque algérien, puisque ces auteurs vont exercer une influence certaine sur les écrivains algériens.

Ces deux éléments feront en sorte que l'émergence de cette littérature ne sera pas un phénomène simple, et son évolution se fera au gré des rapports si complexes et si contradictoires entre l'Algérie et la France et, aussi, au rythme de l'actualité politique algérienne en agitation permanente.

La genèse du roman algérien de langue française

Les premiers romans algériens font leur apparition dans les années 1930, date correspondant à la célébration du centenaire de la conquête. Il s'agit des textes de *Ahmed Ben Mostapha, goumier* (1920), de Mohammed Ben Cherif, de *Zohra, la femme du mineur*, de Abdelkader Hadj-Hamou (1925), de *Mamoun, l'ébauche d'un idéal* (1928) et *El Euldj, captif des Barbaresques* (1929), de Chukri Khodja, et de *Myriem dans les palmes* (1936), de Mohammed Ould Cheikh. Ces romans, en petit nombre, sont écrits par des fonctionnaires « indigènes » de l'administration coloniale. La critique littéraire algérienne a tendance à classer ces textes dans la colonne de la littérature de l'assimilation. Ce qui est contestable, puisque la trajectoire des personnages principaux de tous ces romans finissent toujours ou par réintégrer la communauté d'origine (algérienne) et renoncer à celle de l'Autre (le colonisateur). Cette littérature est aussi classée comme faisant partie de la production de l'école d'Alger, dite d'Algérianisme, dont le théoricien le plus connu est Robert Randau. Cette école prône la dimension méditerranéenne de l'identité algérienne de souche essentiellement latine, dans laquelle la dimension nord-africaine est une manière de s'affirmer en opposition à la « Métropole », sans pour autant reconnaître la dimension culturelle berbère et arabo-musulmane de l'Algérie. Au demeurant, cette génération d'écrivains a, certes, été la première à prendre la plume, mais

beaucoup de spécialistes, à l'instar de Mathieu-Job Martine et de Elbaz Robert (*Mouloud Feraoun où l'émergence d'une littérature* édition Karthala, Paris 2001) ou encore de Abdelkébir Khatibi (*Le Roman maghrébin*, édition Maspero, Paris, 1968), s'accordent à dire que la naissance de la véritable littérature algérienne de langue française correspond à la parution du *Fils du pauvre* de Mouloud Feraoun.

Les précurseurs et les choix littéraires

En effet, au début des années 1950, avec la génération de Feraoun, Mammeri, Dib, Ouary et Kateb, la littérature algérienne de langue française va vivre un moment historique: il s'agit de l'affirmation du roman de langue française comme une nouvelle tradition littéraire. Or, le succès de cette nouvelle création ne s'est pas fait sans avoir confronté les premiers romanciers algériens à de grandes difficultés relatives à l'exercice de l'écriture (la langue et le genre romanesque) et au souci du référent culturel : l'Algérie était française (les maisons d'éditions le sont également) et les romanciers algériens sont loin de tenir, dans leurs textes, un discours glorifiant le colonialisme. Quelles sont, alors, les procédés littéraires auxquels ils ont eu recours pour pouvoir contourner le problème de l'édition et dire dans leurs romans la souffrance de leur peuple et affirmer leurs appartenances culturelles et politiques ? Il fallait aux romanciers faire des choix littéraires à même de leur permettre d'atteindre leurs desseins à la fois littéraires et politiques.

La langue, l'ethnographie et l'oralité

Parce que le romancier algérien des années 1950 s'adresse à la fois aux siens et aux Français, il emploie deux registres de langue à l'intérieur du roman. Une langue française limpide aux intonations classiques, montrant la maîtrise parfaite qu'il a de la langue de Voltaire, et, une langue particulière,

parsemée de mots empruntés aux langues locales (kabyle et arabe) qui pourraient être, à première vue, pris pour une touche exotique du style. Néanmoins, les desseins de cette particularité linguistique sont multiples et complexes. Il s'agit de montrer qu'en tant qu'autochtone algérien, on sait écrire aussi bien que les écrivains français de souche nés en Algérie. Ce qui constitue en soi un désir de montrer son épanouissement, la recherche d'une reconnaissance en tant qu'individu à part entière, capable de produire une littérature moderne de qualité et dans une langue étrangère bien assimilée. Cela pourrait aussi s'inscrire dans un duel au sein du champ littéraire, puisqu'il s'agit de répondre, quelque part, à la production littéraire de ces Français d'Algérie.

Et lorsqu'on admet que le projet littéraire des romanciers algériens est doublé d'un projet politique, celui de faire entendre la voix de leur peuple opprimé, on admet aussi que pour ce faire, le recours à l'ethnographie n'est nullement un manque de littérarité des romans de la génération des années 1950. Le caractère ethnographique paraît plutôt être une nécessité pour l'écrivain algérien pour pouvoir parler des siens et de les présenter à l'Autre. Ainsi, particulièrement Feraoun, Mammeri et Dib recourent à l'insertion de passages ethnographiques au sein même de leurs créations romanesques pour donner moult indications sociologique, culturelle, identitaire, etc. de l'univers du colonisé. Souvent, le discours romanesque est interrompu par le narrateur pour céder la place à l'ethnographique qui vient souvent expliquer le comportement, les réactions et les actions des personnages. Par exemple, dans *La terre et le sang*, pour expliquer l'attitude d'Amer et son comportement dans les premiers temps de son retour dans son village, Feraoun insère un passage ethnographique qui complète et explique l'attitude d'Amer :

Lorsque le Kabyle revient dans sa montagne après une longue absence, le temps qu'il a passé ailleurs ne lui apparaît plus que comme un rêve. Ce rêve peut être bon ou mauvais, mais la réalité, il ne la retrouve que chez lui, dans sa maison, dans son village. » (Lts. p.07)

Par ailleurs, parler des siens et présenter sa culture traditionnelle à l'Autre met parfois le romancier devant une difficulté de taille : comment présenter cette culture algérienne dans une langue étrangère ? Comment traduire le sens de certaines notions et concepts culturels n'existant pas dans la langue d'écriture ? La trouvaille qui va permettre de contourner cette difficulté de référent culturel sera l'insertion de l'oralité dans les textes. En effet, cette dernière est fortement présente dans les romans algériens des années 1950. Ses manifestations sont diverses : contes, proverbes, poèmes, les toponymes, etc. et ses valeurs aussi sont multiples. Ainsi, la présence de cette oralité est synonyme de l'existence d'une culture algérienne de langues arabes ou/et berbère, elle revêt aussi un cachet anthropologique, puisqu'elle révèle l'Homme algérien dans sa personnalité, dans ses conceptions de la vie comme de la mort, ses rapports à ses compatriotes et aussi à l'Autre.

Ecriture romanesque et engagement politique

Les débuts du roman algérien correspondent historiquement à la période de la guerre d'Algérie ou de ses prémisses, et on est tenté de faire un parallèle entre l'émergence de cette littérature et cet événement politique majeur. Pourtant, il y a peu de romans algériens à insérer dans la catégorie du roman de la guerre, même si les blessures de cette dernière sont représentées dans un grand nombre des textes de cette période. Loin de faire des papiers incendiaires et des documents de propagande politique, l'itinéraire que vont suivre les romanciers algériens pour signifier leur engagement pour la cause

de leur peuple qui lutte pour recouvrer sa dignité sera différent de ce qu'espéraient les meneurs du combat nationaliste.

En effet, l'itinéraire du romancier vers cet engagement commence par la description de la double culture de l'intellectuel algérien et des contradictions de comportement qu'elle entraîne. Cette description débouchera, ensuite, sur une sorte de réquisitoire adressé à la culture humaniste française qui n'a pas tenu ses promesses de justice, d'égalité et de progrès. Et enfin, lorsque les derniers espoirs d'un dialogue se sont évaporés, l'engagement des romanciers pour leur patrie devient plus prononcé. Cette trajectoire et cette façon de procéder n'ont pas épargné certains romanciers qui vont recevoir de la part de la réception critique journalistique algérienne de l'époque des commentaires acerbes, allant jusqu'à remettre en cause l'intégrité intellectuelle ainsi que l'engagement de certains romanciers pour la cause algérienne. Et l'exemple le plus parlant est sans conteste celui du tollé soulevé par un groupe de journalistes militants de la cause nationale suite à la parution de *La colline oubliée* de Mammeri¹.

Durant la période de la préparation de la lutte armée, ou encore, durant la période du combat, il s'agissait pour les romanciers algériens de témoigner et de décrire la souffrance de tout un peuple asservi, de mémoriser pour les générations futures et de contredire un discours à la fois politique et littéraire énoncé dans les romans des Français d'Algérie. Néanmoins, il n'est pas question pour les romanciers algériens de re-présenter uniquement la réalité, cela serait réduire leurs œuvres à des romans à thèse et les inscrire dans l'étroite dimension de l'engagement parce que dans représentation, il y a manipulation du sujet représenté donc travestissement de la réalité. Le roman colonial algérien n'est ni un roman à thèse ni un roman de

l'engagement comme peuvent le prétendre certains spécialistes à l'instar de ce qu'écrit Nadjet Khedda².

Comme tout roman, le roman algérien est né d'un besoin d'esthétisme. Cette génération de romanciers a eu le mérite de créer une nouvelle tradition littéraire en Algérie. Cette tradition scripturaire qu'est le roman moderne va remplir ainsi un vide dans le champ littéraire et culturel algérien qui est de tradition orale. Les romanciers ont ainsi su réclamer et arracher leur droit d'expression face à l'oppression coloniale et face au mutisme complaisant de certains opprimés. Ils ont participé, de la sorte, activement au processus de formation de l'identité algérienne authentique, et ont contrecarré le portrait erroné de l'Algérien (indigène) que dresse le roman colonial écrit par des Français. Le romancier algérien n'oublie pas que son devoir, en tant qu'intellectuel, face à la sollicitation politique, quand bien même elle appelle à la libération du pays, est de garder la neutralité de ses écrits romanesques et de ne point les charger d'idées partisans. Car, seule la neutralité de sa plume peut lui garantir la littérarité de sa production.

La description réaliste

Les romanciers de la génération Feraoun adaptent leur style d'écriture à leur projet littéraire. Et que peuvent bien vouloir dire des colonisés aux colonisateurs, si ce n'est leur souffrance et leur désarroi? Mais il ne s'agit pas de faire dans la dénonciation flagrante et solennelle, cela n'est pas dans la nature de l'œuvre romanesque, il s'agit d'être subtil et de faire passer le message d'une façon littéraire en adaptant son écriture de telle sorte à atteindre dans le fond un lecteur avisé. L'un des canaux que les romanciers vont utiliser, pour sensibiliser le lecteur européen, est la description réaliste.

Dans les romans de cette période, il est à remarquer chez les écrivains une tendance à décrire les personnages d'une façon caricaturale, voire burlesque notamment chez Feraoun. De prime abord, on pourrait prendre cela pour un sentiment de mépris ou de déconsidération de l'autochtone devant le colonisateur. Mais il n'en est rien. Cette description se distingue de celle à caractère exotique assumée par un regard extérieur européen sur une société colonisée, comme c'est souvent le cas dans les écrits des Européens d'Algérie. La description que font Feraoun et Mammeri de la Kabylie ou celle que fait Dib de la région de Tlemcen a le mérite d'être intérieure, mais ce regard intérieur est assumé généralement par un autochtone à double culture. Ainsi, le regard purement intérieur (celui de l'Algérien colonisé) est doublé par celui de ce même colonisé mais occidentalisé par sa formation scolaire et sa trajectoire individuelle marquée par ses contacts avec la France (émigration, mobilisation dans l'armée française, etc.).

Au demeurant, cette description faite par les romanciers algériens de leur pays n'est nullement figée, et elle montre une société, certes, traditionnelle mais en voie de modernisation du fait de la présence coloniale et de ses institutions (administration, justice, école, etc.). Cette description montre aussi la médiocrité et l'injustice du système colonial qui ne soucie guère du bien-être des colonisés et elle laisse donc voir les flagrantes différences de niveau et mode de vie des Européens d'Algérie avec le reste des « indigènes ». Le principe de la dénonciation caractérise donc cette description. Et l'un des meilleurs exemples est le roman *La terre et le sang* de Feraoun (1953) où le romancier contraste la disgrâce du visage de la vieille Kamouma avec celui toute en grâce de la parisienne Marie. Cela n'est pas pour signifier que la parisienne est plus belle que les femmes kabyles, puisque l'une d'elle (Chabha) va lui ravir son mari (Amer), mais pour décrier la misère qui fait paraître les colonisés, leurs femmes, leurs enfants et leurs

habitations déplaisants aux yeux du colonisateur qui préfère, d'ailleurs, ne pas les voir, les ignorer même dans sa production littéraire (cas des romans de Camus où l'Arabe brille par son absence ou son insignifiance). Cette description caractérise donc l'ensemble des romans algériens parus dans les années 1950, à l'exception de *Nedjma* (1956) de Kateb Yacine où la description est quasiment absente.

L'engagement littéraire

L'aspect revendicatif et dénonciateur à l'égard du colonialisme n'est pas explicite dans les romans des années 1950. Néanmoins, il y a des thèmes récurrents dans les textes qui évoquent significativement la souffrance du peuple algérien sous le joug colonial. Les séquences de maladie sont, à cet effet, l'une des manifestations dénonciatrices de l'injustice faite aux colonisés. En effet, ces séquences sont fortement présentes dans les textes de Dib (la trilogie Algérie) où l'on voit une jeune fille mourir à petit feu à Dar Sbitar sans qu'aucun soin moderne ne lui soit prodigué par la médecine française. Il y a moult personnages qui souffrent dans leur chair sans qu'ils ne puissent même pas envisager de se faire soigner dans les hôpitaux des Européens. Ces scènes servent à montrer l'insouciance fatale de l'administration coloniale envers les colonisés en matière d'infrastructure médicale. Autant dire que la population est livrée à elle-même et qu'elle continue à avoir recours à la médecine traditionnelle en l'absence quasi-totale de médecine moderne ou de son inaccessibilité pour les pauvres paysans.

Dans *La terre et le sang*, nous constatons l'abandon au niveau médical et hospitalier dont souffrent les villageois, au moment où l'explosion à la carrière a blessé mortellement Amer et Slimane. Les villageois, s'étant ameutés autour des blessés, n'ont aucun moyen de porter efficacement

secours aux mourants. Dans le roman de Mammeri ces séquences de maladies sont plus fréquentes. Ces dernières, vu leur nombre important, ne peuvent être fortuites mais témoignent plutôt de l'abandon dont les gens de Tasga souffrent à cause de l'isolement géographique et de l'insouciance de l'administration coloniale.

La première séquence de maladie dans *La colline oubliée* est celle où un homme (Menach) fait une chute quasi mortelle dans la rivière. Le malade est soigné à la maison, avec les remèdes traditionnels : les conseils de la sage-femme du village et la baraka du cheikh. Nulle intervention de la médecine moderne. La seconde séquence où l'on voit un malade martyrisé et souffrant dans son lit sans aucune intervention de la médecine moderne est celle où une femme (Sekoura) tombe malade. Le mari attend que sa compagne se remette de sa maladie grâce aux soins traditionnels, mais elle ne guérit pas. Il fallait donc recourir au médecin de la colonie qui se trouvait à dix-huit kilomètres du village. le mari doit s'endetter considérablement afin de payer les frais de la consultation et des médicaments. Au bout de quelques semaines d'hospitalisation la femme guérit, alors que Mouh, le berger, n'aura pas cette chance et son état s'aggrave rapidement. On recourt alors au médecin français, celui-là même qui a soigné Sekoura. Par malheur, ce jour-là le temps fut très gâté par une pluie torrentielle. Le docteur n'a daigné se déplacer que lorsqu'on lui a assuré que le malade était vraiment en danger.

L'attitude peu professionnelle du médecin et le retard qu'il met pour arriver auprès du malade coûta la vie à Mouh. Cet abandon dont souffre la population en matière d'infrastructure médicale faillit aussi coûter la vie à d'autre personnage du roman (Aazi), si ce n'était l'intervention de deux médecins qu'on a fait venir spécialement d'Alger.

Outre ces cas individuels, le roman évoque aussi plusieurs épidémies qui frappent la population, sans que l'Etat colonial n'intervienne. La première épidémie citée dans le roman est celle du paludisme. Ensuite, le narrateur évoque deux autres épidémies qui sont la typhoïde et le typhus.

« Depuis l'année bénie et déjà lointaine où un paludisme providentiel (...) » (Lco, p. 27)

« Le docteur diagnostiqua une typhoïde » (Lco, p. 102)

« L'épidémie du typhus qui sévissait dans la plaine et qui nous avait épargnés jusqu'ici, commence à gagner la montagne et à Aourir on signale déjà six cas » (Lco, p. 119)

Face à d'aussi graves menaces et en l'absence ou plutôt en l'abandon de l'Etat, la population ne peut compter que sur elle-même. Et c'est de cette manière, subtile et efficace, que les romanciers ont pu décrier les affres de la colonisation, tout en restant dans le cadre romanesque et sans verser dans une dénonciation explicite de la présence coloniale.

Conclusion

Bien qu'il s'inspire du modèle français, le roman algérien porte dans sa langue, dans sa structure et dans son essence même les traits d'une autre culture. L'univers des fictions reste l'Algérie tant dans le référent culturel que dans l'inspiration artistique. Et ce, bien au delà des divergences des spécialistes :

« Toute littérature naissante pose le problème de son appartenance à un espace géographique, linguistique et culturel et si l'on peut dire du roman algérien de la langue française qu'il est « bâtard et traître », c'est bien parce que ses références identitaires sont difficilement saisissables. Seule une étude détaillée peut montrer dans quelle mesure les romans de cette période

s'enracinent dans la littérature algérienne écrite ou orale de l'époque ; et dans quelle mesure ils empruntent des formes esthétiques ou des schèmes de pensée au roman français en général et à la littérature coloniale en particulier. »³

On notera également l'extraordinaire façon avec laquelle les romanciers ont pu s'approprier la langue française dans laquelle ils ont pu restituer les subtilités de leur culture traditionnelle. On pourrait dire que les romanciers ont, alors, assimilé la langue française qu'ils ont arraché au référent culturel français et lui ont donné, par la même l'occasion, la possibilité de restituer un autre référent, celui de l'Algérie. Et tout cela dans le respect des règles et normes de la langue française. Cela n'empêche pas d'avoir, parfois des formules phrastiques spéciales, oscillant entre la métaphore et le calque linguistique ; comme on peut le voir dans les deux phrases suivantes :

« Je vis malgré les yeux fermés de Menach, que son âme était revenue à la faveur du repos de ses nerfs. » (Lco, p. 21)

« Le plus grave était cette tristesse qui suintait les murs. » (Lco, p. 32)

L'habileté et la maîtrise linguistique qu'ont acquis les romanciers algériens montrent qu'ils ont dépassé la phase d'appropriation de la langue et qu'ils en sont à un degré de maniement remarquable. Cela leur permet de parler des leurs et de faire connaître leur culture dont ils ont su insuffler l'âme dans le corps de la langue française.

Les auteurs ont su également adapter leurs plumes au projet littéraire qu'ils se sont assigné : la dénonciation du joug colonial. Pour ce faire, le choix des thèmes abordés n'est que très explicite : la condition humaine notamment la souffrance des femmes, le délaissement des colonisés par

l'administration (absence de centre de soin ou de quelque édifice témoignant de la mission civilisatrice) l'entraînement de la jeunesse autochtone dans la Seconde Guerre mondiale, etc. Cependant, tout cela est dit d'une manière romanesque, à partir d'histoires qui n'ont rien d'exceptionnelles mais qui sont débordantes d'humanisme et de passions.

Au final, il convient de dire que le roman algérien va évoluer dans ses caractéristiques à partir de la période de l'indépendance. Le style d'écriture changera comme changeront aussi les procédés narratifs. Le roman, en fonction des conjonctures sociopolitique, culturelle et historique nouvelles va s'adapter aux exigences d'une nouvelle thématique et de nouvelles orientations culturelles.

Bibliographie pratique :

ALLOUACHE, F, (2010), *Littératures francophones et institution scolaire*, Mémoire de Master 2 option littérature francophone, Sous dir. D'ALI-BENALI, Zineb, et de BLONDEAU, Nicole, Université Paris 8, Saint-Denis, Consultable sur Limag :

<http://www.limag.refer.org/Theses/AllouacheM2FRancophonieInstitution.pdf>

ARNAUD, J, DEJEUX, J, KHATIBI, A. et ROTH A. (1965), *Anthologie des Ecrivains Maghrébins d'expression française*, sous la direction d'Albert MEMMI, Paris, Présence Africaine.

BONN, C, GARNIER, X et LECARME, J. (1997), *Littérature francophone, Le roman*, (tome 1), Paris, Hatier.

FERAOUN, M, (1988), *La Terre et le Sang*, Alger, ENAG. (Première édition chez Le Seuil, Paris, 1953).

GAUVIN, L. (1997), *L'écrivain francophone à la croisée des langues, Entretiens*, Paris, Karthala.

- GAUVIN, L (2007), *Ecrire pour qui ? L'écrivain francophone et ses publics*, Paris, Karthala.
- KATEB, Y, (1966), *Le polygone étoilé*, Paris, Le Seuil. (roman)
- KHATIBI, A (1971), *La Mémoire tatouée*, Paris, Denoël. (roman)
- KHATIBI A. (1968), *Le Roman maghrébin*, Paris, Maspero.,
- KHEDDA, N. (1999), « collectif », *Regard sur les littératures coloniales, Afrique francophone : découvertes, Tome I*, Paris, l'Harmattan.
- KHEDDA, N. (2003), *Mohammed Dib cette intempestive voix recluse*, Ex-en-Provence, Edisud.
- MAMMERI, M. (1952), *La colline oubliée*, Paris, Plon.
- MATHIEU-JOB, M et ELBAZ, R. (2001), *Mouloud Feraoun où l'émergence d'une littérature*, Paris, Karthala.
- MERDACI, A (2010), *Auteurs algériens de langue française de la période coloniale, dictionnaire biographique*, Paris, L'Harmattan.
- MOURA, J-M (1999), *Littératures francophones et théorie postcoloniale*, Paris, PUF.

¹ Mohamed Chérif Sahli, *La colline du reniement*, in *Jeune Musulman* N° 12, du 2 janvier 1953. Et Mostefa Lacheraf, *La colline oubliée ou les consciences anarchiques*, in *Jeune Musulman* N° 15, du 13 janvier 1953.

² Collectif, *Regard sur les littératures coloniales, Afrique francophone : découvertes, Tome I*, Ed l'Harmattan, Paris, 1999 ou dans *Mohammed Dib cette intempestive voix recluse*, Ed Edisud, Aix-en-Provence, 2003.

³ Ferenc Hardi, *Le roman algérien de la langue française de l'entre-deux-guerres, discours idéologique et quête identitaire*, Ed L'Harmattan, p. 10.

Othello (1604) revisited: Shakespeare's characters and Elizabethan Foreign Policy

Mohammed HADDADOU, Assistant Professor

mohaddadou@gmail.com

Pr. Amar GUENDOUZI

guendouzi@yahoo.fr

Department of English

Mouloud Mammeri University of Tizi Ouzou

تاريخ القبول: 2018/11/27 تاريخ

تاريخ الإرسال: 2018 /06 /17

التّشّير: 2019/03/31

Abstract: This article attempts to historicize Shakespeare's characterization in one of the most staged plays in the world, viz., Othello, The Moor of Venice (1603) The analysis is conducted along the lines of Nabil Matar's study of the role of Barbary in the making of Early Modern Britain in his Britain and Barbary (2006). Matar's argument is brought to bear on Shakespeare's characters by showing that Shakespeare's shaping of the two characters, Othello and Iago, is informed by the foreign policy of Elizabeth I at the time of the writing of the play. Our contention is that Othello, the protagonist, and Iago, the antagonist, capture and represent Britain's attitude towards two rival powers in the Mediterranean, namely the Kingdoms of Morocco and Spain. If we have every right to see Othello, as Matar suggests, as a distant kin of al-Mansur, King of Morocco, Iago can, therefore, only be seen as a distant relative of King Philip II of Spain.

Keywords: OTHELLO, IAGO, MATAR, BARBARY, BRITAIN, MOOR,

المُلخَص: يحاول هذا المقال تأصيل توصيف شكسبير في واحدة من أكثر مسرحياته عرضاً في العالم ، أي ، عطيل بربري البندقية. يُجرى التحليل في ظلّ دراسة نبيل مطر عن دور بلاد المغرب في نشأة بريطانيا ما قبل الحديثة في كتابه بريطانيا و بلاد المغرب بين 1589 و 1689 (2006). تمّ في هذا المقال تطبيق حجة مطر على شخصيات شكسبير من خلال إظهار أن تأليف و تطور الشخصيتان الرئيسيتان عطيل و ياغو قد تأثرت بالسياسة الخارجية التي كانت تقودها إليزابيث الأولى في الفترة التي أنجزت فيها المسرحية

حُجَّتنا هو أن عطيل ، البطل ، و ياغو ، الخصم ، صورتان ممثلتان للقوتين المتنافستين في البحر الأبيض المتوسط و المنافستين لإنجلترا في مطلع القرن السابع عشر ، وهما مملكتنا المغرب وإسبانيا.

إذا كان لنا كل الحق في رؤية عطيل، البطل، كقريب بعيد للمنصور، ملك المغرب آنذاك، فلا يمكننا إعتبار ياغو، الخصم، إلا قريبا بعيدا لملك إسبانيا، فيليب الثاني.

الكلمات المفتاح: عطيل، ياغو، شكسبير، مطر، بريطانيا ما قبل الحديثة، بلاد المغرب

Introduction

Writing today about Shakespeare is not an easy matter. What can be said indeed about him that had not been said before and what can be written about him that had not been already written, one may ask. Yet, because literature is first and foremost a question of interpretation, and in spite of the thousands of volumes and articles that have been filled and produced about his life and his works, there are still grey spots that need to be explored.

This article is a re-reading of one of the most staged of his plays, viz., Othello, the Moor of Venice, in the light of the new perspective opened up by the Palestinian-born scholar Nabil Matar on the study of the geography, politics, and culture of the early modern period. Matar's work (Britain and

Barbary, Islam in Britain 1558-1682, Turks, Moors and Englishmen in the Age of Discovery) has simply reshaped the way the West looks at its history and corrected the wrongs done to North Africa in particular and to the Orient in general by casting light on the role they played in the making of early modern Britain.

Indeed, Matar departs from both Western historiography that sees in the rise of modern Britain the effect of the sole Protestantism and colonialism, dismissing other influences, and from Said's argument linking Orientalism and colonialism. He shows that, contrarily to the commonly held view, English encounters and contacts with Moors and Turks were frequent and lasting during the early modern period, and that the presence of the latter in the literature of the period did not simply spring from the literary imagination of English dramatists and poets. He, in the same time, goes beyond Said's analysis of oriental otherness by showing that Orientalism as a discourse preceded colonialism: "Britons categorized the Muslims as barbaric even though they, the Britons, had not dominated them, perhaps even because of it: Muslims were doomed to alterity whether they were conquered (as the American Indians had been) or not" (Matar, 1999:15). This discourse about the Oriental Other (Ottomans and the inhabitants of Barbary States), was generated, according to him, "by superimposing the discourse about the conquest of America on Islam" (Matar, 1999:17).

The thesis developed in this article is that Shakespeare's plays, although meant primarily for entertainment, are informed by the political agenda of the Tudors and the Stuarts. In the case of Othello, making of Othello, the Moor, a tragic hero and of Iago, the European, a villain, is to be read in the light of the friendly and warm diplomatic relations Elizabeth I was developing with Ahmad Abu al-Abbas al-Mansur (1578-1603), the

Moroccan monarch on the one hand, and the conflict opposing her to Philip II of Spain, on the other.

Review of the literature

Othello has been popular with acting companies, audiences and critics alike, and this popularity does not seem to fade more than four centuries after its first performance. In terms of criticism, some of the most heated debates about the play have been the race and social status of Othello, its title character, though the play has also been discussed from feminist, psychoanalytic, formalist, and new historicist perspectives (Slights, n.d)

Othello is not an isolated case in English Renaissance Drama, not even in Shakespeare's works. Oriental plays were more of a literary tradition than an exception. Most of the main Elizabethan and Jacobean playwrights, Marlowe, Shakespeare, Webster, Ford, Dekker, Marston, and Greene, adhered to this tradition. It is estimated that about 50 plays with oriental themes or plots were produced from the 1580s up to 1648, date of the closing of the theatres during the interregnum (Bayouli, 2008:110).

Yet, Othello stands apart in terms of the amount of criticism it received and of the debates it aroused. Vitkus (1997) sees the play as an example of what he calls 'Drama of conversion', in particular the conversion to other faiths. He roots the play in the context of post-reformation England where fears were great to see the majesty's subjects convert to Catholicism or to Islam, reminding us of the threats the Devil, Catholics and Ottomans were representing for Protestantism in its early days. He dismisses all the historicist readings of Shakespeare's plays by Stephen Greenblatt and his followers as "products of a strictly proto-imperialist culture that looked across the Atlantic towards its American colonies". For him, new historicists have used the Western imperialist discourse of the later centuries to read Renaissance texts, forgetting that while European colonial powers of the time

were racing for the exploration and colonization of the New World, the Ottomans were conquering European territories (Vitkus, 1997: 146).

Unlike Vitkus however, many critics agree to see in Othello a character that stands apart from other Moorish characters in Renaissance Oriental plays including Shakespeare's. Elaskary (2008), for example, after a survey of different Moorish characters in a number of Elizabethan plays has concluded that "Othello stands as the most important, vivid, and human Moor that Elizabethan, and to a great extent English, drama has ever seen." For him, contrarily to other Elizabethan playwrights who portrayed their 'Moors' in the darkest possible way, Shakespeare created the most sympathetic Moorish tragic hero in the history of English drama. He follows in this Alan Bloom who asserted that Shakespeare ran counter to the prevailing pattern of thought in choosing a Moor as his tragic hero, and Stanley Wells who hailed the boldness and originality of Shakespeare in doing so (Elaskary, 2008:165).

Dutta (2013), in an article titled "Representation of Race in Four Shakespearean Plays: Titus Andronicus, Othello, Antony and Cleopatra, The Merchant of Venice" ascribes this rather positive image of the Moor in Othello in comparison to Titus Andronicus to the development in Shakespeare's consciousness of race as he came of age. Shakespeare's idea of race, according to him developed from a prejudiced image of the Moor, as the portrayal of Aaron in Titus Andronicus shows, to a more sympathetic image of the racial 'other', as the more positive portrayal of the figures of Othello, Cleopatra and Shylock in the later plays shows. (Dutta, 2013: 922)

Issue and Working Hypothesis

As this brief review shows, there is wide agreement on the uniqueness of Othello as a Moorish character compared to his counterparts in other Elizabethan and Jacobean plays. In our view, the explanation is to be

found in the respective identities of the two main characters, Othello and Iago, which have been constructed in a way to make them fit the political agenda of the English Crown when the play was composed. The play is to be read therefore as reflecting the specific historical context of the end of the sixteenth century, characterized by the war with catholic Spain and the warm diplomatic relations with the King of Morocco.

Such reading had been hindered, in our opinion, because most critics, regardless of the approach they adopted, focused on the protagonist Othello and relegated Iago to the status of a mere antagonist. Many critics, however, have, in the recent years, turned their attention to the identity of Iago. Blank (2006), for example, in her discussion of race in Othello, has considered the Spanish identity of Iago. For her, in assigning his character the name of Iago, a Spanish rather than an Italian name, Shakespeare may have been thinking of Santiago (the Spanish form of Saint James) the Patron saint of Spain, whom the Spanish associate with the Reconquista (Blank, 2006: 100). Put in the context of the general English resentment against the Spanish towards the end of the Sixteenth century, the positive portrayal of Othello, the Moorish 'Other', makes a better sense if the antagonist is himself an 'Other', albeit internal, as the Spanish were then viewed. Very few instances of Moorish characters with a positive image can be encountered indeed in Western writings of the period, and when this happens, it is only to highlight the villainy of an internal 'Other' or 'enemy'.

On the historical context of the play

Othello, The Moor of Venice is mentioned for the first time in a record dated 1604, showing that the King's Players were paid for acting a play called The Moor of Venice. However, scholars agree that the play was written sometime between 1601 and 1603(Shakespeare, [1604]2001:15). By that time, Elizabethan England had been openly at war with Spain for almost

two decades (Anglo-Spanish War 1585-1604) and in a latent conflict from the very beginning of the reign of Elizabeth. Philip II of Spain, indeed, has never made secret his claim to the English throne, considering himself the natural heir to his deceased wife, 'bloody' Mary Stuart. The war in reality only amplified the already existing and ever-increasing anti-Spanish sentiment, what later scholars called the 'Black Legend'.

For, although Protestant England had increased its wealth and power under Elizabeth, it was living under the permanent threat of a foreign invasion by its powerful catholic neighbors. Spain in particular, the then most powerful catholic nation, ruled by a monarch who had pretension to the throne of England, constituted a constant danger. Philip II did not constitute a danger because of the sheer military power of Spain, but also because of the religious sanction of his action by Pope Pius V who declared Elizabeth I a heretic, and therefore a usurper (Hadfield, 2004:2). According to Hadfield, fear of Catholic Spain dominated the last years of the reign of Elizabeth I "[d]espite the undoubted triumph of the defeat of the Armada in 1588, achieved just before Shakespeare began his career as a professional writer" (Hadfield, 2004:2)

To face the Spanish threat, Elizabeth undertook to establish new diplomatic relations and alliances to break its isolation and to oppose the hegemony of Catholics. South of the Mediterranean, another monarch, the king of Morocco, from where Othello possibly originates, was looking forward to new alliances to fight his next-door enemy and, why not, reconquer Al Andalus. Matar (2006) lengthily documents the epistolary exchanges between the two monarchs and the exchange of ambassadors. In 1600, Ahmad Al Mansur sent an ambassador, Wahid bin Massoud bin Muhammad Al-Annuri at the head of a delegation of 14 Moroccans to expose to the Queen, by word of mouth, Al Mansur's scheme to defeat Spain,

reconquer Al Andalus and seize its territories in the New World (Matar, 2006:24 and infra)

On the identity of Othello:

Although Othello is explicitly identified as a Moor, his race or ethnic origin has been subject to many interpretations. Critics have most of the time interpreted literally the textual references to Othello's blackness in the play, and stuck to this indication, appealing to black or black-faced actors when staging it, as different performances through time indicate. In several passages indeed, Othello is given epithets referring to blackness. He is called a 'black ram', 'black Othello' by Iago, and a 'blacker devil' by Emilia: "O! the more angel she, / And you the blacker devil." More recent criticism, originating from the Arab world, has stressed Othello's Arab identity, confusing Moor and Arab: "No work of Shakespeare touches chords of Arab sensibility and identity so much as the tragedy of Othello. For one thing, the hero is a Moor and therefore an "Arab." (Ghazoul, 1998:1)

Many textual and contextual elements, however, show that Othello originates from North Africa, and precisely, from Morocco. First, the blackness referred to in the text should not be viewed as referring necessarily to skin color. Blackness is more often associated with evil than with skin color. George Peele in *The Battle of Alcazar* (1588/89), a dramatization of the actual battle of the three kings or 'Wadi Al Makhazin', a war of succession to the throne of Morocco in which the King of Portugal and Turks were involved, portrays Abdelmelec, drawn on Al Mansur, as a noble Moor while his nephew Muly Hamet, is described as "The Negro [emphasis mine] Muly Hamet that withholds/the kingdom from his uncle" (Peele, 1594: I). It is virtue that makes someone fair, and it is evil that makes him black as supported by the Duke of Venice in his address to Brabantio: "And, noble

signior, / If virtue no delighted beauty lack,/Your son-in-law is far more fair than black.” (Shakespeare, 1604: I.3)

Calling Othello a Moor therefore does not make of him a Black African since as Kim Hall has shown in *Things of Darkness: Economies of Race and Gender in Early Modern England* (1995), “to the Elizabethan audience, “Moor” could mean Muslim, Native American, Indian, white North African or Jew” (Hall, 1995, cited in Matar, 2006: 28). In an endnote (13) to the first volume of Leo Africanus' *The History and Description of Africa And of the Notable Things Therein Contained*, issued by the Hakluyt Society in 1896, the editor, Robert Brown explains that what Pory translates as "tawnie Moores", and Florianus " Subfusi", is, "in the original, "Affricani bianchi" (white Africans) and "I Bianchi dell' Affrica" (the whites of Africa), that is, the Berbers, to distinguish them from the Negroes." He adds that the word " Moor", as used by Pory and by all the writers of his time, and, indeed, subsequently, in a very loose way, is almost equivalent to Mohammedan. (Africanus, [1896] 2010, p.205)

Second, the text of the play explicitly situates Othello's origin in Barbary. Iago in the first scene of the play calls Othello a 'Barbary horse' (I.i) a metaphor that evokes both animality (horse) and origin (Barbary) from where originates this North African horse breed, also known as Barb or Berber horse. For Matar, Othello has very likely been drawn after Al Annuri, the ambassador Al Mansur sent to Elizabeth I. Answering the question of whether Elizabeth's collusion with the Morisco ambassador influenced the making of Othello the Moor" he writes: "the proposition the queen made to the Moriscos coincided with Shakespeare's reading of Cinthio's *Hecatommithi* and his subsequent composition of *Othello*"(Matar, 2006:28). For him, by showing Othello's eagerness to wage a war against the 'Ottomites' in the play, Shakespeare "represented the Moorish willingness

to fight for Christians against Ottomans—which is what Al Annuri was invited to do" (Matar, 2006:29)

Other critics asserted that Othello was modeled after Leo Africanus (Hassan Al Wazzan), another Moroccan of Morisco origin, author of *The History and Description of Africa*, which remained, for centuries, the reference work on the geography of the interior of Africa. Elaskary cites a number of critics sharing this view:

In the same vein, critics found striking similarities between Leo Africanus and Othello. Both Leo and Othello were Moors who were taken captive by Europeans, both converted to Christianity and seemed to have liked to settle in Europe and both were very influential figures who liked to work with fellow Europeans in the war against the Ottoman terror. Louis Whitney detected some other parallel lines between Leo and Othello, i.e., both were Moors who escaped many hazardous dangers in the desert and mountains of Africa and both were “noble” Moors. Similarly, Emily Bartels has found salient, mainly biographical, crossing points between Leo and Othello (Elaskary, 2008: 145)

What reinforces this idea is the plausible fact that Shakespeare read Pory’s translation of Leo’s *History and Description of Africa* published in 1600, a view shared by many critics such as Whiney who suggests that Shakespeare knew of Pory’s translation through Hakluyt with whom he was close, and Bollough for whom Shakespeare “almost certainly consulted Pory’s translation of Leo’s account on Africa” (Elaskary, 2008: 145) .

Actually, both interpretations stand. Shakespeare could have modeled Othello on Al-Annuri as well as on Leo Africanus, or even on both as suggested by Honigmann for whom both Leo’s *Description of Africa* and Al-Annuri’s ambassadorial visit to England in 1600 inspired Shakespeare to write Othello (Elaskary, 2008: 145). That Shakespeare modeled his character

on Al-Annuri, Leo Africanus, or both is not however the point in our argument. Both Leo and Al-Annuri were moriscos, or more precisely, "Muslim subjects forcibly converted to Christianity" as Fuchs (2009) defines them, originating from Granada, who have found refuge in the Kingdom of Morocco, and entered in the service of the king. Another characteristic shared by the two figures is that both have lived in Christendom and were ready to serve it in its war against the Ottomans: Leo Africanus offered his precious knowledge of the interior of Africa through his Description of Africa and Al-Annuri received a proposition by Elizabeth to join her and to become part of her fighting force.

The Moroccan origin of Othello is furthermore reinforced by the existence of a predecessor in Shakespeare's drama. A few years earlier, Elizabethan audiences discovered the 'Prince of Morocco' as one of the suitors of Portia in *The Merchant of Venice* (1596). However, whether modeled on al-Annuri or Hassan al-Wazzan (Leo Africanus) or both, what is to be retained is the overall positive portrayal of Othello throughout the play, although the vices usually associated with his race such as jealousy and lust are shown to be atavistic in him. Othello, the Moor, is not only granted the status of the hero in the plot, but raised to the dimension of a tragic hero as defined by Aristotle.

Furthermore, for an Othello originating from Morocco, fighting the Turks is not a corruption of historical events made by the author to adapt it to his plot. Morocco was indeed the only Barbary state that had at no moment fallen under Ottoman vassalage. The conflict opposing the Kingdom of Morocco to the Turks is as constant as the one opposing it to the Spaniards. According to Matar, in the scheme he suggested to Elizabeth, the king of Morocco, Al Mansur, offered not only an alliance against Spain, but also a secret attack on the regency of Algiers to dislodge the Turks. This

explains why among the four Moorish characters created by Shakespeare, the only ones bearing a positive image are the two related to Morocco: "Of the four Moors Shakespeare introduced in his career, two are devilish, Aaron and Caliban, and two are noble, Othello and Prince of Morocco." (Elaskary, 2008:145)

Of the identity of Iago

As stated earlier in this paper, critics have been more fascinated by Othello than by Iago, who is often regarded as a mere antagonist, although in the recent years, critics have started to discuss the identity of Iago and its role in constructing the plot of the play. Iago is portrayed as a loathsome villain and if a character in the play deserves the epithet of a 'black devil', he is certainly the one. What is unusual, however, about the play for a reader having in mind the usual dichotomy Self/Other in Elizabethan drama is the reversal of roles between the European and the Oriental/Muslim Other. Othello the Moor, the North African, is given the role of the hero while Iago, the European, inherits the role of the villain. This discrepancy, in our view, does only make sense if this European character is himself an 'Other'. This was precisely the case with the Spanish who were viewed by the English and many other Western Europeans as an internal 'Other' in the early modern period. Indeed, "Spain itself, though the westernmost part of Europe, is orientalized by its European rivals in a deliberate attempt to undermine its triumphant self-construction as a Catholic nation from 1492 on." (Fuchs, 2009: p.3).

The idea that Shakespeare was thinking to a Spanish character in his portrayal of Iago is by no means new. Blank (2006), for example, discussing race in Othello, in her Shakespeare and the Mismeasure of Renaissance Man, has considered, following other scholars (Hadfield: 1998, Griffin: 1998, Moore: 1996, Rea: 1986), the Spanish identity of Iago. She however suggests

the same origin for Othello, highlighting his identity as a Morisco (Blank, 99-100). What reinforces this view of the Spanish origin of Iago is the way Shakespeare remodeled Cinthio's "Un Capitano Moro" (Cinthio, 1565[2018]) . He makes of an unnamed character, known only by his function as the 'Ensign' a character that everything tends to identify as a Spaniard, beginning with his name.

In Giraldi Cinthio's *Gli Hecatommithi* (1566), Decade 3, Story 7 "Un Capitano Moro", which scholars generally accept as the main source from which Shakespeare drew his plot, with probably some psychological analysis from Geoffrey Fenton's tale of an "Albanoyse Captain" in *Certain Tragicall Discourses* (1567) (Vaughan, 1996: 2-3), the Ensign remains unnamed even though, we are made to know that he is not a native of Venice, since at the end of the story, "the Ensign returned to his own country" (Blank, 2006:100). That country could be either Spain or Sicily that was then ruled by Spain. A scenario that is very plausible, since Venice used to hire foreign soldiers to protect its flourishing commerce in the Mediterranean. It is Shakespeare who named the character Iago, a name that is not Italian, as one would have expected, but Spanish, and evocative of Santiago (Saint James) the patron saint of Spain whose protection was invoked by the Christian armies during the Reconquista, a role that earned him the name of Santiago Matamoros (the Moor slayer). Blank suggests that Iago's Spanish nature is evidence of Shakespeare's subscription to Renaissance English anti-Spanish sentiment or the Black Legend, and to the propaganda directed against the Inquisition (Blank, 2006: 100)

For Sixteenth Century England, indeed, Spain was not that exotic country about which one heard only through travelers' tales. Earlier in the century, Henry VIII had married Catherine of Aragon, and his daughter, Queen Mary Tudor married a few years later, Phillip II of Spain, which

marriage he used as an argument to reclaim the throne of England after her death and the crowning of Elizabeth I (Richmond, 2002: 432)

Like his contemporaries then, Shakespeare, had every reason to hate the Spanish and to misrepresent them. Spain as the most powerful nation of the time and as the declared protector of the Catholic Church was a double threat for England. The threat materialized in 1588, when King Philip II of Spain undertook the conquest of England with the blessing of Pope Sixtus V, hoping this would bring Britain back into the Catholic Church. The result was the defeat of the 'Great Armada' and the emergence of Britain as a new world power. This attack however reinforced the anti-Spanish sentiment present in England, the Netherlands, Italy and Germany from the early days of Reformation. When reports of the persecution of Protestants in Spain began to circulate in England, the hostility towards the Pope extended to include the King of Spain. These reports, used by Protestants as propaganda, circulated in such books as the Book of Martyrs (1563 for the English edition) by John Foxe (1516–1587) in which an entire chapter “The execrable Inquisition of Spayne” was dedicated to the Spanish Inquisition. For Shakespeare and his contemporaries, then, the Spanish were as threatening as the Turks. As Vitkus puts it:

The collective anxiety about religious conversion felt in post-Reformation England focused primarily on Roman Catholic enemies who threatened to convert Protestant England by the sword, but the English also had reason to feel trepidation about the imperial power of the Ottoman Turks, who were conquering and colonizing Christian territories in Europe and the Mediterranean. English Protestant texts, both popular and learned, conflated the political/external and the demonic/internal enemies, associating both the Pope and the Ottoman sultan with Satan or the Antichrist. (Vitkus, 1997:145)

Identifying Iago as Spanish, in addition to surfing on this collective anxiety to titillate his audience, keeps Shakespeare's work in line with the crown's foreign policy of the time, specifically towards Morocco and Spain.

Shakespeare is known, indeed, notwithstanding the liberties he did not hesitate to take, for his proximity with the royal court both under Elizabeth I whom he loved (Hadfield: 2004) and under James I who became the patron of his acting company that was renamed the King's Men. He was continually adapting his work to the political agenda of the moment as is the case with his earlier historical plays, King John, and Richard II. Writing on the theme of usurpation in King John, John Sibly asks: "Why ... did a Tudor playwright in 1595 go to such lengths to emphasise this usurpation in a play notoriously written to rally the country behind Elizabeth against a threat backed by Papal authority?" (Sibly, 1966: 415, cited in Maley, 2010: 51)² only to "conclude that Shakespeare deliberately presented John as a usurper in order to undermine the papal claim and the nature of his submission to Rome"(Maley, 2010: 51)

Conclusion

As shown along this paper, reading Othello, the Moor of Venice (1603) in the light of Elizabethan England's foreign policy during the period in which it was composed, characterized by the Anglo-Spanish war on the one hand, and by the projected alliance between England and Morocco, on the other, offers a plausible explanation of the reversal of roles between 'Self' and 'Other'. This explains the reason why, departing from the usual dichotomy between European/Christian 'Self' and Muslim/Moorish/Turkish 'Other' in Elizabethan Moorish plays, including his own, Shakespeare reversed the roles between Othello the Moor, the North African, and Iago the European, making of the first a tragic hero and of the latter a villain. This reversal of roles finds its full meaning when we see

in Othello a distant kin of Al-Mansur, King of Morocco and prospective ally of England, and in Iago a distant alter ego of Philip II of Spain, the national enemy.

Ultimately, making of Othello, the Moor, a tragic hero, does not mean the whitening of the Moor. Shakespeare seems to tell the audience that neither the Spanish Iago nor the Moor Othello are to be trusted. Iago is perfidy personified. His wickedness resurfaces and his true nature is eventually revealed. Othello, though an objective ally, can at any moment revert to his primary nature characterized by cruelty and barbarity. In this play, Shakespeare does not only succeed to reflect the prevailing English attitude towards two powers and two 'Others' of the time but also to foster and reinforce it.

Notes

1 The phrase “The Black Legend” was coined in 1912 by a Spanish journalist in protest of the characterization of Spain by other Europeans as a backward country defined by ignorance, superstition, and religious fanaticism, whose history could never recover from the black mark of its violent conquest of the Americas. See Margaret R. Greer, Walter D. Mignolo, Maureen Quilligan, eds., *Rereading the Black Legend: The Discourses of Religious and Racial Difference in the Renaissance Empires*, the University of Chicago Press, Chicago & London: 2007. For a detailed survey of the development of the Anti-Spanish sentiment in England, see William S. Maltby, *The Black Legend in England: The Development of Anti-Spanish Sentiment, 1558-1660*. Durham (NC) Duke University Press

2 John Sibly, ‘The Anomalous Case of King John’ , *English Literary History*, 33/4 (1966):415 , cited in Willy Maley, “‘And bloody England into England gone’: Empire, Monarchy, and Nation in King John” in Willy Maley and Margaret Tudeau-Clayton, eds., *This England, That Shakespeare:*

New Angles on Englishness and the Bard, Ashgate Publishing Limited, London: 2010, p. 5

Works Cited

Africanus, L. [1896] 2010. The History and Description of Africa (Vol. I) trans. John Pory, edited by Brown, R. New York. Cambridge University Press

Bayouli, T. 2008. "Elizabethan Orientalism and its contexts : the representation of the Orient in early modern English drama", in International journal of Euro-Mediterranean studies, Vol. 1, no. 1 (2008), pp. 109-128

Blank, P. 2006. Shakespeare and the Mismeasure of Renaissance Man. Ithaca (NY): Cornell University Press

Cinthio, G. 'Un Capitano Moro' in Hecatommithi (1565), Trans. Taylor, J. E. (1855) retrieved may 25, 2018 from

<http://virgil.org/dswo/courses/shakespeare-survey/cinthio.pdf>

Dutta, U. 2013. "Representation of Race in Four Shakespearean Plays: Titus Andronicus, Othello, Antony and Cleopatra, The Merchant of Venice" in European Academic Research, Vol. I, Issue 6, September 2013, p.922

Elaskary, M. I. 2008. The image of Moors in the writings of Four Elizabethan Dramatists: Peele, Dekker, Haywood and Shakespeare, PhD thesis, Exeter University

Fuchs, B. 2009. Exotic Nation: Maurophilia and the Construction of Early Modern Spain

Philadelphia. University of Pennsylvania Press

Ghazoul, F.J. 1998. "The Arabization of Othello", in Comparative Literature, Vol. 50, No. 1 (Winter, 1998), pp. 1-31

- Greer, M. R. Mignolo, W. D. and Quilligan, M., eds., 2007. Chicago & London. Rereading the Black Legend: The Discourses of Religious and Racial Difference in the Renaissance Empires. University of Chicago Press
- Hadfield, A. 2004. Shakespeare and Renaissance Politics. London. The Arden Shakespeare,
- Matar, N. 2006. Britain and Barbary 1589-1689. Gainesville, (FL). University Press of Florida
- Maley, W. and Tudeau-Clayton, M., eds., 2010. This England, That Shakespeare: New Angles on Englishness and the Bard. London. Ashgate Publishing Limited
- Maltby , S.W. 1971. The Black Legend in England: The Development of Anti-Spanish Sentiment, 1558-1660. Durham (NC) Duke University Press
- Peele, G. [1597]1907. The Battle of Alcazar. London. The Malone Society Reprints
- Richmond, H. 2002. Shakespeare's Theatre: A Dictionary of His Stage Context. London & New York. Continuum
- Shakespeare, W. [1604] 2001. Othello. London. Penguin Popular Classics
- Slights, J. (n.d.) "Othello: A Survey of Criticism". Internet Shakespeare Editions. Retrieved May 20,2018, from http://internetshakespeare.uvic.ca/m/doc/Oth_CriticalSurvey/complete/
- Vaughan, V. M. 1996. Othello: A Contextual History. Cambridge. Cambridge University Press
- Vitkus, D. J. 1997. "Turning Turk in Othello: The Conversion and Damnation of the Moor" in Shakespeare Quarterly, Vol. 48, No. 2 (Summer, 1997), pp. 145-176

The Liberal Aspect of the American Dream in James Truslow Adams' *The Epic of America* (1931)

AZIZ Rabéa, Assistant Professor
Université Mouloud MAMMERI de Tizi-Ouzou
aziz_rabea@yahoo.fr

Pr. Guendouzi Amar
Université Mouloud MAMMERI de Tizi-Ouzou
guendouzi@yahoo.fr

تاريخ النشر: 2019/03/31

تاريخ القبول: 2018/12/14

تاريخ الإرسال: 2018/12/06

Abstract: This article foregrounds James Truslow Adams' ideological discourse in his historical document *The Epic of America* (1931), in which the concept of "the American Dream" has first been introduced to the terminology of the American history. In this book, which traces the history of the American Dream from the early English settlements in America until the date of its publication, Adams defends American Liberalism, manifested in the free enterprise and the equality of success opportunity, as the basis of the American Dream. Reading the history of the American Dream in the light of Adams' book, we come to the conclusion that, as any American, he defines the concept according to his circumstances of birth, class and age; synthesized in a Liberal ideology that emphasizes the specificity of the American nation.

Key concepts: J.T. Adams, The American Dream, Ideology, Liberalism, Free enterprise, U.S.A.

المظهر الليبرالي للحلم الأمريكي في "ملحمة أمريكا" (1931) لجيمس تراسلو آدامز

ملخص: هذه المقالة تبرز الخطاب الأيديولوجي لجيمس تراسلو آدامز في كتابه التاريخي "ملحمة أمريكا" (1931)، حيث تم تقديم مفهوم الحلم الأمريكي لأول مرة لمصطلحات التاريخ الأمريكي. في هذا الكتاب الذي يتتبع تاريخ الحلم الأمريكي منذ المستوطنات البريطانية الأولى في أمريكا حتى تاريخ نشره، يدافع آدامز عن الليبرالية الأمريكية التي تتجلى في المشاريع الحرة والمساواة في فرص النجاح كأساس للحلم الأمريكي. قراءة تاريخ الحلم الأمريكي في ضوء كتاب آدامز تقودنا إلى الإستنتاج أنه، مثل أي أمريكي، يعرف مفهوم الحلم الأمريكي حسب ظروف ولادته، طبقته الإجتماعية وجيله، توليفها في أيديولوجية ليبرالية تؤكد على خصوصية الأمة الأمريكية.

الكلمات المفتاحية: ج.ت. آدامز، الأيديولوجية، الحلم الأمريكي، الليبرالية، المشاريع الحرة، الولايات المتحدة الأمريكية

Introduction : James Truslow Adams' book *The Epic of America* (1931) is the first historical document in the American history to coin the concept of "the American Dream". Considering the period in which the book was published, one wonders how a concept, upon which the main ideals of the American nation are built, appeared when the Americans were suffering from the most damaging depression in their history. It is, indeed, confusing that a concept, which embodies most of the hopes of the American people and the optimistic ideas to which the American success are related, was formulated in a period of despair and crisis. In fact, in his book, Adams overlooks the period of the 1930s and argues that such a concept as the American Dream is wider than that decade.

In Adams' view, the American Dream has a wide connotation and one has not to limit it to a certain period in history or to a specific group of

people, since it is embedded in the minds of all the American generations. It is a standard term that can be applied to all the periods of the American history since the beginning of settlement in the New World until the end of life on earth. Adams believes that the meaning of the American Dream changes according to the circumstances and the hopes of people in each period of time. Each group of people defines it according to their hopes, expectations, economic, political, and social conditions in which they live. However, the change to which the concept is submitted does not go beyond its basis, which is that of American Liberalism.

Most of the reviewers of *The Epic of America* agree on the fact that Adams has not limited the concept to the 1930s and that the book is about the history of the concept and the American nation from the first English settlement until the 20th century. For instance, the transaction Routledge publishers of the 2012 edition of *The Epic of America* argue that James Truslow Adams in this book gives a picture of the American past that makes its present and “reviews how the ordinary American has matured over time in outlook, character, and opinion.” (<https://www.routledge.com>). This maturity resulted in the present in an American citizen, who is different from a man or woman from any other nation. Along with it, Adams traces the history of the concept of the American Dream that moved through different periods to establish its specificity that is linked to business and Capitalism (Ibid.).

For her part, Tess Evans, in her review of Lawrence R. Samuel’s *The American Dream: A cultural history*, argues that Lawrence “takes up where Adams left off.” (Evans cite in <http://muse.jhu.edu/article/513418>). She acknowledges the existence of the American Dream before the period of the

1930s and she asserts that Adams, in *The Epic of America*, explores the development of the concept over history giving a vision of how the American Dream should be. She reinforces her ideas with an argument that Adams argues for an American Dream based on the Liberal values that make the specificity of the American nation (Ibid.). The history of the American Dream, then, makes the history of the American people that cannot be detached from the Liberal ideology.

This article aims to analyze Adams' Liberal discourse all along *The Epic of America*, dealing with his understanding of the American Dream and its functions throughout various periods in the American history. The analysis explains Adams' faith in Liberalism as the foundation of the American Dream along the country's history and his standing against any current that comes against the Americans' ancestral liberal principles, either in the present moment or in the future. It discusses also Adams' understanding and definition of the concept; a definition based on the three principles of Life, Liberty and the Pursuit of Happiness, exemplified in the American free enterprise and capitalistic values. The discussion, then, follows the outline of Adams' book, which deals first with the Liberal dreams of the previous generations and defends at the end an American Dream that belongs to the author's own generation, that of the twentieth century Capitalists. At the end, it shows how Adams is determined by his background and biography in his definition of the American Dream.

Adams' Liberal ideology is analyzed in the light of Louis Althusser's theory on ideology included in his essay entitled "Ideology and ideological State Apparatuses" (1971). In this essay, Althusser gives a materialist understanding of ideology. For him, ideology is not present in the brain of

the individual in a form of ideas, but rather in institutions or what he calls state apparatuses, as the church, the school, trade unions and the family. It manifests itself in society in a form of beliefs, rituals, habits and customs. These apparatuses, according to him, belong to the state and called Ideological State Apparatuses or ISAs. Just like the Repressive State Apparatuses or RSAs, as the police and the army, the ISAs are initially controlled by the ruling class or the elite, which tries always to impose its control on the working class by spreading its ideas in these institutions or apparatuses. In this way, the individual, or the subject, as is labeled by Althusser, is always shaped by the ISAs. He writes, "All ideology hails or interpellates concrete individuals as concrete subjects" (Althusser, in Lenin, 1971: 115) meaning that ideology creates a sense of identity.

Althusser's definition of ideology is mainly based on Capitalist societies, in which the ideology of Capitalism is imposed on individuals via these state apparatuses and becomes part of their identity. As such, ideology always carries with it proletarian values and Bourgeois domination. Since J. T. Adams belongs to the Bourgeois class within a Capitalist society, he takes the role of an ideological state apparatus to impose his liberal capitalist ideology. As his *Epic of America* traces the whole history and civilization of the U.S.A. and bases its arguments on the official documents and institutions of the U.S.A, it represents the majority of the ideological state apparatuses since it covers the religious, educational and, political spheres. Through his book, Adams tries by all means to dominate the minds of American citizens and impose on them an identity based on Liberalism by giving this book a title of an epic, and connecting the concept of the American Dream, which represents the American identity, which is closely related to this ideology.

- American Dream, American History and the ideology of Liberalism: Adams' Overview of the Three Concepts

Before defining the American Dream, Adams has first reviewed the history of the United States from the beginning of the English settlement until the twentieth century to show that the American Dream is the American history itself. He compares the concept and the American history to a tale without a beginning. In his prologue to the book, he claims that “no date marks the beginning of our [Americans’] tale” (P. 3) to make it clear to the reader that the American history and civilization started before the English settlement in the New World. Since the Indian civilization, which was established before the Europeans’ arrival to this land remains unknown for him and for all historians, he, in his book, opens the tale with the arrival of the English to the New World.

Adams considers that the first English people, who settled in America, were led by the spirit of Liberalism. Since then, all the other groups of settlers, who were brought up within this Liberal atmosphere, were permitted to fulfill their hopes and dreams. He does not deny that the dream of all the people who settled in America had materialistic motives behind it, but he justifies their materialism by the bad living conditions they suffered from in their homeland. He argues that “for various reasons, economic conditions in England were very bad,” (P. 30) and “the opportunities of the New World were painted in glowing colors, and those who were sinking in the social and economic scales in England began to look toward it as a land of refuge and hope” (Ibid). He adds to this that the bad economic conditions that those people underwent in their homeland were the result of the political system of the government, which was tyrannical and conservative. As such, what those people needed in reality was a land where they would be

able to live “a better and freer life, a life in which a man might think as he would and develop as he willed” (Ibid. P. 31).

The people’s dream is, then, liberal by nature. Their migration to the New World is shaped by the spirit of liberty and equality. It is not like the ancient migrations, which were made by lords followed by their agents dependent on them. It is rather, as Adams argues the one in which “the common man as well as the leader was hoping for greater freedom and happiness for himself and his children” (P. 31). The dream of those people was not expressed, but it was forming in their minds. Adams argues that “that dream or hope has been present from the start” (P.4) and America was called by some people “freedonia”, since it has been considered the land of freedom and equality. Starting from this point, Adams finds that he cannot cover any event in American history without making reference to the philosophy of Liberalism.

When the thirteen colonies claimed their independence and secession from the British Empire, they also defended their cause under Liberal principles. Their Declaration of Independence was, in fact, the announcement of the Lockean Liberal rights of Life, Liberty and the Pursuit of Happiness, which were theorized by Thomas Jefferson and his followers to themselves and to all mankind as he writes:

We hold these truths to be self-evident that all men are created equal; that they are endowed by their Creator with certain inalienable rights; that among these are life, liberty, and the pursuit of happiness. That, to secure these rights, governments are instituted among men, deriving their just powers from the consent of the governed; that, whenever any form of

government becomes destructive of these ends, it is the right of the people to alter or to abolish it (Jefferson [1776] in Adams, 1931: 89).

Following these principles, the American nation got its independence from Britain in 1883. Since then, all the official documents of the American government, as the American Constitution and the Bill of Rights, were inspired from this declaration and all oppressed groups defended their rights under these principles. Adams argues that “[...] in the Declaration of Independence, made good by war, the gospel of equality, of natural rights, and of government by consent of the governed, had attained influence and authenticity that no mere philosopher could secure for it” (Adams.1931: 110).

In the centuries that followed the American independence, the Declaration of Independence became the source of inspiration for the majority of the movements for the preservation of human rights. The philosophical aspect of this declaration makes it open to different contexts and circumstances. Each individual or group of people interprets it according to his/their social, economic, political and historical circumstances. The entire Americans’ hopes and expectations are claimed and come true under the liberal principles of this declaration, which became the basis of the American Dream. In this context, Adams claims that “Jefferson” stood “for the American Dream” (P. 112), an expression which became the emblem which separates America from the rest of the world, especially Europe. Indeed, when the United States of America established itself as a nation with a civilization and “stability of material and spiritual values” (P. 402); she seceded not only from the empire, but from the whole Old World. Since then, the American people opened their new frontier by expanding it to the Western shores of their lands. This westward expansion is the new image of

the American Dream, a dream of a better life looked for on the basis of the old settlements in the New World not on the basis of any European background (P. 122).

- American Dream and American Liberalism: The Link Between the Two Concepts

With the establishment of new states in the West, especially in the nineteenth century and with introduction of industry to the Northern states, the Liberal principle of the American Dream, which was inherited from the European philosophy began to be revised and redefined to be specific to America, by linking it mainly to money making and material success, achieved through investment in different fields. In the turn of the twentieth century, Liberalism for Americans meant free enterprise and non-governmental interference in economy. This new form of Liberalism contributed to achieve the highest points of material success and technological development. It also opened the way for them to be proud of themselves as the best nation in the world and to claim their success to be the result of their new vision of life. This new image of the American Dream is best illustrated in the literary works of such authors as Theodore Dreiser and Francis Scott Fitzgerald.

James Truslow Adams belongs to this generation that believes in the specificity of the American nation and the American Dream. He argues that whatever was the definition given to the latter, it never goes beyond its basic principles, which are: life, liberty and the pursuit of happiness. The three basic principles of the American Declaration of Independence were inspired by Thomas Jefferson from John Lock's philosophy of Liberalism. The latter was revised and then modeled within American political, social and mainly

economic frameworks. The American philosophical tradition of Liberalism is, according to him, embodied especially in their economy via their system of Capitalism based on free market. The same system is seen as a sign of democracy and equality among people, since opportunities of investment and material success are open to all individuals, regardless of their social rank or origins.

It is important to point out that American history shows that since the realisation of the American independence, material success was considered as a project to be realized by many local inhabitants and emigrants that come to America each year to see this new light of hope. The reason is that this land of economic liberty and equality among people gave to them a light of hope to realize what they could not realize elsewhere. In this context, Reyes argues that “America is a utopia... it is the name of human hope” (Reyas in Parrington. 1947). The happy life which all the American citizens look for is, then, the result of economic liberty, a liberal principle redefined each time according to the individual’s social rank, as well as the political order that characterises his/her historical era. In this context, Adams argues that the dream of all these people is:

That American dream of a better, richer, and happier life for all our citizens of every rank, which is the greatest contribution we have made to the thought and welfare of the world. That dream or hope has been present from the start. Ever since we became an independent nation, each generation has seen an uprising of ordinary Americans to save that dream from the forces which appeared to be overwhelming it (Adams.P. 04).

It appears from the above excerpt that Adams, as an American citizen, defends an American Dream that belongs to his social rank and his

generation. Being descended from a Virginian family of landowners, he is qualified as a man of noble bloodline. Jim Cullen argues that he is “A man with elite bloodlines dating back to the seventeenth century, when one of his ancestors came to Virginia as an indentured servant and ended up in the landowning class.” (Cullen, 2003: 3). Thus, he inherited the ancient liberal values of the American Dream from his ancestors, and he modeled them on the modern economic atmosphere of his twentieth century generation. He experienced his own American Dream by working on Wall Street and made his material success as a successful businessman. As such, the American Dream he defends in his *The Epic of America* is based on the ancient liberal values of his ancestors, but at the same time the liberal values he defends are those redefined in the twentieth century in terms of free market, Individualism and material success achieved through business investment. When he writes in the epilogue of *The Epic of America* that the American Dream is not merely a dream of motor cars and high wages but rather a dream that every man and woman can make success regardless of his/her social class or origins (P. 405), he, in fact, recalls the experience of his family that came to America as indentured servants and turned to be a family of landowners. The reason behind their success, according to Adams is the opportunity which was open to every man and woman to reach success at that time under the liberal values of equality among people and the worthiness of each individual according to his/her abilities. And when he says that each generation raises in a rebellion to defend her own dream, he means that all the previous generations worked hard to preserve their dreams by keeping stick to their ancestral liberal values, and it is time for his own generation to defend theirs.

Adam's notion of the American Dream belongs to the twentieth century businessmen, redefined in terms of political freedom, the accumulation of wealth and the freedom from want. The reason is that, as it is aforementioned earlier, Adams himself is a successful businessman. During his time, it was the combination of the political and economic ideals instead of the spiritual ones that governed the American life, since economic prosperity in this period was reinforced by political rather than spiritual laws. Yet, to reach this prosperity, government has to share the same dream as the citizens, because they are in need of laws that protect their interests. Charles Geisst argues that "The realistic side of American history has seen governments play a strong, central role in defining and fashioning this persistent dream, especially when political and economic factors become too overwhelming for the marketplace." (Geisst.1990: VI). Indeed, Jefferson's Declaration of Independence that Adams reports and considers as the source of the American Dream says that governments must contribute to the general will of the people and that if any government doesn't succeed to achieve this aim, it must by no means be removed by the people. The problem is that when Adams wrote his *The Epic of America*, the government was unable to share with the dreams of its people. In fact, the depression in which the American nation was plunged after the economic crash of 1929 obliged the government to give up some of its liberal principles to adopt some socialist values. This act made the advocates of Liberalism, Adams included, afraid that people would follow the path of their government and give up their ancestral Liberal values. As such, he finds that it's time for him to defend America's Liberal tradition against the governmental socialist practices.

Adams' reference to an uprising in the last sentence of his above definition of the American Dream is, then, a way to save that dream from the forces that came against it. We understand from this that his aim through the book is to save this dream from disappearance, since he was afraid that Americans, in these moments of despair, would come to forget about their ancestors' values, which insisted that the three basic principles of the American Dream can only come true with hard work and individualism, implied in free enterprise. At that time, he came against Franklin Delano Roosevelt's socialist programme of the New Deal, and he felt that Roosevelt, through this programme was betraying the American tradition based on autonomy and government's collusion to create a materialistic consumer society. His aim through this book is, then, rather ideological than social, economic or historical. This epic is written to remind Americans that in America, the myth of the American Dream never dies, and since the early foundation of the American nation, people were struggling to make it come true. It is, then, time for them to revolt against Roosevelt's New Deal, and follow the path of their ancestors to save their nation from depression through hard work and the spirit of Individualism rather than that of Socialism. It is to remind the Americans about their ancestors traditions that made of this nation the one of their day, and it is then their task to follow the path of the great men of the seventeenth, eighteenth and mainly nineteenth centuries to overcome the problems of the Great Depression.

As Adams believes that the American Dream is the dream of the whole nation since its foundation in the seventeenth century, he finds it odd to give his book the title of "American Dream", even though he is the first to use this concept and even though he invokes it over thirty times in this book. According to him, it's not clear whether he actually coined the term or

appropriated it from someone else, since although it did not exist as a concept it existed as an idea in the minds of all the Americans since they came to establish colonies in America. In fact, all of them had the dream of success in life; a materialistic success, according to him. So, instead of the title of “American Dream”, which was suggested by his publisher, he opted for *The Epic of America* to remind Americans that the concept is an epic which will never die. Since Truslow Adams used this concept, it became a national motto, which is used in sport by athletes to claim their identity, in politics by political leaders to lead their compains and mainly in economy by businessmen as the ultimate goal of their enterprise. The term becomes a component of the American identity, more meaningful than terms like democracy, constitution, or the United States itself. Its vitality stems from the fact that the term is universal; it is part of the American tradition. Jim Cullen argues that even though the Pilgrims, when they settled in the New World, did not make reference to the concept of “the American Dream”, they understood its idea and lived it, in the sense that they imagined their destiny in a positive way and traced their future optimistically. So did the founding fathers, when they drafted the American constitution and so did the businessmen of the nineteenth century, when they invested and speculated their wealth in different projects. Even the different waves of immigrants, who joined the American continent to overcome their homelands’ problems, experienced the same dream (cf. Cullen, 2003: 5).

Due to the widespread use of the concept of the American Dream, it became in the twentieth century a major element of the national identity. In fact, any nation in the world identifies itself by elements that unify its people, such as blood, religion, geography, shared history or language. The American people endeavored to create a shared and collective imagination

inspired from the hopes of the first English settlers on this New World and articulated explicitly by the founding fathers in the Declaration of Independence to be consolidated in the American constitution (Ibid., P. 6). This shared imagination came true with the businessmen of the nineteenth century, who succeeded to make of the U.S.A. the leading industrial nation in the world. It is this imagination that James Truslow Adams came to name “American Dream” in the first half of the twentieth century and that the coming generations succeeded to keep alive through hard work and a shared belief in it.

- American Dream Based on Adams' definition

At the end of his book, after tracing the whole history of the United States, and after relating the American Dream to life, liberty and the pursuit of happiness, James Truslow Adams comes to give his official definition of the concept in the epilogue of *The Epic of America* as “that dream of a land in which life should be better and richer and fuller for every man” (P. 404). But, what do the terms “better”, “richer” and “fuller” mean differ from one individual to another, from one social group to another and from generation to another, just like how the terms “life”, “liberty” and “the pursuit of happiness” mean different things for different people. Accordingly, the terms “better”, “richer” and “fuller” are defined in terms of money in modern America. Yet, in the seventeenth century, they could be defined in religious terms. Other definitions can be given to these terms, such as political reform, educational attainment, sexual liberty, ethnic equality and an infinite number of other definitions. So, what makes this concept successful, in fact, is its mythic aspect and its reference to ideological and standard principles, which makes its use general and specific at the same time, and which gives Americans a shared identity, and separates them from Europeans.

Coming back in the history of the American people, we find that from the very beginning of their settlement on this new found land, their main aim was to create a new nation based on new principles different from those of what they called the Old World. When they fled their homeland's regime and problems, they set on themselves the task of creating a new world with new ideals always opposing or revising the European ones, and so they did. In fact, the ideals of life, liberty and the pursuit of happiness came against the oppression and tyranny of the European governments and Church, which restricted the political and religious liberty of the citizens. Starting from the nineteenth century, when industry started to take roots in the U.S.A., several connotations, which can be considered as being revolutionary comparing to the previous centuries and especially to the European thought, are attributed to the American Dream. It became an identification of the American citizen from the foreign one. This idea manifested itself clearly starting from this century through the ideology of Capitalism, which became the basic foundation of the American Civilization. In this context, Adams extends his definition of the American Dream as:

That dream of a land in which life should be better and richer and fuller for every man, with opportunity for each according to his ability or achievement. It is a difficult dream for the European upper classes to interpret adequately, and too many of us ourselves have grown weary and mistrustful of it. It is not a dream of motor cars and high wages merely, but a dream of a social order in which each man or woman shall be able to attain to the fullest stature of which they are innately capable, and be recognized by the others for what they are, regardless of the fortuitous circumstances of birth or position (Adams, 1931: 404).

The passage illustrates the way Adams recalls his European origins, and mourns his ancestors' inability to make a decent living there, because of their social rank, the thing that obliged them to sail to America as indentured servants. In parallel, he praises their ability to rise to nobility once in the New World, and shows thus the specificity of American Liberalism comparing to the European one. He shows how Liberal opportunities in America are open to every individual, regardless of his circumstances of birth or origins, and how only hard work can lead someone to success. He shows that the Liberalism he defends is not the one understood by the Europeans, and the concepts of life, liberty and the pursuit of happiness have other meanings in America. Since the American liberal principles were set for the first time, they were used as an attack and defense against the European principles to preserve the American identity as a nation, which will never follow the European path. So, following Adams' overview of the use of the concept of the American Dream in different periods of the American history as an American ideal, we find that it comes always against the European ideals. Adams argues that its meanings, especially in the last decades of the nineteenth century and the first half of the twentieth century, manifested clearly this idea.

Dealing with the concept as an ideology, Adams argues that one finds it difficult to understand its meaning in any given period of the American history without making reference to the Puritan period and the first English settlement in America. Starting from the point that the American Dream is originally set on some European ideals that have been calcified in America, one can understand why we cannot speak about the American Dream without making reference to its origins that come back to the first Puritan people, who left Europe looking for good living conditions in the New

World. This religious group intended to purify what they brought with them from Europe. What they brought with them, however, was just a set of political and religious ideas; ideas of government and Christianity. Ruland and Bradbury argue that when this religious group crossed the Atlantic Ocean, they had in their minds a plan on how to revise these concepts once in the New World. They planned to set a government based on the respect of the individual freedoms; mainly religious freedom (cf. Ruland and Bradbury, 1991: 8). From this Puritan dream came the idea of making the American nation different from Europe, and from it came the idea of revising all what comes from Europe. Starting from the first English settlement in America, all the European ideas and movements reached America in a new shape revised and corrected (according to them) by the basic principles of their American Dream, which differs from the European one.

In *The Epic of America*, James Truslow Adams focuses on the difference of the American nation from the European one by insisting that the American Dream is the product of “the American mind”, which considers “business and money-making and material improvements as good in themselves.” (Pp. 405-6). He states that “the mere fact that there were no old things to be swept away here made us feel the full impact of the Industrial Revolution and the effect of machinery, when we turned to industrial life, to a far greater extent than in Europe, where the revolution originated.” (P. 406). By this statement, Adams makes it clear that despite the first settlers’ efforts to create a new nation detached from the European one; it was the Industrial Revolution with its impact on the socio-political life of the people that helped the Americans to detach themselves completely from Europe.

- Conclusion

From the analysis of the concept of “the American Dream” in James Truslow Adams’ *The Epic of America* (1931), we understand that Adams’ aim through the book is not limited to giving a definition to the concept, and the worthiness of the book is not limited to the fact that it is the first to use the term “American Dream”. His aim is extended to the preservation of the ideals of the American people by his own generation and the coming ones. Even though the term is repeated several times in his book, he kept its definition until the last pages. He has first reminded the American people about the different phases of their history and the hopes and dream of people in each period. He also reminded them that the Liberal ideology is the foundation of their dreams, and explained how the dream of each individual or generation, economic, political, social or religious has some liberalism in its heart. Following the history of the Liberal ideology in the U.S.A., he came to the point that it was until the nineteenth century, when the Industrial Revolution reached the country that the American people came to distinguish themselves clearly from the European tradition. The reason is that the American governments knew how to adapt the liberal ideology to its economy. The American political system, then, allowed most of the people to reach material success thanks to the opportunities of investment opened for every individual of every social position; regardless of his circumstances of birth or origins. This is the American Dream that Adams defends and that the European nations cannot understand, according to him.

J.T. Adams’ *The Epic of America* works as Althusser’s Ideological State Apparatuses, as it aims to create an American identity based on the Liberal ideology, which finds its well functioning in the Capitalist society. To reach his aim, he invokes the concept of the American Dream, which represents the American identity, and stresses the point that the concept

cannot be linked to a certain period of history. After that he gives his definition of the concept, which is based on the ideology of Liberalism. This goes with Althusser's view that ideology has no history, and identities are formed by ideologies, which are controlled by the state through its apparatuses. In addition to this, Adams, in *The Epic of America*, builds his arguments on the basic documents of the American government, as the American constitution and the Declaration of Independence, on the basis of which the state apparatuses function.

References

- Adams, James Truslow (1931). *The Epic of America*. Boston: Little Brown and Company. 1932.
- Althusser, Louis. (1971). Ideology and ideological state apparatuses. In L. Althusser (Ed.), *Lenin and philosophy and other essays*. New York: Monthly Review Press.
- Cullen, Jim. *The American Dream: A Short History of an Idea that Shaped a Nation*. Oxford: Oxford University Press. 2003.
- Evans Tess, in <http://muse.jhu.edu/article/513418>, viewed on 03 may 2018 at 4:30 pm.
- <https://www.routledge.com>, viewed on 03 may 2018 at 4:30 pm.
- Geisst, Charles R. *Visionary Capitalism: Financial Markets and the American Dream in the Twentieth Century*. New York: Praeger. 1990.
- Parrington JR., Vernon Louis. *American Dreams: A Study of American Utopias*. Providence: Brown University Press. 1947.
- Ruland, Richard and Bradbury, Malcolm. *From Puritanism to Postmodernism*. New York: Penguin. 1991.